

محمد الشوادي



الرجل الذي تأمرت عليه

الرجل الذي تأمرت عليه

قبل الثورة .. كنت - مثل كل مواطن - اخطو الى الثورة ..
فلما اخطوها .. احسنت تلقاها ..
ثم عدت .. فتشككت فيها ..
ثم عدت .. فاعتوت منها ..
ثم عدت .. فرددت عنها ..
ثم ولّقت في الردء .. فكفرت بها ..
ثم ولّقت في الكفر .. حتى تأمرت على صانعها ..
ثم بدأت اصحو

الوالف

[الطبعة الأولى]

مترجم الطبع والنشر



الاختصار

- إلى كل من ضل .. صادق الضلالة ..
وهو يحسب أنه يحسن .. إلى الحق أو إلى الخير ..
- إلى كل من ضل .. صادق الضلالة ..
ثم عرف الطريق .. ولم يجد من يبشّر له الطريق ..
- إلى كل الذين ودوا لو أقسموا على « إظهار إيمانهم »
ولكنهم يترددون ..

إليهم جميعاً أهدى كتابي ؟

محمد السراوي

تمهيد

يا اخي العربي الصاعد

يا مشدود القلب والضمير .. إلى الحلم الكبير .. الذي يتحول في عزة وشموخ
إلى حقائق تدبر الرؤوس . ويا مشدود الساعد والتفكير .. إلى المجمع الجديد ..
الذي تراه اليوم رأى الين وهو يقوم .. تقبل يا اخي منى هذا الكتاب

وأعتقد يا أخى أنه كتاب « مشير » ؟

« مشير » بالصدق « الرهيب » الذى توشيه فيه ..

« ومشير » .. بالمتوان الغريب الذى وقع اختياره على .. من قبل أن يقع
اختيارى عليه .

وينبغ على الظن يا أخى .. أن سرّاً من أسرار هذا الكون لا أحديه هو الذى
يدفنى إلى إخراج هذا الكتاب .. وعلى هذا النحو .. وفى هذا الوقت .. و « الثورة
الصعبة » ترفل فى « ثوبها الجديد » .. الذى اختاره لها « أبوها » .. هدية منه ليد
« ميلادها المأسر » .

وامنى به « الميثاق »

و « الميثاق » لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى من « الرجل الذى

«مرت عليه» وإنما كان ذروة هذا التحول.

لم يكن أبداً «بداية» الطريق .. وإنما جاء «نهاية» الطريق .

بل أنجيل أحياناً أن «الليثاق» كان اليد القوية التي أمسكت يدي .. وظلت تنشط .. وتنشط .. في حزم للرب .. وفي حنان الوالد .. فلما جشوت على ركبتك في عراب الحق .. وملأ الخراب نور .. صاح صاحب اليد القوية في : «أسجد واقترب» .

و «الليثاق» — إذن — كان له الأثر الأخير في تحديد مكاني عند مفارق الطريق .. الطرق التي ظلت أضرب فيها على غير هدى عشر سنوات كاملة نستقيم في حيناً .. وتلتوي على أحياناً .. أعتدى مرة على أضواء من الفكر البير .. أو من السمل للشر .. فأكاد أؤمن .. وأضل مراراً على نعيم الخصوم وهم يثيرون الشكوك .. وينشرون الأكاذيب .. فأكاد أكفر .

والكتاب — إذن — هو حصيلة التقدم والتخلف .. وحصيلة الدراسة والترصد .. وحصيلة الخسومة التي بلغت يوماً حد التأمر .

وأنا اليوم .. أحيى قوى بهذا الكتاب .. لأقول لم فيه «بعض الحق» الذي يجب أن يقال .. ومدى على أن الإنسانية لا تعرف في تاريخها الطويل طريقاً أشد إبتلاءً بالشوك .. من «طريق الحق» .

جئت أحدثكم عن «الراحل» التي مربها هذا «التحول» .. بما فيها «الأمارة الكبرى» التي شاركت فيها .. و«يتق» الذي قيل إنه أحد للتأمرين على «ناصر» وتسلبيهم .. وأسموه في التحقيق والمحاكمة «البيت الكبير» فدخل البيت للسكين تاريخ للتأمرين من باب لا أريد أن أسميه ..

جئت أحدث الجماهير الكلاسة .. والطلائع الفتاة .. في أرجاء الوطن العربي

كله .. بعض ما اخترته من حقائق .. وبعض ما اخترته من تجارب .. وبكل ما خرجت به من تفكير .

ولقد قيل الكثير عن « القدر » .. وعن « الرجل » الذي كان على أكثر من موعد معه وأنا مؤمن بكل ما قيل ..

ويكتفى أن أدلل على دقة الحساب في كل موعد أعطاه « القدر » .. لهذا « الرجل » بواقعة واحدة .. ذات ثلاث شعب : « الأولى » تقاس بمقياس « السنة » و « الثانية » تقاس بمقياس « الشهر » و « الثالثة » تقاس بمقياس « الأحداث » .

قرأت مرة .. في كتاب من الكتب .. أن جمال عبد الناصر .. كان طالباً على « مدرسة النهضة الثانوية » سنة ١٩٣٥ وأن فريق التمثيل بها .. أراد أن يخرج تمثيلية « يوليوس قيصر » .. وأن المشرفين على الفريق من الأساتذة .. لم يحدوا من بين التلاميذ .. من يصلح لأداء دور القيصر يوليوس .. غير التلميذ جمال .. وأن وزير المعارف يومئذ — نجيب الهلالي — شهد الحفل وهذا الطالب .

والواقعة في ذاتها عادية ..

ولكني أجمع بينها وبين أرقام تعرفونها وأعرفها لأسأل :

(١) هل كان « القدر » ينط في النوم .. عندما أذن لجمال في أن « يركب » في سنة ١٩١٨ .. ثم أذن له في أن « يمثل » دور « الحاكم » في سنة ١٩٣٥ وأمام « الممثلين » .. ثم أذن له — أي لجمال — في أن يتنزع زمام الحكم « الحقيقي » من يد « الممثل » نفسه في سنة ١٩٥٢ وبين كل تلويح وأخيه سبعة عشر عاماً جل الصعيد ؟

(٢) وإذا نحينا عن الحديث لغة الستين .. ونحدثنا بلغة الشهور ...
فإني أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » ينط في النوم .. عندما أذن لجال في أن « يومه »
في شهر يناير .. وفي أن « يمثل » دور « القدير » في شهر يناير .. وفي أنه
« تمرق القاهرة » في شهر يناير .. وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً على التمهيد ؟
وكلنا نعرف أن « حريق القاهرة » .. كان إزداناً « باندلاع الثورة » في « يوليو »
من نفس « العام » .

(٣) وإذا نحينا عن الحديث لغة الستين والشهور .. ونحدثنا بلغة الأحداث
فإني أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » ينط في النوم .. عندما أذن لجال في أن « يومه » في
سنة ١٩١٨ .. وعندما أذن لسمد زفول وصاحبه أن يتجهوا إلى دار السيد البريطاني
سهر ونجت في نفس العام ١٩١٨ ليطلبوه باسم الشعب باستقلال مصر الذي لم يتم
إلا على يد الفريد سنة ١٩٥٢ ؟ ثم هل كان « القدر » ينط في النوم عندما أذن
لجال أن يتزعم طلاب المدارس الثانوية في ثورة سنة ١٩٣٥ ليرغموا الزعماء على
التشكل في جبهة وطنية تواجه المحتل وللك فوزاد بمحضر .. ثم أذن له في أن يتزعم
الطلّاع الثورية في سنة ١٩٥٢ ليجهز على لالك للتحل ابن لالك الذي كان بمحضر ..
وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً أيضاً ؟

أفكان هذا كله من قبيل الصدف ؟ أم كان لقدر يد فيه ؟

في حدود الشطرنج بل في حدود « صدف أيضاً » — و« صدف قوائنها » —
لا يسمى إلا أن أقرر أن « جال » كان على موعد مع « القدر » وعلى السيد البطولي

في كل حركة قام بها .. وفي كل ضربة سددها .. وفي كل معركة خاضها .. وفي كل
انتصار أحرزه .. وأخيراً في كل الفوارق التي شرع يذيقها .. وفي كل المتناقضات التي
بدأ يزيلها .. ليقيم على أحاض المثلثي المثلث .. دولة قولها الفلاح والساكن .. ولجهد
للاطلاقة التجربة الجديدة والتجربة المثيرة .. من هذه المساعدة ومن هذه العلية
— داخل إطار « العهد الوثني » — إلى الرقة القسيمة والأمل المريض .. من
الخليج إلى المحيط .

ومن كلتي « العهد الوثني » انقطع أول انليط .. وألف به على يدي حتى لا يفلت
حتى .. قبل أن أتمن « التمهد » فترة مستأينة إلى ثرة في هذا « الميثاق » .

ثغرة بل هوّة ؟

نعم .. أحب أن أصارحك بأن في « الميثاق » ثغرة كبيرة .. وأخشى أن أقول
« هوّة سحيقة » لم يشأ « صاحب الميثاق » أن يقيم فوقها « سراجاً » فدار من حولها
حريرة بارعة .. ومضى إلى ما هو — في تقديره — أولى بالرعاية .

وأنا أباهر حرية الكلمة التي كفلها « الميثاق » .. فأعلن — في هامشها أتي
لأأمر « صاحب الميثاق » على « حركة الانتفاخ » التي قام بها من حول
هذه « الهوة » الخطيرة .. وتركها مفتوحة أو مكشوفة .

وأخيراً « الهوة » .. حاية « الميثاق » بإسناد « صاحب الميثاق » عن « الميثاق » ..
بل بإسناد كل « قل » لوائح الميثاق عن كل « سطر » في الميثاق ... وبرد كل
« فضل » إلى « الكسب » .. وجريد صاحب الميثاق من أي « فضل » .

هذه « الهوة » قد تلاقى رسمياً عاطفياً أو اضالياً بعض الوقت ومن بعض الناس
ولكنها تجددت مع الزمن « غرافاً موضوعياً » بهذه البناء من الأسس .

وأدخل ما يكون في معنى « الصدق الرحيم » الذى أتوخاه في هذا الكتاب أنه
أنه على خطورة هذا « الفراغ » .. ولا أتعلق فضيلة التواضع أو تكرار الحيات .. لأنها
توجب « الرؤية » عن هذه « الهوة » .

وواضح أن « صاحب الميثاق » يخشى إذا هو أطل برأيه على « الشب » من
خلال سطور الميثاق .. أن يتصرف الشب من « القاعة » إلى « القبة »
ومن « اللهب » والعقيدة والبناء » إلى « الرجل » الذى نشر المنع ..
وبشر بالقيضة .. وتولى البناء .

وقد يكون الرجل في « تواضع » .. منطقياً مع « واقعه » !

وقد يكون في هذا « السلوك » تناسياً بـ « صاحب الشريعة » عند ما نهى
السلمين عن أن يسودوه .. خشية أن يرتدوا إلى « الوثنية » ويسلبوه .

ولكن القياس هنا لا يحل له مطلقاً ..

محمد بن عبد الله .. كان رسول الله .. لأن الله خلقه ليكون خير خلق الله ..
وليخرجهم من الظلمات إلى النور .. لا ينطق من الهوى .. ولا يملك أن « يغير »
في « التصوص » أو « يعيد » . ولا يملك أن « يسطر » في « التفسير »
أو في « التطبيق » .. لأنه « من المرسلين على صراط مستقيم » .

أما « صاحب الميثاق » فمؤمن بالله ورسول الله :

ومواصلوه مؤمنون .. والحمد لله .

وهو « مواطن عربى » يحمل « رسالة عربية » يهدف فيها إلى
« وحدة العرب » .

و « صاحب الميثاق » درس التاريخ ووعاه .. وكان « أستاذ تاريخ » في « أمه »
فوقه القدر ليكون « صانع تاريخ » في « غده » .. فقلش معنا بكل قدراته في

« الرسل » وحائى منا بكل طاقاته « ظلة الليل » .. واستكشف لنا بكل مواهبه « خصائص العروبة » .. وناقض بشخصه مع « الجيوش الرمية السبعة » .. تلك الحرب « للبيئة » .. فى فلسطين « الشهيدة » .. بكل ما انطوت عليه من غمر للمستمر .. ونيابة الحاكم .

« وانغل » بهذه « التجارب » .. فلأت رحاب نفسه « عقيدة » .
 « ولاح » أمام نظريه « المجهدة » .. فكان « مذهب » .
 « وأمن فى تحديد » « المذهب » .. فاستقلت له « الفلسفة » .
 و « خلقت » للمستقبل بكل آماله .. وتجاربه .. وأسلامه فكان « ميشاق »

هو - إذن - صاحب الفكرة وفلسوفها .. وعهد أبداعها وواضع إطارها
 وهو - إذن - راسم « النصم » .. ومرسئ الأساس .. والمهندس والبناء ..
 فهل كان يمكن أن يتم ما تم من البناء .. على يد غسيرة من المواطنين ؟
 هذا هو السؤال ..

صحيح أن واضع الميثاق .. إنما استوحاه .. من شعبنا و « تاريخ نضاله » .
 ولكن أكثر حكمة .. أن الشعب كان موجوداً دائماً .. ولم يحدث على طريق
 تاريخه الطويل .. أن ضن بأى تأييد أو تجاوب .. على أى زعم تصدى خلفاً لقيادته
 فلماذا لم يتم على أيديهم - وفيهم الأكفاء ومنهم الباقرة - ما تم على يد هذا
 « الشاب » الناجح من صميم « القرية » ؟

وبن - إذن - أمام « ظاهرة » تتأهل للثقت والدراسة .. أوفى القليل
 أمام « سر » لا ندريه « ربط » بينه وبين « المجتمع الذى بينه » .

ونحن — إذن — أمام « ارتباط » لا انضمام له بين « القاعدة والقيمة » .

و « خطيئة » لا تسد خطيئة .. ألا نترك هذه « الحقيقة » مهما يحاول صاحب الميثاق أن « ينسحب » من « الميثاق » .. خشية انصراف الشعب عن « العقيدة والمذهب » إلى « عبادة البطل » .

خطيئة لا تسد خطيئة .. لأن « العقيدة » — هنا — إنما قامت أصلاً على « المرجح » بين « البطل والشعب » .

و « نحاول » هذا « المزج » لا بد أن يجرّد العقيدة من أحد معصريها .. كما يجرّد « الكهرياء » من « السالب » فيها أو « الوجوب » فلا يبقى « كهرياء » .. أو كما تفصل بين « معصرى الماء » .. فلا يبقى ماء .

وقد يسأل سائل عن « معبر العقيدة » بعد « هذا الجبل » ؟

والجواب تولاه الميثاق ..

« الميثاق » بينى « دولة » ولا بينى « بطلا » ..

والبطل واسع الميثاق سيدوب في الميثاق كما ارتفع البناء — وكما تغوب العوارق بين الطبقات — حتى إذا اكتسل « للبنى » وشمع « قة » .. واستقر « قاعدة » .. وعرف « ساكنوه » أنهم « مالكوه » .. انتفى كل خوف على المصير .. ولم يعد البطل مكان فيه .. إلا تمثال يقوم على مدخله الكبير .. يذكر الأجيال المهندس البناء .. وإلاكرة من البهور فوق اللبى الشلسخ .. تدور دائماً مع دورات التاريخ .. لترسل أنوارها كشافة وهادية .. وإشعاعها وضاء وحلماً .. فوق الرقعة النسيجة للوحدة .. من التخليج إلى المحيط .

وهيكل ؟

هذا هو رأيي ..

ولكن هناك مفكراً شاباً — أجد — له رأي يخالف فيه عن هذا الرأي أو هكذا

يلوح .. والفكر الشاب هو الزميل محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » .
وهيكل « حقة » .. وليس يمكن في تحصيلها « فك رقبة » .

أما لماذا ؟ فلأنه لم بكل آراء الرئيس .. وكل « حصيلتي » ما يقدمه لنا الرئيس
« مقروءاً » أو « مسموحاً » .

ويصافى الصعوبة في تحصيل هذا الرأي .. حتى إعلان الفكر الشاب .. بناصر
والناصرية .. إيماناً ينص به كل حرف يرسله .

وقد يكون من الأمانة لتاريخه الذى يبعده .. أن أقول — وأنا أقدم منه في
سرفة الكتابة أو في مر القلم — أن فصول هذا الكاتب الشاب كانت تسيرني في
مراحل تحول .. وكانت تلقى الأضواء على طريقاً مرحلة بعد مرحلة .. وكانت من
أقوى ألوان « العرض » التى شهدت على « شاشة الصحف » .. ولقى ملائتي —
إلى جانب دراسي التى شجىء — اقتناعاً بسلامة الناصرية « مذهباً وفلسفة .. وعقيدة »
و« دقة في حسابها » تصبياً وتحطيطاً » .

وهيكل يذهب في تحديد « مكان البطل » من « الميثاق » في « انجلاء مضاد »
أو هكذا يلوح .. وهو يرى أن الأساس الذى قام عليه الميثاق كله « أن جمال .. أحسن
تقدير مكانه بصديق وأصا — لم ينس نفسه لحظة ولم يغفل عن حقيقة دوره طرفه عين ..
إن التاريخ الحقيق في تاريخ أمته لا يصنع الثورة .. ولكن الثورة هى التى تصنعه .. ويتزايد
أوضح فلن جمال عبد الناصر لم يخلق الثورة الشعبية في مصر .. وإنما الثورة الشعبية
في مصر .. هى التى خلقت جمال عبد الناصر » .

وهيكل لا يخبر على رأيه .. إذا اعتبرناه « ناطقاً غير رسمي » بلسان الرئاسة ..
ووجه المراجعة في تأييده نحسب صاحب الميثاق من الميثاق ... استعماله العبارات
التي لا يختلف عليها قارئان .

ولم يقل أحد من الناس إن جمال عبد الناصر قال « الناس : « ثوروا » فثاروا ..
ولكن السؤال الذى عرضناه لا يزال قائماً ..

وأوربان أميد في صياغة جديدة :

— لماذا « فجر » الشعب « طاقة الثورة » على طول ذلك الطريق الملتقى بالتصال .. وعلى أيدي أولئك « الزعماء المناضلين » ... و « فجر » على يد « جمال » وحده « طاقة الثورة » ومنها « طاقة التنوير الثوري » ؟ .

بل لعل الظروف كانت أكثر مواتاة لبعض الثائرين القدامى .. منها لعيد الناصر .. وقد اعترف عبد الناصر نفسه في مشروع الليثاق بأن الزحف الثوري بدأ من غير تشكيل سياسي يواجه مشاكل الحركة . في حين أن « هيئة الوفد المصري » التي ركبت قفة للرجة الشعبية الثالثة في سنة ١٩١٩ كانت تشكل تنظيمًا سياسيًا من أبرز رجالات مصر الثوريين بالحكم . . يحف من حولهم شعب كامل هاجر .. من الشلال إلى البحر .. أهزل إلا من الطاقة الثورية للتفجيرة ..

أما « الطلائع الثورية » التي نزل « جمال الشعب » يمدحها في إيمان وكيان .. من قبل ساعة للصفر بسدين .. فقد خرج بها من تكتمها في الظلام .. والناس نيام — وللك يمس لياليه بطريقته النضلة والحلال والرائع يلهون في المصيف .. وتولى « جمال الشعب » — من وراء حجاب — قيادة هذه الطلائع تحت اسم « مستمار » لقائد « شيخ » كان قد أعده لحل اللقطة .. عندما رشحه الضباط الأحرار .. لرياسة « نادي الضباط » في مواجهة « مرشح القصر » قبل الثورة زمن قصير .

و رغم هذه الفوارق .. بين الثورة الناصرية وكل الثورات التي سبقتها .. فشلت كل الثورات ونجست ثورة الشاب .

فلماذا ؟

الجواب من شأن « الشعب » لا من شأن « التمديد » .

بقيت شبهة الخلاف بيني وبين لشكر الشاب في الرأي .

وأعتقد أن الخلاف في الصياغة والشكل لا أكثر .

لقد قل وهو يغتم مقال إن حديثاً جرى بينه وبين الوزير الكبير محمود فوزى
من « ضرورة البطل في حياة أمته » وحاجتها « إلى رجل غير عادى يرى بالحساب
النفق كل الاحتمالات في المصالحات الحاسمة من التاريخ .. ثم يصفى قراره .. لا هل
أساس من الحساب النفق وحده .. وإنما من شيء آخر معه .. من شيء غامض
مثير .. من صلة غير عادية .. تربطه بضير أمته .. وتنقل إليه من هذا السبيل قدرة على
تحدى المستحيل .. وعلى تحمل مسئوليات .. ليست لها حدود .. وفى مواجهة أهوال
ليس لها آخر » .

وعلى قلت من دور البطل شيئاً .. غير ذلك السر المبدع الذى التقى رأيه فيه
برأى الوزير ؟

الضيق .. إذن ..

وليفض « جمال » نفسه حيث شاء .. وفى المكان الذى يراه من مشروع الميثاق
وفى المكان الصحيح الذى يراه هيكلاً فيه « ابناً لأمة » و « تليفاً لتاريخها » .
وليفض نحن الشعب .. ابناً الكبير .. فى المكان الذى نراه .. ولنا الرأى الأول
والأخير .. بحكم اللياقة .

فى قلب المعركة

وبعد :

فيحسن أن يذكر الشعب ولا يسى لنا نبش ونحن فى قلب المعركة ..
وكل من حولنا فى العالم من حاكين — باستثناء القليلين — يقض مضاجعهم
وجود هذا « الرجل » فى هذه « الفترة » التاريخية .. وعلى قمة الموجة المارمة التى
ترتفع فى نهات وهول — وكما ترجف الراجفة — وتهدد بكل « القوى المنظمة
الكامنة فيها » واسب القرون .

كل الأعداء .. يعملون — متكئين ومتفرقين — ضد عبد التناصر .
ولقد بلغ من « خوف » المستعربين — ولا أتول « خوفهم » — أن

خلوا أن عبد الناصر سيمر البحر يوماً إلى أوروبا لينزوها .. ويحلها دولة بعد دولة .. ولا يكتفى بقيادة القوات العربية عبر غرب آسيا وشمال أفريقيا كما قل عنهم المصري المندى الكبير « كمال حجازي » في حديث له مع جلال عبد الناصر في سبتمبر سنة ١٩٥٨ بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

و يمسك ؟

فأنا . كنز من أفراد هذا الشعب .. أدعوه إلى أن يعيش في هذه الاحتفالات التاريخية الحاسمة .. مشدود الساعد إلى البناء .. ومفتوح العين على الحركة .

أنا هذا الفرد . أحب في رغف التمهيد أن أسأل :

— أيدخل في احترام النفس .. أن أتف مكتوف اليدين .. والبناء يبدأ والحركة تدور .. لا شيء . إلا لأنى معنود من الذين حكم يوماً عليهم .. بتهمة التأخر عليه ؟

وإذا كنت قد احترمت ضى يوم ماء تقديري الناصرية فاعتزلتها غشاً عشاراً عشر سنوات .. هي بين المشرات من عرى أحلاها وأغلاها .. لأنها الشر التي تقضى من شباب الرجولة في حلقها الحاسمة (التي يعيشها اليوم صاحب الميثاق) .. إلى صميم الكهولة في سلفها السادسة (التي يعيشها اليوم صاحب هذا الكتاب) ..

إذا كان هذا هكذا .. اليس ادخل في احترام النفس وقد أمنت به « الرجل الذي تأمرت عليه » .. ان اشهر إيماني به .. في هذا الوقت المصعب .. وابط الجاش غير متردد ؟

* * *

من هذه الحقيقة الكبيرة .. أبدأ .

من هنا .. أنفض أول انطيط من الكتف .. كما انضطت من هنا أول انطيط من « ليشي » .. وأسيك ..

« محمد السوادى »

الفصل الأول

موقفى من الثورة

نعم ..

من هذه « الحقيقة » - الكبيرة فى ميزانى - انقضت أول نهيط من كتابى ..
من « نفسى » .. ومدى احتراسمى لها .. يوم ساء « تقديرى » للناصرية فاحترلتها
مختاراً عشر سنوات كاملة .. ويوم عرفت طريقى إلى الحق والتغير فيها فمضتكم شجاعاً .
أشهر إيمانى بناصر .

هذا « الإيمان » - إذن - ودواعيه - بعد « التأمر » ومراحله - هو لب
هذا الكتاب .

* * *

وأنا أرف - وأظنكم تعرفون - أن سياء هذا البلد - وسياء كل بلد عربى -
ما تزال تظل فريقاً من خيرة بنيه .. يودون لو أقدموا على إعلان « إيمانهم » بالناصرية
ولكنهم يترددون .

وأسباب التردد عند أحدهم قد لا تكون هى نفسها أسباب التردد عند الآخرين ..
ولئن كنت أعتقد أن « الكبرياء التقليدية » فى طليعة الأسباب التى تنظم للتفردين
من المواطنين .

ويطوب لى أن أعلن - فى مستهل الفصل الأول - أن من بواشئ نظائرى ..
أن أكون أول من يحطم هذه الكبرياء .. أنتهى بها ذلك النموذج العريق الرائع لهذه
الثورة العربية البانية .. ولهذا « الاستمرار المأسر لتضال الإنسان الحر عبر التاريخ من
أجل سياء أفضل » .

كما يطيب لي أن أعلن أن من يواثق ارتياحي .. أن أشق بهذا الإقدام من جانبي .. طريقاً إلى ذلك الباب الموحد . أمام كل من كان مثلي متردداً .. ويود لو أقدم فأخذه إذا هو « لان » .. وأعطه إذا هو « استمعي » .

* * *

وسأراني بالطبع مضطراً إلى الحديث - في بعض الأحيان - عن حادثة تخصني أو عن أمر يحصل لي .. فلا يتسرب إلى ظلك أني أهتبل فرصة التفتاك إلى الحديث عن « صاحب الثورة » لأتسلل إلى الحديث عن « واضح الكتاب » .

مثل هذه « الانتهازية » لا تجمل لي .. ولا تجول بخاطري .

ولن أتحدث عن نفسي .. إلا الحديث الذي يتصل بأهداف الكتاب ومجتمعه موضوعه .. وإلا « مكروه أشك لا بطل » .. لأن « البطل » أنت تعرفه .. والفصول كلها معقودة عليه .

ولكني « طرف » في القضية .. ولا يستطيع سير القضية .. أن ينفذ يده من أحد طرفيها .. فأنا الذي كفرت بالرجل وتأمرت عليه .. وأنا الذي حدثت وآمنت به .

وبين الكفر والإيمان .. مراحل ..

بل إن قبل الكفر والإيمان .. لمراحل أيضاً ..

قبل الثورة كنت - مثل كل مواطن - أضو إلى الثورة .. فلما أطلوها أحسدت نالقيها ..

ثم حدث فتشككت فيها ..

ثم حدث فدفوت منها ..

ثم حدث فردوت عنها ..

ثم أوغلت في الردة .. فكفرت بها .

ثم ولت في الكفر .. حتى تأمرت على صانعها ..

نم بدأت أصور رويداً .. رويداً .. على ميل .. وعلى مراحل .. أصور على
صيحات الأحداث — قبل السجن — وصوت الحقائق ، ثم في سكون السجن على
دراسة القيادة والقائد ، ثم بعد السجن على خيخ للزائرات وأصدقاء للمبارك .. ثم في
خاتمة اللطاف على جليقة « الميثاق » .

أى أنى بدأت أصور .. وأتحول .. حتى جاء « الميثاق » وكان كما قلت ذروة
هذا التحول .

هذه المراحل كلها .. لها أحاديث لا بد أن تجري ..

وكل حديث منها .. ذو شجون لا بد أن تثار ..

وأنا أولاً وأخيراً .. لا أعدد أن أكون شاهد إثبات .. على سلامة الأهداف ،
ولأهداف لسكتاني .. إلا أن يحمل لأبناء القروية — في مصر وفى كل بلد عربي —
صورة صادقة .. رسمتها ريشة متأمر .. للرجل الذى تأمرت عليه .

وتاريخي إذن من ناحية التأمر — والكفر والإيمان بالقائد الثائر — موصول
الأسباب زعامة هذا الشباب .. شئت أو لم أشأ .

ومن هنا يحى الحديث عن النفس ضربة لازب ..

ضرورة الثورة

وعلى سبيل المثال — وعلى هامش الثورة — يقول « الميثاق » في مسهل
بابه الثانى :

« لقد أثبتت التجربة وحى ما زالت تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد
الذى يستطيع التنضيل العربى أن يسير عليه من اللئلى إلى المستقبل » .

وهذه حقيقة ...

ولكن .. أليس من سقى كوامن أن أنهم عبارة كهذه .. لأثبت لك أنى

كنت أؤمن — ومن مطلع الشيب — بهذه الحقيقة على الرغم من كل « الأخطاء » التي ترمى « علينا » فيها .. وأن أقدم لك الأسايد على ذلك الإيمان .. لتصدقني عندما أقول لك أني فرحت لاندلاع الثورة .. ورجعت بها ترحيباً حاراً يوم إعلانها وهل يقال لي وأنا أقدم أسايدى على سلامة هذه المرحلة .. أني أتحدث عن نفسي ؟!

جماعة المثقفين

وانحى النفس .. وانصف الآخرين .. قبل أن تشلنى مراحل كبرى وإيماني .
تحدث عن جماعات من المثقفين الملع إليهم « الليثاق » في « الباب الرابع » وهو يتناول « الفترة الحافلة بالنقدية ما بين استكاسة سنة ١٩١٩ إلى حين تسبب الثورة الشمية للخطر الذي يهددها .. ومن ثم بدأ التآهب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢ » فيقول :

« لقد استطاع هذا الانحراف أن يجذب إلى الجو الحزبي الفاسد جماعات من المثقفين كان في قدرتهم أن يكونوا حراساً على أمانى الثورة الحقيقية لكن الإغراء كان أقوى من مقاومتهم » .

وهذه أيضاً حقيقة ..

ولكن .. أليس من حقى كواكل أن أنهز عبارة كهذه .. لأعرب عن احتياذى أن « بعض » هذه الجماعات .. إذا كانت قد انجذبت إلى هذا الجو .. فلها لم تنب فيه قط ؟

ومن حقى — فيا أعتقد — أن أزم أن « جماعات » من « أبناء الشعب » ممن أتيح لهم أن يحصلوا على قسط من العلم والمعرفة — وأخص منهم من احترفوا الصحافة أو اتصلوا بالفكر — غلوا برغم الانجذاب إلى « الجو الحزبي الفاسد » يحفظون بالطاقة الثورية كلمة بين جنوبيهم .. وبالتفرد على الأوضاع كما كانت في قلوبهم .. وكانت « هونهم » تفصح « أحقادهم » فيصطبغ منها الشرر على أسنة الأقلام في بعض الممارك .. وكان أهون العقاب أن ترهب بهم السجون .

وقد سقط منهم عبر الطريق الطويل .. وعبر الكفاح المرير .. من سقط .
شلب ثائر .. ثائر .. ذهبوا ولم يعودوا .

ويكفى أن أذكر اسم الثائر الشاب — الدكتور مصطفى الوكيل — ليندو اسمه
على الشفاء تسايح .. أو ليندو دمه إكليل عار عوج به قبر كل جندي مجهول .

بل لقد عرفت أخيراً — ومن وراء التصبان — أن فريقاً من « الصباط
الأحرار » قاموا ببعض التفاتات القدائية للثيرة على بعض أماكن المحتلين في القاهرة ..
وعلى من اعتقد الأحرار أنهم أحرار الاحتلال من المصريين . . وصرح القذافيون
— بد أن أصبحوا حاكين — على طي هذه الصفحات الضئيلة حتى يتولى التاريخ
نشرها ..

ولأن « القدر » كان قد تواجد معي في تلك الفترة الطامعة من تاريخ كفاحنا ..
عانتاح لي أن أكون على صلة بأولئك الضالين — في سنة ١٩٤٦ مثلاً وما قبلها
وما بعدها — لاستطعت أن أقرأ في أسر أربعة حروف من نور .. كانت تغني
الطريق أمام الزميل .

ولكني لم أكن على صلة بأحد .. فلم يصافح أذن .. من اسم القائد الشاب
حرف واحد .

ولا أسكر أن بعض الأسماء كانت تتراعى إلينا .. مقرونة بالحوادث التي شاركوا
فيها .. كانوا السادات .. أو كسين ذو الفقار في حادثة عزز المصري .. أو عبد العزيز
على الزوي .. الذي احتير ورياً على مطالب الثورة .

وكل ما ذهب إليه تفكيري في ذلك الحين .. من تحليل تلك التفاتات ..
هو « النزوة الفردية » عند بعض الشباب ..

ولم يزل يخاطري قط .. أن وراء ذلك النشاط .. شاباً .. كابي « القدر » يمد
لما هو أخطر .. وأكبر ..

وموقفي ؟

ولست أزم أي كنت في ذلك الحين مدفوعاً في جماعات للتقنين ..
 ولا أنا أزم أي كنت يوماً من القنطينيين الذين قاموا بمجانبتهم ..
 وإما أزم أي كنت أقرأ وأكتب .. وأتبع لي أن أحرف الصحافة ..
 وأزم أن الثورة كانت تنسل في صدى غم أحد متفكراً لها .. إلا الزينة
 احتفظت لها بكل طاقاتي .. ولكن الأوضاع .. كانت تحول بصرها ووحشية دون
 تضجير هذه الطاقات ..
 ولا أراي إذن ضلت شيئاً يذكر .. رغم أطوائ على الروح الثوري .
 وإذا كنت أهتم الإعلام إلى بعض المسائل على طريق .. فلما لا أثبت حقيقة
 أعتر بها .. حقيقة « الروح الثوري » الذي لم يتخل يوماً هي .. حتى خلال « الجوى
 الحزنى » الذي اجتذبنا إليه .. والذي أنوى أن أتحدث بصراحة عنه .. ولكن
 في مذكراتي من رج القرن الذي أمضيه في الصحافة .. إذا قدر لهذه الذكريات
 أن تظهر ..

رأس مالى .. قلم

ولذا كنت لم أزم أي كنت مدفوعاً في « جماعات للتقنين » أو « القنطينيين »
 فإن من حتى أن أزم أي كنت من أبناء الفلاحين — الطبقة الشعبية السكادحة —
 وهو شرف يتسابق إليه — بعد « الميثاق » — جميع المواطنين ١١٢
 كنت دميلاً على القاهرة .. والحياة فيها .
 كنت واثقاً من صعيد مصر .. أو على التحديد من قرية صغيرة .. على ضفة
 النيل اليمنى تجاه مدينة « لتيا » بسورها « سواده » .

ولم يكن جدى أميراً .. ولا كان أبى باشا .

وإنما كانت الزراعة حرفة أبى وأجدادى ..

وكان أعمامى وأخوالى .. وكل آلى .. من صمم الفلاحين .

وكان أبى يملك شيئاً « من القنادين » .. ويستأجر « أشياء » منها .. مكنت
 له — هى وشىء من الكرملة .. وشىء من الاستقامة — من قلوب الأهلين ..
 فكان فيهم صاحب المدايرة .. والأخ للمطاع .. لا من رأس مال ولا من إقطاع ..
 كما مكنت له هذه القنادين من تملى غنى .. إلى مدرسة السيدية فى الجيزة
 سنة ١٩٢٣ .

ورأيت سداً لأول مرة وهو عائد من اللقى .. رأى الدين .

وبدأت أصدر المجلات .. ولم أكن أهلاً لإصدارها .. وإنما هفت نفسى إلى
 أن أقول لناس ما يحول مختارى .. فأجهزت على ما كان قد تبقئ صدق أبى من
 القنادين .. فى تلك السيل .

هكذا كنت فى مطلع شبابه .

وعلى هذه المطالع خرجت من عالم المجلات إلى الصحف اليومية .. وكل
 ما أملكه من حطام الدنيا .. قلم بين الأصابع .. ظل المرير يجرى لاحقاً فوق الورق ..
 حتى كفتته بد التوردة الناصرية عن الجربان فكف .

وعلى الطريق .. معالم ؟

وعلى حشيش التلاسة المملوطة لندى من صميم الريف والقربة .. أتحدى « أولاد
 القنوت » بفقرى وإسراوى .. وأظلم فى حرق دلم (وكانت السيدية
 مدرسة أولاد القنوت فى ذلك الحين) يحلولى — والسائق يشح — أن أعب
 ماضى من مطلع الشهب فى سطور .. وأختار لكم من معالم متواضعة عبر هذا الطريق

الطويل تشير على استحياء إلى ذلك الروح الثورى الذى لم يتصل قط عنى .

وعنه للمالم قد تبدوا اليوم صغيرة نافذة - والكناخ يجرى على الصعيد المولى -
ولكنها لم تكن - يوم كانت - تافهة ولا صغيرة .

والمالم لى أشير اليها .. لا تطفو صفًا أو محلات أصدرتها .. وكلها مغلقة في
إدارة المطبوعات ودار الكتب .. شأن كل ما يصدر من المجلات والصحف ..
وأقصر الاختيار على المجلات الأسبوعية .. وأجيب الوضع تاريخاً طويلاً .. يتصل
بسل في الصحف اليومية .. لاسلام الصلة بينه وبين الثورة والروح الثورى .

والآن نسال : ما هي المالم ؟

١ - تعلم منها .. مجلة « الطلائع المصور » نزلت فيها وأنا ابن العشرين على
سعد زغلول زعيم الزعماء .. لأنه نزل عن قيادة الثورة ورعاية الأمة إلى رئاسة الحكومة ..
فانطفتت الشعلة المقدسة في أيدي الشعب التي انطلقت في الصفوف نتيجة المطامع ..
فسارع الاحتلال إلى إسعاد المشكل المستورى على الخصومات بين الأشقاء .. فقلعت
الأحزاب وقام البرلمان .. وكان ما كان .

٢ - والمالم الثانى .. مجلة « الحياة الجديدة » .. وقد انجذبت بها - هي بين
هاى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ - وأنا الوعدى الحنون بالوفدية إلى « يسارية » أشد جنوباً ..
واستخدمت في تحريرها صديقاً كان في مقام الوالد سنًا .. والأستاذ معرفة .. وكان
يتزعم الشيوعيين في ذلك الحين .. فحكم عليه في وراثة سعد بالسجن ثلاث سنوات
لدعوته عمال المصانع إلى الثورة .. فنضمت للمسدوان على سرية رأى فيه ..
واستغنت به في تحرير المجلة لثأر من المعتدين .. فحاربتى الحكومة حرباً « مادية »
وخيمة .. فصبدت لها فأوقعت الممار بالبقية الباقية من عروة أبى المتواصمة وكان على
رأس المدعوين محمود فهمى القيسى مدير الأمن العام .. وكامل الرحاى مدير المباحث

الجمالية . . وكان وكيل النيابة الذي حقق معنا يومئذ . . هو الأستاذ ركي . . دأمال
الله نحياته .

٣ - والمعلم الثالث . مجلة « نور الشرق » . وكانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت
وكانت من « القلة » الناصبة عليها . . وكان من « القلة » أبصاً . . صديق
محمد عبد الحفيظ الذي رأس تحرير « كوكب الشرق » الوفدية يوم كنت سكرتير تحرير
لها . . فجمعت بين قلوبنا . . وكان يملك امتياز هذه المجلة « نور الشرق » . . وكنت
قد كنت في مس الشبر لشاعر القطرين خليل مطران بوصفه مديراً للفرقة القومية . .
مصرية « الماكهة المحرمة » فوضت نفسها وقلبي تحت تصرف صديق محمد عبد الحفيظ
- طوب الله نراه - وأصدرنا « نور الشرق » عارض بها المعاهدة - وعشر ونحن
وفديان - ولأول مرة في تاريخنا الحديث - قوائم المحاييب والأمنار والأصهار . .
ومحضر محاضرين من الاندفاع أمام هذا التيار . . ومنيتنا بالناشر وأطست المجلة . .
ولكنها قدمت الحقيقة من بابها الخلقى حدمة لا تنسى . . إذ بدأت جريدة « البلاغ »
تنقل عنايات القوائم محرومها . . ومن غير أن تشير إليها . . إضافة لجلال عليها . .
وكان الناس يتفقون « البلاغ » في لغة . . بعد أن اشتقت على الوفد وقادته النشقين
من أعضائه (وهم من أسماهم الأستاذ الناس للسمعة وهي إشارة إلى قصر قامة أحدهم
للمرحوم علي الشمسي) . . وأعجب الظن أن « البلاغ » لم تكن تدرى . . أن الذي
كان يدنا بملات « المخلوطين » . . هو عجيب الملالى « باشا » . . ومن عجب أن
هذا « الخبير الماوي » « الكبير » . . وثب يده إلى الوفدية . . ومن وراً للمعارف . .
خلفا استقام له العود واستوى على السوق . . وثب إلى رياضة الورادة وخاض ضد الوفد
أعنف المبارك . . حتى أتى سلاحه واستسلم على يد القائد جمال عبد الناصر في ٢٣ يوليو
سنة ١٩٥٢ .

٤ - والمعلم الرابع - مجلة السوادى . . عندما ولى النحاس الحكم في سنة ١٩٥٠

وأردت أن أستقبله بحية صادقة وحرى .. فكان «الثائيت» الذى لا ينسى :
(التمس مدحى إلى الثورة ..) وانقضت أعلن أن لا خلاص لمصر .. إلا بإعلان ثورة
تقاتل ثورة سعد .. وليس لمصر قائد مرحو .. إلا «حليفة سعد» .. ولم أثنأ أن أسجن
قبل أن أشارك فى الثورة التى ناديت بها .. فلم يثنى فى آخر سطور القتال للشوب أن
أقرر أن «الثورة» التى أدعو إليها .. هى ضد المحل .. (وفى ظل صاحب الجلالة للملك
للزيد لشبهه) :

وهكذا حدث يومئذ مكافى من «الرأى» .. ولم يحدد أحد من الحاكهين
مكانه ..

• — والملم الخامس : بحجة السوادى أيضاً .. أرى إلقاء المائدة فى أكتوبر
سنة ١٩٥١ .. وفى هذه الفترة .. تفجرت الطاقة الثورية فى الشعب كله .. وخضت
للحركة بقلأ ألقى عليها — مع اللقين — وقوداً إر وقود .. لتظل البيران تتأجج
وتزداد اشتعالاً .. كلما حاول الرجسبون أن يطفئوها .

ولا أنكر أن شكرًا سالورنى يومئذ فى كثيرين من المشتركين فيها .. ولكنى
لم أنتبه عليها لأن الثورة كانت أقوى من الشكوك .. فضينا لا نرى على شىء .. حتى
تدبنا فى الماوية :

وعلى سبيل المثال كنت أولد فى كل مساء إلى وزارة الداخلية صديقاً لى اسمه
(حكم على فتوح) — هو الآن مدرس — يشهد مندوباً عن (السوادى) — المؤتمر
الصحنى الذى كان يقعه الوزير .. ليهى إلى الصحفيين آخر أخبار الحركة التى تدور
فى القنال .. وكان الصديق يسود فى كل ليله ليهس فى أذنى «مارال المكروت» يواظب
على حضور المؤتمر كأنه صحنى أو تاجر .. وكان يبنى بـ (المكروت) .. أحمد عبود —
قة رأس للال فى ذلك العهد — وكنت أعرف أن عبود صديق شخصى لورير ..
ولكنى فى غرة المصادف كنت أسمى — وليتى ذكرت — أن عبود صديق لبريطانيا
صدوق .. وزوجه «لدى» إنجليزية ..

ومرة أخرى أقول : كانت الثورة أقوى من شكوكي فضيحا لا تلوى على شيء حتى على عبود .. وحتى تردينا في الحريق ..

مع فوجشتا بحريق القاهرة .. وإخلاء الثورة .. وإقالة الوزارة .

وسيق الشعب على يد « على ماهر والمراني » إلى القصور من بداية الليل وكما يساق القطيع إلى الحظيرة .. وباسم الحكم العرفي وحظر التجول .

وهكذا جمعت « الرجبية » — ممثلة في القصر ورجاله .. وآخرين لم يعد أحد من وجودهم المتنام حتى اليوم^(١) .. كما يجمع الاستعمار من وراثتها مستغنياً وراء « جمعية إخوان الحرية » في أن يصفقوا على وجه الثورة التي تولي الشعب نفسه دور القيادة فيها فدبروا « الحريق » ليطفئوها .. ولم يدر بخلد أحد — وعين محدد في أسنة الديوان وهي تزغرد في جناح « القاهرة » .. حادثة في سمائها « غرايب سود » من عهد الدخان ..

محبج من الأعمى مائتة الأقدار .. لم يدر بمهلنا .. وعين في السادس والعشرين من يناير .. أن صوتاً من عالم المجهول سيدوي في آذان الدنيا بعد ستة شهور — وفي السادس والعشرين من يوليو .. ليقول لذلك المخلوع : « تفضل بالخروج » وليقول للشعب المزعول : « تفضل بالمخول » .

والسؤال الذي يميني أن أضحه الساعة في داخل إطاره هو :

— هل كان مقولاً .. وقد أخذ الرجبيون ثورة خضناها في بسالة وإيمان ..

(١) تاريخي أذكر أن جلال عبد الناصر ومع جنائمه من القتل من سب الرجوة فقال في خطاب ألقاه في « مجلة التحرير » يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ « فإن الشيوعيين الذين يتلون اليوم بالكلمات السليمة التي أشهروا فرقة حملت للوالتجيد الأحرار إلى القتال وأحرقوا القاهرة لست القوي » وأعتقد أن الرئيس إنما أشار إلى الشيوعيين باعتبارهم « وجهاً » من الوجوه ... وليسوا « كل الرجوة » .

وسهرنا عليها الليال كاتسهر الأمهات على الولدان .. هل كان حقولا وقد نادينا
بالتنورة فخيائنا وشبابنا ورجالا .. ألا نحسن استقبال الطلائع النائرة وقد أيقظنا أول
بيان مها على مطلع الثالث والشرين من يوليو .. ليقول لنا : جئنا مسلحكم زملم
أموركم فتسلوه ؟

أرأى في غنى من الإجابة .

مرحلة شك وتردد

كنت فرحاً .. إذن — كما كان كل مصري فرحاً ..

ولكن شعوراً خفياً وقوياً .. شعوراً بالشك يورث التردد .. لم يلبث أن
انصرف إلى تلك القرحة .. فخطأنا ..

نعم .. نسل الشك في جبهة التنورة عند ما رأيتي أسأل نفسي :

— لم يسبق بطل ماهر .. ليحكم ؟ ولماذا سمحوا له وقد أطفأ ثورة الشعب أن
يركب موجة التنورة القاسرية ؟ ثم هل يجهل التنور أن الرجل كان في طليعة الحوارج
هل الوفد والمنشقين على الأمة في سنة ١٩١٩ غاشته الاستعلاء القرصة وضربهم وحدة
الصف فقامت الأحرار وكان السعدى والمثلث .. ثم كان الوفدى والمحر المستورى ؟
وهل يجهل التنور أن على ماهر خرج على زملائه الأحرار المستوريين أنفسهم .. وأقلم
للسك فزاد .. « حزب الاتحاد » ؟ وهل .. وهل .. إلى آخر تاريخ الرجل !

وأردت أن أحسن الظن بالتنور فذلت أقول لنفسي : لهم أشد دكا. وأبعد
نظراً .. ولهم أرادوا أن يستنفوه ويستنفوا حدة المطامع فيه — وهو رجل القصر
وبطل البراديب — في التخلص من مولا .. يدافع من هذه الأطماع .

ولكننا تخلفنا من « لؤلؤ » !!

ورحل عما « صاحب الجلالة » .. ورحلت مع « ركاها المال !! » حكمته

« السامية ! » .. فلماذا لم يتصلبوا من « رجل اللك » .. وكان يكفيه في الموقف
للرعب .. أن يقال له كلمة شكر .. ويرحل .

وكان هناك ما هو أعجب ..

كان على رأس الثنورة رجل غريب جداً .. طيب وأنيب .. يحف من حوله
شبان ملء عيوسهم ثورة .. وثار .. يحيطونه نهالة من الحب والإكبار .. تنير
الشكوك .. ويدقون لزعامته الطبول دقاً غير مسبوق .. وينشرون عن أعجابه الأقاصيص
تار الأقاصيص ..

ولم يكن لأحدنا اعتراض على هذا كله برغم غرابته ..

بل لعلنا شددنا إليه في غيرة الأحداث فأحييناه حيناً ..

ولكن الظاهرة التي لفتتني .. أن الزعم « الثير » .. كان سطحي للتفكير ..

ولم يكن يملك من أدوات التفجير الثوري — وهو محمول على الأكثاف —
إلا أن يصيح في الناس مكلمات ثلاث .. كانت الثنورة قد احتارنها شطراً لها :
« الاتحاد .. النظام .. العمل » فإذا شق الركب طريقه .. ولحق أية شططاه تحمل
في يدها ورقة ييماء .. أوقف الرجل الركب وترجل .. ومشى إليها فأخذ يدها
وقبلها .. ووضع في اليد حنيهاً خسة .. ووقف لأخذ صورة له منها .. ثم أسر
فواصل الركب سيره ..

وساءلت نفسي خجولاً :

— أيمكن أن تنجح ثورة .. هذا مستوى قائلها ؟

واقفت بالصمت .

وكان هناك ما هو أدهى إلى الرؤية ..

كان هناك .. على أرض القتال .. جيش بريطاني مدرب .. يساهز
ثمانين ألفاً ..

وأعلنت الثورة .. ووصل ذلك .. وهذه القوة الخفية لم تحرك ساكناً ..
وكان الأمر لا ينجبها .. فهل كانت تنوى أن تتحرك وأن تصرب ؟ أم أن المختارين
راضون عن هذا التفسير ؟ وإن كانوا راضين .. فإذا بنى رضا المختل الناصب ..
من ثورة .. يقودها طيب أشيب ؟

وأخيراً .. كان هناك عرش وأحزاب ..

كان الملك الطفل في رعاية أبيه المخلوع لا يزال يحكم مصر من قلب روما ..
ويتولى إدارة الدولة في قلب « القاهرة » و « باسمه الكريم ١١٩ » مجلس وصاية في
هابدين .. من بين أعضائه أحد أفراد الأسرة « السكرية » ..

فما الذي كان يسميه هذا الوضع الغريب ؟

والسفير الأمريكي — كافر — كان قد قام بدور الوسيط في تأمين الملك على
حياته وفي أيلولة العرش لابنه .. وقد أمن الملك على الحياة .. ونودي بإبنته حلاًفاً له ..

فما الذي كان يسميه هذا الوضع الغريب ؟

وكانت الأحزاب قد أخذت تتسابق إلى مقر القيادة .. فيتلقاهما اتقاء بالقبلات ..

فما معنى هذه القبلات ؟

وتبدى الأمر على مستوى .. أقل بكثير من مستوى الثورة التي عشنا عمل بها
وفرحنا يوم قتلها ..

ولم أجد بداً .. من أن أكتب جريدتي عن الصدور .. حتى تبين الطريق ..

وكان يمكن أن يجرى الأمر على غير ما جرى عليه .. لو أني نحت على الكبرياء التقليدية الزائفة واتصلت كمثل الصحفيين بمركز القيادة .. وطلبت إيضاحاً لما نعى على .

ولكنه « القدر » أيضاً .

كان يجبه بي إلى موقف المتفرج لحكمة عنده .. لم أتبينها إلا بعد سنين وسنين وإلا حد أن غيبتني في التيهاب .. وتلف أسوار السجون .

وكل الذي بذلته من نشاط في ذلك الحين — وأذكره لتاريخ القنطرة — وكان قد قيل إن المحادثات قائمة على قدم وساق بين رعاة الوفد وقيادة الثورة .. كل الذي بذلته من نشاط في ذلك الحين .. امتداد يدي إلى « سماعة الطليعون » لأطلب تحديد موعد مع صديق لي من زعماء الوفد .

ولقيته .. وتحدثنا !

وكل ما يستبني من ذلك الحديث انخلاص — وسيت الجانب الأكبر منه — أن الوفدى الكبير حدثني عن شاب واحد أتبعه واسمه جمال عبد الناصر — ولم أكن قد سمعت هذا الاسم — وأنه مصر على تحديد الملكية .. « لكن .. حابيلين .. همه فيهم أولاد معقولين .. وأنا أعرف كثير منهم من زمان » .

وكل ما خرجت به من هذه المقابلة .. صورة للتفكير الحزبي تمت لي مع الأيام أنها كانت صورة مقفولة .. ولو ضللت الأحزاب لأهداف الثورة واتجاهات الثوار .. لما جرى عليها ما جرى ..

وحق هذه الساعة لا أجد تليلاً لهذا التصور في الإدراك .. من رجال خيرتهم وأعرف شدة الإكراه في الكثير منهم .. إلا أن « القدر » أراد لجمال أن يقود .. وأن ينجح في القيادة .. فأخطأ خصومه تقدير الموقف ليصيب القدر .. فكان مثل الأحزاب مثل الطيب الذي قال فيه ابن الرومي :

والناس يلحون الطيب وإنما . غلط الطيب إشابة الأعداء

والتفارق أن الطبيب أحطاً تشخيص المرض لأن القدر يريد أن يصح حداً لحياة المريض .. وأن الأحزاب أخطأت « تشخيص » القائد .. لأن القدر كتب الحياة لهذا القائد .. وكتب البعث على يديه للمذنبين في الأرض .

ثم .. كان السياسيون المحترقون يؤمنون .. بأن العسكريين لا بد عائدون إلى الثكنات .. لأن « فن الحكم » ليس « لباً » .

ومرت عشر سنين .. والشبان ما يزالون « يلعبون » .

تلك هي الفترة التي أزعجت نفسي خلالها بالشكوك والوساوس .. فرأيت أن ألتمز مكنتي .. وأظل أسمع وأرى .. حتى ينفذ السلسر .. أو حتى تبين الحقائق .

وفي رأي أن هذه الصورة الصادقة .. تشكل « المرحلة الأولى » في موقف من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

الفصل الثاني

فارع أسمر .. غلامض ومثير ؟

وجاءت المرحلة الثانية من مراحل المهنة .. عبر السنين العشر .

جاءت تحمل معها خبريات وشيدة وفسقة .. لا يسدها إلى انطصوم * طيب
أشيب * .. وإنما يسدها نثار شاب .. يصدر فيما يفعل عن سرقه * غامض ومثير * .

ونشرت جريدة « الأخبار » أسماء . قالت إلى أصحابها هم أعضاء * مجلس
قيادة الثورة * .. وراجت بين الجماهير حملة لمفس .. تتداولها الشفاء والأذان .. من
« قائد شاب » يخفى وراء « الطيب الأشيب » اسمه « جمال عبد الناصر » .

وكان اسمه قد ذكر في مقدمة أعضاء مجلس القيادة ..

وذكرت ما كان الوفدي الكبير قد قاله عن الشاب الذي أتبه .. واسمه « جمال » .

وزارني سمس « أبناء السوادي » — وكان من بينهم من وثبوا إلى « مراكر
قهادية » في جريدة « المصري » لحدثوني عن ذلك الشاب .. وقالوا إن وشائج ود
أكيد تربط بينه وبين الجريدة .. وأنه يتردد عليها كثيراً .. ويرويه ويتحدثون إليه ..
وأنه فارع السود . عريص للنكبين .. نافذ النظرة .. عميق الفكرة . نفوح وجهه
سمرة .. يشترى وقل أن يبيع .. ويصني وقل أن يتحدث .. وإذا استمع إليك ..
أولئك أديه وصرف منك ناظره .. بحيث لا تستطيع أن تتطالع أي خاطر في عينيه ..
وهو أوحز صورة له .. يلقه الموض .

وتوات الأيلم ..

وكان « على ماهر » قد تخيل أنه جمع بين يديه .. خيوط الموقف .. وظن هو

وأناصره « أنهم قادرون عليها » .. ونشط في الاتصال بالأعداء والأصدقاء ..
وبالأحزاب والأحزاب .. وشغل الكثيرين أن الأمر استتب له ..

ولم أكن أحسن الظن بالرجل .. فنادى كل هذا الذي كان يقال .

كنت أكره في الرجل .. التواء دونه .. وظلام سرديبه .. وكان تاريخه
السياسي تاريخاً بوليسياً .. يلقى الرية على كل تحركاته وانجذاراته .

ولم يدر بجدي لحظة أن الشاب التامض .. الذي يخفى وراء « الطيب الأثيب »
يستطيع أن يرى ويدرك .. خطوط « الأساليب التفتية » أو خطوط « التسلية
المساهرة » .

ولم تنش مخاوف طويلة ..

وجاءت .. سقط صاحب القصة .. من القصة ..

وفي السابح من سجن .. أقبل على ماهر — أو طلب إليه أن يسأل —

سأ أن عقد مجلس وراثته جلسة امتدت إلى ساعة متأخرة من الليل .

وقرأت عن هذه « الساعة المتأخرة من الليل » .. وقلت لصحفي :
« طلع النهار » .

وعرف الناس — وعرفت مثلهم — أن مجلس المبادرة كان قد طلب إليه وضع
قانون للإصلاح الزراعي يحدد الملكية عمائتي فدان .. فراغ من المطلب — كما راغ زعماء
الأحزاب — ثم بدأ يحاول إقناعهم بأن تحديد الملكية يفتح أبواب الشر الموصدة ..
ويشير القننة الناعمة .. ويهز الاقتصاد هزة قد تكون قاضية .. وأنه جس نبض الإنجليز
والأمريكان وكل الدول ذات الشأن .. فأكدوا له أن صدور مثل هذا القانون ..
في بلد « يمسى وشرقى مسلم » يبنى خطوة حمراء إلى اليسار .. لا يمكن السكوت
عليها .. وأن الزعماء والأحزاب .. والمهتات والبيوتات .. لا بد أن يحكموا ضد
الثورة .. وأن كثيرين من الضباط في الجيش والبوليس أبناء هؤلاء ..

وقال على ماهر — ما قاله الزعماء قبله — إن هناك طريقة «الضرائب التصاعدية»
تحقق للتوار كل أهدافهم من غير أن يبرصوا مقدرات البلاد لسكل هذه الأخطار ..
وكان «المنطق التقليدي» ينرى بهذا الحل ..

ولكن مجلس القيادة رفض الحل ..

وبالعقبة الرأسمالية كان «على ماهر» .. يريد أن ينرى التوار بللال يتدفق
على الخزينة في صورة ضرائب .. فيقتنع التوار بمنطق رأس المال ..

ومجلس القيادة لم يكن يطلب قانون الإصلاح الزراعي مالا .. وإنما كان
يستهدف تحرير الفلاح من سيطرة الإقطاع .. وكان هذه الخطوة — وبأغوات
لها كان يضمرها — يرى إلى تنويع الفولوق بين الطبقات .. وبناء مجتمع جديد
يقوم على مفاهيم جديدة .

وصدر القانون ..

وكان له دوى هائل جاوز كل حد تصوره ..

هو القانون مشاعر الجماهير للتوبة على أمرها .. لا في مصر وحدها .. ولا عبر
سيناء فقط .. وإنما في الشرق العربي كله ..

وكما اهتزت مشاعر الجماهير العربية إيجابياً .. اهتزت مشاعر المستعمرين سلباً ..

وتوالى الضربات في حكمة وحزم وسرعة .. لم تسح لقوة من دول العرب أن
تخدم على تصرف هفيف .. ولم تسح لمينة من الهيئات الرجعية أن تستجيب قواها
وتضرب .. وإنما بوغخوا بالضربات فأسقط في أيديهم ..

وليس ينبغي أسر هذه الضربات للأحزاب أو لتبذ الأحزاب وأما أحرض
للمرحلة الثانية من موقف إزالة الثورة .. وإنما ينبغي في هذه المرحلة (قانون الإصلاح

الزراعي) وحده .. لأنه وحده الذي قضى على الكثير من شوكي .. وخطا بي من جديد إلى رسلب القنوار .. سقى كدلت أنسى شوكي الأخرى بشأن جيش الاحتلال ، والسفير الأمريكي ، والعقل الذي يحكم مصر من قلب روما ، ومجلس الرماية الذي يجلس فوق قمة الهرم باسمه «الكريم» .

فما سر اختفاء هذا القانون ؟

ما سر اختفاء الإصلاح الزراعي ولم يعد لي — بعد أن معى والذي إلى بارته — أى اتصال بالحق أو بالقرية .. وقد قضيت ، كما قلت لك ، على ما كان قد تبقى لي من الأرض فلم يعد لي من وراء هذا القانون منى .

السر أن لي تاريخاً في قانون الإصلاح من قبل أن يصدر قانون الإصلاح .

والسر أن بي هوى إلى هذا القانون يعود إلى ما قبل عشر سنين .

أما كيف كان لي تاريخ مع .. أو كان لي هوى إليه .. يرجع بي وبه إلى سنوات خلت والإجابة — في اعتقادي — يعرفها الكثيرون من (المحضرين) ويعرفها الكثيرون من الشيوخ والنواب السابقين .. ويعرفها كل من تلقى مناقشات البرلمان المصري قبل قيام الثورة .

يعرف أولئك جميعاً أصالة الود الذي كان قائماً بيني وبين صديقي المرحوم محمد خطاب عصر الشيوخ السعدى (سما) . والحبيب إلى جميع الناس على اختلاف ألوانهم الحربية (صلا) والشكر تير العالم لمجلس النواب قبل أن يحال إلى اللامس ويدين عضواً في مجلس الشيوخ .

وكان (خطاب) بعد تعيينه في الشيوخ بهيب خشية للنير .. لأن المنير خاصمي من أول يوم تم اللقاء فيه بين الإثنين .. فقد كان — طيب الله ثراه — سريع الإلقاء لا يكاد يرس .. تودم الخواطر في رأسه .. وتتقاتل المباراة على شفتها فيضج الشيوخ وتشتد المقاتلة .. فيلرح المنير في فشل منير .. منير لأعصاب

رجل «خطاب» وفي رسالته ووفى لثقافته .. يفهم كل مايقوله ويعتبه .. وثلاثة أرباع الشيوخ من الإقطاعيين .. لا يفهمون حتى ما يقال لهم ..

وبدأنا كصديقين .. ندرس الثغرات والأخطاء .. أنا كناقد .. وهو كطبيب

وكانت هناك تجربة مثيرة .. وتعامل هذه التجربة تعاملًا .. حدثت مع قطب سياسي كبير في أول عهدته بالحيات البرلمانية .. واستطاع القطب - بفضل ذكائه - أن يسأل عن الثغرات والأخطاء .. وأصبح رلانياً ذا ناب .

وعلى ضوء التجربة مع القطب .. بدأ «خطاب» بأخذ طريقه إلى المنبر من جديد.

وكنت أعمل ناقداً رلانياً لخريدة «الخلاص» .. فبدأت أخصص جزءاً كبيراً من نقدي .. لتشجيع صديقي .. ولتسليط الأضواء عليه .. وكنت أطول إليه الساعات وكما يحلو المخرج إلى المنزل .. حتى أصرر (خطاب) بفضل ذكائه المتقد وبفضل إصراره .. تجلساً مقطوع النظر .. في حل الشيوخ على الإصغاء إليه .. والتصديق له .. وبدأ يلعب . وكانت هوابة (خطاب) .. إصلاح المجتمع .

كان تقديمياً .. ولم يكن ثورياً .

وكان بطبيعة تكوينه لا يكف عن المرح ولو كان في مأثم .. فصوله طيبة الضاحكة على خوض المارك في غير مرارة ..

وانتهت مناقشتنا إلى أن هذا المجتمع الآسن .. الذي تنوّه الحفقات والرواسب .. وسيطر عليه الإقطاع الشح .. ويسوى في المساواة بين الفلاح والماشية .. لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالقضاء على الإقطاع .. ولا سبيل إلى هذا القضاء إلا بتحديد الملكية .

كان (خطاب) يؤمن بهذه الحقيقة .. كما يؤمن بالله .. أنطابُ المارفين بالله . وكان يرى أن الحد الأقصى لا ينبغي أن يزيد على خمسين فدناً .. ورأيت له أن الثلاثة تبدو أكثر انزائاً .. وأحزن على تخفيف حدة الخصومة بينه وبين الإقطاعيين .. وبجمال رأيي وأخذ به

وأذكر ولا أسهر كيف دُخ «خطيب» بالمشروع للبعد قدم به .. كل الخيالات .
وكل الأحزاب ..

وكان هو بطلا من أبطال الإعلام إذا ما تصدى لنشراية دعوة .. أوروڤج
لأية فكرة ..

كان يندى فيها ويبد .. ككاجد وككاهزل .. في البيت وفي الشارع .. في
المقهى وفي النادي .. في الكارينوفو للسجد .. في كل حفل يدعى إليه .. وهى
كل زائر يتردد عليه ..

وقد ركز هذه المواهب كلها .. في الدعاية لمشروعه ..

ولم يكن الجور — بكل ما هو مشجع به من عناصر لللكية والإقطاع ورأس المال
والرجعية والاستعمار — يسمح لثل هذا المشروع بالتفنن فيه .

ولأن أحداً من (التفلاء) تقدم به .. فوجهت إليه تهمة الشهوعية .. ولأسقط
الشيوخ صبرته .. ولا بدخل في حيز التصحيل أن تفكر الدولة في إسقاط الجنسية
المصرية عنه .. ووضعه على ظهر طائرة تجوب به البحار من غير جنسية .

وكان (خطيب) حكيماً .. فترك مشروعه يمشى على يديه زحفاً .. فلم يخف
في البداية أسفاً .. حتى إذا بلغ من العمر حاكاً .. بدأنا نلح بالصيغة من حوله . .
حتى إذا بلغ عاشرين .. بدأ الكتل يهشون له .. وكان (خطيب) يضمن التودد إلى
طائفة منهم .

وكان الفضل كله .. له .

وكان دورى لا يصدى .. حل الراية .

كنت الكاتب الذى «هوس» قراءه بالمشروع .. وأوردتهم (مصرعاً) ..
وأصلام (مداغاً) .

كنت أحب «للمشروع» بكل قطرة في القلم .

وكنّت أحب « صاحب المشروع » بكل خفّة في القلب .

وكان حسبنا أن عبأنا — في حدود الطاقة — قوى الرأى العلم ..

وأثرناها على الإقطاعيين والحكام ..

وكانت العمدة لا تكاد تبدأ .. وللشروع لا يكاد يتحرك .. حتى يخف
رئيس الوزراء أو وزير العدل أو وزير المالية إلى حيث يجلس (خطاب) ويلأطقه ..
ثم ينسرب إلى محاولة إقناعه بتأجيل النظر في المشروع .. أو بإعادته إلى اللجنة ..
عجبة أن الورادة تفكر في تمهيد .. على أن يمدل قليلا في الأمانس الذى يقوم عليه ..
وحق تهادناة القصر .. وحق لا يسوء الإنجابير نفسه .

وكان الصديق طيب القلب في كثير من الأحيان .

وكانت الكلمة الطيبة تؤثرفيه .. وكان يوافق على التأجيل .. ويقول على
خسه .. جوا .. لم يكن من السهل تمويضه .

وهكذا أصبح المشروع — على كل هذه التعبت والرائيل — يقص مضاجعهم
ويفقدون في الإفلات منه .. وإرجائه الشهر بعد الشهر .. حتى يقتل الصيف .. ويسافر
الوزراء إلى « بولسكى » .. ويمتلئ القبرلمان أبواب قاعاته .. تماما كما يفعل مجرم مطلق
الفسراح .. يدرك أن التهمة آخذة بتلايينه .. فيسبل كل مه — هو ومحاميه — أن
يخلق سببا حديدا لتأجيل جديد .. حتى يحل موسم الأجارات فيقذف بالقضية إلى دائرة
جديدة على هلال المام الجديد .. وتتعدد طلبات التأجيل



ولم تكن من السذاجة إلى الحد الذى صدقنا منه أن القصر والسفارة والإقطاع
والحاكين .. يمكن أن يقرؤا مشروع القانون ..

وكان كل هذا أن قنع القول والسيون .. على « الحقيقة » .

وكانت « الحقيقة » التي نبينا .. أن لا يسجل إلى « تحرير العبيد » إلا سجل
القضاء على الإقطاع .. إذا أردنا أن نخافى الثورة .. ولهماء .. ولعلماء ..

ولم يحل بخاطرنا — وأعترف — أن المشروع يمكن أن يصدق بالتشريع ..
وفي وقت قريب .

واللهل أن (خطاب) وافق على رأى واضح — غلب على الساحة — اقترح عليه
أن يستبدل على المشروع بمثل خلفه رحيماً بوفاء الملك .. تطبيقاً للأحكام من
للكسكين .. وسحقاً لاحتساب كل قوى الرجعية عليه .

والآن أسأل نفسي :

— لماذا أذكر تاريخ ذلك المشروع وأخذ عليه فصلاً من فصول الكتاب ...
والمشروع مشروع « خطاب » .. ولم أكن إلا داعية من دعاة ؟

والجواب :

— أذكر ذلك التاريخ كله .. فتدرك مدى انتهائى .. عند ما أطلع مجلس الشورى
بطل ملحق لأنه رفض وضع هذا القانون .. وعند ما ثبت لي أن حكومة النوار الجديدة
لم تكن « حكومة بكباشية وصلافة » كما كانت نسيها أيراق الرجعية في صف
لبنان .. وإنما كانت حكومة أحرار .. يستدون الضربة وهم يدركون أبعادها ...
ومدى أثرها في بناء مجتمع جديد وقم جديدة ومفاهيم جديدة .

وهكذا خطا في قانون الإصلاح الزراعي إلى رجال النوار بعد أن شككت فيهم .
ولو أني كنت يومئذ على صلة بهم لاندفعت إلى قلب الحركة معهم ، ولجريت
في الصف تحت رايتهم .

ولكن حال دون الإقدام ، نفي لازمي في كل أطوار حياتي ، وهو حدة الشعور بالبالغ فيه — حدة « الشعور بالخطر أو « الخبول » — بما سببه « الكرامة » وهو ليس من الكرامة في شيء — بحيث لا أتقي حاكاً إلا إذا دعاني إلى قتاله ، وقد تدعش — وقد عشت خسة وتسعين في المائة من حمري السيلسي « وغديا » — إذا قلت لك صادقاً أنني لم أزر « رئيس الوفد » مرة في بيته ولم أكن أعرف سكرتيره — وزميل في المؤامرة أحمد السقا — إلا بعد أن خرجنا من السجن الحربي والتقيت به ، وتعارفنا ، وقد يتضاهى المدعى إذا علمت أنني لم أدخل طوال ربع قرن في الصحافة دار صحفية من الصحف إلا إن دعيت للعمل بها .

ولم أدخل دار (الأهرام) — كبرى الصحف — طوال ربع القرن إلا مرة واحدة ، شكرت فيها لفتلاً (بلشاً) وأطون الجبل (بلشاً) والأساتذة مصطفى أمين وكامل الشناوي ومحمد أحمد الحناوي وبنية الزملاء الذين عزوني بالبرق في وفاة شقيقة لي ، كريم تميزاتهم .

حالت تلك السكبرياء — وليلة الرواسب الريفية أو الرجبية — دون اتصال بالتوار ، فلم يشأ القدر أن يلتقي بالركب ، ولو أنني لحقت بهم لا كشفت من بداية الثورة حقيقة قائدهم ، ولما اتوى الخط بعد ذلك في يدي فضلت الطريق إليهم ، ضلة جلست يوماً حد لتأمر على هذا القائد .

لكنها حكمة الله ..

ودعني عنهم بعد أن دونت منهم ، لتلائي بعد ذلك شكوكاً جديدة فيهم ، وفقدوني حل « المروء » ، فأضرب فيها على خير هدى ، كما مضى — مع الحزن والأسى — في الفصل الكثير التالية .

لما هذا الموقف الذي فرغت من رسمه ، فهو يشكل في ميزاني ، للرحلة الثانية في حوقلي بن « الرجل الذي تكلمت عليه » .

الفصل الثالث

مرحلة ... اختلال الموازين

وجاء دور المرحلة الثالثة من مراحل المهنة عبر السنين الشر .

وقد احتلت جميع الموازين في يدى .. في تلك المرحلة ..

ولا أدري إن كانت للموازن قد اختلّت أيضاً في أيدي المالكين .. أم أن
اختلالها في يدى هو القى صورها الخلقى .. محقة في أيديهم .

خطا في تحديد الملكية .. خطوة جبارة وجذرية .. إلى رحاب التوار ..

ولم يكن بموزنى غير نسمة من نسبات « القدر » تهب على .. طيبة وشاء .. في
صورة صديق قريب منهم .. بعينه أمرى .. بقم جسراً بينى وبينهم .. لعلين إلى
قلوبهم . ولألقى بكل ثقل إلى جانبهم .. ولأخوض قلب الحركة معهم ..

ولكن النسمة لم تهب .. والأقدار لم تشأ .

وأحسنت — كما لم أحس من قبل — أن من واسبى أن انمرك داخل إطارى ..
وأن أشد أزر التوار على قدر جهدى .. وصح عزى على أن أعيد الحياة إلى جريدتى ..
وأن أسهم بها في تدعيم موقفهم من غير أى اتصال بهم .

وترابت الفسكرة .. وشيدة .

تولّاح للوقوف .. نبلاً .

ولكن .. كيف .. وأنا لا أملك مالا ؟

وذكرت شيئاً .. وكنا يومئذ في سنة ١٩٥٢ .

ذكرت أن ودًا كان قد قلم — عن طريق التراسل — بيني وبين « كبير سعودى »
كان قد أحرب لى — فضلا منه — من إجابة بى .. ودعانى أكثر من مرة إلى حجج
البيت .. وكنت فى كل مرة أشكر وأعذر ..

وفى هذا الوقت — وثقت مشوقاً للحجج فلا — خطر لى أن أفلها .. وأن
أرى إن كان فى وسعه أن يمد لى حريدى بدأ .. هل أن أسارحه أن القرض عرضة
لضياع أو الإرجاء .. إذا لم تنجح الجريدة .. ويزد إذا هى نجحت
وعدت فترددت ..

ترددت .. لأن القسط كان قد بدأ يدور فى تلك الأيام بين أروقة الصحافة ..
حول ذهب السعودى والصلات للريبة بينهم وبين الصحفيين !!

وهى شبهة .. لا بد أن تعلق بأطراف رطلنى .. وليس من الحين هل أى إنسان
سوى .. أن يدع التشبهات تعلق بأطرافه .. إلا أن تكون « صربة لأرب » كما يقول
رجال الأدب .. أو « لأسباب خارجة عن إرادته » كما يقول رجال القانون .

وأقنعت مدى بوجود « الضريبة » .. وقيام « الأسباب » .

وركت الطائفة ..

وعاونت هل اهتمامى .. مظاهر الإخاء التى كانت قد بدأت تبين .. هل
الصلات بين الرسميين من المصريين والسعوديين .. فكثير طيارى أسود السادات
و (المحرم) صلاح سالم وغيرها .. إلى جده والرياض .. ولا كت الألفة أنت
المولتين تدبران فى خط واحد .. يحبه بهما إلى تحالف أو شئ أقوى من التحالف .

وأعلن يومئذ أن « الطبيب الأشيب » — حامل اللوحة — شد الرحال إلى
الحجاز لأداء فريضة الحج .

وأديت فريضة الحج ..

ولم أروح أما كن الشحاتر .. إلا إله جده في طريقه إلى العودة ..

وأدى الجبال — حامل اللقطة — الفريضة — أيضاً .. وظل في جسد من
المسحوقين إلى «مصيف الطائف» حيث كان الملك عبد العزيز .. في طريقه إلى النهاية ..

وكان الأمير سعود (للك الحالى) ولي العهد يتوب عن والده في شهود الحج ..

والنفت في مكة لأول مرة بالكبير السورى «الصديق بالمراسة» ..

وغلبني حيانى .. فلم أستطع أن أعاتبه في أمر الجريدة .. وعدت إلى «القاهرة»
كما خرجت منها .. وكل ما ربحته من أمور الدنيا أن سألني السكرتير الخاص لولي
العهد .. إن كان في نيتي أن أصف رحلتي إلى بيت الله .. لأن القراء المحبين لريشقي
(وزم أنه منهم) يودون لو قرأوا وصفاً لمثل هذه الرحلة بهذه الرتبة .. وأن الفرصة
مواتية لها لو أنها تؤدي تحت مظلة الجولة الروحية في رحاب البيت الحرام .. واجباً عربياً
آخر .. هو توثيق الصلات بين مصر والسعودية .. كقائدين للمروية والإسلام ..
تصلحان قطبي انطلاق .. لوحدة العرب وللسلمين .. في إفريقيا وآسيا ..

وحسن وقع المطلب في نفسي ..

وأصدرت بعد عودتي كتاب «ملككة في اليزان» ..

وأعترف .. أن خيال أمنية من أمنياتي طرف برأسى يومئذ ..

تنبئت لو أن هذا السكرتير الخاص علون على أن تشقى السعودية طبعة خاصة
من كتابي تدعى «ما يبعد الحياة إلى جريدتي» .. لأسهم في الاتجاه الجديد الحار لجماعة
التنوير .. بد أن أصدروا قانون الإصلاح .. ولأعمل في الوقت نفسه على توثيق
الصلوات بين قاعدة المروية وقاعدة الإسلام ..

ولم يحقق الكتاب ما حددته عليه من الرجاء .. ولم تصدر (السودى) ..

وقد رخصت لنفسي في هذه المسألة .. لانتصليها أولاً بنية لم أجبر بها إلا اليوم

مية إصدار (السوادي) في ذلك العلم .. لتأييد الثورة والتولر .. ولا اتصال للمحة
تانياً بشكرة مخفية ردها بعض « التطلين » .. ووجدوا في مادة الكتاب ..
عوتلم على الترويج لها .. قتلوا — وجثوا في القتل — أني أصبحت داعة من داعة
السوديين .. وأن أوامر الرد استندت بيني وبين الملاكين فيهم .. بدءاً من سعود
(وكان قد نودي به ملكاً في نفس العلم) وانتهاء إلى أبي موظف مشول في حكومة
السوديين .

وليس مما يحصل بأهداف هذا الكتاب أن أسخر أحد فصوله لمناقشة هذه الفكرة ،
وحسي أن استأذن في سطور معدودات أعبر خلالها تلك الفرية .. أو الفكرة ..
تاركاً ما ذكر أني القبة إن شاء الله تأييد الحقيقة بالأسانيد ..

أما الآن حسي أن أقول لغيري أي لو كنتُ صديقاً للسوديين وملكهم وأمرأه
بيته وأصحاب الحل والربط في مملكته كما أرجف المرجفون لأصبحتُ من أصحاب الثلاثين
من أمد بعيد .. أو لأصبحتُ في القليل من الثرين .. ولما أحياني في سنة ١٩٦٢
طبع كتابي عن « الرجل الذي تأمرت عليه » . غلب صديقي صاحب « المطبعة السليبية »
هذا السبب حتى ..

وأرد الآن قلبي إلى مناهله ، من صميم موضوعه : وأخى موثق من الثورة في تلك
المرحلة .

فقلتُ إذن في الحصول على قرض لإصدار الجريدة لأؤيد الثوار .

فهل كان ذلك النشل ، هو وحده سبب عدولي عن إصدار جريدتي ؟

وهل لم يكن في وسمى أن أحلول الاستماعة بأية هيئة من الباحثات من الفتح ؟

أعتقد أن النافذ ، لم تكن كلها منقطة .

وأعتقد أني لم أحلول أن أسير في أي طريق تؤدي إلى أي منفذ .

كانت الظروف قد بدأت تهتز في يدي من جديد .

الإخوان المسلمون

وكان مما هز الطليوط في يدي ، موقف الثورة من (الإخوان المسلمين) .

جاء بضابط من الضباط الأحرار ، صديقاً وديراً للمواصلات ، ليأبوا به إلى مجلس الرماية ، وقيل في تمثيل هذا الثوب أنه عضو في جماعة الإخوان .

وداع أن محادثات جرت بين مجلس القيادة بمنحه جمال عبد الناصر وجماعة الإخوان يمثلهم المصطفى ليشركوا في الحكم ، وتشرت المحادثات لأن المصطفى وقف موقف القتال على شروطاً لا يملكها القزاة الفاضلون ، وكانت الشروط وصاية صريحة يفرضها الإخوان على الحركة .

وقيل إن حامل الالفة لم يعد ذلك الطبيب الأشيب بعد أن خلف على ماهر في رئاسة الوزارة ، خلاه المسرح ، ونسى إنه إنما يمثل دوراً ؛ وراح يتصل سرّاً بجماعة الإخوان بعد أن تعذر اجتماعهم مع جمال .

وقيل ، وقيل ، وقيل الشيء الكثير .

وكان في مع الإخوان دور ، من قبل الثورة سين .

كنت أهاجم سياستهم ضللاً ، وأنا أصدر مجلة «التحرير» - لحسابي - في عام ١٩٤٥/١٩٤٦ ثم وأنا أصدر (السوادى) من صد النصف الثاني من سنة ١٩٤٦ وما تلاها من سنين .

وكنت أسبهم بالخط الكبير وعلى عرض الصفحة الأولى من جريدتي (رهبان الليل ، وفرسان التهلر) .

وليس من القروية في شيء أن أطيل في عرض هذه الخصومة بعد أن تسحبوا من ميدان السياسة .. وإنما أشير إليها ، وإلى آرائي فيهم لأضع إلى جانب هذا الرأي ، عناية الثورة بالتعاون معهم ، ومحاولة إقناعهم بالمشاركة في الحكم ، واتهم الخصوم القرفة وأشاعوا أن جمال عبد الناصر كان هو نفسه (إخوانياً) وأن الثورة نفسها ، كانت من إعداد الإخوان وإخراجهم ، ولم تهم إلا لحسابهم .

وإنّا كان هذا ، هكذا ، فكيف أعود إلى إصدار (السوادى) لتأييد الثورة
وهى إخوانية ، مد أن ظلت (السوادى) نفسها تهجم الإخوان ، وتسميهم « رهيل
الليل ، وفرسان النهار » ؟

وبدا الشك القديم ، يحسب إلى المصدر من جديد .

والشيوعيون ؟

وفى الوقت الذى كانت الرموس تتقلب فيه لتهامس بإحواية الثوار .. ترى
إلى أن من أعضاء مجلس القيادة ضابطاً دوى ميول يسارية ، وأن أحدهم كان قد أوشك
على أن يدفع بالقيادة إلى هوة حراء ، وأن آخر يؤمن بالاركسية من الناحية للذهبية
الخلاصة ، ومن الناحية الطلية للتجريدية .

والنوص - إذن - يرشك أن يحلوز حد السحف .

ومن حتى - إذن - كواطن أن أقف مفتوح العينين ، على كل ما يجرى فى البلد .
وإذا كان مجلس القيادة قد اتسع لصباط من أقصى اليسار وصباط من أقصى
اليمن ، وإذا كان « الطبيب الأثيب » قد بدأ يتصل بالوفد والإخوان ليقلب بهم كل
للوازين ، فمن هو القائد الحقيقى للثورة ؟ هل هو إخوانى ؟ هل هو شيوعى ؟ هل هو
وطنى ؟ أم هو شيء لا ندره ؟

نم صف نشاط هذه الشائعات ، وانتقل الحديث إلى الثوار و (الألبط
الأثيب) ..

فيل إن « جمال » بدأ يظهر على المسرح ، وأن (حامل اللافتة) أصابه فرع .
وقيل إن (حامل اللافتة) أشير عليه من البطانة أن يتبرز فرصة الميايلة التى

أحدثها الجهاد (جمال) إلى تصفية الأحزاب ، ليعطوا (الطيب الأسيب) خطوة نحو
الرفد ، وليفتح عيون الوافدين على ما يراد بالحريات ، وبالمستور ، وعلى الانجلاء الجديد
إلى إقامة « ديكتاتورية » تحكم بالجدد والشار ، وتسخر كل مقدرات البلد لخلق
« فاشية ناصرية » .

ولما اعترضت بأن من غير القول أن يحاول القائد الشاب إقامة ديكتاتورية في بلد
محتل ، قيل لي - وكان الرد يبدو بويشذ مقبولا - إن المبادرات التي كانت قد بدأت
في ذلك الحام مع بريطانيا وتوقفت... والنشاط القذافي الذي بدأ القائد الشاب بوجهه من
جديد إلى منطقة القتال ليقص به مضاجع الاحتلال ، - وكان قد بدأ يؤذي نمارة فضلا
حتى جرى اسم « ناصر » على ألسنة الجنود البريطانيين يحمل إليهم صوراً هجينة من
الرحب والمطلع - قيل إن الشاب إنما يرمي ، إعلان الديكتاتورية إلى ما بعد الجلاء .

وقت لنفسي تنقياً على هذا الذي قيل : ليته يفعل

وليت هذا الشاب يدمج فيما فعلت فيه ثورات الشعب عبر سبعين عاماً أو تزيد ،
فيحقق لنا حلم الخلاء ناجراً ، فإذا أراد وهو ابن من أبناء مصر أن يستغل أهله وأن
يفرض نفسه سيداً عليهم ، وساكماً مطلقاً فيهم ، فهم أحرار فيها يختارونه لأنفسهم ،
حرية الأب الرخو أو الأب الحازم ، إزاء الإبن الذي يشق عصا الطاعة .

وأياً كانت النتيجة ، فصرير مصر من الاحتلال تهون إلى جانب كل النتائج .

فترة مهزوزة

والهم أني في شاعة هذا الفصل أقول ما قلته في مطلعه أن جيم اللوازين اختلت
في يدي ، وأنها لا بد أن تكون قد اختلت في يد القيادة .

ويبدو أنني وكثيرين من القادرين القذافي ، كنا قد تأثرنا فضلاً بالجو الحزبي
القائد وانجذبنا إليه ، والليل أني أحست بالنضج عند ما حلت الأحزاب .

وعلى الرغم من أن هذه النضبة تناقض فرسخي بصعيد الملكية الزراعية ، فإنني

أصليت إلى حبيج النصوص ، وإلى صيب النصوص وهم يطمعون بالملود ويشقون الجيوب
ويؤيدون الحريات ، غداة حل الأشراب ، وتفاقم الموقف عند إعلان الجمهورية .

ودفوا بهذا الإعلان على الجملة القائد الشاب إلى حكم الفرد .

وبدأوا يتحدثون عن السجنين التي ضاقت بالأحرار من الزعماء (١٢) .

ودأبني أضرب بفراشي في هذا البحر اللجج ، والأمواج تحملني بعيداً من
الشاطئ ، وسفن الإغاثات تلوح لي بعيدة هي الأخرى .

ومصري يطلق يده القادر .

• • •

وفي ميزاني أن هذه الصورة للهزورة تلك الأحداث ، إنما تشكل 'الروح' الثالثة
في موقفي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

الفصل الرابع

أمواج تتلاطم .. وآمال تنهم

من يواحد ارتياحى أن تأذن لى - وأنا أدير المفتاح فى مكانه من باب هذا الفصل - أن أشير إلى (حقيقة مبهجة) ذات شأن ، وهى أئى لا أحرص أبداً فى هذا الكتاب على القضاء الثورة فى كل أطوارها ، طوراً بعد طور ، ولا على بيان خطاها ، خطوه تلوحطوه ، ولا أحرص أبداً على بسط ما أدته لمصر فى كل المجالات ، صنيماً بعد صنيح ، ولو أن الأمر كان هكذا ، لما كان أيسر على من أصبح أمانى (مجموعات الصحف) التى صدرت خلال السنين المشر ، وأسهب بهذا المبه فى خير جهد .

ولكن الأمر ليس هكذا ..

إنما أناأول (الأحداث) التى تتصل بموقفى قنط من (الثورة) ، لأنى أنا الذى تشككت وترددت ودنوت منها ورددت عنها وكفرت بها ، ثم آمنت .. فالحدث الذى كان له أثر فى أى وضع حائتته من هذه الأوضاع ، هو وحده الذى أناأوله ، غير مقيد حتى بالترتيب الزمنى فى وقوعه بين الأحداث الأخر ..

هذه الملاحظة ذات أهمية بالغة ، وأنا أقنط يلب مرحلة ، وأطلالاً اردهرت خلالها آمال ، ثم نهذمت ، وأطلالاً هب نسيم البحر يحمل إلى رثنى سحرراً وسلواة ، ثم لم يلبث البحر أن هاج ، وتلاطمت أمواجه ، خلقت موجة إلى مقربة من الشاطئ ، وردتى أخرى بعيداً .. بعيداً .

من هنا رأيت أن أنه على هذه الحقيقة .

سنة .. غنية ١٩

وسنة ١٩٥٤ التي ينبغي أن أتصدى الآن لجانب من أحبتها ، كانت غنية بالأحداث وأضئ أنها كانت غنية بالأحداث التي تتصل بموقفى من الثورة .

في سنة ١٩٥٤ بدأت شهادت السنة التي سبقتها تتحول إلى حقائق أو تلوح لنا كالحقائق .

بدأت العلاقات تبدو واضحة بين (الطبيب الأشيب) حامل (اللقطة) وبين (ضائع الثورة) .

وحدث أكثر من صدق في جهة الثوار ، ورأينا التشقق في مبنى القيادة بالمين الجردة أو هكذا خيل لنا أننا نراه .

وكان الناصبون من المستعمرين وظلول القصر والإقطاع والأحزاب ، قد نشطوا في تسميم الجو ، وروعوا في صنع الأكاذيب ، وأمسى الجو مهيأ لتضيق كل حبر مكذوب ، عن أى شر (مزعوم) يراد بالأمة ، أو أى حق (موروث) يراد انحصار من أبناء الأمة .

وركب (الطبيب الأشيب) ، قفة هذه الموجة أيضاً ، وأمسك بسما تشبه (عصا موسى) — لا ليهش بها على عنه وإعما ليحقق بها (مأرب أخرى ١٩) — زاعماً أنه إنما يحملها باسم الأمة ، ليقول لفرعون الجديد : (علك .. قف) ، وراعماً أنه الحفيظ على حقوق الشعب في الحياة القنابية ، وى الديمقراطية السياسية ، وفى سيادة حكم الأغلبية ، وفى راية الإسلام أيضاً .

وأشهد أنه أحسن تخيل دوره الجديد ، وترك فى بعض النفوس للهدأة أثرًا غير

هين ، وبدأ الناس يتساقون ويتهاصون ، وبدأت الفرقة تدب في صفوف الأهلين ، وبدأ الرأي يتشعب في البيت الواحد ، وبين الولد والوالد .

وأهل (الإخوان المسلمون) برؤوسهم — لينهيوا الحورم ، في مساندة (العليق الأغبى) — بزخمة مرشد ، هو مستشار سابق ، وهو أيضاً (طيب وأشيى)^(١) ، وكانت الأحزاب قد حلت ، وكان أصف الإيمان أن هوى الحريين لا بد أن يكون هو الآخر مع (القائد الشيخ) ، وكان بعض صغار الأسلام من الضباط المخدوعين في سلاح الفرسان قد صلوا طريق الثورة وأبدوا هذا (الشيخ) .

وكانت جريدة (الجمهورية) قد أصلت نفسها (هيئة التحرير) وعهد بها إلى أنور السادات — أحد الأسرار الذين يقدمون القائد الشاب — فبدأت التلويحات تنساب في براعة بين السطور .

وبدأت ظلة الليل تمشى بنا ، إلى ليل ممتة لا تبين لما نهاية ، ولا يكاد الناظر فيها يستبين يده ، فكيف يستبين أسرار الأحداث ومسبات الوقت ؟ وكنت قد شرعت في وصح كتابي « ملكة في الليزان » أرسم فيه الأهداف عربية وإسلامية ، وإفريقية وأسيوية ، فحجبت المخول فيما يس من قرب أو من بعد تلك العلاقات .

وكان ذلك سعود قد محمد زيارته القاهرة شهر مارس من ذلك العام ١٩٥٤ — وهو الشهر الذي حفل بالحوادث التي تذكرها جيماً ولا نساها .

(١) غير قصب فيما بعد أن المصطفى محمد الإخوان « غير الشول » كل يصل سرأ من سجد سنة ١٩٥٣ بمن أختار مستشار الثورة البريطانية لبعوثه في شروط الجامعة التي كلف صد القاصر يماوس الإمبر فيها « كشرول » ... ولعل ذلك « السوان » كان سبباً في نشر للباحثات « الرسمية » في ذلك الحين ... وليناد المنكئين إلى القائل .

سعود وحوادث مارس

وكنيت في الحلق قد اتيت « الأمير سعود ولي العهد » في قصره بمكة ، وفي حفل أقيم بمناسبة تذلل والده « للرئيس » عن « سلطات الملكية » لولي العهد ، ودهينا نحن الضيوف إلى الحفل ، فجلست من اليمنى إلى اليمنى أقيم من أجله ، ولكن الشيخ عبد السلام غالى (مدير الضيافة وأصله مصرى) ألح علينا في أن نسره فليتنا الدعوة .

ولما جاء سعود إلى القاهرة في مارس - وكان قد (هوى) بالملك بعد وفاة أبيه - تلقيت دعوة أقبلها لعدد محدود من المدعوين في قصر الطاهرة - وبالأسماء على المقاعد والبطاقات - فأكبرت هذه العناية من جانب ملك ، وحيثه في (السوادى) تحية بالفت فيها ، تأنيباً لحكومة مصر التي لم تدعى إلى أى حفل أقامته لرجل .

وكانت آخر الحفلات التي أقيمت لتكريم الملك ، حفلة عشاء في فندق « هيلو بوليس بالاس » دعا إليها سعودى برر اسمه (الكمكى) كان يملك (فندق مصرى في مكة) ولم أكن أحرفه ، ولله قلى اسمى ضمن أسماء من كانوا مدعوين إلى قصر الطاهرة .

وليت الدعوة طيباً .

وكان مقرراً أن يصل الملك إلى القاهرة في مغرب ذلك اليوم عائداً من الاسكندرية حيث كان يتناول العشاء على مائدة شكرى القوتلى (ليجى) مع القائد الشيخ والقائد الشلب (إلى حفلة الكمكى ثم ييلرح القاهرة فجر ليلة نفسها عائداً إلى جدة .

وطال انتظارنا لما كين وضيغهم ، ولم يحينوا في موعدهم .

وبدأت (مصاص الشناعات) ترسل إلينا ألوانا مجية من إتحادها عبر الردهة سكوية التي تكلس للدهور فيها ، وتفرقوا إلى جماعات متجانسة أو متأكفة ، ولم يكن لهذه الجماعات من أحداث غير أسرار هذا التأخير ، وغير ما أرسلته مصاص

الثلاثاء من الزمان الإكساج ، وحسبك أن من هذه الأثران شامة تقول إن القائد الشيخ اغتيل في الاسكندرية بيد أنصار القائد الشلب .

وبعد بضع ساعات أذن فيها بوصول الملك .

ودخل من الباب الكبير — بين حلة سيوفه — عابس الوجه مقطب الجبين ، فوقتنا بحجة له فرغ إحدى يديه برد التحية ، ومضى وفي إثره الحاشية إلى مائدة المصدرة لاحتجاج المشاء ، فالتهمت فرصة مرور سكرتيره الخاص — عبد الله بأنجير — على مقربة مني وجذبتني من كم الحياء وسألتني في لفظة عن الشائمة الخطيرة ففقاها وهمس في أذني : (جلالتك يهيى الصلح بينهم ، أجل سفره الآيلة ، والرجال (بتشديد الجيم المفتوحة) — ويشهد (الطيب الأشيب) وصل معنا بخير وسلامة .. الحسن ، والحمد لله .

وأحسنت من الإجابة أن هوى السعوديين مع حبل اللافخة .

وتناول الملك قليلا من الطعام — على غير عادته — وقام .

والتصرف وانصرفا .

وفي الصباح أذيع أن الملك أرجأ سفره يوما ، وأنه استقبل جمال عبد الناصر ، وبقى معه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكلام يفهم منه أن الصفوق قد عاد إلى النفوس بفضل الضيف الكبير ، وسافر الملك — وهو عليم أو غير عليم — بما خباياه الأقدار من حوادث مارس بعد أيام من رحيله .

ومرة أخرى أقول : أحسنت أن هوى السعوديين مع حبل اللافخة ، فهل كانوا يجهلون لأنه « طيب أشيب » ولا شيء إلا « الطيبة والشيب » ؟ أم أن الأمر لم يكن (حيا في مساوية ..) ولكن (كرها في حيا ..) ؟ وترجة هذا القول للأنثود (إن الأمر لم يكن حيا في (نجيب) ولكن كرها في (ناصر) .

ولكن ناصر .. لماذا يكرهونه ؟

أغضب الفن أن التعبير غير دقيق ، والحق أن تقول : (كانوا يخافونه) ، فذا صبح
أن الأمر كان هكذا ، فن الإنصاف أن نشهد لم يبد النظر ، بد أن أُنجست
الأحداث أن (الناصرية) أمت تثير مخاوف (الرجسية) في كل البلاد العربية .

...

ونسود .. قول :

وقعت حوادث مارس ، وتقام الخلاف ..

وذهب (جمال) بنفسه إلى سلاح الفرسان ، وواجه صفار الأحلام ، وبسط
الوقوف على حقيقته ، وألق من ألق ، وتجدد من محمد .

وقيل بما قيل أن صفوة من أخصار (جمال) أصروا على أن يشتكوا للقائد
« الشيخ » فوقف (جمال) في وجوههم ، وردم عما أرادوه .

وكانت الحريات ، قد أطلقت للصحف والمجلات ، وما كان أشد دهشنا ونحن
نرى « أحمد أبو القتيح » - الصديق الصدوق - لناصر - يؤيد انجباء « الطيب
« الأسيب » وأصبحت جريدة « المصري » التي كان القائد الشاب يقضي الجانب الأكبر
من أسياته فيها ، أصبحت متبراً لكل من يريد أن يطالب بعودة الأحزاب وعودة
الدمستور وعودة البرلمان .

واختلط الحابل بالنابل ، ولم يبد أحد يدري على التحديد شيئاً .

ومشت الغلة إلى قصى ، فشمرت جهوى إلى جانب « القائد الشيخ » ولكن
تحفظت ، وسيطرت على هذا الموى ، (لا ثقة) في (القائد الشاب) ، بل (عدم ثقة)
في (القائد الشيخ) ، وهو يوزع وده على قوم لا يجمع بينهم ود ، كالإخوان والوند .

وأصبحت - كما لم أحس من قبل - أن الأمر كله مقرر على ، وأن الخيوط
كلها بدأت تتشابك وتتهز بين يدي .. وأن الجانب الخفي من الموقف أشد خطورة

من الجبابرة الظاهر ، وأن (انطيط الأنيب) ، ليس هو الذي تصوره (للصرى) ، شعبي العتيقة ، ملائكي الخلق ، دستوري البرقة ، وأن (القائد الشاب) ليس هو الذي يصوره المصوم في صورة (فرعون) .

وأحسنت - كما لم أحسن من قبل - أن (حتى الهلبة) بدأ ديبها يتمشى في أروالي ، ويهدد بالي ، طاقة الإدراك في .

ومشى الاقسام إلى جماعات التفتين ، فاقسم المحلسون ، في اجتماعات صاخبة وعاصفة ، انشدت في دار النقابة ، وكاد الفريقان يتضاربان .

وعلى حين غرة ، تنفرت طلائع الشعب للهم ، ونزل العمال إلى الشارع ، واكتسحت المظاهرات القسامرة ، وهي تنادي بملوث لسل من يعترض طريق (الثورة وصانها) هاتمين بسقوط الخامين ، وكل منقف تنهى به فلفته إلى (انليانة) .

ورجلت على قلبى يدي ، وصينى على جيش الاحتلال في القفال ، خشية أن يصرك ، وأن يضرب .

وارتفع جمال إلى مستوى الأحداث ، وأمر على الاستقالة ، وأعلن نسجه من القيادة ومن كل تشكيلات (النظام) - وهو صانه - حتى يبقى (النظام) .

واشتدت ثورة العمال ، وأرغوه على أن يسترد الاستقالة ، وعلى أن يعود من جديد رئيساً للوزارة .

وسنحت الفرصة لتفلس من القسائد الشيخ من غير أن تهرق قطرة من الدم ، وأبى جمال إلا أن يسيده رئيساً للجمهورية (يملك ولا يحكم) بلنة دستورنا القديم .

وجرت الأحداث في الطريق التي رسمتها الأعداء وكلكم تذكرون تلك الطريق - وليس مما يحصل بهمتي في هذا المقام أن أتليث حدها ، أو أفصلها ، أو أخليل الملبث منها .

وحسبي أن أعود إلى غنى لأحاول مرة أخرى تحديد مكانى .

أين مكاني ؟

هم .. أين مكاني من هذه الأحداث ؟

بل أين مكاني من أحداث سنة ١٩٥٤ بأكلها لا من أحداث مارس وحده ؟
وأعترف أني لم أجِد لي مكاناً ، إلا أن تشدي (اليمين) فيما ودني الحنين إلى
(الشمال) وتشدي (الشمال) فيردني الحنين إلى (اليمين) .

هم .. كان لي عقل وضمير وحس كالكل الأناسي ..

كان لي عقل .. ولعقل تفكيره .. ولتفكير أسلوبه .

وكان لي ضمير .. ولضمير (صوته) .. ولصوت تأثيره .

وكان لي حس ، وكان الحس أسبق من أخويه في التأثير ، حتى خفت منسه
فجذته ، بحيث يرى كل شيء ولا يثيره شيء ، وفضض يدي من الأمر كله ، وجلست
خوف وصال الشاطئ . أحقق في الأمواج يطلرد بنفسها بفساً ، ولا تدرك إحداها
الأخرى ، وإن كانت كلها تنكسر في النهاية تحت أقدام الشاطئ . وأحقق في البواخر
تختر الباب ، ثم ترسو أو تقيب ، وأحقق في الأفق البعيد وهو رمز لغروب ..



وقد يكون مفيداً في هذا المقام أن أقتطع من حوادث العام بعض ما انعكس
تأثيره على العقل غطاني إلى النور ثم ارتد ، وعلى الضمير فصحا من النوم ثم هد ، وعلى
الحس فأكل مني حتى أتحم ونجمد ، وتركسي في حمراء الرأي جيفة .

• وفي ذلك العام حاول الإخوان اعتيال (جمال) في اللشبة .. فواجه الرصاص
في شجاعة تدبر الرؤوس واكتشفت أجهزة الإرهاب ونجباء الأسلحة .^٢

• وفي ذلك العام وقع جمال - رئيس وزراء مصر - اتفاقية الجلاء عن مصر ،

واحبرها في خطبة له خلاصاً من المصير بعد الاتفاقية التي كان قد وقعها مع إنجلترا لملح
قضية السودان .

• وفي ذلك العام صفت رئاسة (الطيب الأشيبي) وبدأت المصحفات المطوية
تنشر في المصحف .

• وفي ذلك العام بدأت مصانع النخوة تنتج .

• وفي ذلك العام قرأت كتاب (فلسفة الثورة) .

وأحب أن تعرف أن (جمعية الإخوان) صاغت هوى من نفسى بعد أن امتد
نشاط الإرهابيين فيهم إلى الأمنين في دورهم ، وإلى سابلة الطريق ، وإلى دور القضاء ،
وكنيت أعرف أن هذا اللون من إشاعة الفجر وبث القومى — كما حدث في حريق
القاهرة — حمل من أعمال (الشيوعيين) وأيس عملاً من أعمال (المسلمين) مهما تكن
(البواعث) ، وكأنت لى آراءى (الإخوان) حقق لى صدقها ، ذلك الذى جرى
منهم ، وذلك الذى جرى عليهم ، وكان المقول أن يشدى هذا (التطهير) إلى (سياسة
القائر) ، كما شدى (قانون الإصلاح الزراعى) إلى (أنجاءات الثور) .

ولكن (المنصوم) كانوا واقفين بالمصاد ، لكل ما هو (مقبول) ، حق
يتبدى فى نظر الجماهير (غير مقبول) فأشاع (مصنع الشائعات) بين الناس أن (حادثه
الفتية) كان (مدبراً) وأن (جهاز الإرهاب الإخوانى) كان جمال على علم به من
سنيين ، وكان قد شارك فى إعداده ليعمل ضد المخطئين ، وكان يعرف مكان كل قبيلة
ومدفع ، فلما اشتدت قبضته على الحكم ، واشتدت معارضة الإخوان له ، عذب بهم
ليخلص منهم ، وزعم أنه كشف عن غناهم ، بعد أن اطمأن إلى الاتفاقية التي أبرمت
مع الإنجليز بشأن القتال وقاعدتهم فيها .

وعلودنى البلية ورجت أقول لضى :

— إذن فالثابت الشاب يستهدف إجلاء الأعداء من أرض الوطن ، بمعرفة

الإخوان وغير الإخوان ، فلذا سلمنا جدلاً بأنه غدر بهم ، فهل قيد لحسابه (المائن) فضيلة إجلاء المدعو عن أرضينا بأى ثمن ، أم قيد لحسابه (الدين) غدره (للزحوم) بإخوان له ، ربط (المهد) بينه وبينهم ؟

ونسحب العقل فلم نستطع أن أبدي رأياً .

والجلاء ؟

وكنيت قد فرغت من كتابي عن رحلة الحج ، عند ما وقع (جمال) اتفاقية الجلاء ، فأضفت إليه — وآخر ملزمة فيه بهيئتها حال (للطلبة المالية) لقطع — صفحة جديدة قلنا فيها تحت عنوان (بحرى التاريخ) إن رئيس وزراء مصر ووزير حرية الملكية المتحدة قد وقعا في السابع والعشرين من يونيو ١٩٥٤ وبالأحرف الأولى من اسميهما (انطوط الرئسية للاتفاق الذى يتضمن المبادئ التى يقترح إعداد اتفاق على أساسها خاصاً بقاعدة السويس) ورغت من إبداء الرأى نقلت بالحرف : « وكل مرجوى » وقد بدأ بحرى التاريخ للمصرى يتحول ، أن يكون هذا التحول موضوعاً لكتابي السياسى التالى .

والقائد الشيخ ؟

وكان محبياً — بعد حواش مارس — أن يفتح أجور السادات (والمرحوم) صلاح سالم الحجة على القائد الشيخ — وهو يمارس سلطات رئيس الجمهورية فى عاشرين — فى فصول ضافية ترفع الستار عن القصة الكاسية للرجل الذى طلب إليه أن (يمثل) دور الرئيس ، قتل ، وكان محبياً أن ينساقى المصفيون والكتاب ، إلى إصدار الكتب تحمل إلى القراء . ما لا يكاد يصدق من تصرفات شخصية لقائد الشيخ ، يجعل من نسبها إليه أى مواطن على ، فضلاً عما كان قد أثير فى المحاكمات عن اتصالاته السرية بالإخوان وغير الإخوان .

ونبت أن القائد الشيخ لم تكن له صلات أصلاً بتشكيل الضباط الأحرار وإنما وقع على الشيخ الاختيار ، بعد أن مهدوا لظهوره كلواء له قدره بين لواءات الجيش

فرشحوه لرياسة نادى الضباط ليقسطوا به حسين سرى طمر ، كلوا له مكانه بين رجال الملك ، ونجح القائد الشيخ ، وغضب الملك وأمر بإلقاء نتيجة الانتخابات ، وقتل الشيخ مديراً للحدود ، وبدأت الحرب المكثوقة بين الملك وملازم الثورة .

ومن أسباب اختيار القائد الشيخ أيضاً قيادة الثورة رغبة الضباط الأحرار ، في أن يحفظ (صانع الثورة) حرية الحركة حتى يستكمل تشكيله السياسى بعيداً عن الأضواء ، وحتى يصح تخطيطه وتكتيكه في مواجهة المحتلين والإقطاع ورأس المال والأحزاب .

وكان ينبغي أن (اعتقل) هذا القدي قتل ، لأنه (مقول) .

ولكى ترددت ..

ترددت لأن الخصوم رسموا صورة مقابلة للشيخ (السكين ؟) فذكروا بطولات له جرح خلالها ثلاث مرات في فلسطين ، واستشهدوا عليها بأقوال التوار أنفسهم أرقام الثورة عن تلك البطولات ، وذكروا أن الشيخ لا يريد أن يستقبل ربه وهو يحمل على كفيه التهميد... لفرعون جديد... بدأ يذل قومه باحتلال أصحاب الماضي الجيد في مكافأة الخلل .

وقال الخصوم إن الشيخ لم يزل أكثر من أن أمسر على أن ترد حقوق الشعب للشعب وأن يمود كل جندي إلى تكتته ، فلم يكن منهم إلا أن حشدوا في الطرقات كل مأجور من المبال المحترفين ، وشنوا على الشيخ أشنع ما يشن من الحملات ، وجرده من كل السلطات ، وشتوا أنصاره من الضباط ، فقصوا بهم إلى أوروبا الطريق المخطوط أو الخوف ، ملحقين عسكريين في السفارات ، وحلوا بأورده الخصاص على أن يطير إلى السعودية لاجئاً سياسياً ليديسوا رسمياً أنه (حرب) .

ومرة أخرى صحت عيسى على السعودية ، وذكرت سكرتير الملك يوم حفلة هليوبوليس بالاس ، والبشارة السجبة التي هس بها في أذى ، ولم أثبت عند هذا الخطأ ، ولم يدبر بحلوى أن القدي سوف يتخضع عن خوضاء رعية ، نتيجة تلك المهمة الخائفة ، ومضى الخطأ ، أو كان ومعة ، وتلاشى الوميص .

ومضيت أقول لنفسى بعد أن ملأها الغصوم شكوكا :

— لو أننا سلمنا — جدلاً — بأن القائد الشيخ ، بلغ من (السوء) للبلغ الذى صورته لنا (دعاة السوء) ، فساداً اندفع الثوار من غير التوراة يرتضون بالشيخ إلى السماوات العلا ، ولماذا أسرفوا على نورهم فصوروه للشعب ، مبعوث العناية لإشاعة العرب ، حتى لقد كادوا ينادون به نبياً قولا إيمان المسلمين بأن محمداً بن عبد الله هو خاتم النبيين .

والحق أن الثوار — والأسرار المتحصنين فى قرع الطبول والنفخ فى المرامير — لجوا فى العناية للشيخ حتى لقد قالوا إلى محازز الأمريكان أصحابهم المموس ببطولة الجنرال (وأن كثيرات ممن أرقن إلى المسئولين فى الاستعلامات يظنن صوراً له تزدان بها صدورهن) وأن موسم السياحة قد يحمل لنا من الدولارات أكياساً أو أكفلساً ، لأن أصحاب اللالين من الأمريكيين مشوقون إلى رؤية الجنرال الأعزل الذى طرد الملك وهزم بريطانيا وفوض الاستعمار .

مضيت أسأل نفسى :

— بأى حق صللونا على هذا النحو ، وهم يعرفون أن كل ما قلوه ، عن (الطيب الأثيب) لا يمت إلى الحقيقة بسبب ؟!

وفى عمرة النضب ، قيدت التنصبة — التى كنت أرى إلى تقييدها لحساب الشاب الماتن — فى حساب المدين .

عدوان على...

ثم جاءت العربية التى سدحوها إلى صدرى شخصياً ، فأجهزت على كل تردد فيه ، وملأتنى (ضئبة) .

أقول (ضئبة) ولا أردد هذه المرة ، لأنها تدخل ضمن « الصديق الرهيب » الذى توجيته فى هذا الكتاب .

نعم .. وفجأة .. وفي غير مقتض — وكنت الأرمه كتبني أصفى ولا أتعهد .. وأحايه
ولا أخلم — نقيت كتاباً مسجلاً من وزارة الإرشاد القومي — كما كانوا يسمونها —
وجويع وزبرها .. بالباء رخصة جريدتي .. وبجبة أنها لا تصدر بالنظام .

وأذكر — وأرجو ألا تكون الناكرة قد خاتني في عدد أو عددتين أو ثلاثة —
أن « السواى » كانت تصدر بالنظام ، وتطبع في (المطبعة المالية) التي تحمل في
عبء هذه المطبعة من هذا الكتاب ، ولم تكن توزع في السوق ، وإنما كانت تصدر
في أضيق نطاق ممكن ، احتراماً للقانون ، وكنت أضنها (مذكرات من الذاكرة)
من ربيع قرن قضيت في الصحافة ، وكانت بعض المؤسسات الكبيرة لا تزال تعاملنا
وترسل إلينا إعلاناتها ، وكان بعض المشرفين على الدعاية للأفلام لا يزالون يحاملون .

وأكثر من هذا ، أن البكرات — ولا تزال — ملأى بالجلات التي تصدر
في أي وقت تجدد في صدورنا ضمناً ، وتكف من الظهور في أي وقت يصحبها الظهور فيه .
ودارت الضربة برأسي وحلوت عينا أن أجدها .

والحدث في ذاته قد يبدو عادياً في نظر القارئ العادي ، أما أنا فإحدى يعني منه
وقد تأثرت به ، أنه وقود جديد صبوه بأيديهم على تشككي منهم وعلى كل ما دفع في
إلى كبرى بهم .

(إني يا سهل ، من لم ودم) هكذا قيل إن عترة .. قال ليله .

وهكذا يقول واضح الكتاب قراء الكتاب — وفي مقام الاعتراف لا في مقام
الهفاج : إني — يا قوم — من لم ودم .

وقد سددوا الضربة ، إلى مصدر رزقي ، فاستقر في ذهني وظني ، أن من يضرب

؛ برينكا) أمزل ، وعمل هذا النحو ، وهذا السنف ، ومن غير داع ، يصدق فيه كل ما يقوله المصوم عنه .

وعمل ضوء هذا المنطق ، رأيتني أدخل في دائرة (الكثرة) أو (المقصومة الحادثة) لقائد الشاب .

ومضى أن أكون بهذه الصورة ، أو بهذا الفصل ، قد رسمت المرحلة الرابعة .
في موقعي من (الرجل الذي تأثرت حبه) .

الفصل الخامس

أوغلت في الكفر

وحادث سنة ١٩٥٥ سابقة بالأحداث ، جاساً هذه المرة .

ولم تكن الأحداث على مستوى مصر وذلك ، والإقطاع والإخوان .

ذلك مستوى ، لاح لي أنه يتراوح باعاً إلى زوايا النسيان ، وأنه يبحث في حلو للزوم من مكان له في التاريخ .

كانت صفحة الأحزاب قد طويت منذ حلت وصودرت أموالها وممتلكاتها في ١٨ يناير سنة ١٩٥٣ وإن كان قد تركت خلفها أدبيلاً من الحقد ، لم يكن من بقائها بد .

وكانت أسرة محمد علي قد دفنت في ضريح مسم في مقابر التاريخ منذ قام الحكم الجمهوري في سنة ١٩٥٣ أيضاً .

• • •

وأعود قليلاً إلى الوراء لأذكر أن الثوار كانوا قد تكتلوا ، إثر اتحاد تلك الإجراءات المخارمة ليقدّموا إلى الجساعير ما يبردها فتمنوا إلى حامل اللافتة بحطب أعدوها ليقبها ، وانطلق بها إلى خارج الأقاليم بين حوافل مشوية وقلوب جياشة وهتافات تواسي مرسلوها على أن يملأوا بها كل شبر يزوره من الإسكندرية إلى أسوان ، وظهر في تلك الفتحة « جمال » .

ظهر (جمال) ليحطب في (هيئة التحرير) أول حطبة له في ٦ فبراير سنة ١٩٥٣ وأودع أسوانه التاترين إلى مختلف الأقاليم ليتعرف الشعب عليهم فشهد الشهر الرابع من

نفس العام سابقاً «شباباً» بينهم ، وسافر عبد الحكيم طهر إلى بلدته (النيا) فخطب في أهلها ، كما خطب أنور السادات وذكرياً محي الدين وكمال الدين حسين وحسين الشافعي في نفس الشهر في كفر الزيات وبنها وغيرها من مدن الوجه البحري .

وكان (جمال) قد أمر بتشكيل حرس وطني من شبلي الجليل الناصر . فتم تشكيل (الحرس الوطني) .

وأحس القائد الشاب أن اليد الملموسة التي أجبر بها على الإطعام والأحزاب وحاجة إلى مساندة واعية ، فطلب إلى (هيئة التحرير) أن تضطلع بهذه المهمة ، فصدرت جريدة (الجمهورية) يشرف عليها (أنور السادات) ، فأحسن القيام عليها ، بعد أن حاولوا ملء الثغرة ، من مطالع الثورة ، بمجلة (التحرير) ولم تكن تقدر وحدها على سد حاجة القراء كل صباح وهي نصف شهرية ، وإن كانت بمس مجرم الضباط قد لمت فيها لساناً عسكرياً حافظاً لم يمل أبداً غطر ، فالتفتنا لأول مرة بثبوت حكاية وكلمة المناوي ، ومصطفى بهجت مدوي ، يماونهم بعض الصحفيين المعروفين استماروم من جريدة (المصري) صدقة الثورة في ذلك الحين ، مثل عبد الغنى الصاوي وحسن غزول وكثيرين لا أذكرهم .

سنة ١٩٥٥

وأعود إلى سنة ١٩٥٥ وحوائثها الجسام ..

ولم تكن هذه الأحداث على مستوى مصر وللك ، والإطعام والإخوان كما قلت في بداية الفصل ، وإنما ازدادت تلك السنة بوتلات سيرية جرت حوائثها على المستوى الآسيوي والإفريقي ، وعلى المستوى المالى أيضاً ، فشهدت محاربة حلف بغداد وشهدت انتقاد مؤتمر باتندونج ، وشهدت زيارة عبد الناصر لهند ، وشهدت حادث تسليم الجيش المصرى من روسيا وتشيكوسلوفاكيا .

وحادث الرؤوس مرة أخرى ، ومن بينها كان رأسى .

وهجوم إسرائيل

وكان مما استرعى الأنظار وقوع الهجوم الإسرائيلي التامر على « غزة » في ٢٨ فبراير من ذلك العام .. وفي هذا الهجوم منينا بحسار جاورث الحدود التي أقتناها في للصلامات للألوة بين « اللوردات » فرامى الحادث وروعت أقول لنفسى :

- في سنة ١٩٥٤ عقدنا للماهدة بينا وبين انجلترا .. واتفقنا على الجلاء .
- وفي ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٥ أطلعت انجلترا نفسها « حلف بندا » تصد به تيار « القومية العربية » التي يرفع ناصر رايها .

● وفي ٢٨ من الشهر نفسه فبراير — أى بعد أربعة أيام من فهمام (حلف بندا) — حرضت انجلترا نفسها .. جيش إسرائيل فشن الهجوم علينا في (غزة) وهي تعلم أننا لا نملك من السلاح ما نرد به هذا العدوان إذا تحول حربياً ، وكنا قد طالبناها بتسليحنا فوافقت منا وسلحت جيش إسرائيل .. فكيف يستقيم في الذهن — وهذا هو الموضع — أن جلاء سينم ؟

■ وفي غمرة هذا الظلام الذي أسمى بـ « غمى » .. توالت شائعات انلصوم نقب على ذلك الهجوم ، وتنفذ للقرائنات بين هتلر وناصر ، وتؤكد أن سياسته لا بد أن تنتهى بإسرائيل إلى احتلال أرضنا ، وتحقيق حلمها الصهيوني القديم : (من القنرات إلى النيل) كما احتلت أرض ألمانيا المحتلة ، سوحش الروس والحلفاء .

حقيقة كبيرة ؟

وحقيقة - (كبيرة) - أميل الساعة إلى (التركيز عليها) ، بعد أن أثبتت التجربة وجودها وبعد أن عشت بنفسى هذه التجربة ، وصح عقدى أن لهذه (الحقيقة) أثرأ بعيد لدى — فى قوس الكتيرين — ولا أتجسب أن أقول : (فى انجاعات الجماهير) .

حقيقة نشبه الهواء الذى أزمى و (توملن) ، ونلادم (فترات الاعتقال) التي تمر بها الشعوب الننية بالأجلاء ضاربة الجذور فى التاريخ والتي تركت بصماتها واضحة على

صنعت ما فيها للنفس ، ثم تولت عليها القبال السود ، وعملت كما يامل العبد ،
ولانثت ، كالوحدت إلى القتال سبلا ، وعانت من عوامل (التجربة البشرية) ما تعانيه
الجهال الشمن من عوامل (التجربة الطبيعية) ، فتعدت هذه الشعوب نجاة أى جيل ،
يحيى ، وأصيت ، بالحساسية تجاه أى حاكم جديد .

هذه (الحقيقة) ، عرفتها (مصانع الثاملت) من بداية الحكم الثورى الجديد
فكلفت عليها ، وأحسن استملاها وأعى بالحقيقة فى معناها الواسع : (تشكك الجماهير
فى كل حاكم جديد) ، وفى معناها الضيق (احتقاد الناشئين على كل حاكم ناجح) .

ويبدو أن هذه (الحقيقة) طبعت على شمعنا بجناسها معاً وأطبقت عليه بكل
ضراوة فيها ، ضراوة الطير الجائع ، ينقض على القرية والقرية بين يديه تنلوى .

وناصر (حاكم جديد) من حيث (لغى الواسع) .

وهو حاكم ناجح من حيث (لغى الضيق) ، والناشئون فى عهده ويسيه ،
قطاع غير هين ، قطاع كان يملك كل شئ ولم يذ يملك شيئاً .

ويكفى أن نجد نفسك - مصلوفة أو عمداً - فى هذا القطاع الذى يخاضم
الحاكم ، حتى تحسرك أذنيك شاماته ، تنصب على أذنيك وتنصب ، وتنسل إليك
من كل حدب وصوب ، وتسرب إليك فى القهى وفى البيت وفى للكسب ، مرة فى
صورة (خير منير) وأخرى فى صورة (رواية) عن (شاهد هيان) ، وثارة فى صورة
(بشرى) تزد إليك إن كنت فى ضيق ، وطوراً فى صورة (نكتة) تملأ سمك فى
السهرة أو السمل أو فى الطريق .

و (التريقة) السياسية على الحاكم الناجح ، علوى فاجبة للانتشار ، وفى أقصر
وقت وعلى أوسع نطاق ، وقد تصاب بهذه العلوى من غير أن تكون خفياً لهذا
الحاكم ، لا شئ إلا لأناك تعيش فى بيئة من بيئة الخصومة .

وأنا أعيش فيها ، وبرغى ولو تأيت عليها .

لقد أفضيت المعركة في الصحافة ، التي تمثل الأحزاب والساسة ، ومعظم الأصدقاء من الحزبيين والسياسيين ، وإذا أنا أوصدت أبوابي دونهم وثبتت إلى من التوائذ ، وقد تجاهلتني حكومة الثورة في غير سبب ، وألفت رخصة جريدتي من غير حصومة ، وخصت أمام أصدقائي من أعدائها ، كل طريق يؤدي إلى ، من غير ساحة إلى (باب) أو (نافذة) .

هكذا وجدت نفسي بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

وأرجو أن يكون مفهوماً ، أني لا أعني بالخصوم (أشخاصاً) معينين .

إنها (جو) ، جو ككل الأجواء ينسج لكل من يتنفس فيه ، لرواد اللقاي تسع منهم (الأخبار الزائفة) ، ولساقة الطريق تسع منهم (النكفة) الكثيرة ، جو موبوء بخصومة كل حائد ، وموبوء بخصومة كل فاشل .

ومرة أخرى أقول : هكذا وجسدت نفسي بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

وقد يكون من الانصاف (لكرامتي الفكرية) - إن صح هذا التعبير - أن أقدر أني لم أكن - رغم ظروف - (صيداً سهلاً) لكل من (يحمل بدفئة صيد) .

وقد خضت فعلاً معارك حامية بين العقل والمخالفة ، وصراعاً حقيقياً بين (هواي) أو (هدوي) من ناحية وبين (منطقي) الذي كنت بطيئة (تكويني) أحب له دائماً أن يستقيم على الجادة ، من ناحية أخرى .

وكنت أحس أن (منطقي) يحاول أن ينهض (بالترلمات) ، وأن يذكر (مواطن الضعف) في (الملوي) أو في (المخالفة) بما صنفته الثورة لهذا البلد ، من أعجاذ ، وفي

سنوات ثلاث ، ولكن الساطنة كانت تنصم بهولها الجديد ، وكانت تلوذ بمواسم
الحرب القديم ، فكان للتعلق للسكين ، ينسج من قلب المارك ، شاحب الوجه ،
منصر التلي ، أشبه بلجريح .

وشددت الرمال

ولم أجد - وأنا أحول أن أطلب لنسى - خيراً من أن أنزع هذه النفس
النسة من هذا (الجو الحزني القاسد) ، إلى حراً أكثر هدوءاً وأوفر طيراً .

لم أجد - وأنا أطالع ذات صباح أبعاد (الزيادة الرجبية) خيراً من أن أشد الرمال
إلى الرسول ، وكنت قد تملقت به ، وبالروسة التي أسنشق غيرها فأسفوح فيه روائح
الجنة ، و (بالمدينة) التي أتحدث إلى الأهلين فيها ، فأذكر الانتصار وأذكر يثرب ،
وأرى التاريخ ممثلاً بكل نمحات الرسول إلى البقاع التي نوى فيها عبر أربعة عشر قرناً .

وشجى على الزيادة ، سهولة السمر إلى مكة لأعتمر ، ولأدعو رب البيت أن
يفتح بصبري على الحقائق ، وأن يثير طريقي إلى الحق ، ولأرى ما صنعت (للكنيات)
فيها بثلاثة آلاف من نسخ كتابي كنت قد صدرتها إليها عن طريق البحر الأحمر
قبل ذلك بيعة أشهر ، ودائماً تقترن فيها ، شفافية الروح بكنافة اللادة ، حكمة الله
في الإنسان الذي سواه ، فصع فيه من روحه ، وأكرمه وقومه ، وحاف عليه أن
يتطلع إلى السماء فلا تستر به أرضه ، عزيز له الليل والليلين ، ليصفو ويأثنه ،
أويسفر ويوازن .

وهكذا شددت الرمال ، يهفو الروح من إلى رسول الله .. ويهفو الضعف في ،
إلى كسب مادي أسوءه نفسيه (فضل الله) .

وزرت واحترت ، زرت رسول الله وبيت الله ورصت أن أدور الملك ، بحبة
أن أحداً لم يدهني زيارته .

وكان مريضاً في الرياض ، وكانت القمرة سائحة لما يسونه (التسلع على جلالت)

ولكن رباني لم يكن يحضن متابعه ملك ، وخفت إذا أنا أدخلت عليه تصديلاً ،
أن يدخل (للك الكبير لئال) تصديلاً آخر عليه تأديباً ومضاداً .

وكان الأمير فيصل على مقربة أمتار مني ، فلم أزد ، ولم أبق إليه .

ولم أزد أحداً من الأمراء لأن لا أعرف حتى اليوم أحداً منهم ، وقد يدحض
لهذه الحقيقة كثيرون من الصحب الذين ظنوا أني (وصلت) .

ولكني بقيت السكتيرين من الصريين القتيين في جلدتي وسكتة ، موطنين
أو متدينين أو مقولون أو محاسبين أو محالاً .

وكانت العلاقات من (القاسية الرسمية) بين مصر والسعودية على غير ما تكون
العلاقات الحميمة بين الأتقاء للتصالحين ، أما من (سيث التواقع) فقد لاحظت أن
ضايانا العالية في المجوم القادر على (غزة) ، لم تكن تقابل بالأسى للفروض أن يحضر
الأخايد في كل القلوب ، في قلب كل عربي ودود .

وأعترف أن هذه للاسطة أعجبتني وطوبت الجوانح عليها في صمت ، ولم تنضني
وفاء للناصرية أو ولاء للناسر ، وإنما أفضتني ، لأن للوطن كرامة تتور ، إذا هي مست
من (غرب) ، والحساسية من هذه القاسية تبدو أعرانها واضحة على كل مواطن
وهو في (الغربة) .

ولكن اللهم في موقف من الثورة ، أن تلك (للاسلطة) زادت غمدي من
السيلة للصرية التي لا ترمي أبداً من موالي أقدامها ، ولا تدرك حقيقة السعوديين
كما أدركتها ، أو هكذا خيل لي يومئذ .

كما قيل لي إن (حسوم الناصرية) كانوا محقين ، عند ما كانوا يقولون إن السيلة
(فن) (أقطابه) ، وكانوا يرددون كل ما عزمه إليهم من أشطاء بلثل القاصي المعلم
« إدى البيش غلباء » ولو أكل نصح .

حدثت من الزيلة الرجبية أكثر كرامة للناصرية .

ولكن .. حتى هذه (الكراهية) لم تخلص لي ، ولم أخلص لها ، فكنت إذا عدت إلى البيت آخر السهرة ، وأسست رأسي إلى الوسادة ، ومرت شريط التلوّن أمامي .. يمرض صوراً بما أدوه إلى معتر في هذه الفترة القصيرة ، شعرت بحقيقة في القلب ووخزة في الضمير ، ووضعة في الرأس ، وكلها تبرز في أدنكاد (لا تسكن أهي) .
وأشعر بالبرودة تسري في أوصالي ، فأغضض حياء ، وأشد النطاء فوق كافي أحسن به جسدي ضد هذه البرودة ، أو كافي أحسب به عن صيني رؤية الحقيقة .

ويقبل مع الفء للصنوع ، إلى أحضاني ، أخ وأخت ، أنشئ طلبتهما في مثل تلك اللحظة الرائعة ، أو اللحظة اللاهثة .. يتسلل (المحوى) وتتسلل (المدوى) ويتقصصان على « الخبطة » خصمي .. وعلى (الوخزة) فتسكن .. وعلى (الوضعة) خصميو .. ويمر شريط المنصوم بكل ما يحمل من قناسة فأغضض صيني على العتة ، وأظلم .

وهذه .. « الخبطة » ؟

وجاءه سافر لقائد الشاب الذي صوروه لنا مهترأ (على المستوى الوطني) ، سافر إلى (باندونج) ليفتح إلى جوار (هرو) و (ماونسي نونج) ويمشي راسط الجبال ثابت الخطو .. إلى (العلاقة المالية) .

وفررنا أعيننا كالو كرنا صمونا ساعة قنباً .. من النوم .
إنه خير داعم .

خير يقع على رهوس المنصوم .. وقع الصوامع .
هكنا تصورت .

ووددت لو ألقى المنصوم وأسمع آرائهم في هذه الخطوة .

وأذكر أن أحدم تينتي — وضعة لا أذكر اسمه — وقال كلاماً كثيراً نسبته جوتي وه الفكرة سؤال وجهه لي : « لكن هو جمال يعرف الإنجليزي كان للضام مع نهرو وأمثاله ؟ »

وأذكر أني زمت شفتي استنكاراً لهذه السطحية في التفكير .. وشنت على السائل يوماً حجة شعواء بنى مسها في الذاكرة أي طلبت إليه في عتف أن يرتفع بالبحرية إلى مستوى المحدث .. وأن يسأل أين شاء عن الأتقن السياسي لنامر ومن مدى اتساعه لومي القويست على المستوى الموضوعي للمؤتمر انطير الذي يشارك فيه ؟ أما القصة فهتظ نفسه لم يكن يعرف إلا الألبانية وغروشوف لا يحطب إلا بأروسية .. وليس هناك ما يمنع أن يكون حال متسكناً في الإنجليزية .



ونجح مؤتمر باسبونج .. وأسفر عن قرارات عشرة .. ترسم لإفريقيا وآسيا خططاً جديداً .. وترسم شمة الحياض الإيجابي وهي تنوهج فوق سارية الدنيا وتحركت فوق الشاشة الدولية صورة شاب من الشرق .. فارغ العود .. عريض المنكبين .. تلوح وجهه سمرة .. يدرك ما يقول .. ويرن كل كلمة .. ويقبس كل خطوة .. ويحمرطه بالاحترام سهراً كبير سياسى مفكر في هذا النصف الأخير من القرن العشرين .. كما كان غاندى أقدس سياسى صوفى في النصف الأول من القرن هـ .. يحوط بالاحترام سعد زقلول .

وكل ما استطاع الخصوم أن يقولوه في تلك المرحلة .. أن الخطاب الذي ألقاه جمال في المؤتمر هو من وضع فلاس وعلان .. وليس من وضع هو .

وسمة أخرى .. زمت شفتي استنكاراً لهذه السطحية في التفكير .. ولهذا التهورين المازل من تلك المرحلة الجلدة .. ولهذا النمى الصياني من جلال الموقفة التاريخية ، وكنت أقول - أنا «الخصم» - لأولئك «الخصوم» إن الخطورة ليست في الصياغة بقولها وزير متسرر أو كاتب متمكن .. أو خير مدرب .. أو لجنة منهم .. ولم يقل أحد هير تاريخ الحضرة الحديثة أن من شروط القيادة أن يكون القائد أبلغ حطيب أو أجمع كاتب .. وكلنا نعرف أن رئيس أكبر دولة في العالم لا بد أن يراضه أكبر خبراء القانون في الصياغة إذا كان يتمزم إبرام اتفاق أو معاهدة وأ أكبر خبراء السياسة إذا كان يتمزم الحصول في محادثات سياسية .. ولكن الخطورة أن حال جدد التأسر وقف بمجدارة وكفاية وثبتت إلى جوار شيوخ الفكر والسياسة .. وحل الصيد الدولي .

و كنت أشعر .. ولم يكن قد مضى على إردود كراهيتي للنصرية غير امد قصير ..
كنت أشعر أن سطحية التفكير من جانب الخصوم تكاد تضيف هذه الكراهية ..
بل تكاد ترادى على أن أدنو من النصرية مرة أخرى .. وكذت أدنو .. لولا أن
استترى لنفسي ، أبى على أن أبدو أمام هذه النفس مهزور التفكير .. حادث يشدني
إلى الشمال .. وحادث يشدني إلى اليمين .

و كنت أحل الصلحكة الساحرة محل المصعب المأزر .. كلما كان الخصوم يعودون إلى
التعقيبات « البائعة » على الرحلة « الفناجعة » .. ويقولون إن كل ما يصدره ناصر
من قوانين .. وكل ما يقيمه ناصر من مشاريع .. وكل ما يلقيه ناصر من خطب ..
وكل ما يصحه ناصر من خطط .. إنما هو من صنع عباقرة (مأجورين) من علماء التنازية
الضاريين في الأرض يلتبسون قوتاً ، أو من خبراء الماركسية للضاريين في الأرض
يحملون الماويل للهدم لا البناء .. ويوقدون التبران بين الطبقات .. وينشرون القومى
والفساد بين الملايين والبال .. ويجهرون على الاستعمار حيث كان .. لينفخو لهم
البلو .. ولتبيد الطريق أمام « المدعب » الآخر .

و كنت أقول لم صاحكا .. وهادئا .. كأننا سر :

— ولكن هؤلاء العلماء والخبراء .. لماذا لم يستأجروا كل زعيم ناشئ ، ولماذا
بجوامع « أحياء » ، ولم ينحسروا مع الزعماء الذين يتكلمون في الدول المتطلعة إلى
التقدم ؟ بل لماذا لم يستأجروا خصومه من الرحسين الحاكين وغير الحاكين ، ليلوموهم
على إراسته من طريقهم ، وعلى استرداد سلطاتهم ونفوذهم ؟ .

بغداد — وباء تلويح

وفي شهر أبريل والمؤتمر قائم في مانبوج ، ورددهاته تموج بأربع رجال الشائبات
في كل دورة ، وحال يملن من فوق منيرة علاء الصريح للاستعمار والأحلاف —
والعراق يمثل في المؤتمر بوفد كبير يجب في رداء عربي فضفاض ، فوجيء العالم مستر
ليندن — طيب الله ثراه — يقف في مجلس الموم ويقول : إن حلف بغداد يرفع صوتنا
حالياً في هذه المنطقة بل يصح هذه المنطقة كلها داخل نفوذنا .

وأتركه حتى من جديد وأعيد قراءة التصريح ، وأربط بين حلف بندا الذي قال عنه نوري السيد إنه إنما أقيم كرد الدول الشيوعي عن الشرق الأوسط ، وقاله صانه ليدن إنه أقامه ليضع الشرق الأوسط كله داخل النفوذ البريطاني ، عدت أربط بين هذا الحلف .. وما قاله ناصر في مؤتمر بانكوك . ولم يسمي إلا أن أرى بوضوح ، أن جمال أصبح في نظر العالم كله عدو الاستعمار رقم ١ ، وأن حلف بندا إنما أقيم كرد الدولان الناصري من النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط . وأن هذا الحلف يعمل في خط واحد — وفي اتجاه واحد ، مع إسرائيل ، أراد بعض أبناء الحلف أولم يريدوا .

• • •

وواضح من هذا العرض الذي مر شريطه أمام عيني ، وأنا أسم الأحداث بعضها إلى بعض داخل إطار محكم ، من خالص المنطق ، أن القائد الشاب أحرز نصراً لا شك فيه — أردوا أولم نرد — وأن حصيلة التصريح أن أقيدها في (الرصيد) لحسابه الاثنين لا لحسابه اللذين .. ولكني لم أفعل .

• • •

وكان المنطق — الخاتم على وجهه داخل رأس الحظم — يحتم على أن أخطو إلى الناصرية خطوة واسعة في هذه المرة — ولكن شيئاً من الخطو لم يحدث .. كما أن شيئاً من قيد الحصيلة في الرصيد لحسابه الاثنين لم يتم .

فلماذا ؟

الجواب عند (المولى) وعند (الأحقاد) .

وقد عاد (المولى) يميل في من جديد إلى حيث تكن (الأحقاد) في حنايا الساقطة وقلت أحاول أن أبرر هذا (الليل) وأدرك هذا (للفلق) :

— نعم ، أشهد أن (أخانا) يمشي رابط الجأش على طريق النصر ، ويخطو حاجة اعترف أنها تتير الإيجاب ، ولكن إلى أي الأهداف هذي الخطى ؟ إلى أمجادهم

الشخصية لا إلى أعباء العروبة ، والليل أنه أعلن الثورة والدول العربية لها جلسة تضمها في إطار من التضامن العربي المحترم ، وأنهى هو بهذه الدول إلى انضمامه تأكل فيها . ووضح أن ناصر إنما يريد من بغداد ما أراد منها هو لا كوالفتر ، لا ما يريد لها العرب ، وأن (الوحدة العربية) إنما يتخذها ستراً يحلج وراءه أطباعه ، والدليل القياسي في هذه المرة ، الدليل أنه قال لأحرار مصر ذات يوم (ظلي نفسك) فأدركت الأحزاب ما يرمى إليه (وانتفتحت على نفسها) فأنشز فرقة الانتفاق و (أسجز عليها) ، والدليل أنه استعان (بالإخوان) على الأحزاب والاحتلال والحكم مهدد ، فلما اتفق على الجلاء وتخلص من الأحزاب ، التحقت إلى (الإخوان) و (أسجز عليهم) .

وظلت أستوحى كل حدث (حقاً يراد به باطل) وأعكس الأوضاع التي كنت أراها بمنى رأسي حتى تبدى مقربة أمام عيني .

ولم أتردد هذه المرة في قيد الحسيبة لحسابه للدين لا لحسابه للدين .

والامبراطورية أيضا؟

وليت دعوة (السمودي الكبير) وسافرت إلى الجبلز لأؤدي فريضة الحج الثانية في صيف نفس العام ولأنه مع (المكتبات) حطب الكتاب ولأرى إن كان (الإخلاص) السطحي الذي كان يرطب به السموديون الرسمىون أديتهم وهم يتحدثون عن (مصر القامرية) لا يزال يرطبها .

وقال لي بعض المصريين ، إن ذلك (الإخلاص) عملة لا يزال معسولا بها . ولكن مثل هذه (العملات) القابلة للتداول الآن ، يمكن أن تسحب من الأسواق في أى وقت ، من غير أن يحدث سحبها أية حزة .

وشرعوا مثلاً للوقوف ، قصرأ منلق الأبواب أشاروا إليه ، وقالوا إنه بنى خصيصاً لاستقبال الملك فاروق ، فلما خلع عن عرشه ، أقسم الستولون ليطلق القصر منلقاً حتى يعود المخلوع .

ولا أحب أن أتوسع في هذه الناحية ، كما لا أحب أن أسيء إلى أحد ، وليس من أهداف الكتاب أن يسيء .

وإنما أردت أن أقول إن فكرة الخوف من الناصرية ، كانت مخمرة من البداية في أذهان السوديين الحاكين ، وكانوا يؤمنون بأن جمال ، إنما يستل ودم . وود كل من تصل أسبابه بأسبابهم . لعرف الأذهان عن (الإمبراطورية الناصرية) التي يحلم بها .

وحق الخلفاء التي كان يؤذيها لم ، كانت تستقبلها تلك (الفكرة المخمرة) في أذهانهم فإذا هو أود إليهم صباطاً مصريين يدربون قواتهم ، فهو إنما يوردها لبث (الروح الثوري) بين الضباط السوديين نوطنة لإحداث انقلاب .

ونقابة الصحفيين ؟

وانتهى الخليج . واعتزت العودة .

ولكن حدث تصادم وقع ذات ليلة لسيارة كست أستقبلها ، ونقلت إلى المستشفى اللبناني بحدة في حالة سيئة ولم أعد إلى القاهرة إلا في السابع من نوفمبر ، أي أنني بقيت في الحجاز ثلاثة أشهر كاملة . أشيع عني خلالها أني عيت مشرفاً على النشر في السودية . وكانت غابة الصحفيين — التي كنت مصوراً في أول مجلس إدارة متعصب لها — تعيد تنظيمها باستبدالتي من المضوية لثالث (السب الزعوم) ولا أدال — والله العظيم — مقبداً .

وكانت لحظة جديدة من (الناصرية) لشخصي الضيف .

لم يكفوا بإنهاء جريدتي ، بل استبدلوا أيضاً من المضوية (المادية) في النقابة هذه المضوية التي يشتم به كل تلاميذي بنزكية مني . . . ولا أريد أن أتوسع في وصف الأمر الذي تركه في نفسي ، ذلك التصرف .

والتسلح ؟

والأهم من هذا كله ، أتى فوجئت وأنا فى جلة ، بلديع يحمل إلى أذنى ، صوت
تعبير سياسى مروع فى وجود كل الحضور — حصوم ناصر والناصرية — من الحاكين
فى الشرق الأوسط أو فى خارجه — وكنت أعد عسى يومها حصا — وأهى بالتعبير
تسلح المسكر الشرقى لطيشا للمصرى * عملية تجارية . عادية ، تدفع مصر بخصاصها
تمن هذه الأسلحة ، منتجات مصرية *

واستمتعت إلى « حال » وهو يلقى فى (معرض القوات المسلحة) ذلك الخطاب
التاريخى ، ويسرد فيه قصة الأسلحة التتالية التى تتحكم فيها الدول الكبرى فى العرب .
وترفض أن تزود بها جيش مصر ليحمى بلاده ، وتزود بها جيش إسرائيل ليحتذى على
(غره) ، ويجب للصحة الكبرى التى تمت عواصم أوروبا وأمريكا ، وذكر أنه طلب
من فرنسا السلاح فساوتته على أن يترك الفرنسيين أسراراً فى شمال أفريقيا . وطلب
من إنجلترا السلاح فروعته لتستغل الوقت فى تسليح إسرائيل منها ومن فرنسا وبلجيكا
وركندا وإيطاليا ، وطلب السلاح من أمريكا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكل دولة
تمنع الأسلحة ، وكلها كانت تعرض شروطاً سياسية تنافى مبادئنا الحياضية ، ما عدا
تشيكوسلوفاكيا فقد قبلت ، وبغير أى شروط تناقذت منا !

وامتدت الصحة فسلا إلى كل عواصم الدنيا ، ولم يكن للصحف المالية من حديث
إلا حديث مصر وتسليحها والخطر المتوقع منها .

ولكن الصحة لم تندمط طريضا إلى آذان المصريين .

كانت الصبغة قد هدأت ، قد حجبها صبغة أقوى ، من إدارة الشؤون العامة
لقوات المسلحة المصرية .. صبغة أسبوع التسليح الذى أقامه وتخذ للهداية له ، ضابط من
الضباط الأحرار كان يرأس هذه الإدارة ، وكانوا يسمونه البينلمو ، وسمه محمد حمدى
عاشور ، وأحبب الآن محافظ الاسكندرية .

وانفتح الأسبوع اللواء عبد الحكيم عامر (لشیر الآن) ببدء مؤتمر وحار ،
ما كاد يذاع حق أقبل للمصريون حل (التبرعات) بصورة مدحلة ، وتبرع الرأسماليون
(خوفاً وطعماً) وتبرع العرب في كل مكان تفتيحاً دعائهم الناصرية العربية الزاحفة .

وإنما كانت ذكرى الأسبوع العجيب قد استهوتني فأضمت فيها ، وأصليتها هذا
الميز من كتابي إنما قصدت إلى القول ، إن هذا الذي يستهويني اليوم كان يملأني
حنناً في سنة ١٩٥٥ .

كان اللطفي - وبالشقاء للطلق معي عبر السنوات العشر - يفرض علي ضميمي
أن يبارك هذه (الضربة الناصرية) التي سددها «جمال» على غفلة من العرب وإلى صميم
صدره وأن يهتف لما كاد يهتف كل يرى من أهل وأهلك .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

كان الإخوان - المروى والمندوى - يسلان .

وكان الخصوم يسلون .

جمال كشيته قصة التسليح هكذا بدأ الخصوم يتولون .

جمال .. شيوخ مصر ، أحراراً ودعماً ، وأحراراً من فة الرأس إلى أخمص
القدم .. وإن كان لا يريد أن يتبدى قاتل الحرية .

جمال يمشي عصر التسليحة إلى الستار الحديدى للصف الحجاب عروشوف
الشيوعي ولكن من الباب الخلفى ، من الباب التشيكي وتحت لوحة راقعة كتب
عليها : اتفاق تجاري .

جمال ... لم يبلغ الحكم للسكس حياً في الحكم الجمهوري ، وإنما ليضم جمهورية
مصر إلى الجمهوريات السوفيتية .

وجمال لم يصف الإخوان بسبب الإرهاب الذي اتخذوه سلاحاً ، ولم

بلغ **الحاكم التشريعية والمجلس الأعلى** سبب فساد في قضائها ، ولا بسبب الرحمة في قضائها ، وإنما صنى . وألغى ، لحساب التفرقة التي لا تتعرف بإسلام أو مسيحية ، أودين من الأديان السماوية .

وجعل .. ، إنما حل الأسراب وأجهز على الإقطاع ، ليشتى بالبلاد إلى حكم البروليتاريا .

وجعل ، إنما اتخذ من نهرو حديقاً ليتغذى سطرأ لأن نهرو اشترى كي معتدل وهو أمل على أي حال إلى اليسار .

إلا ربى .. وإيماني ؟

قضى الأمر — إذن — وحدثت مكاني ١٩

استغلز التردد فصدت أن أقول : وكنت أحد مكاني

كل شيء في الوجود أنهلون فيه ، إلا ربى وإيماني

السياسي العربي أخاصه اليوم ، وقد يصلح الأمر بيننا غداً ، وقد ينضم إلى ، وقد أضمر إليه ، تحت وطأة ظرف سيلي ، أو بدافع من مصلحة بلاده وبلادى ، إلا التضييق أخاصه حتى الموت

وأنا إذن أخاصك يا أنى جمال ، حتى الموت

هذا هو القرار الذي انتهيت إليه سنة ١٩٥٥ وقلت بملء الفم (وحدثت مكاني) وطلب على (التردد) قلت أحل ثمار القرار : (وكنت أحد مكاني)

ألم أقل لك أن كل الخطوط ظلت تنهرف في يدي طوال السنين العشر ؟

نصر.. ولكن

ومع أن البانديت حواهر لال بهرووجه الرئيس جمال عبد الناصر دعوة إلى زيارة الهند فاستجاب لها «جمال» وعرف كيف يبرز بها خارطة الباب الشامل لأفريقيا، نصراً للوزراء في الهند المريقة، والهند المديقة، وطوف «جمال» بكل أرجائها، واستقبله المنوّد بالتقريب وبالرود، وحطب في البرلمان خلف في النعوس أترأ غير هين، وكان ينهى أن أشمر كعصرى شىء من فهو، ولكن (اللون الأحمر) المرحوم ردى عن هذا الشعور، وذهب مصره في الهند من غير أن يترك في شىء أى أثر، بل على التقبض نحت على كل أثر للشوامخ، من قصص بانديت ونسليح الجيش، وزيارة الهند، وبدأت أمى بالصنائر، التي كانت هوية نصوصه، وكنت دائماً أمد هذه الهواية، بدأت أمى بألوان مهالا بينى أن يُسمى بها رائد قصة المنشورات المناهضة للنصرية، والتي صبط أحد الوزراء السودانيين وهو يطعمها في القاهرة، ورحت ألتخذ منها دليلاً على فشل (السياسة الناصرية) التي فصلت السودان عنا، ثم جعلته هدواً، فشرع ورواؤه يقولون بأنفسهم طبع (المنشورات) صدنا، وفي عقر دارنا وفي عاصمة بلادنا.

«الجمهورية».. تهاجنى

وكان القرار الذى اتخذته صد (الناصرية)، وطويت عليه قلبي، قد أفلت من هذا القلب، وانقلب إلى دعاء الناصرية، يقدم إليهم ذاته أو عباراته.

نعم، حدث — ومن غير مقتضى أيضاً — أن سبوا إلى حريدتي وإلى كل صحيفة ومحطة اتهاماً لا أبوى أن أتبره الساعة من ناحيتي وإنما أرحته إلى (مذكراتي عن رح قرن في الصحافة)، ولقدى يحنى أن جريدة (الجمهورية) تركت وراءها كل أصحاب الصحف وعقدت فصلاً رئيسياً خصت فيه شعبي المصيف الملعوم النيف، ونسبت إلى ريشتي — كناقذ برلمانى — كل التحليل الذى بلبل الجماهير، وأنا أرسم بها صوراً حلاية وكادية، للسياسيين القدامى في البرلمان المصرى.

ولم تنع (الجمهورية) بفصلها الضائق، وإنما أطلقت الحرية لبعض المحررين الذين

كانوا يسلمون يومئذ فيها فراسخا يتساقون في مهاجتي أنا الذي لم أقاتل فاروقاً ، ولا
عرفت قصوراً ، ولا ردت دار حزب ، ولا سهرت مع رعيم .

وأما كان جيب ذلك المعلوم -- غير المعلوم -- من الخطأ أو من الصواب ،
فهو من غير شك زيت جديد صب فوق النار التي كانت تتأجج يومئذ في صدرى .

استقرت النار -- إذن -- واردات استمراراً .

وانترعت كأسى بحمر الكرامية لا بحمر الشكوك .

وأنا -- إذن -- أحاصيك يا أخى حلال ، حتى الموت

• • •

وهى أن أكون بهذه الصورة التي رسمتها لك من تلك الفترة للنسبة ، قد
أعلنت في تصوير الحلقة الخامسة في موقفي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

افضل الشائس

حديث التامر

واصح من الساعة ، أن أذن الإثنين ترحيان بكل حديث غير سار ، من جماعة التوار وكان لي صديق شبيب يسمي — كرمًا — استغله ، لا شيء إلا لأنه كان يهوى الصحافة ، فلما تخرج (من كلية الآداب) أشبعت فيه هذه (الموابة) فألفته (محرراً) بمريدتي (السوادي) ، ثم التحق بمريدة (المصري) ، ثم انفصل عنها أو فصل منها — لا أذكر — وتعرض لبطالة ، فأعدته إلى (السوادي) فوكلها على (خزائنها) للتواضعة ، حتى التحق بمريدة (الأحرام) فشكر لي تلك (الفضيلة) .

ويهمني أن أنجب من الساعة ذكر اسمه — وهو صاحب أخطر دور في (الوزارة) — حتى أكون أكثر نحرراً في الحديث عنه — من غير أن أشهره أو أسيء إليه — وله حل كل حال حتى (الصديق القديم) منها ينصرف في الظرف أو اللطع . وهو أولاً وأخيراً ، والله . . لأطفال سنة .

وسأحرص على أن أشير إليه — عبر الحديث الطويل عنه — بكلمة (الكتاب)

...

ولعل الشبيب كان يسمي استغله ، لسبب آخر ، يحصل بالنسبة أو بالأكثة فاما أكبره سنة عشر عاماً ، وكنت في الحقيقة صديقاً لأخيه الأكبر لا — وأخوه الأكبر أديب معروف وعحقق لتوى — وقد هشت حياتها منذ كان (تلميذاً ١) طالباً ثانوياً وشهدت السكتات للنضى للرير الذي خلفه الأخ الأكبر في إسرار (يبدو الشفقة والإعجاب) لكي بكل لأخيه الأصغر دراسته الجسمية .

وكان الأخ الأكبر « محمداً » في « السوادى » أيضاً .. عندما ألحقت أخد الأصغر بها ..

وكان الأخ الأكبر يقضى أيامه وشكوله من تنكر الأخ الأصغر له وتعبه عليه بعد أن يخرج، وكنت أواشى الأكبر .. وأزوب الأصغر .. وأحاول — مهبطاً — أن أصطح ..

وقد أملت إلى تلك القصة .. لتترك حلاقة الصلابة بيني وبين هذا « الشاب » ولتترك — بالتالى — مدى الملتصاق إليه .. إننا هو تحدثت إلى « حارلاً أو جليلاً » .. في السياسة أو في غير السياسة .

وكنت أعرف مواطني القمص .. والصف فيه .. ولم أكن أحضرها .. احتضناً متى أن كل إنسان فيه مواطني القمص أو القمص مع التفاوت .. وكان يكتمني منه وقاؤه السطحي .. ولم يكن من عادتي أن أطلب في الأصدقاء سرّاً في الرضا .. ولرأى من ناسحتي كنت أبالغ هذا اللون من « السرف » بما دمر حياتي أو كاد .

وكان « الشاب » قد استطاع أن يربط — بواسطة الصحفي الكبير الدكتور محمود عزمي — رحمة الله عليه — إلى منصب « السكرتير الصحفي » لوزارة الخارجية الوفدى الأسبق الدكتور محمد صلاح الدين .. فأولاه ثقته — « لمرطتته بزمى » — واستعصبه في رحلاته المشهورة إلى منظمات هيئة الأمم في نيويورك وفي باريس .. كما وثب من ناحية الوظيفة وفي مدى قصير — أحسبه طامحاً أو يريده — إلى الدرجة الثالثة مع أن صلاح الدين كان « الورور الحزنى » الأوحداً الذى لا يلقى للموظفين استثناء إلا عن الاحتياج بالجدارة ومدى على أنه لم يكن له « محاسب » . ولم تكن خلال تلك « الفترة القمعية » في حياة « الشاب » نقلة أو نزاه ..

فلما قامت ثورة ١٩٥٢ نقل إلى وزارة الإرشاد .. وأعطى رتب الرتب ولكن على اعتماد لا على درجة سرفاسه أن يصبح عرصة للفصل إذا ألقى الاعتدالين عليه .. وعارود الاتصال إلى .

• • •

وكنت قد عدت إلى مكاني من « الفهم » في كل ليلة — بعد احتساب « السوادي » — وبدأ « الشاب » يتردد على — بين الحين والحين — في « مكنتي » نهراً أو في « مقهى » ليلاً ، وكان يصحب معه ابنة الطفل أحياناً .. وكنت أحب ذلك الطفل لمرط دكانه .. فازدانت الصلة توتها .

وكان « الشاب » يحسن التعبير عما يريد .. في عبارة سليمة .. وفي خلافة مستأنية .. وكان من أظهر موهبه .. إصراره على أن يمرض عضلات مراحه ومواجهه عنوة على جلساته .. أحسنوا الإحسانه أو لم يحسنوه .. وتقل عليهم أو لم يقل .

• • •

وواضح أن « هواء » لم يكن مع الثورة .. استمسا كما برودة الوفدية كما يزعم . وعصياً على وصه المسكوى كما كنت أظن ..

والذي يبينني من هذا الحديث .. أنه التقى بهواه مع الانحاء الذي كنت أستريح إليه وأرضاه .

شهد الطريق

وكان « الشاب » قادراً .. على فصل أي بيا تائه يقرب إلى .. بحيث يتبدى في تفرك بعد الفصل بيا له خطوته .. فما بالك إذا ترامت إليه ألباء لها خطوتها !!

وعلى — وأبنا أحدث الآن من سنة ١٩٥٦ — أن في « جبة الشاب » أنباء « خطيرة » .. وأنه « يتحفظ » في الإشارة إليها رغم قننه في .. أو رغم اعتقاده أني على شيء مما يسميه الناس « خلقاً » .

وكنيت أقيم في حي (العجالة) .. وكان يقيم في حي (العباسية) .. وكانت (سهرى) في (قهوة عيكس) بشارع عماد الدين .. وكانت (سهرى) في (كازينو أوبرا ..) فلذا أمضى السهرة ضيفاً علينا .. وافقنى عند سباحتها إلى أول (العجالة) ليستقل (الترام) إلى دلو .

وكانت تلك الرحلة القصيرة .. هي الفترة الثريدة .. التي يخلو فيها إلى ، ويغنى في أدنى يعمس الأنباء (الثيرة) يطشتني فيها — و (تحفظ والتهصب) — إلى قرب زوال (النظام الناصري) الذي يضيق به كما أصبح .

وكنيت أدع (حرية التحفظ) كاملة .. ولم أكن أبدي من ناحيتي أي رغبة في استراحه إلى مزيد من (الأنباء) أو إلى مزيد من (التبصير) .

واستطعت مع الليالي أن أفهم أن في صفوف الجيش انقساماً .. واستطاع هو أن يدعى أشم من خلال حديثه المامص أن صباطاً كثيرين يفكرون في تخليص البلاد بما كان يسمى (ديكتاتورية ناسر) .

وملأت رثي — طبعاً — تلك «الرائحة الزكية» وعشت سكايات أدرك منها أني أتنفس بارتياح في تلك الأسمية .

وبعدها .. شرع يخطو إلى .. في سيارة .. وعلى حفر .

و . إذا أفضى به «مملومة» جديدة — كما كان يسميها — وما أني الرأي فيها .. اكتفيت بضحكة قصيرة .. أو بملارة مارحة عن عباراتي .. مألوفة من كل أصدقائي : «ربنا يسم بخير» «تتمسط أساريه ويشارك في الضحك» .. ويهز يدي مودعاً .. ويشب إلى «الترام» .

أمريكا والثورة؟

وإلى جانب تلك الخطى التي بدت لي مرسومة وعادة .. كان «الجو السياسي» شبه «مشحوناً» بكل ما ينرى الناضجين بالولوج في التتصب ، وبكل ما يمرى «مصانع

«الثالثات» يصنع للزبد منها والجديد ، وكان في طليعة تلك «الثلاث» — جهود
 هيد الناصر في محاولة التقرب من «أمريكا» .

وقد أتاحت تلك «المحاولة الناصرية» لجانبات الخصوم ، فرصة ذهبية ، فاعلقوا
 يدلون بمحاولات «مزعومة» .. على أن الثورة من بدايتها إنما قامت لحساب
 «الأمريكان» ، وأن «كامري» إنما هي للثك وأشار عليه بأن ينبغي بحياته ليتخلص
 منه في هدوء .. ولتمس الثورة في طريقها «بيضاء» من غير سوء ، حتى تأخذ الطريق
 على أي تدخل بريطاني .

وأكد الخصوم — وكانت هناك قرائن تزيد ما أكدوه — أن «أمريكا» هي
 التي استغضت نفوذها وولت صفتها على «البلقاء» حتى عقدت مع «القاهرة» اتفاقية
 الجلاء .. وبهذه البراهنة ، تحلست أمريكا من الملكية التي كانت قد تمتعت على يد
 للثك وأسرت .. بعد أن قيل ما قيل عن صلة الملكة بأحمد حسين .. وعن حادث
 ابتهاج رياض خال .. وعن تدبير الأمريكان للتصادم الذي ذهب أحمد حسين ضحية له .

أكد الخصوم أن أمريكا التي عاوت على عقد اتفاقية الجلاء وعلى التخلص من
 الملكية واللك والأحزاب ، هي بمنها التي اشتهرت «حريق القاهرة» فأعرت الضباط
 الأحرار بالتسجيل بشورتهم ، وتمهدت بمهابتها لهم .. وهي التي أشارت عليهم أن يرسلوا
 الفدائيين إلى القتال .. ليحصل المختل صماء فوق كنفه و يرسل .. ولتترك أمريكا
 عصاهما خارج الباب .. حتى يصفو الجو وتدخل .

تمويل السد ؟

وكانت أقوى ضربة سددها الخصوم إلى الناصرية هي ما أسماه «فضيحة السد
 العالي» والسامى التي بلغها جال لحسل أمريكا على أن تحول له حله الكبير ، وتبنى له
 سد العالي ، لتتفق أموالها وخبرائها على مصر ، وليضمو أيديهم على كل شيء فيها ،
 ضماناً للتمويل ، وتجديداً لأساتة القروض في عهد إسماعيل .

ولم تنفع « الشائعات » بهذا « الإطار الأمريكي » نضع داخله « القائد الشاب » و « مشروعه الكبير » ، و « إنما تدهزت » إلى الطمن في سلامة للشروع نفسه من اذاحية الفنية ، واستحالة تحقيقه من ناحية السودان وغير السودان من « الجيرلان » .

و « لو إن أمريكا تترك كل هذه « الحقائق » ؟ » وهي ترى إلى تورطنا فيها ، حتى ينسى لها . أن تمكن لأعطيوها أن يتسأل بكل أذرع .. إلى القمص على مصر من قة الرأس في الثور « على طريقة بناما وكوما » إلى أحسن القدم فيها بعد أسوان . « وباسم السودان والجيران » ، وتصل بين هذا كله وبين مهام لها سيدة المدى هما أسموه « الحزام الإفريقي » .

وبهذا تبدى جمال عبد الناصر في « آسوطبة » له — أصدرها حصوه — أمريكا لحا ودما . ورأساً وقدماً . بعد أن كانوا قد رسموه لنا « شيوعياً آخر » . ولا كواض السكايات : لم ودم .. ورأس وقدم .

دى ينلى

في ذلك الجو الذي أفضته مصانع الشائعات سموها .. وساندتها رأسالية قوية لم تحم الثورة من قوتها ، وإقطاع طلاع لم يؤثر في عقاراته وممتلكاته ما استولت عليه الثورة مما يزيد على المائتين من المداين بعد أن رحس لهم أن يبيعوا الزيادة بالنقد لمن يريد الشراء .

في ذلك الجو ، الذي تحمست في صدرى خلاله حصيلة محينة للأطباع الناصرية تقرية الطامح حيناً ، وعطرية الاتحاد حيناً ، وشيوعية الرأس والمقدم حيناً ، وأمريكية الصم والهم أخيراً .

في ذلك الجو . وسد أن مهتس « الشاب » أن في الجيش انقساماً .. وكانت قد ظهرت فعلاً « مؤامرة البيوزمانى المصرى » وحدثت أحكام فيها . ودكرت الشائعات اسم صابط كبير في سلاح الفرسان أغلته « النكلاوى » . على رأس مؤامرة أخرى .

في ذلك الجو . ظهرت « محطات سرية جديدة » تؤلف شبكة دهيبة . وتضرب

حصاراً أثيراً بما من حولنا ، لتذبح علينا كاذبها ، وتستخدم في إزاعتها .. مصريين من المصروع .. كانوا قد تمكنوا من السفر إلى أوروبا ولم يسودوا . واتصلت قلوبهم للملاي بالأحقاد .. بقلوب الأعداء في « حلف بغداد » .

واستمع للمصريين إلى محطة قوية الإرسال إسما (صوت الحق) وإلى أخته لها ، إسما (صوت الحرية) .

في ذلك الجو ، اتى أرى فيه « صانع الثورة » موضوعاً بكل « عبقه الثوري » داخل الإطار الأمريكي الحكم . عنية لم وعيلاً ، دوى انقباض جديد ، ملا الجودحاناً ولم سد نرى شيئاً .

القنبلة الجديدة

سم ولي العشرين من شهر يوسنة ١٩٥٦ على التمهيد فوجشا — كاجوس .
العالم كله — ببيان أمريكي لا ينسى .. ترفض فيه أمريكا تمويل السد العالي .

وتقول في البيان أن هذا المشروع « لا يمس حقوق مصر ومصالحها حسب .. ولكنه يمس أيضاً مصالح وحقوق الدول الأخرى التي تقع فيها منابع النيل وهي السودان وأثيوبيا وأوغندا » وأن « التطورات التي حدثت خلال الأشهر السبعة التي انقضت على تقديم العرض لم تكن مواتية لمصالح المشروع » و « بناء عليه قد انتهت الحكومة الأمريكية إلى أنه من غير المصلحة الاشتراك في الظروف الحاضرة في تمويل مشروع السد العالي إذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة في مياه النيل » .

وفي اليوم التالي تاجتها إنجلترا فسمحت عرضها وتاجها البنك الدولي فسمحه عرضه أيضاً .

* * *

وكان الباء كله قد انقض فوق رأسي أما وحدي ؟!

وكأنى نخل دول في الد العالي .

وكأنى طرف في التمويل كأمريكا وانجلترا والبنك الدول .

شمرت بأن حيوط اللوح تشابكت بين يدي كما لم تشابك من قبل ، ورحمت
أقول لنفسى وكأنى أحلم :

— سموات أربع عت الخصوم حلالها باملقنى ووحداى وإدراكى .. وتنقلوا
فى فمرضى للتصوير لا نهاية لقطعت فيه . رأيتى إحدى اللقطات جمال عبد الناصر
« ولديها » وراية « اخوانيا » وراية « شيوعيا » وراية « انجليزيا » وترك
حصيلة المرض الأخير داسل « الاطار الأمريكى » وقامت كل القرائن على أن الرؤية
فى هذه المرة واضحة ، فإذا البيان الأمريكى يمزق الإطار نمرقاً ويكاد يملن على الأشهاد
أنه إنما يسترد عرسه ويرقص عونه بكافة فى « ناصر » وحده . بدليل حرص البيان
على أن يقول « الشعب المصرى » أن هذا الرقص لا يحدث أى « تغيير » فى علاقات
الد يته وبين « الشعب الأمريكى » .



وناصر — إذن — رفض أن يتأمر كرفضت أمريكا تمويل الد .

وكل ما ترمى إلى أذى — إذن — ومن « مطالع الثورة » ومن « ناصر » .
يقضى « مراجعة الحساب » . والبدء من جديد فى دراسة « القائد الشاب » .

هو إذن ليس وفدياً ولا إخوانياً . وليس شيوعياً وليس أمريكياً .

وهو — إذن — « جمال عبد الناصر » فقط . فن هو — إذن —
« جمال عبد الناصر » . ؟

أكون — إذن — أمام « رسالة جديدة » نزلت على قدير من (هى مر) — ومن
طريق الإلهام لا من طريق الرسمى — ويكون مكانى من الصف مكان أبى لب —
مع كل القوارق ، أم أن الخصوم على (حق) ، ويكون من (حقى) أنا أيضاً أن

أفكر في هذا (الحكم) كما أفكر في أي نسخة (بشرية) من نسخ الديكتاتورية
تعمل على عزل تقي، أو غرار حثري، أو غرار قاضي.

ولم أستطع أن أجيب، ولم أرد أن أجيب.

وأتيت أن أنزوي بيديا، حتى أستطيع أن أرى، أو حتى تنصح الرؤية.

واختلعت عن مكتبي ومقاهي أبلدا، ثم حننت إلى المودة إليهما، عسى أن
أسمع من أي زائر.. ما يملأ به الخوصم تحسب أمريكا من تمويل السد العالي وما كانوا
يذهبونه عن السبيل الأمريكي؟.

وكنت أعتقد أنهم لاخو بالبحر، خبلا من الصدمة، وأني لن ألقى أحداً
منهم، ولا أحداً ينقل عنهم ويأتمهمهم. عدت فرأيتهم شوايح ورواسح، ورأيت
حيونهم وهي ترسل إليك تحية النصر وضاعة الثورات.. أخاذة الزين؟.

لقد كانت هناك عبارة واحدة جديدة يرددونها في تحد ويقين.. وهم يقولون :
انتظروا خطبة جمال بعد أيام.

وكنا — في شهر يوليو، وهم يقصدون — طبعاً — خطابه في عيد الثورة.

— ولماذا فيها إليها الإخوة؟

ولم يجيبوا بصراسة. لأنني بداهة «الضالم» لم يستمقصراً على الشاب — الذي أحماني
كرمائه استأنا له — وإنما هم الرباه مسكرات الخوصم جيماً، واردة دوت رؤوسهم
اعتزازاً، وأرسلت شفاههم اشماماً، واستطعت بعد الجهد أن أتهم ما يعنيه الخوصم
بعبارة : «انتظروا خطبة جمال بعد أيام». استطعت أن أتهم أن (ناصر) ركع على ركبتيه
أمام (البيان الأمريكي)، وأنه سيمتلئ في السادس والعشرين من يوليو، عودة الأحرار
وبمحدد موعد إجراء الانتصاف ورد الأبطال التي استولى عليها إلى أصحابها.. ولم يشترط
إلا أن يبقى رئيساً للجمهورية إلى نهاية مدته.

وفي الخامس والعشرين من يوليو تراجع الخوصم خطوة، فانخفضت شاشة رد

الأطيان إلى أصحابها ، و بقيت قصة عودة الأحرار وإجراء الانتخاب ، وإعلان الجمهورية (برلمانية) بدلا من (رئاسية) مقابل أن تملن أمريكا و إنجلترا والبنك الدولي استعادها تمويل (للتشروع) .

ركوع .. ولكن ؟!!

وفي السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ اجتمع خلق كثير في ميدان الشيش الكبير . وفي تلك الليلة كنت أمام (الراديو) في (الفيلا) التي كنت أستأجرها في (الطرية) وأسبوعها في (الزائرة الكبرى) : (البيت الكبير) .

وبدأ عهد الناصر يلقى خطابه :

وأحسست أني أناهب ثم شفق .. لكل كلمة يلقيها ، في انتظار إعلانه للتم ركوعه الخجول أمام السادة الأمريكيين .

ولكن الرجل تبدي - من أول كلمة في الخطاب - في (أحسن حالاته) ، فصبحت له ، ثم عدت صقلت الأمر بأن كل ما يمتنيه ، أن يظل رئيساً للجمهورية ، ولا شك أن أمريكا (أمته) على عهد (الأمنية) هي وحفظها ، كما فعلوا مع (عبدل) يوم ديس بالأقدام ، ورد على الأخطاب ، وقنع من النية بالإيب ، مقابل تأميه على أن تكون مصر وراثية في أسرته .

مفاجأة مذهلة

ولقاء ، أطلتها جمال .. ؟!!

ولم تكن ركوعاً أمام الأمريكيان أو غير الأمريكيان .. ؟!!

أطلتها جمال ، أطلن تأسي القتال .

ووثيت من مكاني في الكرسي بضعة أمتار ، وكاد أحد مد الشرطة يشج رأسي وأنا أسرخ وحدي : (إيه ده ؟ إيه ده ؟) .

ثم رأيتى أنخرط في البكاء ، كالسقط .

كانت لحظة من لحظات العمر ، لا تنسى .

لحظة برئت فيها من كل شكوكى .

لحظة رددت فيها إلى يوم مولى ، لا يرين على قلبى غضب ، ولا يأكل صدرى
الحقد ، ولا يساور خاطرى مطع .

وغيل لى لحظتك — أنى وقعت على اكتشاف بديع ورائع . اكتشفت أنى
(مصرى) بكل ما تحمله هذه الكلمة من شموخ وعزة .

وتأريخى ؟

وعندما نلا حال قرار التأسيس ، (باسم الأمة) ، لم أشك لحظة فى أن تأريخى
التواضع قد جرى بكل جروحه ، إلى القاعة للناصرية ، وفى هزة انفصال راعش سجل
بمضى فى القاعة .

وفى الليل رحت أسأل نعى : أترأى أميت (ناصرياً) ؟

أم تراها (ناصرية مهزوزة) ناصرية ادلاء فى الوجدان والمدافع فى العاطفة ،
لا ناصرية اقتناع من الفكر الحبير ، ومن التفكير الهادى ؟ ولم أستطع أن أجيب ،
كفت سميلاً ولم أشأ أن تفلت منى سطوة الساعة .

وعسى أن أكون بهذه الصورة الصادقة قد رسمت الحلقة السادسة فى موقعى من
(الرسل التى تأمرت عليه) .

افصل الشابغ

عراك دولي

فلت ايلما، أسأل نفسي إن كنت قد عنوت (ناصرياً) على مستوى التاديم أو بسبب هذا التأسيم . أم كانت (لحظة اضمال) ، أملاها (موقف مشر) ؟ .

واستطعت أن أدرك أن مثل هذه (الوثبة) إلى الناصرية سبب (عمل طيب) ليس بالأمر المبين وأن الاعتراف بالعمل الطيب ، لا يمس شيئاً تغيير الرأي في صاحبه فخره أن عملاً طيباً تم على يديه .

وسع إدراكى هذه (الحقيقة) ، لا أستطيع أن أنكر أن هذا (العمل الطيب) ترك بصمته على صفحة قلبى — بعد زوال الاعمال — وبدأت أحس راحة من نوع جديد (راحة) الصل الذي يصرب في الصحراء — ولا توت ولا ماء — ثم يمتزج فجأة على (واحة) ، فيها مع وفيها نمر ، فبدأ كل ويشرب ، ويحمد ويشكر ، ثم يعمص صبيه ، ليأمن مله جفنيه ، تاركاً قد أحدثت المدام ؟ !

ولم يكن أشهى على نفسى في تلك الأيام الحلوة ، من أن يتوارى عن عيني ذلك « الشاب » — حتى أستطيع أن أتبع الأحداث في « جو » لا يسكره « شباب » .

وبدأ المراك الدولي — الذى تعرفونه — بين « ناصر » من ناحية ، و « انجلتيم وفرنسا » من ناحية أخرى .

ولاح لي — بدءاً من الدعوة إلى مؤتمر لندن وانتهاء إلى « لجنة الحسة » التى دارت مصر بريسة الأسفللى « منزيس » — لاح لي أن ما حدث لحد على « القتركى للناصر » ، هو ما يدبر لجلال عبد الناصر « للصرى القاتر » ، وأن « ناظرين » أخرى في الطريق .

ولكن أمريكا ، ما أمرها ؟ وما موقفها من هذا الذي يدور ؟

وهل هي خصم أصيل لناصر ، أم هي صديق ، ترتدى « ثوب الخوصوة » في مهارة ، حتى تقضى على النفوذ البريطاني والنفوذ الفرنسي في الشرق العربي بل في الشرق الأدنى ، لتسكون « القلوت الشرقي » لها ، و رضاء « الحكام الشرعيين » في المنطقة ولها « ركائزها » التي لا تنكسر في إيران وتركيا والسودية و بعض الشبال الأفريقي ؟

• • •

عاد شيطاني يذكرني باليد المالي .

عاد الشيطان بهيس في أذني : إن أمريكا تلعب من بداية الثورة دوراً تمحو لمعق انطبعت فيه جباه كل الشياطين ، وقد أغرت « أمريكا » حليفها « بريطانيا » بالتسحب من « تمويل اليد المالي » ، لهنضب « ناصر » ويؤزم القتال ، لتثور بريطانيا ومعهام فرنسا — أم القتال — وتقتلله ، فتستبد الإغاثذ من « أمريكا » إلى « ناصر » في ساعة المسرة والشرق لا ينسى (اليد البيضاء) أبداً .

هذا إذا أحسنا الفطن بناصر ، وكنت في هذه الأيام أحسه .

أما إذا ماشينا خصوم ناصر من الرحيمين (المصريين) ، وقلنا كما يقولون إنه (عمل أمريكي) فغلبة (أمريكا) تكون أكثر وضوحاً ، وهي تمضي بند (اليد البيضاء) تابعة انطلي ، وعلى وفاء معه ، أو على اتفاق بينها وبينه .

وقال شيطاني : « وأحسن لقرضين سيء » ، وأحل الاحتمالين مره .

وقلت للشيطان : ولماذا مبحث دائماً عن (الرجوه السود) كما ذكرنا (ناصر) ولماذا لم تقترص الاحتمال الثالث الذي عشت — من يوم لتأميم سميذاً كواطن تحت ظله الزارف .. احتمال أن يكون (ناصر) هو (البطل) الذي أعدته العناية لتحرر بلاد « وليس (السميل) الذي ينكس راية الإنجليز ، ليرفع مكانها راية الأمريكان ؟

• • •

ونقلنا جانباً من الإجابة عند ما طار (فوستر دالاس) بأعوانه السمين ، يدير المحيط إلى لندن ، ليأخذ بين يديه زماله ، وليسيطر عليه سيطرته تكاد تكون تامة ، ولتهدور الفئاض كله حول ما أسموه يومئذ : « مشروع دالاس » .

وسألت نفسي :

— هل انقلب (دالاس) (صديق ناصر) في ساعة المسرة ، (نعماً لناصر) مرة أخرى ، أم هي (الصداقة) ترندى ثوب (الخصومة) كما قال شيطاني ؟

ولم أشأ أن أفرض تمكيري على الوقت ، وأنا لا أمك من أسرار أ أكثر مما يملك قاري الصف ، ورأيت أن أتتبع تطورات المؤتمر ، والمطلب التي تلقى فيه ، والجان التي يشكها ، والقرارات التي يصدرها ، والتنازع التي يحصل عليها .

كما رأيت أن أترصد من ناحية أخرى ، حتى يجد ناصر تجاه ذلك العراك الدولي

ولاحظت أن « ناصر » يواجه « متاورات المؤتمر » بمناورات مضادة ..

لاحظت أنه ينف ثم يلين .. ويمصر ثم يراجع ، ويوافق على تعديل « معاهدة القسطنطينية » ثم يرفض « تدويل القساة » .. ويرحب بتقديم الأسطول متزيس .. ثم يرفض مروضه . ويرحب بالتفاوض مع « إندومولي » ثم يستثير « دول باندونج » . ويرد « إندون » بإعلان من وزارة حربه أن الأساطيل البريطانية عادت الموانيء البريطانية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط .. وتزد مرماً بأن أسطولها يشترك من ميناء طولون إلى قبرص .. فيعلن « ناصر » أنه يحتمل بريطانيا ومرماً مسئولية ما يحدث للسلامة في القساة ..

كل هذه التحلي من « ناصر » قد تفهم ..

وكل هذا الخط من « لندن وموليه » قد تُفهم .

ولكن القى لم يفهم يوماً .. أن جون فوستر دالاس (صاحب سياسة : وضع العالم على حافة الحرب) يدفع العالم بمشروعه إلى هذه (الحرب) .. ثم يعلن بلان الرئيس (أيزنهاور) أنه لا يفكر في (استخدام القوة) ضد (ناصر) .

أتراها (اللعبة الأمريكية) .. التي وسوس بها في صدى .. (شطافى للصوى) ؟

أتراها يدفع بالجانبين الواقفين على حافة الحرب إلى الحرب .. ثم يلعب هو الدور ؟

لا أريد أن أفهم نفسى على الإحابة ولست مؤهلاً لها .

وإنما أريد أن لاحظ أن دالاس لم يفتح بالقول أن أمريكا لا تنكسر في استخدام القوة ضد مصر .. وإنما خطا خطوة رهيبية .. فطلب إلى الزعامة الأمريكية في مصر أن يستمدوا الرحيل عنها . وأمر أسطول السادس بإجراء مناورات في المنطقة الوسطى للممر الأبيض المتوسط وفي غير أوقاتها .

مجلس الأمن

وتخرج الوقت بعد أن رفض (ناصر) قرارات الدول الثماني عشرة ، وعروض لجنة الخمسة .. وقيام (هيئة التفتيش) ، تخرج للوقوف بسد فشل المؤتمر وقراراته ، وبعد تحرك شعوب إفريقيا وآسيا لماصرة مصر ، وبدأ (مجلس الأمن) بينهم يواجهه .

واشبه المجلس إلى (المبادئ الستة) التي قرر أن يدعو الجانبين إلى التفاوض داخل إطارها .. أو إلى التوصل بها للتوصل إلى تأمين للأحالة في القتلة .

ولم يمر شوك على حش اجتماعات المجلس دوره على المستوى الإنساني .. واستطاع أن يجمع بين وزراء الخارجية الثلاثة محمود فوزى وسلاوى لويد وكريستيان بيتو وأن يتم الاتفاق بينهم على إجراء للتفاوض التي دعا إليها المجلس .. تاركين لمرشود تحديد الزمان والمكان .

وحدد الرجل .. مدينة (جنيف) مكاناً .. والتاسع والعشرين من أكتوبر ..
زماناً ..

وسافر وزير خارجية مصر إلى جنيف فعلاً .. قبيل الموعد .
وبدا أن باريس ولندن تحاولان التهرب من الموعد .

عذر غير مسبوق

وفي هذا اليوم المحدد لهذه المفاوضات بيننا وبين انجلترا وموسا في جنيف ...
ومن غير سابق إنذار ، أديع نبأ تحركات (القنول الإسرائيلية) وهومها على
الأراضي المصرية عند (الكونتيل) ، وهبوط كتيبة للطلات عند مضيق سدر المحيطان .
وفهم (العسكريون) أنه (هجوم عام) .

وهي الحرب إذن ؟
ومن إسرائيل ، وعلى مصر ؟ ! وربطنا على القلب باليد .
وكان العدوان الذي نمره .

وكانت (بورسعيد) التي دخلت التاريخ تحمل فوق صدرها (وسام الشرف)
بعد أن أخذت كرامة أمة .. لها على هذا التاريخ يد .. ولها على الحصار الشريرة
يوم لم يكن القصر حصانة .. كل حقوق الرأى وكل حقوق الرأه .
وانتهى عدوانهم .. بأكرهية مني بها عدوان .. في التاريخ الحديث .

عود إلى الشيطان

ولم يمتنى (شيطاني) - هذه المرة أسدأً ليلاً .. باللهم الذي شرينامته حتى

ارتويها — دم الثورة التي أذلكتنا سبعين عاماً .. ودم الأسد الذي « قلم » غاندى ونهرط
« أظلمه » في الشرق الأقصى ، وجاء « للمصري الأسير » فاشترع منه « الأنابيب »
وأودعه « حظيرة النجاس » .. أشوة لا تنسى على طريق العالم المتحضر .

عاد الشيطان يسرب إلى أذى .. في صورة ولادة من صور المس الخادع ..
يقول وكأه يسر مى :

— أرايت ؟ أمريكا ، ولا شيء غير أمريكا ، هي الأول والآخر ، والظاهر
والباطن ، أمريكا الديمقراطية الحرة ، تمد يد الصداقة (الحرسى) ، إلى روسيا
(الجراء) الشيوعية ، لأول مرة في تاريخ (الحرب الباردة) بين المسكرين ، لحققا معاً
حسباً إلى جنب ، في وجه الاستعمار الأوربي (للحدى) ، ولترعها .. احتلوا وفرنسا على
الجللاء الناصر من بور سعيد (للحدى عليها) .. ولتنهى التاريخ السياسى الرقيق ..
لإيدن — خليفة تشرشل — إنهاء محملاً وغير مسبوق .. أنستطيع أن نقول لى
ما الذى يمتيه هذا الموقف ؟

— قل أنت .

— نعم . أقول .. والموقف نفسه يقول :

أما أن تقف روسيا معنا ، فنقول ، لأن مصلحتها في أن تقف في وجه الاستعمار
حيث كان ، ومع كل من يخاف الاستعمار .

وأما أن تقف الشعوب العربية معنا ، فمع من تقف . ؟ ، إذ لم تقف معنا ؟

وأما أن المد والصين للشمية وإندونيسيا وكل الشعوب التي عانت من الاستعمار
تقف معنا .. فنقول ، لأنها فرمة المسر ، تنأرقها من كل مسر .

وأما أن أمريكا — زعيمة المسكر الغربى — تحفل حلفاءها في نفس المسكر ،
وتعد يدعا إلى روسيا — زعيمة المسكر الشرقى — ومن أجل (مصر) ، وحسباً في
سواد حيون (ناصر) ، قل أنت .. إن كان مقولاً ، أو غير مقول .

حديث التآمر

وما كاد شيطاني يلتقي بهذه المسمات إلى أذني ويتوارى .. حتى ظهر «الشاب»
ووقى القهبي وللكتب على التتوالى .. وكأننا قرأ في عيني .. كل ما جرى بين الشيطان
و بيني .. فجاء هو الآخر بواصل السر .

ولم يسر بخفي قط .. أن «التسار» قد يكون الطريق السلطاني .. إلى «التآمر»
وبدا يسر ..

بدأ يتحدث عن «بور سعيد» وما جرى فيها .. وعن الحكومة وتدميرها
وعن الفدائيين من الأهاليين .. وما سجنوه من بطولات .

وكان يميل إلى أذني بين الحين والحين فيضني ببارات بينها .. ثم يستأنف
حديثه إلى السامعين .

واستطاع أن يتركني — وحدي — أنهم أن خلاص مصر من كل «ميل
أمريكي» بلت وشيكا ..

وكثر تردده على ..

وكثرت مصاته .. إلى أذني .

واشدد حرصه على أن يلف عباراته في عوض دبلوماسي يثير الفشحي
لما هو خلف الببارات .

و ذات ليلة ..

وكنا في طريقنا إلى «القبيلة» قلت للشاب ما سناه :

— أراك تكثر في هذه الأيام من العرف على أوتاري .. وأنت تعرف أني

أمرتك .. فهل لك غاية .. أم من هواية السبوح نزاولنا لحساب أعصابك على
حساب أعصابي ؟

ولاذ بالصمت .. ثم عاد فرفع وجهه إلى .. وحلق ببنيه تحديقاً مسرحي السهات
في عيني .. وقال وفي نبراته رنة الجلال .. وكان الترام الذي يستقله قادماً من ميدان
« باب الحديد » قد جاء :

— أليس من الحائر .. أن تكون أنت شخصياً .. مدعواً إلى أداء واجبك
نحو بلادك .. إذا دقت الساعة ؟

وأطلق صمكة .

وجرى خلف الترام فأدركه ..

وعدت إلى بيتي .. وأذكر أن النوم في تلك الليلة نحلى هي ..

وتحيت — لأول مرة — لو محل بزيارة التالية .

ومحل ..

وأضينا السهرة .. وعندما مضى .. من نفس الطريق .

وطالب له أن يتصل فلم يطرُق باب الحديث الذي تركه مفتوحاً .

وضقت بصاليه فسألته في شيء من الجفوة عما قصدته الليلة الماضية بالزيارة
التي قلنا .

وابتسم وقال : « هزار » .

ولرؤاد صيق بطريقته فقلت له في شيء من الحد العارم :

— إسمع يا أسنانا ، كفانا دورانا ، همة أو لاهمة .

وابنهم مرة أخرى - وفي زهو للتصريح هذه المرة - وقال جاباً ما معناه :

— هي ثقة ، وأكبر من ثقة ، وأنت تعلم ، ولكفى مقيد يمين ، وعلى مرسومة
لى ، فلماذا أنا جاوزت حدى ملك اليوم ، فنداً أجاور حدى مع غيرك ، وينسد كل
شىء ، ولكن من حسن حظى ملك ، أنه رُخص لى من الأمس فقط ، فى مفاصحتك
والحدث إليك ودخل حدود لا أتدأها .

ورضيت .

وبدا يتحدث .

حديث خطير ؟

تحدث .. وأصغيت .

ولا أذكر طبعاً نص الحديث .

وإنما أذكر معناه .

واستطعت أن أفهم من حديثه أن قيام ترشيده وواعية ، هي التي تحول الأمر كله ،
وأنها من صميم الضباط الأحرار ، وأن رعيها من رحمة القول ، وأن دورنا — نحن
المدنيين الذين وقع عليهم الاختيار ، سلمى ونظرف وأمنون العاقبة ، بل لا يتق أصلاً
تحت طائلة التقلب ، بل لا سبيل للمساكين إلى العلم به أو الكشف عنه إذا فشل
مشروع الانقلاب ، لأن دورنا لا يبدأ إلا بعد نجاح المشروع ، ونحن إذن خارج
دائرة التأسر ، وأعضاء التشكيل السكري لا يريدون محركهم إلا ما يريد .. إلا رد
حقوق الأمة إلى الأمة ، ولهذا السبب قرروا ألا ينتقلوا إلى مرحلة التنفيذ إلا بعد أن
يكون « حياز الحكم » ممداً إعداداً سليماً ، وقائماً على مديين أكفاء وأمناء ، يتولونه
عندما يستعدون من منازلهم بعد ساعة الصفر ونجاح الانقلاب .

وسادنا الصمت لحظات ثم سأله :

— لكن .. لماذا كل هذه العناية بالجهاز للذئب ؟ ومن ، من للذئبين لا يوافقني — خروفاً أو طمساً — على التعاون معهم إذا استدعوه بعد نجاح حركتهم ، وحيث لا أنهم إنما جاءوا ليردوا الأمر كله إلى الأمة ؟

وقال الشاب من غير أن يفكر في الجواب :

— الجواب بسيط ، بساطة الحقيقة ؟! الجهاز ككل ... ليس من الضروري أن يكون مدداً ، وإن كانت أسهاء الساسة قد طرحت كلها على بساط البحث ، ولم يخل أى اسم من مطمن ، ولكن هناك مناصب يقتن عملها بساعة الصفر ، ولا بد من الاتفاق على شاغليها قبل تلك الساعة ، بحيث يكونون جاهزين عند أول دقة من دقائقها ، وهم رئيس الجمهورية كـ رأس الدولة ، ورئيس الوزراء الذى يحكم ، ووزير الخارجية الذى يتصل بالعالم ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على جهاز الأمن ، ووزير الحرية الذى يسيطر على الجيش ، ووزير الاستعلامات الذى يتصل بالشعب ، وسعود العسكريون إلى تشكيلاتهم إثر تشكيل الوزارة لينفضوا أيديهم نهائياً من السياسة .. وقد تم اختيار هؤلاء جميعاً ما عدا وزير الاستعلامات ، ولا أمك أن أفضى إليك باسم أحد منهم باستثناء رئيس الجمهورية الذى رُخص لي فى أن أذكره لك وهو : « محمد نجيب » ، أما منصب وزير الاستعلامات فتقدر شغلك ، ولكن رؤى أن الاستعلامات لا تزال مصلحة وليس لها وزير ، وأن الإذاعة جانب خطير من وسائل الإعلام ، وأن الضرغ لهذه السائل فى الأيام الأولى يجب أن يكون على مستوى للضرغ فضلاً لا على مستوى الوزير السياسى ، فضرر الاكتفاء بإسناد منصب مدير مصلحة الاستعلامات إليك ، لتشرف بنفسك على الاتصال بالشعب من أول لحظة . ورؤى إسناد منصب مدير الإذاعة إلى ، لأتموله الاتصال بالشعب اتصالاً مباشراً ، ثم بيت فى مصيرنا بعد أن يستتب الأمن ويمتقر الأمر ، ولا أخفى عليك أنى لا أنوى أن أخبل أى منصب وزارى ، وقد صارت زعم الحركة بإسراعى من الآن على منصب مفير ، لأنى أقدر على خدمة بلدى ونسى فى تلك السياسى متى فى للمنصب الوزارى .

وقلت الشاب : دع الحديث يقف بنا إلى هذا الحد .. وفى القبة القبة أحملك كفى .

وأعطيتها... ١١٩

وفي اليوم التالي قلت للمدقق الشاب مازحاً .

— أيها التلميذ الحبيب .. يقول الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : « قبلت » .

ووثب التلميذ الفتي لقبول أستاذه الشيخ .

ومن مجب — ومن باب الفكاهة المُرَّة — أن شاباً من ممثلي هيئة الاتهام في قضيتنا طالب له وهو بشن الحق على ، أن « يتصرف » فتصوير رسم الحديث الذي رسم « الشاب » في « تقريره » أنه دار بيني وبينه ، تخير ممثل الاتهام أسلوب حميد الأدب العربي أطال الله بقاءه فقال — أي وكيل النيابة للفرافع . « وهنا قال التلميذ الفتي لأستاذه الشيخ كيت وكيت » و « هنا قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي كيت وكيت » .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الصفحات قد رسمت للرحلة السابعة في موقعي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .



الفصل الثامن

المؤامرة

أ كبر الفتن — وقد انتهت بك إلى هذه المرحلة من مراحل عبر السنين العشر — أن يكون قد تبادر إلى ذهنك أني سأعرض بك في بحر لجي من تفاصيل « المؤامرة الكبرى » — كما أسموها — وبكل ما تنطوي عليه هذه التفاصيل من بحوث في الفقه والقانون .. وبكل ما جرى في جلسات المحاكمة من كر وفر .. ومن اتهام ودفاع ..

كلا .. وما استهدفت بكتابي شيئاً من هذا ..

إنما استهدفت — فيما يخص « المؤامرة » — أن أتحدث إليك عما الحديث الذي يخرج بك من تلك الظلمات التي ظلت أظلم أظلم الصفوف والخلجان شهوراً .. وتفتلها الخلفيات السرية العشر التي كانت تشكل في ذلك اللون شبكة رهيبة محاصرة مصر بالأكاذيب .. ومحسار « ناصر » بها — وبكل أداة تصلح للحرب — وبكل الأساليب .. واستهدفت ، فيما يخص « المؤامرة » أيضاً أن أتحدث إليك عما الحديث الذي ينبع من الرؤية الواضحة لكل الأسباب التي دعتني إلى الكف عن القسائد الشاب حتى تأمرت عليه .. فلذا عرجت بك — داخل السجون الثلاثة التي تشغلنا فيها — على بعض ما جرى لنا أو علينا فيها .. فلكي إبرد معي يتصل بالناصرية وبمراحل قربي منها أو سدى عنها .. أو لكي ألفت فتاة الجوف السجون بتأدية محمل إله شفيعك بعض الابتسامة أو تعمل إلى قلبك بعض الرضى ..

ولك بعد أن تفرغ من قراءة هذا كله — قراءة أريج أو تكون متأنية ورواية وعذبة — أن تقول مستريح الضمير إن كان ما قرأته وثيقة من وثائق الصدق

جديرة بشرف الانتهاء إلى مهمة التاريخ .. لهذه العفة من تاريخنا .. أو أن الكتاب ..
كتاب رئيس من كتب الضيق .. يأخذ مكانه من « مكتبة الفائزين » وما أكثرهم
على مطالع كل « ثورة » .. وعلى باب كل « ثائر » .

ولن أحسب القلم — مداعة — « كل » ما جرى في التحقيق أو في المحاكاة ..
أو في السجون التي ألحقت علينا .. إن أجنب القلم شيئاً يستدعيه هدف الكتاب ..
ولا من من أن أفضط بالقلم حادثة من هنا .. وحادثة من هناك .. إذا تطلب « الهدف »
هذا « الانضاط » .

مثلث الضلالة

وأعود إلى « الثلاث » المجهيب .. لدى جمع « بيني » .. وبين « الشاب » الذي
قام بضى إلى المؤامرة و« الشيطان » الرجيم الذي أفرأني بهذا التآمر ..

وقد تدعش إذا قلت لك صادقاً أن الأمر كله — وعلى خطورته — قد مر في
كما تمر سرقة الخيال المهزور باتنين من الثمراء القنابلين .. جمعت بينهما ذات يوم
جولة « حشيش » أو « أنيون » .. فوق مجرى ماء .. أو تحت ظلة نخيل .

* * *

مدأ الأمر — كما رأيت — بمرض منير .. من جانب الشاب كحقة أولى .

وجاءت الحلقة الثانية من جانبي .. عندما أعلنته بقبولي .

وهكذا أصبحنا .. بسرقة حشيش .. أو بخيال قصاص .. عضوين في « مؤامرة »
لم يقدم لي على طول طريقها — كما ستري — أى « دليل مادي » على وجودها .

ولعل الأمر استهوانى في البداية .. بوصفه « حركة خفيفة » بعد دخول
طال مدله .

ولم تلي غشت بعض هذا الثمور عن بعض ما اطوى عليه المدر من غضب على

« الثورة » بسبب ما تلقى على يدها من أذى .. كصاحب جريدة وكضوء مؤسسه
القضاة .. أو في التليل كواطن له لخلق في الجيش الكريم .. ثم بسبب ما عثت به
من شحنة الأكاقيب بأيدى النصوص .

بل لعل « التليل » قد شط في أياماً .. فرست خطوط « الحكمة » التي بمثل
أمامها خصوى « الثوار » — وعلى رأسهم « صانع الثورة » — انسلم من حقوقه
المواطنين — وحقوق — التي وثقت .. بأى ذنب قتلت ..

ولعل فاضلت — في التليل — بين الثأر منهم أو العفو عنهم .. فأثرت أن أناسى
أنا الآخر بالرسول الكريم .. وقررت أن أطلب إلى رئيس الوزارة التي أكونه
قد اشتركت فيها أن ينادى في الثوار الجبارى : « كل من دخل بيت عبد الناصر ..
فهو آمن » .

وطبعى .. لا أذكر اليوم — على التحديد — كل الأصواء التي ألقاها التليل
على طريق تفكيرى .. أو استبداها من كل ما ترسب في ذاكرة غير تلك الذين لم يث
أو .. من معالم باهتة لصور مبروزة .. لتليل مريض صاحبى أياماً ، مذقات للشاب : « قبلت » .

أما « الشاب » فقد تميزت — من لحظة قبولي — كل صلت به .. وخيل لي أنه
بالهوى التي وجهها إلى .. قد تخيل هو الآخر أنه انتزع زمام « الأستاذية » من يدي ..
وراح يرتب لنفسه « حقوقاً » على .. أشير إليها ماراً وبرغى — وأدب من أى يمان
لها .. لأنى حريص على ألا أخلق به أى تخرج .. وحسبه ما يلاحقه وما لاقاه ، ولما
جهداً لقاء محوم بين يدي الله ؟

المؤامرة .. لها أصل

ولعلك تحب أن تسأل :

هل كانت هناك « مؤامرة » أم لم تكن ؟

والجواب :

- كانت .

وقد نحب أن نسال أيضا :

- هل كان كل الذين ادينوا فيها يعطون أن هناك مؤامرة جادة ويؤمنون بأنها مستتم حقا ، وأن كل واحد فيهم انقسم إليها من ايمان بها ؟
والجواب :

- ذمة وضيمراً ، لا أستطيع - حتى هذه الساعة - أن ادين أحداً بيمينه ، بكلمة نعم ، ولا أستطيع أن ابريه أحداً بيمينه بكلمة لا وإعما أستطيع أن أتحدث من نفس قلبي ، وهو ما أنوى أن أفعله .

ومد قلت للشاب : « قبلت » ، أحمى الأمر بعض الوقت

وأنا أعلم علم اليقين أن كل إنسان ميسر لما خلق له .

وكنت أعلم علم اليقين أني غير ميسر للتأمر ، وغير مؤهل لأي عمل « نحتي » .

وعلى صوء هذا العلم ، رحت أسائل نفسي في حزن وحيرة : كيف قلت للشاب : « قبلت » .. وبدأت الحروف الأربعة^(١) تخالطني في نومي وصحوي ، وغشوت نبيها فيسبح والشمال ، أراي على الصبح مشدوداً إلى الشمال ، وعلى مساء مشدوداً إلى اليمين .

كنت أستريح إلى المشاركة في « المؤامرة » عندما أذكر أن الحياة - في إدراكى - مجموعة من « البشيم » ، تمثل « القامدة » التي يرضو عليها « الخلق والطير » ، ومجموعة من « النشل »

(١) « الحروف الأربعة » التي أشبه إليها حنايى التي تتألف منها كلمة « قبلت » كما أن « الحروف الأربعة » التي أشبهت إليها « البطر الثاني مصر من سنة ١٩ » هي التي تتألف منها كلمة « حال » وقد رأيت أن أرجع إلى تلك الصيغة - كاستولوا - شخصية أن يكون الأمر عد اليوس على الطريق فيها .

يمثل «قيمة» التي تنبج إليها ، ونصل لها ، حتى نكتشف عن وجه «الجمال» منها ..
وتتم (باتنور) المستور فيها .. وتترك معنى (الحق) وقيمة (الخير) .

وكنت أستريح إلى (المشاركة) في (المؤامرة) عندما أذكر أن الديمقراطية السياسية - كما تبشرها بريطانيا - هي في رأي أقرب السبل وأقوى الوسائل إلى إدراك معنى الحق وقيمة الخير وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس مادامنا عاجزين عن «الردة الخيرة» بالحكم والحكام ، إلى صدر الإسلام .

وكنت دائماً أكره من (معاكم المصير) كلمة (الديكتاتورية) وعلى أي صورة وعلى أي وضع ودخل أي إطار ونحت أي شعار ، فأشد ما أكره كلمة (الزنا) - مثلاً - كجريمة مروعة المعلق ، منافية للذوق ، هدامة للبحر ..

وكنت أقول لنفسى إن (الزنا) قد أكره - ديناً وضواً - أن أضع به ، ولكنى أمام اغراء الجمال (الترديد) في أي حستان (متوهمة) قد أشتبهه .

أما (الديكتاتورية) فعل النفس ، قد أضع فيها وأخضع لها على كره منى ولكنها لا نستطيع أن نترينى بنفسها .. أو تمنينى عن الحرية التي حررتنى منها .

وكنت قد التفتت - كما رأيت - بما قاله المصوم عن «الديكتاتورية الناصرية» ونخل إلى أن الأحداث التي وقعت تزيد كل ما قلوه ، وأنا الآن أرى قوماً يريدون أن يمحرونا من هذه (الديكتاتورية) ويردوا الأمر كله إلى الأمة ، لتقيم حكماً جديداً ، صعباً من أساطير تلك والأحزاب ، أقرب ما يكون إلى الحكم النيابي في اجتماعها ، فهل يكون خطيئة أن أسمم هذه التبة إلى هؤلاء القوم ؟ بل ألا يكون «واجباً وطنياً» محضاً أن أستجيب لهم ، بعد أن وحشوا الدعوة إلى ؟

وكان هذا هو «اليمين» التي أراى (على الصبح) مشدوداً إليه .

فإذا جاء للقاء ، وأقيمت برأسى إلى الرئاسة ، راح الشريط يمر ، شريط فساد قديم أنا من عارفه .. وقد عشت المصير فيه أيام للثكنة والحزبية ، وشريط جديد لا أشتبهه ، لوجود (الحكم القوي) فيه ، ولكن (أضواء) تخليلى من خضلاء

وبرعى ، فلا أثبت أن أصدق فيها ، فأرى شيئاً اسمه (الجلاء) قد نم ، وأرى شيئاً اسمه (القتال) قد أضم . وأرى شيئاً اسمه (التصنيع) قد بدأ ، وأرى شيئاً اسمه (الإقطاع) قد تحمل ، أتيت حتى (صانع هذه الحقائق) أن يُبرزل ، فضلاً عن أن يؤخر به ؟

وكان الجواب : (كلا) .

ولكن النفس اللبنة بالضم ، لا تثبت أن ترمع في إلى الردة .. ولا تثبت أن ترمى في ، مستقبل البلد في ظل (التحرر) وخمّل (التآمر) .

فلسفة الثورة ؟

وذكرت يوماً كتاب (فلسفة الثورة) ، وذكرت أن فيه (أشياء) قد تطاون على تحديد الموقف .

وما كدت أنصفه حتى وقعت عيناى في الجزء الثانى منه على أهداف الثورة ووسائلها ..

وقرات لفائد الشب أنه كان يعرف ما يريد أن يفعله ، ولكنه لم يكن يعرف الطريق إليه .. كان يريد أن يحل بمصر التحررة .. أما الطريق إلى (التحرر) ففك كانت (عقدة القيد) .

ويقول أخيراً أن رأيه استقر على أن (السبل الإيجابى) هو الطريق ..

ولكن (الصورة التالية) لهذا (السبل الإيجابى) كانت دائماً (تنحير) .

• • •

تهدى « السبل الإيجابى » في ظله — أيام دراسته الثانوية — في صورة مظاهرات قتال للمظاهرات ..

وتهدى (السبل الإيجابى) بعد ذلك في (عضائن الزعماء) فتشارك في إيجار الزعماء

على (توحيد كلمتهم) فضع في أميته .. وكانت مساعدة ١٩٣٦ (ولدت) هذا «التوحيد» .

وجاءت الحرب العالمية واعترف أن الاحتمالات السياسية (توجهت) في خياله
للمشغل (على أنها السبل الإيجابي الذي لا مفر من الإقدام عليه) . وفكر في احتمال
الملك وميض رجائه .. وقام هو وإخوانه به ببعض الحلولات فضلاً ..

وليس ينبغي - هنا - أنه انتفع أخيراً بأن الصف (ليس حبر الرسائل) .
وكل ما ينبغي من إلحاح إلى ما قلناه في كتابه .. أنه رخص نفسه في
الاحتمالات وفي التآمر .. إتقازاً لوطنه ، من الملك ورجاله وكل حاكم ظالم .

وإخواننا (المسكويون) الذين حدثني عنهم «الشاب» لابد أنهم «فكروا»
مثل تفكيره «إتقازاً لوطنهم» .. ومن (الرجل) الذي يرويه - خطأ أو صواباً -
(حاكماً ظليلاً) فلماذا يجرّم اليوم على غيره ما أحله بالأمس نفسه ؟

رحمت أضغ السالبة في هذا الوضع .. وأضيف إليه أننا نحن (المدينين) لاشارك
في أي احتمال أو في أي انقلاب ، كما أكد لي (الشاب) ، وكل ما في الأمر أننا مدهوون
إلى تسلّم زمام الحكم بعد نجاح حركتهم .. فأية جريمة في تسلّم هذا الزمام ؟

وإيمان قلبي - إلى سلامة وضي .. ورحمت أحسن لنفسى بصوت مسموع وعن
رضى وانتفاع هذه المرة : (قيلت) .

عمرى .. في المؤامرة K

وعشت في قلب المؤامرة .. ثلاثة شهور كاملة ، بدأت بعد (المدون) وانتهت

في فبراير ١٩٥٧ ، هذه الشهود الثلاثة هي . كل جرى في القاهرة . . أو هي « الفترة » التي تصطبها « للزائرة » من جرى

وأنا أشر أنك مشوق إلى معرفة الكثير من أخبار هذه الفترة ، وهو الذي لبته خلافا ، ومن حقا كشاهد دفع في « تذكرة » لدخول الزمن .. أن تستمع بهذه للشاهد .

وكنت أود أن أحقق لك هذه الرغبة .

ولكن يبدو أن الأمر ليس سهلا كما قد يبدو لك .. لأن الكتاب لا يستهدف أن أحكم إلى القراء ، فإني ارتكبت من أخطاء ، حاكي عليها القضاء ، وإنما يستهدف الكشف عن الأسباب التي دفعت بي إلى التأخر على اقتاد الشاب ، والأسباب التي انضلت بي إلى الإيمان به ، وليس من بين أهداف هذا الكتاب ، تفاصيل دور لبته في للزائرة أو لم أنه .

ثم إن هناك حقيقة أكثر خطورة ..

وهذه الحقيقة تقول إن الأمر لا يخرج من واحدة من اثنين : إما أن أكون قد قمت بدور إيجابي له اتصال بنجوى من التبيين ، وفي هذه الحالة لا أرى أن من الرجوة أن أعترف على غيري أمام القراء ، أنا الذي لم أعترف على أحد أمام القضاء ، وإما أن يكون دوري كله كلاماً في كلام جرى بيني وبين هذا الشاب ، تنفخ فيه « من روحه » أمام المحققين فاستوى (أحداثاً) حركت عليها ، وأحسني إذا أثار كرت على هذه (الحقيقة) أن يوجد من بين القراء من يظن أنني انتهزت فرصة (الكتاب) لأبريء نفسي ، وما إلى هذه التبرئة أهداف ..

ولكن بعض القراء قد يجهلون دوري من القضية نفسها برغم كل ما نثار حولها من ضجيج ، ولم على " إذن أن أقول لم شيئاً عن هذا المهور بعد أن معي عليه أكثر من سنوات خمس .

والإتهامات كلها لم وجهها إلى "أحد غير هذا" (الشاب) ، وكل ما في القصة فائق بأن (الشاب) هو وحده الذي يقول متى كيت وكيت . .
يرى (الشاب) أنه "طلب إلى" - باسم التشكيل العسكري - كتابة (منشور) أسف فيه السياسة الناصرية فكيفه بخطى ولكن (حلف نصار) الرئيس العسكري للتشكيل عاد فعدل عن (فكرة المنشور) وبقى (أصل المنشور) ، فأنتم جسم الجريمة .

ويرى (الشاب) أنه "طلب إلى" ، إعداد (التيلا) التي كنت أقدم فيها في ضاحية (الطرية) ، ليجتمع فيها (للتأمرات الصباط) ، ولتكون مستودعاً لأسلحتهم ، وللايسهم العسكرية التي يرتدونها ساعة الصفر ، وأنى قبلت تهمة (التيلا) لهذا الرض وكان (التشكيل) يطلق عليها اسم (البيت الكبير) .

ويرى الشاب أنه بعد أن أعد (للمنشور) رأى أن من انظر أن يدفع عن المدنيين ثمن طوابع البريد و (المظروفات) التي نوضع فيها (المشورات) وأنى أسهمت في هذه المهمة بشرة جنيت - كما أسهم صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وكما أسهمت بكتابة (بعض المظروفات) .

ويرى أخيراً أنى كنت على علم بأسماء الشركاء في المزاورة وأنه كان يظل لي أولاً بأول كل أشهرهم .

هذه هي خلاصة الإتهامات التي وجهها إلى (الشاب) .

وليس لدى مانع من أن تأخذ بها أو تدعها .

وكل الذي يعني أن أقرر ، أن (ثلاثة) التي عشتها في قلب هذه المزاورة ، كان (الشاب) يقول ملء الفراغ فيها ، بحديث لا يفد عن دوري ، وعن (الكيفية) التي أدرك بها أجهزة الإعلام في «الثورة الجديدة» وكان يطيب له - وقد انفسح أمامه مجال «الصالح» - أن يمدني بالخبرة التي اكتسبها من العمل في وزارتي

الطرحية والإرشاد ومن رحلاته إلى أمريكا وأوروبا في حية وزيرة ، وفي مهام .. كلها تقوم على أحدث وسائل الإعلام .

الحاح وهروب

و كنت إذا أخرجته مرة أو مرتين في كل شهر بسؤال ملودون وناصح عن اللود الذي سحبه التشكيل القسرية .. دم شفته استنكاراً لقباطمزم وقال : « هه برضه مملودين في التناخير .. لادم يستكلوا كل شي » .

وفي شهر يناير ١٩٥٧ كنت قد ضقت بأساليه وداخلى الشكوك في جدية الأمر ف رأيت أن أضايقه بدورى .. وصارحه ذات يوم أنى لا أستطيع أن أبقى طويلاً تحت السلاح .. ووعده بأن يطلق التشكيل على هذه الرغبة من جانبى ويجعل لى الجواب .

وفي شهر فبراير قال لى ذات ليلة :

— يبدو أن المسألة صرف عنها النظر لأسباب أنا غشى أجملها والزمهم المسمى
سافر صلاً إلى فرنسا في مصالح تجارية .

وقلت في بساطة :

— عملاً طيب .. مهن عارف كان حايبرى ليه ؟

— على رأيك .

وأمدلت الستارة على « التزامرة » .. وإن كنت لا أكشفك أى أسأت الظن في « الشاب » نفسه ، وأخشى أن أقول لى ملت إلى الاعتقاد بأن التزامرة كانت من سجع خياله ، أخشى أن أعلن هذا القول ، فتعنى بحق — بأنى أهديت رأبى ، وقلت لى الأمر لم يكن إلا كلاماً فى كلام ويكنى — إذن — أن أعيد القول لى « الشاب »

صارخى بأن الأمر صرف النظر عنه ، وأن صاحب الأمر فيه سافر إلى الجنة ولم يد
الحديث عنه محل .

وأعترف أنى تنصت الصلوة .

وأعترف أنى شرت كائن صحت من كايوس تخيل .

ومضى فبراير ومارس واثنان وعشرون يوماً من أبريل (وكان يناير شهر
رمضان يوماً بيوم) ، من غير أن أسمع منه كلمة واحدة عن « التشكيل » ، ولو كلمة
« سباب » يرب بها عن ضيقه بهم ، أو يخطى بها ، موقفاً له بل في نظري
مكشوقاً .

وأرجو ألا تنجب إذا أنا قلت لك إنى لم أقابل تصرفه بأى استنكار ، لكثرة
ما ألفت منه - أو مررتى - من تصرفات غير مألوفة .

وقد لا أصدق الحق إذا أنا قلت لك إنى نيت الأمر كله أو كدت . أو هل
التحق لم أعد أنكر فيه ، أو لم يد له وجود بالنسبة إلى ، حتى قبض على .

وفى المرحلة القصوى يعنى أن تدرك أن صلتى بهذه « المؤامرة » لم تتم على
صلى بالتآمرين ، ولا بإزعج العسكرية ولا بإخراجه العسكريين ، وإنما قامت على
صلى (بالشك) ، وأنه وحده الذى وجه الاتهامات إلى ، ولم يوجهها أى شخص
آخر ، ولم توجهها أية جهة أخرى .

وعسى أن أكون بهذه الصورة قد رسمت صورة صليقة للمرحلة الثالثة فى موغنى
من « الرجل الذى تأخرت عليه » .

الفصل التاسع

المفاجأة المنحة

اثنان وعشرون يوماً مضت من أبريل سنة ١٩٥٧ — ومثلها من شهر الصيام
الذى كان يسير أبريل في الأيام — وكان من علقى ألا أذهب إلى مكنتي إلا في
الحادية عشرة من الصباح لأسل صياح مع زوكرى ساهين من الزمن .. أعود بعدها
إلى البيت لأنام .. حتى يوقظني أهل البيت قبيل الإفطار .

وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أبريل ومن رمضان .. دق جرس
التليفون في مكنتي وكان المتحدث زوجة « الشاب » وهي ابنة خالة هـ . ولم أكن
رأيتها قبلاً ولا بصمت صوتها .

وضعت من السيدة أن زوجها دعى تليفونيا أس ذلك اليوم (أى الإثنين)
من مكتب شركة مصر للطيران بميدان الأوبرا لتسلم طرد مرسل باسمه ، فبارح البيت
ولم يبد .. وأنها سألته في كل مكان يتردد عليه .. وكل صديق يعرفه فلم تنثره على
أثر . وأن جارة لها .. طُلب أيضاً زوجها تليفونيا في القبر .. بعد أن قيل له إن
« الشاب » أصيب إصابة بسيطة في حادث سيارة ودعى إلى لقائه في مكان حدوده
هـ .. بعد أن حذّروه إلا يفتلق أولاد « الشاب » وذهب الجار ولم يبد أيضاً .

ولم يكن المتحدث زوجة « الشاب » .. لا أحرث الحادثة أعيناً .. لأن
« الشاب » كان لا يدخل بيته إلا وجه الصباح عادة .. وله سهرة لا يئيل أن
تسفره يوماً ويومين .. ولكن أردت أن أجعلها غاؤفت متدسك في مظنة الظلم

كان يزورى .. وصديقاً آخر من «التجبر» كان موجوداً عندي .. إلى الأمام
والشفتيت علم يثرا ٤ على أثر أيضاً .

ولا أدري كيف سر الأمر بي يسيراً .. حكنا .. ومن غير أن يثير في دعوى أمر
للؤامرة .. التي كان قد صمى إليها ثم حدثها .. وحتى هذه الساعة لا أحد تليلا
لهذه الحقيقة .

وفي اليوم التالي - الرابع والعشرين من أبريل (ومن رمضان) ذهبت إلى مكنتي
كالعادة .. وفتح لي «تولب المارة» باب (التاكسي) كالعادة أيضاً .. ولكن التي
لم يكن عادياً .. إمارات القمر التي خيل إلى أني أراها مرتسة على وجه الرجل .. ولم
أنتبث عندها .. ومضيت أصعد الدرج وأتسر إمارات القمر .. بالأثر الذي يتركه
القصوم على وجه كل صائم .. إنياء في القوى واستعاقا في اللون .. وذهولا في النظرة
أشبه بالظنون أو بالآدم أو بالجنود .

وواصلت الصعود .. وإذا نداء مهيب يسمي يلا حتى أدنى ..

وتوقفت واستندت إلى الذي يتأدبى فرايت أمدى شاباً بين عليه التهذيب
يقول في أصبعهم :

— فلان .. ؟

— نعم

— أنا يا فندم .. الصامح (وتحتل) إبراهيم حلم من اللياحث

— أهلاً وسهلاً .

— والله يا فندم إذا سمعت .. عندي أمر بالتحقيق .. وإن شافه ما ازججكشى .

— أبداً .. تفضل .

وكان (سامي للكتب) يفتحه في الثالثة من صباح كل يوم .. وكان ابن أختي (نصي مجيب) الطالب - عائد - في السنة النهائية في كلية الحقوق .. يقم في غرفة من غرفات للكتب .. ليستذكر دروسه مع إخوانه في مكان مهيأ .. ولكنني لاحظت أن الياب (موارب) وماكدت أدفه يسدى حتى حدث لقط .. وألصقت أمامي من الخبيرين كانوا يجلسون في أول غرفات للكتب وبينهم ابن أختي وسامي للكتب . ولأول مرة بدأ جهازى للتسلل يسر .

ولأول مرة ربطت بين هذا للشهد .. وبين «الشاب» الذى لم تنف له زوجته على امر .

ولأول مرة من شهرين أو ثلاثة .. ذكرت للزائرة والتآمرين . وساورنى المخاوف .

وفرغ الصابط من تنقبش « للكتب » ولم يجد شيئاً يريه .. وظننت أن الأمر وضع على ذلك الحد .. ولكن الصابط سألنى إن كان من الممكن أن أرافقه إلى بيتى في « القنطرة » .. وإلى « الشيلة » لتنقبش أيضاً .. فأدركت أن هذه بياعات واقية ولم أهدأ شكى في أن الإجراء يمتلئ للزائرة .. وحطرت لي الحلفتى - في شكل الخاطر الذى يتوهج في الرأس وينطقى - .. أنى ظننت « الشاب » وأسأت به القطن .. وأن هناك - إذن - مؤامرة جدوة .. وتآمرين جادين .

ويبدو أن الصابط كان صاحب ضمير .. ولم يكن أنا تهذيب شكلى فقط .. لأنه انتهر فرصة تنقبشه في « دولاب ملابس » وقال في مرح يهوى « وقع النصيح على » .. أنه يرى من يلب الأخط بالأحمر فقط .. أن أخذ منى سمر لللباس المتلفعة

لأن التحقيق قد يستغرق ليله أو أكثر . فأدركت حقيقة الأمر . . . وملاّت إحدى الحفائب ملابس . . . وكان على عشرين طبة من سجنائى فأخذتها معروضتى نصحه أبعاضه .

وانجهت بنا العربة — بعد الضجيش — إلى طريق تؤدى إلى البناية . . . ولجأت خرجت إلى يسارها وسهفت من تحت قوس . . . أخذت طريقها إلى ملا أصره . . . حتى وقفت أخيراً أمام مبنى رهب كتب على بابه : « السجن الحريق » ورأيتى أنتم :

إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة

واستقبلنا صاغ مهذب آخر علت من الحديث أن اسمه « إبراهيم خليل » أولمه « خليل إبراهيم » ورق الرجل في حديثه . . . وكأنا أهرأ تزل عليه ضيوفاً . . . ضجبت مثل هذه الرقة . . . تستقبل الضيوف في سجن رسم له انصوم في الأذهان صوراً مرعبة . . . وعدت فقلت لنفسى : « لعل الصور التى رسموها تبين بعد حين » .

وانصرف « إبراهيم حلم » لثأء وأسلمنى « خليل إبراهيم » إلى الجاوش بعد أن أهرب لى عن أسفه ونمخ لى إفرانجاً قريباً وأدخلت إلى إحدى الخبرات فى « للمقل رقم ١ » . .

ولم أجد فى ملايح الجاوش الشاب . . . ما يسرّج إليه السجن . . . فأردت أن أعلقه . . . فشكرت له متاعبه وهو يضع الحقبة فى غرفتى فاستدار على ضيه وضد ما بين حاجبيه ولم يرد كلمة الشكر التى وجهتها إليه وكنت أسمع صوته . . . إذا طرق سجين آخر باب غرفته من الداخل . . . كنت أسمع صوت « الشاوش فؤاد » وهو يرد على الطوق « طيب . . . بزبانه حتى . . . أسكت » .

ومضى الأرباء ومضى الخسيس . . . ولا على . . . إلا على صوت « الشاوش » يصدر تملباته إلى جنوده . . . وإلا وقع خطاه . . . وخطاهم . . . يروحون ويميثون . . .

التحقيق

وإذا كنت أرخص نفسي في لحظة من التحقيق الذي جرى معي في « السجن الحربي » فليس معنى هذه اللحظة أتى سأتابع كل التحقيقات في مختلف مراحلها .. وإنما سمناها أن لها صلة بموقف من التاصرة ومراحل كبرى وإعاني .. وأهداف كتابي .

* * *

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من أبريل (ومن رمضان) حاضري الجلاويش ينهي إلى .. أي مطلوب في مكتب (قائد السجن) فاستقبلته حتى أردني ملابس فقال (لا داعي) فخبته بملابي الصين الأبيض .. ودلفنا إلى حجرة القائد .. فرأيت « المحقق » يتصدر « المكتب » وقد خلع عنه سترته وهو شاب طارع اللون سمع الحيا رباحي التكوين نأس النفس به ويسكن الخاطر عنه وتترج العين إليه أو هكذا خيل إلى ..

وإلى يمين المكتب صفت كرسي شعلها ستة أوسمة .. وإلى اليسار صف عدد مماثل شغل عدد مماثل ، وكان معظمهم يرتدون وجوهاً عابرة وملابس باشة قد دُرْتُ أنهم لا بد أن يكونوا ضباطاً في أرياء مدنية .. وأن يكون المحقق من رجال النيابة والقضاء ، ولم يكن في الفرقة زى عسكري إلا الذي يرتديه قائد السجن .

المكتب الأبيض

وفي مثل هذه القسابة لا تصدق أن منها يقول « الحق كل الحق .. ولا شيء إلا الحق » ..

وأشرفُ للهمين من يضمنون من « المكتب » بالون « الأبيض » الذي يمنه للثائب .. ولا يقصيه من « الصدق » إلا بقدر ما يبدل من الجسد في تحجب هذه الثائب .

وكنت خلال الـ١٥٠٠٠ الذين قضيتها وحيداً داخل غرفتى .. أكرس جانباً كبيراً من وقتى وتفكيرى لإعداد « الأكاذيب البيضاء » التى أملت إليها ، وأعتقد أنها لا يمكن أن تعرف ، وأنها لابد أن تمر حينة وفى يسر ، لأن دورى « فى للوزارة » حين فى حقيقته وبسر .. وبدأ الحقيق حقيقته مى رقيقاً ومشجعاً وسأنى بما معناه :

— إيه حكاية للوزارة دى يا فلان ؟

وكنت قد قررت أن أبجلها تماماً ، وحى « كذبى الكبير » فقلت فى لهجة من خلا ذهنه منها :

— مؤامرة إيه يا فندم ؟

وابتسم فى وداعة وقال :

— أنا عارف إناك صائم .

— صحيح .

— وأنا صائم مثلك .. دهنا نعملون .

— يا فندم أنا على أتم استعداد .

— أنا عارف .. وأعرف كلان أنك راجل صريح .. وأؤمل ألا تصبى .. شرطاً ألا تعرف شيئاً عن للوزارة التى قيس عليك من أجلها ؟

— إطلاقاً .

قلت « إطلاقاً » ولا أدري حتى الساعة : كيف كان وقفا على الرجل ، وإلى الذى أدريه وأذكره .. أن كلمة : « شرطاً » التى وجهها لى .. وشترنى .. فعل انفسم على وجهى يا ترى انفسك فقلت الوخر .. وإن كان الانفسك قد انفسم .. فهل تنبه عليه الرجل .. ومفروض فيه أنه محقق مدرب تمرس طويلاً بالكذب الأسود والكذب الأبيض وعظف أولان الأكاذيب ؟

لا أدرى أينما، والذى أدرىه مرة أخرى أن الحق صحت قليلا ثم سألتى لجانة
وكتبت أنوقع سؤاله :

- تعرف فلان (بنى الشاب) ؟

- طبعاً .

- ولماذا طبعاً ؟

- لأنى أعرفه مد كان تلميذاً .. محكم أنى كنت صديقاً لأخيه الأكبر .

- إذن مفروض وقد كبير أنه هو الآخر صديق ؟

- برضه طبعاً .

- عظيم . ما رأيك إذن فى أن هذا الصديق هو الذى يقول إنك تأمرت معه ..

وأنه هو الذى صلبك إلى تشكيل المتأمرين ؟

وأذكر - أو شمرت ساعتيها - أنى أحدثت نجيل السور وأنى كنت أنكلم فى
حرارة يبين عليها الصدق ، ولا أستطيع أن أحدد مدى تصديق الحق لهذا الذى تهدي
« صدقاً » أو « كاذباً » وأنا أجب بما سمعته إذا لم يكن قريباً من النص :

- يؤسفنى وبكل الصراحة التى أعرفها عن نفسى أن أقرر أن كل ما يقوله هذا
الشاب غير صحيح ، وأنا شخصياً أمضيت اليقين فى هذا السجن أحاول عبثاً أن أجد
سبباً يبرر اعتقالي ، فلأنى أعرّف شيئاً عن مؤامرة شاركت فيها لما أنصت نفسى .

ضمير وذمة

وتوات الأسماء من السيد الحق وتوات الإجابات منى وانضم هو كل هذا
السكر والقر بقره :

- طيب يا استاذ سوادى .. أحب أن تلخص لنا فى تقرير - وأنت الكاتب - كل

ما جرى بيني وبينك اليوم من سين وسيم وسيضع السيد قائد السجن تحت تصرفك كله ما نطلبه من تسيلات ، من ورق وقلم وشاي وقهوة ، وقد أصدرت تعليماتي إليه أن يحقق لك كل ما يطلبه على الإلمة للريجة هنا حتى ينتهي التحقيق ، وكسلم صائم مثلك أرجوك وأحبل المشوية أمام الله أن تخطر اليوم حتى لا يدفع الصوم بالقلم للإزلاق إلى أية عبارة قد لا ترضى عنها وأنت في قواك المادية والسجارة في يدك .

وأحست أني أمام محقق يسع بين الضيق والهمة ، ويحقق قلبه بمشاعر الإنسان ، ومشاعر السلم ، وشجسني سلوكه على أن أقول له :

— ما دمت قد ذكرت السجارة .. فأرجوك أن يكون من حق أن أشكو إليك منع السجائر حتى .

وأبدى الرجل دهشته وقال قائد السجن في عصب :

— إسرف له من الكاثين كل ما يطلبه ، ما هذه التصرفات ؟

— يا فندم ألف شكر ، وأنا على فكره عندي أعلن حوالي عشرين حالة سجاير في خزانة أركان حرب السجن ولدي في « الأمانات » اثنا عشر جنيباً وبعض القروش كانت في جيبى وقت اعتقال وأعلن أنها تكفي مطالبي من الكاثين حتى نسحرنا لأن اخفى أن يرسل لي مزيداً من الخنود .

وأمر المحقق فجئ بالسجائر ونالوني منها علبتين ورخص لي ألف أطلب ما أشاء منها .

وأحادي (الشاويش غزاد) إلى (الزنانة) في شيء من الرقة لم يكن يهملني بهال قبلاً . . . ولم تكن مفعلة على قدم أصلاً .. وقال وهو ينفق الباب (نازم خدمه يا حاج ؟ وابنسيت وشكرت . فسنم يقول وهو ينفق الباب ولم ينس المنف في إغلاته كاتسود : « يظهر إنك انت الراحل الطيب لى في جملتك » .

ومن هذه العبارة ، أدركت أن آخرين انضموا معي ، وأنهم شركاء في نفس
الزلمة .. وحزرت أن يكونوا أعضاء فيما كان « الشاب » يسميه « التشكيل السكري »
و « التشكيل للذي » ولكن من م ياترى ؟

وأحياناً الجواب .. وإن كان تحكيري قد امتد إلى الكثيرين من الساسة الذين
يصلحون للتآمر .. ولعل اتجاهي امتد إلى خمين منهم ..

من هو المحقق ؟

وبعد المحقق يوم الثلاثاء (وقفة العيد) طاست عاني مرة أخرى ولم يكن معه
من ثمة المايهين أحد ، وكان يرافقه كاتب تحقيق شاب ، أتفق هو الآخر ودقيق ..
وبدا المحقق يفتح محضراً ويقرأ التقرير الذي كنت قد كتبه وصمغ منه أسئلة يوجهها
إليّ وأثبت الكاتب إجابتي عليها حتى إذا أتم المحضر قدمه إليّ لأرى إن كان أميناً
في إثبات ما نقلته ، ودقت بأعضائي وشكرت الله على أن اختل لي من الساسة القضاة
محققاً نظيفاً ومسلماً وصائماً وذو ضمير ولم أر الرجل مرة أخرى ، فن هو ياترى ؟
والجواب سيجيء .

التحذير ؟

وجاءت ليلة العيد ..

وكان كل همي أن ينسرب إليّ من خلال القضاة قص من نور ، نور يبدد
شبتاً من الظلمة التي أعيش فيها ، أو يريني شبتاً يطمئني إلى مصيري ، وهأنذا في يوم
عيدى ، أفضيه خلف أسوار السجن الرهيب .
ولم ينص لي جنن ليلة العيد .

وكان للرح بلدياً على صوت الجلاوش وأصوات مساعدتي ، وإذا سعد السجان ،
شقي السجين ، أو هكنا لاح لي والجلاوش « يندف » على مطالع العيد .

وخيل لي أن حرب الأصحاب قد بدأت ، لأن باب المعتقل كان يحدث صريراً

خفيًا كما فتح وكما أغلق ، كما خيل إلى " أن الجلوش وسلاطينه يصعدون بث المخاوف في قلب كل سجين ، لأنهم أكثرنا من فتح الباب وإغلاقه .. وترامى إلينا من خلف نوافذ المختل .. نباح كلب .. تبدى في حياض كلبًا جليشًا ، أهدتني الشبهين بأنياب لا ترم ، كما حدثنا قبل السجن خصوم تاسر من هذه الكلاب وما لها من أنياب ، وعن مختلف وسائل التعذيب .

وجاء يوم العيد ، ولم يحى . معه أى تعذيب .

والذى جاءنا هو قائد السجن يحف من حوله ضباطه ليرجوا إلينا التهانى بالعيد ، وليقدموا لنا الحلوى ، وليزكدوا ألبا « محبة وتنتهى » و « شلطة وتزول » ، وعلى القائد بوزال مما إذا كان في وسعه أن يقدم أية خدمة فسألت من الطعام ولماذا لا يرخص لأهلنا في إرسائه إلينا من مزارعنا ما كد الرجل أن المطلب سيتحقق في خيال أيلم وأخذ منى رقم تليفونى ليتصل بابن أختى ، وير بالوعد صلا .

وجاءنا العيد بمشهد يثير الدهشة .

جاءنا بوصول من صولات السجن عليه سمات الصالحين وسه شيع كبير في السجين وقد يزيد ، هو إمام مسجد السجن .. للمعاينة ، وكانت عيا الشيخ مليتين بارقة والمخاض - ولا أقول : « والمهموع » - وراح يؤكد في تهديج الواسلين والمارفين أن الفرج يأتى الله قريب .. وأن الصبر الجليل هو أمضى سلاح في معركة الشدائد .

وأشهد أى تأثرت بالشيخ والوصول ، أكثر مما تأثرت بالصباط والقائد ، وما كاد الشيخ والوصول ينصرفان ، والباب ينلق على ، حتى شمرت بمجاقتي للوحة إلى المهموع ، فبكيت لأول مرة في سجنى . وانشرح لأول مرة صدرى وأحسست أن المهموع غشت كل ما كان قد ران على الصدر والقلب والروح من أختال وآلام وجروح .

وأرجى. الآن الحديث ليحيى في مكانه عن المسألة التي عملنا بها في هذا السجن وكيف كانت «وكيزة» من «الركاز» التي قام عليها تفكيرى في «القنصرية» كسلوك.

في النيابة

وجاء دور انتقال التحقيق إلى مثل نيابة أمن الدولة الأستاذ على نور الدين . وكان قد اتخذ لهذا التحقيق مكاناً . . غرفة من غرفات الدور الأول في مبنى وزارة الداخلية .

وكان المتبع أن يصل أحد ضباط المباحث إلى السجن فيطلب إلى المسئول إلى المسئول أن يرتدى ملابس كاملة ، ويذهب إلى مكتب أركان حرب السجن فيجلس ضابط المباحث منه فأراققه في سيارته القنصرية حيث يسلمنى إلى على نور الدين فيحقق معى وبعد التحقيق يورد إلى الضابط إلى سجنى .

وكان من الضباط يذهبون في حسن المسألة إلى حد بعيد .

وكانت الشوارع في ذلك الحين (مايو ١٩٥٧) قد اردانت بلوحات الدعاية عن الانتعابات التي كانوا يسمون إجراماً لإقامة أول مجلس أمة في « جمهورية مصر » ليجتمع في الثامن والعشرين من يوليو من نفس العام فكان الضابط يسألنى - وقد يكون له هدف من وراء حسن المسألة - إن كان يطيب لى أن أخرج على الزينات . . ويأمر السائق فيطوف في شوارع محاد الدين وسليمان باشا وغيرها ثم يذهب إلى أخيراً إلى وزارة الداخلية ، ولتلقى الساعة أضع قصة ولا أضع كتاباً لأحدثك عن شعورى والعربة نفس بيضاء أمام القهى الذى كنت أسهر به ، وأشهد الخدم الذين أهرقهم يرمقون بين الموائد « أسراراً » وفوق أيديهم أكوام وأفلاج ، ولا يدرون أى نعيم معهم م فيه ، وأن داخل العربة التي مرت أمامهم . . عزيزاً يرفقه لا يملك أن يلتقي التحية عليهم .

ولكن ماذا .. وهذا الشلط ؟

ولقد . .

استغرق تحقيق الحياة مئى أربع جلسات .

و كنت أراجع كل صفحة كتبها كاتب التحقيق قبل أن أضع عليها توقيعى .

وقد فقدت أعصابى مرة واحدة .. لسبب — لم نجيبى — من صابط كبير كان يشهد التحقيق — وكانت تمنى أنه لا يصدق ما أملكه على الكاتب ، فاحتجبت احتجاجاً عتيقاً ، وسارع الضابط إلى الاعتذار وأكد أنه لم يقصد إلى للمنى الذى ذهبت إليه وأوقف على نور الدين التحقيق ، وطلب لى قدماً آخر من التهمة ، وشارك فى تأكيد ما أكد الضابط ، ومرت الساعة .

ورعيت عن سير التحقيق .

وبعد عشرين يوماً من احتضار كان التحقيق قد انتهى بالنسبة لى .

وظلت بقية الشهور الثلاثة التى قضيتها فى السجن الحرى آكل وأشرب .. وأصل وأقرأ .. وأدخن وأفكر .. ولا أبذل جواباً كلما سألت قصى : « وسد ؟ »
ثم أسلم رأسى إلى الوسادة وأعغم « إلى لند .. » .. أى عد بشأؤه القدر ..

صلاح المسموق

وفى يوم العيد الخامس للثورة .. عندما التقينا عن الحجة — أفراد التشكيل للندى — لأول مرة فى غرفة القائد .. اكتشفت سرأ لم يحل لى قبلا بمحاضر .. اكتشفت أن الشاب الذى أوليته تقديرى ظناً منى أنه من الأسرة القضاية .. وأنه وكيل نيابة أوفد إلى السجن الحرى للتحقيق معنا ، لم يكن من أسرة القضاء يوماً .. وإنما هو صابط البوليس صلاح المسموق (أركان حرب وزارة الداخلية يومئذ ومحافظ القاهرة اليوم) .. وقد رأيت لحساب الخارج وقد بدأ الشاب يفرغ مابه — ساعداً مفتولاً من سواعد ناسر — أن أسجل للتخرج هذه الواقعة .

الفصل العاشر

عود إلى التعذيب

قد يدور بحورك — قبل أن نبرح هذا السجن الرهيب — أن تسأل : إن كنا قد ضينا فيه بقية الشهور الثلاثة بنفوس مطشحة .. بعد أن عوملنا تلك الماملة الطيبة ؟ وبكل «الصدق الرهيب» الذي أنوعناه في هذا الكتلب .. أقول : « كلا » .
وبيان هذا « النقي » — وأفضل أن أتحدث من غشي فقط — أني أصببت الشهور الثلاثة في قلتي .. وكنت طولها فريسة للخافوف ونهباً لسوء الفن .
وكان للفن السيء ما يبرده .

وجاءت إحدى الحوادث .. فلم تبرز القلق الذي كان يفترسني فقط .. ولا جرت الفن السيء الذي كان يلارمني الشهور الثلاثة فقط .. وإنما جاءت حادثة التاسع عشر من ما يو ثلثاني رجباً .. ونضر أملكها شجاعتي فزلزلاً .. وكنت أظن — غروراً مني — أن الشجاعة إحدى صفاتي .. كبريتي وصمدي .

ويمكن أن أبدأ بالحديث من القلق .. ثم أنتقل إلى الحادثة التي ملأتني رعباً .

قلق .. وسوء ظن

انتهى التحقيق بالنسبة لي بعد جلسات أريج .. أعلم على مورد الدين كاسبق أن ذكرت .

ولكنني كنت أجهل أنه انتهى ..

وكنت في كل يوم .. وفي كل ساعة .. أتوقع أن يستأنف .

ولم أكن أعلم أن الضالين مئى — قعدة « للتألمة » — ثلاثة عشر .. وأن من بينهم ثمانية من ضباط الجيش .

ولم أكن أعلم أن من بين المكربين ذوى رتب عالية كالأميرالذى عطف نصار الذى يرأس التشكيل السكرى .. والذى اعتبر فى إحاطته إلى اللامش « لواء » .. وأن من بين اللدسين الخصة وزيرين وفديين هما الدكتور محمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن .

ولم أكن أعلم أن التحقيق كان مقفراً إلا بماوز إلماً وكان مقررأ أن يجرى فى سرية .. وأن هذا الرضع كان يحتم على المحقق أن يواصل إليه ونهاره .. وقد تمتد التحقيق مع أحد للثمين إلى منتصف الليل ثم يستدعى آخر .. وقد تمتد التحقيق معه إلى القنبر أو إلى الصبح ..

لم أكن أعرف شيئاً من هذا كله ..

وكنت أسترق السمع دائماً .. رجاء أن أعرف شيئاً ..

ولم أكن أسمع غير خطى « الجاويش » مقبلة بد منتصف الليل .. تنبها خطى « إسان » آخر .. ثم أسمع باب غرفة يفتح .. وينتصب حلقه ذلك الإنسان ثم يطلق عليه .. وتنبه خطى الجاويش — وقد ألقتها أذناى — إلى غرفة أخرى .. يخرج منها « إسان ثان » .. وتنبه خطى الإثنين إلى باب الخروج ليدور .. ويرسل سريره كأشبع صرعة تشق قلب السكون .. ويخرج الإنسان .. وتلاشى الخطى ..

وأظن أعتذر دورى .. حتى يعود الجاويش بلثهم الثانى قبل القنبر أو بعده .. وتسكن الحركة .. وأغمض عيني وأنام .. أنام بصف عين فقط .. لا لقلقى الذى يلازمى غيب .. بل لأن (الشاويش فؤاد) .. طليب له بد كل ما قام « من عمليات استيراد وتصدير » إلى مكتب التحقيق .. أن يرفه من نفسه .. وأن يفتنى فى القنبر أو فى السمر .. « عاد السلام .. السلام بإنيلى .. بد السكفاح .. السكفاح الجيد »

وعلى الرغم من أن التحقيق في السجن .. وفي النيابة انتهى .. ولم يستد أحد
يُستدعى .. ولا تَرامت إلى مرة أخرى أصدا تلك الخطى .. برغم هذه الحقيقة ..
لم أستطع أن أظنن إلى السجن الحربي أبداً .. إلا بعد أن « أغلوا طرفنا » منه ..
وبرحله مودعين من القائد والضباط فيه .. بأطيب التحيات .

وهذا « الثمور » الذي رسمته لك بأمانة .. يكشف عن الأثر الكبير الذي
تركته في الأعماق أكاذيب الخصوم وهم يبتنون في جناح البهائم برويون « المवादات »
ويرددون الأقاصيص عن السجن الحربي وما يجري فيه .. وعن لوحة عقلت بياحه
وكتب عليها : « الماحل مفقود والتلارح مولود » لما زار للشير عامر هذا السجن وقرأ
اللوحة غصب غصبا شديداً وأمر بنصفها الأخير فرفع .. رجة برجولة السجن .. من
أن يعود وليداً .. وأصبح المكتوب « الماحل مفقود » فقط .

كانت هذه « النكتة البائخة » تروى لنا في القهى .. وكنا نصحك طافى راحة
الثامت المسامر .. حتى دخلنا « السجن الحربي » وحشا فيه .. وفي قضيه كان
عبد الحكيم عامر نفسه هو الذي تلقى أول بلاغ عنها .. وهو الذي أشرف عليها ..
وبدب صلاح المحسنى لتحقيقها .. وخرجنا .. ولم يتبر أحد منا « مفقوداً » .

الحادثة المرحية

أما الحادثة التي ملائني رعباً فقد وقعت كما قلت في اليوم التاسع عشر من شهر
مايو و « أظنه كان يوم الثلاثاء » وكان التحقيق بالنسبة إلى قد انتهى .

كنت في ذلك اليوم أحرق في القضاء من خلال قضبان النافذة الوحيدة في القنوة
كمدوني .. وكانت هذه النافذة هي التي تصل بين مشاعري وبين الحياة .. ومنها
وحدها أتبعه دائماً إلى الله وإلى سماء الله .. ومنها وحدها أتلقى أصوات النهار وسبات الليل
في ذلك الصيف .. وغداة تَرامت إلى سبي دقات بجمار يدق « مسير » .. أو ينقل
شيئاً في إحدى الزنازين .. وظلت الهفتات تقترب وأنا أرهف السمع .. حتى تَرامت

إلى .. من العفة التي تلاصق غرقى .. واستطعت أن أدرك أن ألواحاً خشبية
ثابت بالتوافد لإغلاقها .

ومضى الرهب إلى قلبي .. وذكرت كل ما كان المصوم يقولونه من التعذيب
في السجن الحربي ، وإغلاق التوافد .. مثله أن نسج الفرفر في ظلام دلس في قلب
الظلمة .. ولا تفسير لهذا الظلام .. إلا أن دور التعذيب قد حان .

• • •

ورأيت السلم الخشبي تنقل به يدي خارج العفة .. وثبتته على حافة التوافد ..
ورأيت « نجاراً » يرتقي السلم وفي يده لوح من الخشب و « قديم » و « مفصلات »
و « مسامير » و « مشابك » .. حتى أطل على .. وأنا جالس في سريري والمصحف
بين يدي .

حذق الرجل بينيه في عيني .. وبأن عليه الأسى - أو هكذا خيل إلى -
ونقلت يمينه ثم يسره وألقى السلام على .. فرددت التحية بأحسن منها - طبعاً -
وأنا أتعصب له من بين شفق ابتسامة زائفة .. وانهزت فرصة صلفه وسأله في نبرة
للغلوب على أمره :

— انتم حاسدوا الشباك ؟

وفهمت من إجاباته المضطربة وهو يواصل التلقت .. أن تمليات من أركان حرب
السجن صدرت إليه بسبل هذه التوافد ولا يعرف لها سبباً .

قلت لرجل فيما يشبه الرجاء أي مريض بالقلب (وهذا أيضاً من الكذب
الأبيض) وفي حاسة ملحة إلى الهواء في الليل قبل النهار .

وفكر قليلاً ثم اقترح أن يترك أحد اللوحين بنير « شكل » لو « مشبك »
حتى يصدر طيبهم إنفلاجه .. أو ليصحه أي هواء يهب عليه .

وشكرت له حسن ضيقه وهو كل ما يملكه .. وإن كانت فكرة الضيق
ظلت تلاحقني وتعرض نفسها على تشكيري .

وانتقل إلى عرافات آخر .. وفرغ من المهمة .

» » »

ولم تمض دقيقتان .. حتى سمعت الضابط يستدعي الجاويش ويسأل غاضباً :
كيف ترك نصف هذه النافذة بخير « مشبك » ؟

وحدث هرج وجبه بالسلم من جديد .. وارتجأها النجار كاسف البال . وأدى
ما طلب إليه وهو يستم ببيارات احتذار تصلح لي ولرجل من خلقه ذي شأن عرفت
فيما بدأه الضابط .

وقعت الواقعة 11

وبعد ربيع ساعة تقريباً .. حدث هرج جديد .. وترامت إلى أذني أوامر
الضابط تنقلت من بين شفتيه في لحظة عسكرية صارمة : « اقتل يا عسكري .. »
وترامت إلى أذني أصدااء إعلال النوافذ .. وجاء دوري فأغلقت نافذتي .. وسبعت
غرفتي في بحر من الظلمات لا أكاد أنبين فيها يدي .. وأطبق المذخور .. ووقعت الواقعة .

ورفعت يميني إلى السماء .. فالتفت بالسقف ولم تلتق بالسياء .. فلم أقو على
الضراعة والجماء .. وانهرت دموعي .. وكان البكاء الصامت الثاني داخل سجين .

وسمعت الضابط يقول : « مطبوع يا عسكري ؟ » وعاد يقول « طيب افصح بي »
وفضحت النوافذ .. وعاد النور .. وتفتت الصدا .. وتطلعت بين الرمال
إلى السماء .

ولكن إلى متى .. تظل مفتوحة ؟

ألا يكون الأمر قد أهد نهلاً؟ .. ليجرى ما قد علينا بعد أن ينقوها
في الليل؟

وومض رأسي حائل .. فوثقت من غراشي ودققت الباب يدي .. وجاء
الجاويز .. ففتح الباب .. فطلبت منه استعداداً « حضرة أركان حرب » وأغلق
الباب ومضى .. وبعد فترة عاد إلى يطلب « ذكر أسباب الاستعداد لأنه مشغول »
فقلت له « قل له إنها أسباب خاصة لا أفضى بها إلا إليه » وأغلق الباب .

ومرت ساعة من الزمن ليلها أتقل على النفس من عام .
ونزمت إلى أدنى هرج تحيات .. ووقع أقدام .
وفتح الباب .

وكان أركان حرب السجن ضابطاً سودانياً متمصراً .. بشوشاً ومهذباً فصالحاً
وسألني إن كان في وسعه أن يقدم أي خدمة .. فسأته بدوري أن يوضح لي سبب
عمل الشبك لتقديتي فقال إن زميلاً لنا — محاور غرطك — شكوا من البرد الذي ينسلل
إليه في القبر .. ويعصيه بركام فأمر قائد السجن بسد شبابيك خشبية للتوافد حتى
يتسنى إغلاقها ليلاً حرصاً على سلامتكم .

وقلت للضابط إلى على تقيس الجار .. مريض بالقلب وضيق التنفس .. وفي
حاجة إلى كثير من الهواء في الليل قبل النهار . .

وعد الضابط أن يرفع الأمر لقائد .. ورجعت على القلب باليد .

وبعد فترة قصيرة — مضت خفية وحطية — رأيت الشبكر يرتقي السلم للمرة
الثالثة — ضابط الوجه هذه المرة .. وراح يتنزع اللوحين في ابتهاج ورضى ..

ويتلقى بمئة وبسرة... ويقول وكأنه نقر بالورقة الزائفة « انت راجل طيب باسح »
الفرج قريب لى شاء الله .. خليك مع الله .

وما كاد يتوارى عنى — هو وسله اللشى — حتى سجدت فى شكرًا.. واتهمرت
دموعى للمرة الثالثة والأخيرة طوال الشهور الثلاثة . . وكانت دموع الرضا فى
هذه المرة . . ورايتنى أنظر فى المصنف أسمى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا
يمسك لها » .

يا شبيب . .

وفى شهر يونيو أو يوليو — ندب لمؤونة الجلاويش محمد حديد « دهنة » اسمه
« شبيب » من أبناء الوجه البحرى — وأذكر اسمه لأنه أتم الخدمة وعاد إلى بلده —
وأولانى شبيب عطفه من أول وهلة ولير سبب. وأمسى سد أيام صادق الود حبه .

وكانوا يندبونه لمواقفهم صريخ فى كل يوم « القصة » فى حداثى السجن بعض
الوقت . . مرة فى الصبح ومرة بين العصر والغروب . . وكان محظوراً على الجندى
(كسبجان) أن ينسب شقة مع المتهم (كسجين) . . ولكن (شبيب) كان
يحلس النظر من بعيد إلى الجلاويش (الذى اعتاد أن يراقب الجنود وهو مسنّف
خلف الشجر) حتى إذا طابن (القصة) إلى علم وجود المراقبة . . انشأ إلى . . ينفخ
كل ما يصل « من أنباء . . وكان أهمها أنه سمع الصلوات وهم يتحدثون عن قرب
الإفراج هنا . . يوم افتتاح مجلس الأمة يوم ٢٢ يوليو وفى عيد الثورة يوم ٢٣ لأن
قضيئنا قرر حفظها .

وكنت أصطر مقدم (شبيب) كل يوم لأخاطبه إن كان قد سمع جديداً . .
فيضيف ما يؤكده أنباءه أو لا يضيف .

وكان يؤمنى أن يأخذ شبيب (راحة) وأن يعمل مجدد آخر معه . . وكنت
أمنى مع الجديد إلى (القصة) صلتاً . . وأعود منه صلتاً .

وكنت إذا ناديت الحميم باسمه وقتلت بجله في : « يا شعيب » أحسنت كأن
التداع يحمل إلى .. أريج النبي — تسمى شعيب في القرآن — من غرط لوتياح إلى
هذا المواطن .. وتفاؤلى ..

وسألت « شعيب » ذات مرة .. إن كان في وصفه .. ومن غير إخراج — أن
يقول لي شيئاً عن أوصاف المعتقلين معي ؟ فبدأ يبدل بكل ما يذكره من أوصاف كل
سجين أو قال عن أحدهم إنه كان كما يقال وزيراً وفدياً للحرجية وعن آخر إنه كان وزيراً
للداخلية في وزارة الوفد سأله أن يصنع لي فقال « أسمر وقصير ولسانه حلو وحصبى »
فأدركت أنه يعنى (عبد الفتاح حسن) بشارق « العصبية » فقد كنت أعرفه سليم
الأعصاب ولكن السجن يبدل الكثير .. ولم أبدل جهداً في معرفة من قال عنه
(وزير حرجية) وأدركت أنه (صلاح الدين) .

وتولى شعيب وصف مدنى آخر أدركت أنه (الشاب) وأكده لي حصة الوصف
عند ما قال (ويلبس نضاره .. وبهد منك شايه شبه شويه) وأضاف أخيراً أن
هناك شاباً آخر يقولون عنه إنه وفدى واسمه (أحمد السادة أو السادات) فقلت له
(هو بجاهى ؟) فقال (أظن) ولم يدر بمخاطبى أنه (أحمد السقا) ولم أكن أعرف
« السادة الجاهى » حتى أطلب مريداً من الوصف .

وهكذا عرفت أسماء ثلاثة من الزملاء الأربعة .. بفضل صديق شعيب .

وأوصيت « صديقى » أن يصنى في عيد الثورة إلى الإذاعة صباح يوم افتتاح
مجلس الأمة .. عند ما تخلى الطائرات في السماء .. لئلا ما تحرك ركب الرئيس .

وفى غنى ذلك اليوم .. أصيبت بكل أذى .. إلى القضاء .. فلم اسمع أبى
أزيراً أو أى ضجيج ومنيت بحية مريوة .. ولم أعلم إلا بعد أن بارحنا السجن .. أن
المجلس اصبح جلسته على غير عادة البرلمان المصرى — في المساء ولم يفتتح في الصباح .

وجاء اليوم الثالث والمشرعون من يوليو عيد الثورة .

وكنيت قد رأيت فيها يرى الفائم حداً لا عمل لتفصيلاته في هذا المكان . .
وإنما يمتدني منه أنى فسرت على ضوء الأرقام التي وردت فيه والأحداث الناطقة التي
تخلقه . . بأن الإفراج عنا في هذا اليوم الثالث والمشرعين من يوليو ١٩٥٧ أمر
مفروغ منه .

وتاتم الإيمان بهذه الرؤيا . . حتى ألحبت أعضائي . . ولم أتم طول ليل . . في
اعتظار صدور القرار بالإفراج . . تفسيراً للحلم واستناداً إلى ما كان (شبيب) قد سمعه
من الضباط .

وجاء الصبح . . ولم يبق الإفراج .

ومرت الساعات الأولى من الصباح من غير أن تحملني إلى أي قرار آخر أو
أي لمحاولة بالقرار . . غزنت . . كأن القرار قد صدر ثم انسى .

وفي الظهور أو قبله . . سمعت سحلي الجاويش تقترب من غرفتي فحققت قلبي . .
وعند ما فتح بابها اردادت صرجات قلبي . . ولكنه مد يده بعلمة السجائر التي يبيعني
بها يومياً وأغلق الباب فينت . . وأغلقت على ضبي . . أؤنب النفس وأؤدبها . .
وأسألها كيف تدهورت إلى هذا المستوى من الضعف و « التشریف » كأنها لم تهذب
بالمعرفة يوماً ولم تحتر وادى الثقافة ولو عمراً .

وفي هذه السرة من الأسى على تدهور تفكيري انفتح الباب فجأة وسمعت
الجاويش يقول في لهجة المسكوى ينفذ الأوامر :

— إلبس هدومك وجهز شطتك وكل حاجاتك وانتظر التلميذات .

وونت من السرير أقامم القرفة وأحاول أن أخفيها وهي تظني وقلت للجاويش :

— ليه أفهمي .

وقال الجاويش :

— الأوامر كله من .. مايش حرف زيادة .

ومصيت اجمع حليجاتى .. وأترككم كل مالست فى حليجة إله من الأخطمة
وارتديت ملابسى ورحت أذرع العرقة .. وقلبي يمدنى بأن شيئاً ماله صلة بالنهب
يحاول أن يثبت بمشاعرى وأن من ظهير أن أسطر عليها حتى أرى ما يجتبه القدر ..
لأن « السعادة » على هذا النحو — وتفسيراً لحلم — لا تكاد تصدق .

ومر الوقت .. ولم يعد الجلاويش .

مرت ساعة وأكثرت من الساعة . وبدأ القلق يساور نسي .. فطرفت الباب
لجاء الجلاويش فسالته :

— إيه الحكاية ؟

وأجاب :

— خليك لابس وانتظر التعليلات .

وحضر غداً لونا اليوم فأحدثته مع (شبيب) إلى الظلام ومعه (المسود) القمارغ
الذى كان قد حل لي ملهم الأس .. ولم أجد أنصور أن آكل شيئاً وأنا فى الطريق
إلى يلقى .

صلحة .. ١١٩

وجاءت الأوامر أخيراً . .

ومشى الجلاويش أمامى .. والجندى من خلفي يحمل حقننى وانضج بلب المتقلد
رقم ١ فى طريقنا إلى مكتب القائد .

ولم ألبث أن وجدت فى مكاتبى .

رأيت « الشبيب » من بعد .. واقفاً .. وعلى سياه كل علامات الأسى واليأس

ورأيت شاباً آخر جاء يقدم لى نفسه (أحد القنا سكرتير الرئيس السابق مصطفى
التمتاس) ولم يكن وجهه هو الآخر يحمل بشرى الإفراج .
وسأله :

— ليه الحكاية ؟

وقال ضاحكا :

— يظهر حابودونا سجن الاستئناف .. عشان احنا مدنيين .. وعابزينا
نكون تبع النيابة مش القيادة تصيحاً للأوضاع .
وكان كل تسليق : « ياه ؟ » .

ولم يدرك أحد حتى هذه الساعة .. ما كانت تحمله يومئذ كلمة « ياه ! »
وأقبل الأستاذ عبد الفتاح حسن .. فصافنا .

ودخلنا إلى مكتب قائد السجن .. عرجنا قوة من ضباط البوليس جاءت
لتقبلنا .. وانتظرنا مقدم الدكتور محمد صلاح الدين من المستشفى العسكري حيث
كانوا قد أجروا له عملية جراحية بسيطة .
وقلنا إلى سجن الاستئناف .

وفتحت أبوابه ..

وحيث من ورائها .. سيات جديدة وندية .. سيات الطائفة فى السجن
العادية .. سيات ضباط بوليس فيه يرحبون بقدومنا .. وسيات (زملاء .. ١١٢)
من (للساجين) يقبلون علينا (بالأحضان) ولا يبالون أحداً .

واجتمع ثلثنا فى غرفة الضباط .. أربعة من المتهمين بالانضمام إلى تفكيك ..
وخامسهم .. الذى ضمهم .

ولكن هناك سادساً .. وجهاً جديداً لا نعرفه .. مدنياً .. كان يرافقتنا في رحلة
من السجن الحربي إلى سجن الاستئناف ورافق الضباط .. وقد انصرفوا هم ..
وبقى هو ..

من هو ؟

قرار الاتهام

وتبين أنه « المحصر » جاء إلى السجن الحربي ليمتدنا بقرار الاتهام .. فطلبوا
إليه أن يرافقتنا لنتم الإعلان على (أرض النيابة) لا (على أرض القيادة) أي في سجن
الاستئناف لا في السجن الحربي .

وأقبل عليك فأقبل لك بعض سطور من هذا القرار لتشكل ملامح القضية
والاتهام فيها إذا لم تكن تتبعها .. ولأنني ذكرها في ذهابك إن كنت من الملايين
الذين تنبشونها في مصروف كل بلد عربي .

أمر إحالة

في قضية الجناية العسكرية رقم ١١٧ سنة ١٩٥٧ التوايلي

(١١٣٧ كلّي شمال القاهرة سنة ١٩٥٧ - ١٧ أمن الدولة سنة ١٩٥٧)

(٧١ حصر أمن الدولة سنة ١٩٥٧)

نحن رئيس نيابة أمن الدولة

بعد الاطلاع على التحقيقات التي تمت في هذه القضية

وعلى (كيت .. وكيت .. من التمرارات والأوامر)

نأمر بإسالة

(وهذا ذكر ثلاثة عشر عاماً) .

إلى المحكمة العسكرية العليا .. لمعتهم بالمواد (كذا وكذا) من قانون العقوبات لأنهم في خلال المدة من شهر أبريل سنة ١٩٥٦ إلى ٢٣ أبريل سنة ١٩٥٧ بدائرة محافظة القاهرة :

اشتركوا في اتفاق جنائى الفرض منه ارتكاب جريمة الشروع بالقوة في قلب دستور الدولة وشكل الحكومة فيها وهي الجنابة المنصوص عليها في المادة ٨٧ من قانون العقوبات وذلك بأن يؤلفوا من بينهم ومن ينضم إليهم من صباط الجيش عصابة مسلحة تقوم بحرق رئاسة الجمهورية باحتلال رئيس الجمهورية والوزراء أو احتلالهم والاستيلاء على مقاليد الحكم وقلب دستور الدولة وتغيير شكل الحكومة وللناداة بأخر (يقصد محمد نجيب) رئيساً للجمهورية وتنصيب التهم النطلس — أى الدكتور صلاح الدين — رئيساً للوزارة والتهم السادس (يقصد الأستاذ عبد الفتاح حسن) وزيراً للداخلية وكان المتهمون الأول (يقصد الأمير اللى عاطف نصار) والثاني (يقصد البكباشى حسن صيام) والثالث (يقصد الصاع محمد أمين فوزى) والرابع (يقصد الشاب الذى لا أريد أن أسميه) المخرضين على هذا الاتفاق ومدبرى حركته ومرفق هذا قائمة بأسماء شهود الإثبات وغوى شهادتهم ؟

تحريراً في ٢٢ يولييه سنة ١٩٥٧
رئيس نيابة أمن الدولة
إمضاء (حامد بسيوني)

• • •

وبلى هذا تلخيص لشهادة أحمد قدرى محمد (شاهد الإثبات) والمطلع ومصدق الشاب .. سنة ٢٧ سنة وموظف بمصلحة الفنون بورارة الإرشاد وضابط سابق (وكان عضواً في مؤامرة البوز ماضى للمصرى .. وحكم على قدرى هذا بالسجن خمس سنوات مع إيقاف التنفيذ لأنه ساعد في الكشف عن تلك المؤامرة) .

• • •

وبلى تلك الشهادة تلخيص لأقوال كل منهم من المتهمين .

وتسلم كل منا نسخة من قرار الاتهام . ومضينا إلى الحجرات التي خصصت لنا .

وأعاهد أن هذا التقدير من تاريخ المؤامرة يكفي لتدكيرك بها ..

كما أعهد أني بهذا الفصل .. استلمت أن أدرسم للرحلة العائشة .. في موقعي
من « الرجل الذي تأمرث عليه » .



افضل كادى عشر

من السجن .. إلى اللبان

كنت أقدر لهذا الفصل أن يسمى - بحكم موضوعه - أقل إثارة من أى فصل آخر .. لأنه يعرض لنا كافة جرت ونحن فى سجن الاستئناف .. ولأحكام صدرت علينا .. و « نرحيلنا » - بلمة الإدارة - من السجن الظريف - إن صح أن فى السجن ظرفاً - إلى اللبان الرهيب - ليلان طره - واسمه يكنى .

ولكن الفصل جاء - على غير ما توقعت له - فصلاً مثيراً .. أو هكذا يبدو لى . ويبدو أيضاً أن « الكثر والإيمان » - والأصل فيها أنهما عنوانان لا يضمنان - يبدو أنهما على صيد هذا الفصل يضمنان اجتماعاً ، بل بلطفان التهاماً ، ويتوضان معركة كبيرة وممريرة ، وإن لم تكن حاسمة .

وعلون على هذا الاتهام ، وجودنا فى سجن الاستئناف .

معركة حامية

نقلنا إلى سجن الاستئناف فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٧

واضرت المحاكم من يوم ١٢ أغسطس إلى يوم ١٢ سبتمبر .

وصدر الحكم فى يوم ٢٠ أكتوبر .

ونقلنا إلى اللبان فى يوم ٢١ أكتوبر ١٩٥٧ .

وأسدل علينا ستار القسيان حتى أفرج عنا مساء السبت ١٨ يوليو ١٩٥٩ .

وكان في وسمى أن أضح هذه الأرقام ، أودع بها تلك القفزة ولا أزيد ، لأن
الحكاية وما جرى فيها ، ليست من أهداف هذا الكتاب ، ولأن السجون وعجائب
الحياة التي يجالسون خلف أسوارها ، إنما نتأمل كتاباً صغياً ، أؤكد أنه لم
يصدر بعد ، برغم كل ماصدر عنها من كتب .

في سجن الاستئناف

لكن التي حدثت ، أن معركة حامية نشبت ، وأن خصملاً مريراً دار ، فوق
أرض للمركة ، و « الأرض » دارت بين « الكفر والإيمان » وهذه « النفس » ،
وهذان هما الكتاب .. ولا سبيل إلى التعامل .

نقلنا إلى سجن الاستئناف ، وقصينا فيه ثلاثة أشهر كالتي قصيناها في السجن
الحربي ، وشتان كان هناك خوف من المجهول ، وكان هنا خوف من المعلوم ، وشتان
كان في السجن الحربي فراس لما ترسب في أعماقها من شامتات الشارع وأكاذيب
الخصوم عما يجري خلف أسوار السجن الرهيب من تمذيب ، فقصينا كل يوم من
الأشهر الثلاثة ونحن نتنظر المتاعب التي لم نعي . ، وطال انتظارنا لها ، حتى تركنا
هذا السجن .

أما في سجن الاستئناف ورغم الحكاية التي جرت والأحكام التي صدرت ،
فقد كانت ألسنا فيه كلها سعادته ، إلى رحى السعادة أن تمشي خلف الأسوار .

كان كل مافي سجن الاستئناف .. بالنسبة لنا .. جيلاً .. وأقدم اعتذاري
لأندلس ، الجمال .

كانت « الحرية » مكتوبة لنا ، وإن ساءك أن أتحدث عن « الحريات » و «
« القتضيان » .

أعدوا لنا نحن الخطة ، خمس حبرات ، وجعلوا بين كل واحدة وأختها ، حبرة خالية ، حتى لا يتصل أحدها بالآخر - كما يجري العرف في القضاة المطيرة - ولكن « الواقع » أننا كنا نجلس معاً ، وسير معاً ، ولا يفرق بيننا إلا النوم .

ولم نصدق أننا منحنى كل هذه الحرية . جذبات الرواسب تمثل عملها في تفكيرنا ... وبدأنا نعتقد أنها « حرية مدبرة » و « حرية مقصورة » ... وأنا مُنحناها لتكلم ونثرثر .. ومنحوها لتتسع آذانهم علينا ... وانتقل إلى الشولين كل كلمة قولها ... فكنا نملك عن الكلام كما أقبل علينا صابط أو سبجان ... بل كل شيء . بنظام سجين ... من المقصود أو من الشالين .. لينزل أرض حبراتنا .. وليصبيه منا بقية من حلى أو طلم .

وحق « المحكوم عليهم بالإعدام » من أصحاب الأودية الجرداء ... الراسخين في الأغلال .. وكانت حبراتهم امتداداً لحبرتنا ... وكان مرآهم تحفل به النفوس وتقبض له الصدور .. حتى هؤلاء ... كما نستع إليهم ... وهم يسردون علينا التفاصيل الحقيقية للحرائم المنسوبة إليهم .. وكان عدهم إثني عشر شخصاً - وهو عدد قل أن يجتمع في سجن واحد وفي وقت واحد ... وقد تركونا ومضوا ... وكل ما أذكره أنا سد الحكم علينا تركنا على قيد الحياة السيد أمين ناظر للدرسة ، وكبير التهمين وقضية الجاسوسية ، لتلتق في اليابان بانيه الصابط البحري أحمد لطفي السيد .. وبان أخيه (صالح) المحكوم عليها بالاشغال الشاقة مع قبيلة زملائهم للعصريين و (سويتيد) الاسكتلندي و (رارب) اللاتفي (بريطاني الجنسية) ، تركنا وروادنا السيد أمين مؤمناً بأن الحكم لا يمكن أن يفذه فيه ، إذا أتبع له أن يشهد مطلع القصر ، في أول شهر عربي .. وعاد إلى حبرته إثر تلك الرؤية حلا اسم الله (يا لطيف) عشرة آلاف مرة ، ومع صيغة بينها تلقى أسرارها عن الفتوة عند ما كان في بلاد للعرب ذات الأسرار والأحجية خلال الحرب العالمية الثانية .

ورأيها - رحمة بأصابع الرجل ورغم بشاعة التهمة للمنسوبة إليه - أن تدبر أمره مع بعض القادرين على أن يهبطوا به إلى (حوش السجن) ليطالع (وجه القصر) .

وليقوم بتجربته ، وأجرأها ، وبرغبتها ثم إعدامه ، وكنتا يومها في « البيان » .

أذكر هذا كله لتذكرك مدى الحرية التي منحتها في ذلك السجن ، ولتفكر معها أن (المحر) كان صالماً للتفكير للترحيل ، الذي يملسه كل مواطن في حياته المادية وفي بيته الآمن .. مع التفارق !

ولنت - نتيجة لهذا التفكير للترحيل - كبير الرجاء في الحكم ببراءة الثلاثة الأواخر في قائمة الإتهام بعد أن قرأت (ملف القضية) قراءة واعية ، وبعد أن لاحظت أن سلطة الادعاء (النيابة) قد رعت المتهمين في (قرار الإتهام) ترتيباً (تنافياً) يناسب خطورة ما أسندته إليهم من تهمة ، ولا يتصل من قرب أو من بعد بأقذارهم ، والذليل أن الأربعة أو (المحرضين والمديرين) جاءوا في طليعة القائمة وبدأوا بالأمر الإلهي عاتف نصار والبكباشي حسن صيام والصاغ أمين عوزي و (الشاب) الذي أحدثك عنه (يوم الدين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فلا) ثم جاء الدكتور محمد صلاح الدين - على قدره - بدم (وحكم عليه فلا بقوة أقل من عقوبتهم خسة عسراً) ثم جاء الأستاذ عبد الفتاح حسن (وحكم عليه بقوة أقل إلى عسراً عاتياً) .

وأنا إذن كنت منطقياً مع قائمة الإتهام نفسها عندما كنت كبير الرجاء في أن يحكم ببراءة الثلاثة الأخيرين في القائمة التي ضمت ثلاثة عشر متهماً إذا كانت هناك أحكام بالبراءة وهم بالترتيب التنازلي أيضاً بدءاً من التهم المهادية عشر (قضى اسماعيل كوكب ومحمد السوادي وأحمد السقا) وكانت التهم الموجبة إلى ثلاثين بادية التضاهة - أو في التقليل لا يصح نسبها بالخطورة - سواء أتممت أم لم تنجح ، وثبتت في ذهن القضاة أم لم تثبت .

واسم (قضى اسماعيل كوكب) كان بالنسبة لي شخصياً ، (مفاجأة) أو (فكاكة) والسبب أن وهم كان (وفدياً) ، وكان يعمل معي في جريدة (السوادي) وأذكر أنني

— إننا لم نحمي الذاكرة — تحدثت ذات علم إلى الروح عبد الرحمن عمار وكان يومها وكيلاً لوزارة الداخلية وكان أديباً وكان صديقاً ، في أمر الطالب الصغير (فني) ابن إسماعيل كوكب الحرر في جريدتي ليلونه بتوضفه في قبوله في الكلية الحربية ، وكان (فني) مروقاً بالمدوء والاستقامة ، حتى لقد جهل سد نخره كيف يسهر مع أترابه من الضباط ، وسهر مع (كته) كما كان دائماً يفعل ، وحصل على ليسانس الحقوق وهو ضابط ، فضع نفسك مكانى ، وتصور نفسك وأنت تطالع اسمه في قائمة الأتباع وفي مؤامرة كبرى تضم وزراء سابقين وصالحاً عظيماً .

وأرجو ألا يكون هذا الاستطراد قد خرج بى عن أهداف الكتاب ، إننا أردت أن أرسم بهذا اللون من تفكيرى الملقى في هذا الشاب .. صورة الجبر الآمن ، واللعو الصالح لمراجعة الحساب والجوفى سجن الاستئناف .

وبفأت إذن أراجع الحساب كله وأسأل فني في هذه ، رأبها المريح غير للتمييز في « الرجل الذى تأمرت عليه » ؟

وطالعتني من جديد قصة « السجن الحربى » ، وما يلقاه فيه كل من تلقاه جلادوه ، قصة مشى بها المصوم في القناتى والمكاتب والحدود ، وراحوا بها في المواسم والبنادر .. قصة أبى زيد اللاللى في ريف مصر وصيدها .

وها نحن أولاء قد دخلنا هذا السجن ، وحشاه فيه ، وسرجناه منه ، ولم نجد هناك الاتهامات ظلاً ، إلا إن كان وجود كلب يمدح طوال الليل داخل أسواره ، مؤيداً لما كانوا يقولونه من كلاب مدبرة ، تترك مع اللثم داخل زناكته لتدابعه طوال ليله ، وتقتول حشاهها بضع شراخ من غلظه .

وسجماً على منوالى ، في الشك الذى يقتبس كل تفكيرى ، عدت أقول لنفسى :

— قد يكون عند غيرى ، شيء يقال ، عن متاعب صلافها ، وقد تكون بساطة الاتهام للوجه لى ، سباً في السلطة الطيبة التى صلاتها .

وكان « الاحتيال » مقبولا .

ولكن حدثنا وقع في اليوم التالي أجهز على كل « مقبولة » في هذا « الاحتيال » .

كان كل منا — نحن الأربعة — يطوى صدره طبعا على احتقاد لا نهاية لما على « الشاب » أو — في القليل — على شعور بالنعور من الاتهامات التي كالمنا في « قماره » ، ولم تكن تصور وقد جمع « سجن الاستثناء » بيننا ، أي عذر يمكن أن يقدمه لنا ، أو يمكن أن يعطل به ، ما عرط منه في حقا .

وجاء الشاب ، وتحدث ، وقال كلاما عجيبا ، قال إنهم هذبه ، وأين ؟ في السجن الحربي الذي كنا فيه ، هذبه ، وأملوا عليه ما كتبه في القطار ، ولم يكن له يد فيما « كتب » إلا « يد الصياغة » وراح كل منا يسأل أخاه إن كان قد عذب .. وأجلب كل منا ببساطة أن أحدا لم يده ، بل إن أحدا لم يمس بسوء ، وكان (أحد النفا) هو وحده الذي سجل على السجن سويا « متواضعا » بحس الملاص ، لأنه لم يحضره شيئا منها عند القبض عليه ولم يصرحوا له باستحضارها من منزله إلا بعد وقت غير قصير ، فلفي في هذا السيل شيئا من المتاعب ، انتهت عندما شكنا أمره إلى المحقق .

وإن كان انصوم يكذبون وهم ينشرون بين الجماهير تلك الأكاذيب الجريئة من ذلك التذيب للزهوم ...

وقياسا على هذه الأكاذيب ، يكون الحكم إذن على كل أكاذيبهم عن « الرجل الذي تأمرت عليه » .

امتحان مقطوع النظر

... وشاء القدر أن يقدم لنا صورة مروعة لحقيقة « الشاب » الذي عاشهنا عمرا ... ولم نعرف من حقيقته شيئا ... صورة ترسم اقتداره على « التشكل » بكل ما يشاء من

« أشكال » ... « هندساً » يسلكه في رسمة « الظاهرين » من رجال « الفن » ... ويدخل به إلى « وادي عبقر » ... ولكن من باب خلق ... أو من باب « غير خلق » .

ولا أغن أني نادم على أن أضخ هذه الصورة بحير من هذا الكتاب .. ولا أغن أني نادم على أن أضخ هذه الصورة تحت ناظريك لتليل التأمل فيها ... ولتري في كل خط من خطوطها دليلاً على أنه لم يذهب قط ... الأمر الذي له صلة بأهداف الكتاب ومقترحات الخوصم ... وتأثري بهذه المقترحات .

جاءت المحاكمة ...

وجيء بها صباح الثاني عشر من أغسطس إلى القاعة التي أعدت لها كئنا .

وكان قد جيء بالسكريين من « السجن الحربي » قبلنا ... وأخذوا في « قفص الاتهام » الأماكن التي اختاروها لجلوسهم ... وكان كبيرهم « علف نمار » يأخذ أول مكان من مدخل القفص .. وقيل في تليل الاختيار أنه أصعب داخل السجن مثال ... فإذا صبح ما كان قد قيل ... فن حقه أن يأخذ أول مكان يقفاه ... وكان شقيقه « وزير الصحة التنفيذي قيا بد » يمسك يومئذ كبيراً لأطباء الجيش وشيقاً لأطباء مصر ... وقد شهد كل حلة من حلقات المحاكمة .

وما كدنا نصل إلى القفص في ذلك اليوم حتى تعادلت « الترسيمات » بنا من وجوه لا أهر فيها — باستثناء قفص كوكب — وسارع « الشاب » فقدم إلينا زملاءنا السكريين في « المؤامرة » وقد علمنا لم ... وإن على وجوه الجاهلين التي ضاقت بها القاعة علامات المعضة ... ولعل من بينهم من ظن أننا قوم بمشهد تمثيل .

وكانت الجلسة الأولى جلسة إجراءات ... لأن المحاكمة التي نحا كئنا « عسكرية عليا خاصة » ... خاصة بنا تنتهي مهمتها بانتهاء محاكمتها لنا ... والمحاكم العسكرية لها إجراءات يصفها قسم من الرئيس والأعضاء على اللصاف أو على الإنجيل . . ثم يسأل

كل منهم : « هل أنت مذب » أو « غير مذب » ؟ وعليه أن يقول : « مذب »
أو « غير مذب » ولا يزيد ... وقتنا جيماً « غير مذب » ورفعت المجلة .

وحسب بنا في اليوم التالي للمجلة التالية .

موقفان

وما أزال عند قول أي لن أعرض بالبيان أو باليمين لكل ما جرى في المحاكمة
من مراميات أو بحوث أو دفع .. ولكن موقفين اثنين من الموقف أستاذك في
عرضها لاتصلحها - في تقديري - بأهداف كتابي ، وأرسلها أكون
قد أسأت التقدير .

الشاب « الفنان »

كان « الشاب » قد أكد لنا أنه سيقول للمحكمة « الحق ... كل الحق ...
ولا شيء غير الحق ... » وكان قد أعد لنا الحق « كراسات » ... مكث على إعدادها
أياماً في حبرته ... وحملها معه في المجلة التالية .

وبعد افتتاح الجلسة .. لفنا رئيس المحكمة إلى أن التهم منا ، إذا دعي الشهادة
اعتبر مطلق السراح أو مفرجاً عنه حتى يفرغ من شهادته ، وله كافة الحقوق التي لكل
بموطن طوال المدة التي تستغرقها الشهادة ، وله أن يمتنع بما شاء من مذكرات ، وأن
المبرة - في القسامون المسكري - بالأحوال التي تذكر أطمح المحكمة لا بالأحوال التي
وردت في التحقيق .

وأذكرنا أن ما يقوله الشاب في هذه الجلسة هو الذي يقول عليه ، وأن كل ما أدلى
به في التحقيق ، وما كتبه في التقارير ، تسقط كل ماله من (حجية) إذا هو
تسحب منه .

وعلى إذن قبة (الشاب) .

ونودى .. برصنه شاعداً .

وسرح من القمص ثابت الخمل ، وأسد مكانه من كرمى الشهود في ثمة وعرة ،
وسلطت عليه أصواء للصورين ، وأحسن تلقى هذه الأصواء ، كخير مدرب على
وسائل الإعلام .

وكانت المحكمة والله أعلم - أو أغلب الظن ولا أجزم - تميل إلى الاعتقاد أن
الأقوال التي سيدلى بها أساسها ، لا بد أن تحيى - بحكم متعلق الأشياء - مطابقة لما كتبه
في تقاريره ، ولما أطل به في التحقيق الابتدائي أمام صلاح المدسوق ، وفي تحقيق النيابة
أمام حل نور الدين .

وبدا الشطب بداية تزيد هذا الاحتداد .

ولم يفته أن يكون بارع الاستهلال فأصنى صمت الإكبار والإجلال .. على
رئيس المحكمة للوقت .. وعلى أعضائها الصباط المنظم .. وأعلن أنه يلود ببدلة
بمرضا في رئيس هذه الهيئة ، ويطلب حمايته من أى مقاطعة من جانب النيابة أو القطاع
أو الجمهور ، وركز على «القطاع والجمهور» وأكد له الرئيس - وكان لواء اسمه المدجوى -
أنه في حاية المحكمة ، وأن حريته مكفولة ، وأن له أن يسترق أى وقت يشاء ، هو
أو أى شاهد ، وأن يستمين بما شاء من أسايد ومراجع .

وكانت هيئة المدافع رحية هي الأخرى - توكيلا وانتدابا - بلغ عددهم ستة وثلاثين
محلياً إنزالهم تحيى القاكرة ، وكان من بينهم أسايد لهم في القانون صدارة . وهم في
الثقة أسايد ومراجع ، كالنقى ووحيد وأنت ومحمد عبد الله وعيرم ، وكان من بينهم
وزراء سابقون كالكنتور محمد حاشم ومن اشتغلوا بالسياسة أو استرقوا القلم كبند المجيد
ناعم واحد حسين وعلى اللول .

وكان واسماً أن «الشطب» كان محناً وهو يطلب من المحكمة حمايته من تألب
هذه القوى عليه .

ولقد قلت في أحد المقامات أن الشاب يحسن التصير «بالقصي» عن النبي الذي يريد في ملاقة مستأينة ، وأحب أن أصيغ — إنصافاً وأمانة — إنه قادر أيضاً على إحداث تأثير في السامعين شأن كل خطيب مدبر ، وإذا «تدفق» قل أن يصغر .

وبدا يحد ..

وبدا صوته يتدرج في (طبقات صوتية) مرسومة لا يحسنها غير (المطرب المدرج) .. وهو يساعد الله والحكمة والضمير على أن يحيى شهادته على مستوى الشهادة يوم الدين ، سراحة وصدقاً ، لا يبالى معها شخصاً أو شيئاً ، ولا يتوحن بهما إلا وجه الله والحق .

وظل يصرب على هذا الرمز — لابهذه الكلمات التي جرى بها قلبى الملقب بالصدا ، بل بيارات أشد روعة وأكثر مضاء حوت على لسانه القرب ، حتى أرهفت أذان الجمهور ، وبلن على رئيس المحكمة أنه معجب ، فراح يشجع (الشاب) على مسلكه الطيب — والكون يسود القاعة ، والرجوم يسلم وجوهاً ، والبشر يسط وجوهاً .

وظل الصوت يتصاعد في تملوج فني ، أوفى سلم موسيقى إلى طبقاته العليا ، حتى إذا استوى عند طبقة «الخطيب» من (درجة صفوة) ، جليل الصوت ودوى ، ورددته جنبات القاعة في رجة .. وأعلن الشاب أنه يقسم بالله الذي أمر بالحق .. وبالرسول الذي عاش الحق .. وشرف الصلوة وقديسيتها ، وشرفه الشخصي إنساناً له عزة الخلف ، أن كل حرف كتبه في التقارير ، وكل كلمة وقع عليها في التحقيق الابتدائي ، وكل صفحة ذيلها بإضافته أمام النيابة ...

وأتمل قليلاً ، لأؤكد لك أي أحببت ساعته أن أفضل الجميع تركض لاهة خلف (الشاب) ... واستهوانى الشهيد أنا للثمة التي جوقع الشهادة ضد حتى نسيت

حكاني من القصص ، وكان واضحاً أنه سيتولها ، يقول إن كل حرف كتبه ، هو الحقيقة
بينها .

وظلنا ضلّا .. مع طارق واحد .

أكل وقال : إن كل حرف كتبه في التقليد ، وكل كلمة وقع عليها أو ذيلها
بإضافته ، كذب في كذب ، و تزوير في تزوير ، وكلها ألميت عليه إيلاء ، وبعد
تضيق يثيب لموله الوليد أو لا يثيب ، فاحلت أذكر عباراته .. وإنما أذكر
اللساني ... وأعيشها ... وأحاول بقلي أن أحد من البيان جواب لها ...
ولا أحسبني موقفاً .

* * *

وصدقني أي فرغت ...

فرغت أنا لثيم الثاني عشر المتضغ أكبر اصابع بهذه الشهادة ...

فرغت من هول القدرة على الهوض بالهوى ...

وشهدت ...

شهدت — وبعد سنوات خس ما أزال أشهد من حيث (البناء الهراي) —
وكتافد ومؤلف مسرحي في مطلع شبلي — ما أزال أشهد من حيث هذا البناء ، ومن
حيث التأليف والتمثيل والإخراج ، أن هذا المتضغ (الشاب) كان رائعا ، وأنه جاوز
من حيث التأثير ما كنا نحدث به الجماهير عن كهايتوي الإيطالي — وتليده يوسف
وهي — أو من سيقال الفرنسي وتليده جورج أيبس .

ولكن الأمر كان محكة ولم يكن مسرحاً .

وكان الله في عون رئيسها .

واستطاع الرجل أن يملأ كرسيه بجدارة ، وقال — بعد فترة — شباب : « تنفل
قل ما تشاء .. أثبت يا كاتب كل كلمة يقولها » .

و (تفعل) طبياً و (تدقق) .. وأنا أتابع للشهد (الرائع) في دهرول (مطبق) .

لم يسكر (المقريبات) التي دسها علينا في قلوبهم فقط ، ولا اعترف حتى (بالحقائق) التي اعترف بها (بعض) للثمين أنفسهم ، بل أنكر كل شيء ، كل حرف وكل واقعة ، ودافع عن هذا الإنكار بكل قدراته وبكل طاقاته ، ودافع دفاعاً يُسع . ويستأهل كتاباً يوضح ..

وكان ما فعله في مصلحتنا طبياً .

ولكن للأمر هنا زاوية أخرى ، أحب أن أنظر منها .

ومن أجل هذه الزاوية ، رخصت لنفسي في أن أصور لك على قدر جهدي ، ذلك المشهد ، ومن ذلك المشهد أصل لك إلى حلقى من الكتاب . إلى مراحل تطوره من الكفر إلى الإيمان .

وإليك الحقيقة التي أرلها وأنا أنظر من هذه الزاوية :

— هذا (الشاب) ، كان يوماً من أكبر أجهزة الإعلام التي كانت تنشر المنشآت في المقامى والمكتاب ، وكانت علام الصدق والإيمان ، بادية على كل كلمة يقولها وعلى كل ما يسوقه ، وكانت هذه البلائم — (لها ما) في (الدين) ، وحقاً في الصوت ، وتهدساً في التبرة ، كانت كل هذه البلائم هي بينها — التي رأيتها بادية على كل كلمة قلها في المحكمة .

هذا « الشاب » — إذن — « عينة » من النصوص الذين أضلوني وأضلوه الكثيرين غيري .

وما هو فاقم يقوم بالصور المضاد .. وفي حرارة وإيمان ودلر رأسى .

ووددت لو تسافت ورأسى فوق الوسادة مساء ذلك اليوم إلى صبح موقى لأحاول
إنصاف « الرجل الذى تأمرت عليه » من ضلتي.. ولكن هاتفاً ردى وكأنه يقول لى :
« كفى يا أحمق .. تذكر أنك الآن خلف أسوار سجن .. وداخل جدران أربع ..
انتظر حتى تقضى لك المحكمة بالبراءة وسدّها حاول » .

وأخفضت عيني ونمت .

وهذا هو الموقف الأول الذى استأذنتك فيه .

الموقف الثانى

وجاء الموقف الثانى بجسد المحاولة تمهيداً .. وردنى عن « القامرية » من جديد
بعد أن كاد موقف « الشاب » يخطو بى إليها .. تماماً كما حدث عبر كل المراحل
السابقة .

كان الموكل للدفاع عنى هو الخايم الكبير عبد الحميد ناعم .

وعبد الحميد — ولا أدرى إلى كان قد حلوز السجين أو لم يحاورها بعد — لا يزال
قوى الصدر جهورى الصوت شاباً فى انصافه .. جياشاً فى عاطفته .. سرياً فى
تأمره ..

كان يزمن ببراءتى — بعد أن دارى أكثر من مرة فى السجن — إيماناً يجرى
مع الدم فى عروقه ويتردد مع الهواء فى أنفاسه .. وساعد على هذا الإيمان أنى كنت
صديقاً لآبته فلم يكن الرجل يطيق أن يجرى على لسان النيابة أن تذكرى بسوء .

وفى إحدى الجلسات طلب لأحد وكلاء النيابة — أو محتلى الادعاء — من الشبان
الذين يجردون متسكاً فى مثل هذه القضايا لاستماتن مواهبهم — أن يشتد فى الحق على ..
فضض الخايم عنى واحتج .. فقابل للدمى الشاب هذا الاحتجاج بالزبد من المتف ..
خاضع الخايم الشيخ انشلا شاباً .. واضر جو القاعة اهتزازاً رهيباً عندما حبل
صوت عبد الحميد بوصفه وجهه إلى النيابة .. وجففت النيابة من الوصف ورأت فيه

عدواناً غير مسبوق على كراتها .. وأصرت على تقديمه إلى المحكمة التأديبية^(١) .

وانسحب المحامي يوماً من الجلسة ..

ويبدو أن تهجم المحامي على النيابة بهذا العنف ملأ صدر المدعى الشاب موجدة على شخصي - من غير أي دخل لي في الخلاف - فأكاد المحامي ينسحب .. حقير وقف المدعى الشاب ليثأر من المحامي في شخصي وتراجع ضدي ولم يبق في حقيبته شيئاً لم يسدده إلى صدرى .. وفي غيبة المحامي عنى .

ولا أنكر أبداً أن للوقف ملأ صدرى أنا الآخر موجدة .

ولم أكن واهداً على المدعى الشاب وحده .. فقد كنت أرى في شباب وطموحه ما يلفت مرارة الغضب .. وإنما امتدت للوجدة إلى العهد وصاحبه .. وإلى « الناصرية » و « ناصر » .

وكان المدعى الشاب سبياً .. في أن يدفع بي إلى الزوراء .. خطوات وخطوات .. بعد أن كنت على وشك أن أقدم إلى الأمام خطوة جديدة .

وكان المدعى الشاب سبياً .. في ازدياد موجدة على « الناصرية » من غير أعمه دخل لناصر .. تماماً كما كان الخلاف بين المحامي والشاب .. سبياً في ازدياد موجدة المدعى الشاب على شخصي من غير أي دخل لي .

الأحكام

وانتهت المحاكمة في يوم ١٢ سبتمبر .

وكان القوم أن يصدر الحكم خلال أسبوع .

ولكن هيئة المحكمة ظلت تجتمع يوماً وتغض .. وتضع الميثاق ثم تراجع

(١) وما يذكر أن المحامي الكبير قدم شكلاً إلى محكمة تأديبية ظل يحرس عائلته بهم .
سنتين حتى قضى له بالبراءة .

والصنف تكتب عن الحكم وموعده .. وتعود غمضك للوعد .. وتعود فخذ كر أن
الرئيس أعاد إلى الهيئة حيثيات الحكم مرة أخرى وظلت لئلة .

وبدأت الأنباء — من الملمين تنسرب إلينا داخل السجن وكلها تجمع على أنه
برئت من التهمة — أنا وأحمد السقا — وأن نمة حلاقاً ثار حول الحكم على
عبد الفتاح حسن .

وجاء يوم ٢٠ أكتوبر وهو جشنا باستدعائنا لسماح الحكم وتواصينا على أن نتقاه
بشجاعة مهما يكن .. وفضلنا .. وعذت مع السقا إلى السجن يحمل كل منا فوق كاهله
عبء سنوات سجن ، مع أشغال شاقة وعاد « الثلب » يحمل عبء أشغال شاقة مؤبدة
وجوفاً في عهده .. وعاد صلاح الدين يحمل عبء خمسة عشر عاماً .. وابسامة دائمة على
شفتيه .. وعاد عبد الفتاح يحمل عبء إثني عشر عاماً .. ولا شيء .

وصى أن أكون قد رسمت مرحلة جديدة في «وقتي من « الرجل الذي
تأمرت عليه » .

الفصل الثاني عشر

أحزان وتأملات .. خلف الأسوار

بدأنا نبحث في « لبنان طره » في صباح الحادي والعشرين من أكتوبر ١٩٥٧
— عداة الحكم علينا — وانتهى بالإخراج عنا في الثامن عشر من يوليو ١٩٥٩ .

وليس في بيتي — ومجانب « اللبان » لا تعرف نهاية ولا يمحدها كتاب — أن
ذكر لك كل ما حدث لنا أو لغيرنا .. إلا ما اتصل به بأحداني .

وأهرد إلى آخر يوم قضيناه في سجن الاستئناف .

وكنا قد توأصينا — كما قلت لك — باستقبال الأحكام التي تصدر علينا ..
بأعصاب سليمة ، وأدينا أدوارنا بنجاح .. قلنا هذا إلى السجن كانت تفاصيل الأحكام
قد سبقتنا إليه .. فاستقبلنا معظم من فيه ببارات النزاء .. وأجيش بعضهم في البكاء
وعادوا فتمسحوا إلى الاستئناف البادي علينا .. فأخبرتهم أن يكونوا « ملكيين أكثر
من الملك » فاضرب النزاء إلى تشجيع دقيق .. ونحول البكاء إلى تليق ضاحك .

وطالب لنا أن نستر في تمثيل دورنا — حتى على أنفسنا وفيما بيننا — بقضينا
السيرة بتتيد مشاهد الجلسة التي تلا خلالها قارب الأحكام .. نص للحكم على كل
منهم .. وساق على الشجاعة التي نخلت من « فلان » وعن « فلان » .. وظلنا نسر
حتى نمرقنا لننام .

وأعتقد أن كل واحد منا .. ما كاد يثب إلى سريره ويطوى .. دوره .. حتى
نصا عنه قناع الترييف وقذف به من النافذة .. ومضى يعرض شريطه .. أمسه الذى
أدبر .. ويومه الذى أعظم .. وعده الذى لا يكاد يبين .

وأعتقد أن ألوان التكبير عندى لا بد أن تكون قد سحقت من ألوان التكبير
عند الآخرين .. فأنا مثلاً لم أكن يوماً متزوجاً .. ولم أكن أباً لأطفال .. أذكرم
فتضلع يباط قلى .. وأطوى الروح على ما أعنت .. من جروح كما كان يحدث مع
عبد المتاح حسن كلما ذكر أصداء الثلاثة .. ولم أكن وريراً أحمر ورأى ماضياً على
الستوى القولى وبميتنى أن يرى الناس ذلك « المراسم كالجيل » كما كان الأسمر مع محمد
صلاح الدين .. ولم أكن فى شرح شسائى أخا عردة شابة .. أقول « بصع سين
ونمى » و « السجى رصيدى فى نك للمستقبل » كما كان الأسمر مع « أحمد السقا »
وأهجر طبياً عن العرض بالتصوير لشاعر « الشب » فى تلك الحقبة .. ولله كان أكثرنا
الآن .. لأن موقفه كان أكثر سوءاً .

• • •

أحقت باب الحجرة .. وأحقت النور .. وعت .. وبدأت أنكر .

والخلة إلى النفس فى غرقت السحوى .. ليست مبسورة بمسماها الكامل ..
ففى كل باب « نظارة » يملك « السجى » أن يطل منها على السحين .. بين الحين
والحين .. ومفتاح النور من الخارج .. يملك « السجى » أن يديره إلى الشمال أو إلى
اليمين .. وكل ما كان لنا من « ميرة » حصونا بها — كرمنا منهم — أن « السجى »
لم يكن يباشر حقوقه فى التطفل علينا باستخدام « النظارة » .. أو فى تكبير صغرتنا
بإدارة المفتاح .

نمت لأفكر .. وتزاحمت الصور .

أنا أحب « الناصرية » أو أكرهها .. ذلك أمر يحصل بالصبر .

وأنا أجبر بالكراهية أو أخفيها .. ذلك وزن .. وأنا حر فيما أملك من اللوازم .

أما أن أفضى في السجن سبع سنين .. وقد تحطيت الحسنة لأخرج منه وأما
أزحف في جلد إلى السجن .. محذوب الظهر .. أو فقد البصر .. لا شيء إلا لأنى
أقيت أدنى .. إلى شب من الشبان .. عرفه عشرين عاماً أو يزيد .. ولم أصنع
له خلافاً إلا الخبز « ولا شيء » غير الخبز .. « فيكون جرأى منه أن ألقى في قبيب
السجن .. بل في ضياع » الليان « بين القنلة والمجرمين .. أما هذا كله .. فأمر
غير مفهوم .

الليان .. ؟ يا لها من كلمة ! !

غداً - إذن - نرحل إلى الليان ؟ !

وهل سئل - يا ترى - مسألة المعتقلين من السياسيين فنقل كما نحن بملابسنا
ويعيشنا الظلم من منازلنا .. أم نسل مسألة المحكوم عليهم من المجرمين - فنتردى
الملابس الزرقاء التي تثير التنهات .. ونوضع في أيدينا الأغلال .. كما كان الأمر مع
الذين « يرحلون » من سجن الاستئناف إلى السجون الأخرى .. هل مشهد منا ؟
ونقل رأسى .. وأطبق « للدمون » هل جننى .. المم لا النوم .

وعند لحقت في الحتائب أمامى .. وكان شعاع من النور خارج الفرجة
ملقى عليها ، فدنوت منها ، وأحسنت أطلب ما فيها ، في أسى وشروء .. ترى هل
يسمحون لنا بالاحتفاظ شيء منها .. بالملابس الشخصية مثلاً .. بشيء من الجوارب
والفلاويل .. بمشط أو مرشاة .. أو معجون أسنان .. أو بنظارة لقراءة .. أو بملابس
صوفية الشتاء ؟ أم تمام يتصرفون شرماً كما يفعلون كما غيرنا وتندوا مشرقة وأضحوكة ؟
لا أدري ..

وكل الذى أدريه أن السجناء أو « اللاجين » الذين رأيتهم مع بعضهم
لبس الأذية فقط .

و « الأشغال الشاقة » التي وردت في الحكم ، ما معناها ؟ بالنسبة لأمثالنا ؟

وهل نلقى - ومنا وزيران سابقان - إلى الجبل الذى قرأنا عنه .. لنحمل .

فزوساً وضطح أحجاراً . وتحت وهج الشمس في الصيف ووابل الأسطر في الشتاء ؟
 ولقوم ؟ أغرق ؟ أراش ؟ كالتي زلعا في « زلزلة القتلين » وسما « بطانية »
 يما بها من « الحظون » تهم بين شيوطها للولم . . وتحمل في طياتها ما لا تدريه من
 جرائم ؟

كل الشريط مر .. وأنا متكى . برفق فوق الوسادة . أحلق مرة في فضاء
 النرفة وأخرى في الحجاب ، وشعرت أني أحتر بكل قلبي كل قطعة من ملابس
 ومددت يدي ، وتلوت حزمة من « القاعات » و « بيجمات » من الحرير « قلمتها »
 في سميت ، قطعة بعد قطعة ، تماماً كما ينسل الفرد مع أطفاله الأحب ، وهم يُنزعون
 من بين يديه انزاعاً .

ومن شريط جديد ، شريط « المساجين » الأسرى الذين تردد جنات السجن
 أصداً عحكاتهم طوال التهار وولنا من الليل ، وهم « يرطون » في ملابس السجن ،
 وقد أخلت بالفراب أو ازدادت بالطين ، ولا يشكون ، ورحت أسأل نفسي : أي
 فرق بيني وبينهم ، ولماذا لا يحزنون مثل حزني ؟

— لا يحزنون .. لأنهم لا يملكون « البيجا » التي أملكها .

— ولماذا ملكت أنا ، ولم يملكوا .. أم ؟

— لأن فرصة حيث لي فصلت ، مندوت كائناً ، وأصلحت قللاً وأورثاً ،
 فبشت من قضية ، وضلت طريق ، وملك « بيجا » ، وغداً سيبتون ،
 وعلى الرغم من سيزعون « البيجا » حتى ، أمام ، إخواني « المساجين » ، أبناء
 بلدي ، ومثلهم أقارب لي في قرى ، فكل ذنبهم ، أن أحداً لم يهب . لهم فرصة
 التسليم ... فلم يملكوا رخيلاً ... فبشتوا عنه فضلوا مطوون . وضلت غير مطور ...
 وهفتنا في السجن ... غرقت ولم يجرؤوا ... حزنت لأن المجمع سيج لي من حيات

الفرق الذي يتصف من جباههم ، يجلدا ، وغداً يزعجونها عى ... ولم يحزنوا م لأن
المحضر رفض أن يطبقهم مقابل الفرق رفيقاً ، لجأوا إلى السجن ، فأعطاهم الرغبة .

وترأت لى من حلال المحلن للتصاعد من لفتاقي صورة « الرجل » ، وهو يحدق
بإحدى عيني ، وكأنه يقول لى : « ألم تكفر برسائلي وكنت أنفيسها على أساس تكافؤ
الفرص بين هؤلاء جميعاً ؟ » .

وكذت أعشى حياء وأستمر ، ولكن المرة بالإم ، سيطرت على مشاعرى
فاستويت على مرأشى ، وتنصت بسقى ، وفركت العينين باليدين وغنمت كمن يصحو
من حم مزهج : « أهوذا بالله ، ماهذا للتفكير للعم ، وماهذه الفلسفة المحتلة ؟ أهذا وقت
تفلسف ، وعلى هذا النحو القابض ، ويبى وبين الصبح ساعات ، وكل « عد » بالسبة
لى هو تبه أصرب فيه ؟ لا محل للندم ، نم ، وتوكل على الله .. وهوض أمرك لى الله ،
أو فاعتر يا أسمى أنك مت ، وأنتك من الفند تحاسب ، وأن للدير فى الإتيان وللأمور ..
ها متكر ونكبر .. وواجه الواقع .

وفى ظلة الليل ابتسمت ، لأن قدرة الله عند ما ذكرته التوكل عليه ، حدث
لى .. روح الفكاهة . ومشت بها لى قلبى الحزين .
ولا يعرف الله إلا سجين .. أو هكذا قيل لى .

تحية الصبح

مت .. وصحوت .

ولم أدر — يومها — كيف مت أو كيف صحوت .

والذى دريته أن الساعة كانت قد نخطت الساعة من الصبح ، وأنى لمت —
وكنت فى طريق لى (الحسام) — ضابطاً وديناً من صباط السجن ، مدوح ويشدو

— والحيرة تبلو عليه — أمام غرفة الأستاذ عبد الفتاح حسن ، ثم رأيت عبد الفتاح يخرج من غرفته ويتجه إليه ، وبجيه تحية الصباح ، وبقيادان حديثاً خاطفاً — ويشده من كفه ، والرجل يمر بمحديل في إحدى يديه على عيبه ، ثم يراى فينادىني عبد الفتاح فألقى بهما في غرفته ، وأسمعه وهو يقف على الضابط الشاب يميناً مملطة ، ليحصرن له الملابس ، وليكونن أول مرتد لما في غير أى تأثر ، وأدركت من الحديث أن لواء اسمه (محنت) — كان يرمد وكيلاً لمصلحة السجون — اتصل بالضابط تليفونيا وسأل إن كما قد ارتدبتنا ملابس السجن لتجىء القوة الموط بها (نرحيلنا) إلى (اللجان) .

وكان الأستاذ عبد الفتاح حسن أول من ارتدى صلاملاسل السجن الزرقاء . وكنت أول من وقت عيائه عليه في هذا الزى المحبب ، وعلى مطلع الصبح الذى يقول الناس فيه الناس : (صباح الخير) و (صباح النور) . وكانت لحظة لاهة في تاريخ الشاهر ، لمل الشعور بالامتياز الطبقى هو الذى أملاها .

وأقبل علينا المدكفور صلاح الدين — وهو دائماً مرح — فقال ومل ده صيحة لطيفة عرف بها : « وأنا بدلتى فين يا عبد الفتاح ؟ وفين بدلة السوادى ؟ أنا عاود أحيها له بإيدى ، وانت يا احمد ، حتى بدلتك انت بقى » .

وبين الضحكات — التى تحمل في رينها دموعاً تمحلت ، كان « الشاب » يمدق فينا هو الآخر في جود ، ومن سيد ، ثم أقبل على الجنود يتهدى في وقار ، أو فما لا أدرى به ويصطنع ابتسامة ، ويلقى تحية ، ويتخير زبكا .

ونزلنا إلى غرفة للأسوء ..

ولذكر ولا أنسى أبى — ونحن في طريقنا إلى هذه الغرفة — ذكرت بالخير

« الرجل الذى تأمرت عليه » وكان الطيبى والمقول أن أذكره بكل ما تحمله للشاعر من سوء .. ولكنى ذكرته بلون من ألوان الخير — غير للقرون طبعاً بأطيب التحيات .. عندما غافلتى هينى ، ونحن فى طريقنا إلى الباب .. فأققت نظرة بحلى على القرفة السوداء رابضة فى الركن الأيمن منى ، وذكرت ، كيف كان فى مقدوره لو أنه كان عاملاً إلى الله وبالله لوجه البطح أن يوجه خطانا اليوم إلى ذلك القنار الذى يحتم أمام هذه القرفة ليستقبل هيئة التفتيد ، تنل على القديحة صبة الحكم بالإعدام ويسأل للسكين عن أية أمنية فى الحياة .. غير تمنى الحياة .. فيطلب قنطرة أو يطلب شاباً .. أو يطلب قهوة .. أو يطلب ماء أو يشتم بدهاء .. أو يرسل سباباً .. أو صرخاتاً .. ونعمى حياته لتتهدى فى الحلاوة ، كما مضت صرخاته لتتهدى فى الهواء ..

ومن هنا كان انطير الذى ذكرته به .

• • •

زلنا إلى غرفة للأمر ، فرأينا ضابطاً «أرع السود» برتبة عقيد ، يتحدث إليه ، قلنا رأنا ، أقبل يصانح كل واحد منا — ويهون الأمر علينا ، ويؤكد أنها شدة إلى زوال ، وأحاطنا الأمور وصاحبه بسواطى خلية أو ببارات الخامة ، وأقبل يوزبائى لا نعرفه فصاحنا هو الآخر ، وطلب إلينا أن نحمل معنا إلى « القيان » ما نشاء من الملابس الداخلية ، وأذن لكل منا فى « مشط » و « مرشاة » .. وفى « مجنون أسنان » وكل ما نرغب فيه باستثناء « البديل والمخلف والبيجلات والجلايب والساعات » فقد نلنا وكيل السجن ، وكان أهلنا قد بكروا بالهجرة قسلاً لها ، وأذن لنفودا للودعة بأسمائنا فيما يسوته « أمانات السجن » فى أن تراقى « الركب » .. وتولى هذا البيوربائى « المنتدب » إلقاء نظرة على « الحفائب » ، هى بمثابة « تفتيش » لها يؤممه ضابطاً من ضباط « القيان » — حتى يوروا لنا شيئاً من الكرامة عندما يبلغ أبوابه فتدخل إلى غرفتنا من غير تفتيش ، أو هكذا قالوا .. وليس بمستبعد أن يكونوا قد قاموا بمهمة تفتيش الحفائب « فى سجن الاستئناف » تلافياً للتأهب فى القيان ، وحتى نغضى إليه فى غير جليلة من هوان الاستطلاع فيه أو من محبى القرفة من الخازنين عليه

أو من موثقيه ، ولعل الذى أثار هذا التليل في ذهنى ساحتد ، موثوق الملاحظة «التيدي»
في باب الخلق وهم يطلون علينا من التوافد ونحن وقوف في فناء السجن ، حباً للفرجة
أو لما تريد أن نسميه .

• • •

وبلننا «الليان» .. غير مصنفين في الأخلال ..

ولم يبد شعوراً متجهاً إلى الأذى على ما اتبعنا إليه من مهانة الزنى ، أو غير الزنى ،
وإنما اتجه بنا للشعور — أو في على الأقل — إلى الإرتياح والترحيب بأقل رعاية
لنقاذنا من أصر ضابط ، وما أشد حاجة السجن — مها يظلم — إلى أقل رعاية من
أصر (سجان) .

بلننا (الليان) — وكل حرف من هذه الكلمة ينضح بالبشاعة والقتل —
فاستقبلنا المدير العلم يحيط به ضابطه — وكان رجلاً مهيباً ، أوتى بسطة في الجسم
والشخصية — وسبانا أهل نعمة ، يمكن أن تلقى على سجين ، وانهموا بما يبد إجراءات
بسطوها — إلى صف من القرفات المتلاصقة يجعها عن جنة اللباني باب ، وتجاور
حدائق القسم الطبي ، ويسون هذه القرفات (إراداً) يستقبل فيها كل سجين (وارد)
ليظل تحت الرقابة الطبية أحد عشر يوماً تقريباً ، (يُصنع) بعدها أى يوزعون على
(الصناعات المختلفة) في الليان و (صناعة) السجن الذى لم يماز السجين — ولا يمتد
مرض خطير — أن يرسل إلى (الجليل) ليقطع أوصاراً ، أو ليحلبها عرق كضيقه إلى
سكان لها ويكشها فيه أملاً ، إلى آخر عنوان الأشغال الشاقة ، وما أتبعها من غفون .

• • •

وكان علينا — إذن — بعد أن نستريح أن نزود القسم الطبي .. ليوبرأيه فينا .

وحش لنا الأطباء ، واكتفوا بالترتيب بنا في الفناء بيننا وبينهم ما عدا «طبيب أول
«الليان» فقد تبدى جابس الوجه .. ثم عاد يبتسم نحائنه «على حذر» و «في خمر» فقدرنا
أن يكون تاسرياً أو منافقاً لتاسرية .. ولم تحف على سر هذه «الغربة» في الصحة

إلا بعد زمن طويل .. عندما علمنا أن شقيقاً له ضابطاً كان معتزلاً معنا لفئة القضية لأنه صديق لاطلف صار دعم التشكيل العسكري في المؤامرة .. ولم يقدم ذلك الشقيق للمحاكمة وبقي معتزلاً مدة ثم أطلق سراحه بعد أن ثبت للحقوقيين أنه لم يكن يعلم عن تأسر صديقه شيئاً ولكن ما جرى له .. خلف وراءه أثراً .. ملأ قلب شقيقه الطيب حزنًا .. يضاف إليه ما مضى للطبيب مريب .. إذ كان مديراً لميرة إحدى الأميرات .. وذكرى الإمارة ظلت تطارده من غير أن يفكر أحد في مطاردته .. وقيل إنه عرف في اللبائن بالتسلو على السجناء .. وقلت إن هذه للتساو وليلة تلك الحوادث .. وأشدّ عجباً من هذا كله أن نكتشف في الرجل غير المحبوب من نزلاء اللبائن .. إنه « عالم » كبير في « تاريخ مصر القديم » .

وعندنا من زيارة القسم الطبي إلى غرقانا في « الإرادة » .

وما كدنا نستريح .. حتى ترأست إلينا أصداء هرج وجلبة .. ثم فتح الباب .. ودخلت ثلة من الصحفيين والمصورين ، ومعهم (مأمور اللبائن) وبمس الصباط — ومن بين الزائرين زملاء لي ومن بينهم تلاميذ كانوا يعملون في (السوادي) ، وسدوا .. وعزوا .. وراحوا يطلبون إلينا أن نجلس في أوضاع صالحة للتصوير ، بين أكفاس من الكتب كنا نعملها معنا ، وفي يد أحدنا مصحف مفتوح .. وفي يد الآخر مسرحية لإيسن أو لشكسبير ، أو لأي اسم مشهور نختاره عن أنفسهم (شبان عاديون) لا حيرة لم بتلك الأمور ..

وأغلظ لم صلاح الدين في القول .. وأخلق دونهم باب ، وحمل للأمور مسئولية أي تحايل منهم .

وتوليت من تابعني إقناعهم بأن من غير اللائق نشر صور لنا بملابس السجن وأن هذه الصور لا يرضى عنها المسئولون إن كانوا يستهدفون بهذا النشاط لإضرام .

ولكن فريقاً كان يتبهر فرصة اشتغالنا بإقناع الفريق الآخر ، ويلتصق بعض الصور (اختلاساً) وانصرفوا .

وأعترف أني - يومها - ظلمت حرفتي وأحسنت بالخدمة التي تلازم طبيعتها
وأخجلني أني كنت يوماً من الأيام من أبنائها . - وتعتيت لو كنت « سجاناً » برتبة
« نقر » ولم أكن « صحفياً » بدرجة « استاذ » .

* * *

وجاء المدير - يحف من حوله ضباطه أيضاً - جاء زائراً هذه المرة .

وإلى جوار هذا « الملاقى » - الأمير اللى سيد والى - متى مأسور أول برتبة
قائمقام ، نصيراً مسرفاً في القصر ، ضليلاً مسرفاً في الضيافة ، مشرب الرجاء بالمهرة ،
أقرب إلى « الأكرام » في المساء وفي البشارة - وكان اسمه رحمة الله عليه « اسماعيل
طلعت » - يتبعهما رحط من الصباط ومن خلفهم جنود « سجانون » يحملون
« كاسينيات » من الطراز القرنجي الرائق للتعهد في دورات المياه في المنسلزل .. وقد
صنعوها - كما حدثنا - في « ورش البيان » ، وأمر المدير بوضع كل منها في كل غرفة
من غرفتنا وقال مبتسماً :

- الحديقة يا اخوانا أنا صعدنا إحدى عشرة قطعة (أي بمدد المحكوم عليهم)
ولكن يظهر أن تعييننا كان في خفة منكم فقط (وكان المسكرون الستة قد اختار لهم
المجن الحررى) فأودعنا القطار الباقية مخازننا .

* * *

وأدركت من حديث المدير أن كل ما « صادفناه » من رعاية وصطف ، في السجن
الثلاثة ، إنما كان « بناء على تعليمات من جهات عالية » وشمرت بأمواج من الرضى
تساب ييضاً إلى صدرى موجة إثر موجة ، وبأمواج أسر - سوداء ممتدة - تنسل
خارجة من هذا الصدر ، حشداً إثر حشد ..

وأدركتنا - مع الزمن - أن أغلب المستولين في السجن إنما طُلب إليهم
إحسان معاملة سجين قيراطاً .. أسنوها قيراطين ، وإذا طلب إليهم استخدام « الحزم »
في معاملة السجن قيراطاً ، حزموا أمرهم عشرة قرلوط ، بدافع من رولاب المنفى
المظلم ، يوم كان السجن مهبط الأدمية إلى حد يثير القتيان ، يعقب بلبس « انطيش »

فوق جسده المارى عشرة أهوام تسبح فيه المولم ، ويحىء القنشر الإعجلى بشيئته من البنايا ، لتخرج على « لابس الخيش » وهو يحذ خسين جطة من غير أن يتن أو يتأوه ، ليثبت أنه « صيدى » أو « منوق » أو « رجل » .

وأمر المدير ، غنى ، بلشرفين على « الكاتين » ، وفى أيديهم قائمة بما لهم من « مرنى وجبة وزيتون وسجائر هوليد » ، وطلب منها أن تمل عليهم ما تروغب فى شرائه من ما كولات حتى يذهب صابط الكاتين ورجاله إلى السوق لشرائه ، وتهايرنا مرحين ضاحكين سواحبب - فى عمل قوائم لا أول لها ولا آخر ، وبدأ بتلك للمهارة عهد ذهبي فى تاريخ الكاتين لم يطفى بريقه إلا رجل - لا أسميه - خلف السيد والى فى منصبه - وكان يعيش عمره فى الخوف من المسئولية الموهومة وهو الآن يعمل حلقة المش فى بيته - فأضاع كل ميزات ذلك « الكاتين » ، حتى « السكر » فى آخر شهر لنا فى الليان حرم بيته فأست له « سوق سوداء » رهيبة .

وأخيراً وقّع الكشف الطبى التهاى علينا فاحذر ثلاثة منا مرضى - لأنهم جميعاً دون الستين من العمر - وأكبر الثلاثة صلاح الدين وهو يكبرنى بثلاث سنين وأصغر الثلاثة عبد الفتاح وأكبره بثلاث سنين .. وأضينا بسبب الرض الذى (اكتشفه) القسم الطبى من (الجبل) ولم يفخوا منه (احمد السقا) إلا بعد أسابيع قليلة رار فيها (الجبل) بزيارات مملودة ، ولم يفخوا « الشاب » من المسود إلى الجبل إلا بعد ثمانية أشهر تقريباً ، وكان يمود متقللاً بتراب الطريق ، ولكنه لم يكن يقطع أجباراً ، وإنما كان يحمل معه كتاباً ، يشغل به وقته فى مكان ظليل ، يجمع بينه وبين الجلسوسين البريطانيين (سوينبر) و (رارب) وكانت حكومتنا تحرم على أن يساملا معاملة طيبة .

وأذكر كنا - طبياً - أن هذا الإغناء ، كان حقيقاً من الجهات المالية ، وكان يسيراً عليها أن تقسو ، وأن نعلم ما شئت فى القساوة .

ولعل قلبى أهم بقدر من الرضى ، أكبر من القدر الذى أفضت به قلوب زملائى ،
- أو قلب صلاح وقلب عبد الفتاح على التصديد - وهذه الفتنة من قلبى ، أرى
زائماً أن (أركز) عليها . لأنها كانت (للفتح) الذى أدرته فى (باب تكوير)
- من جديد - فى حقيقة (ناصر) ، وهذا إذا أسرفت فى نسيه (عبد الناصر) -
على طريقة الأجانب - باسم (ناصر) فهو اسم فى الحقيقة يستهوى الرتبة .

كنت أعمق شعوراً بالرضى من الزميلين - أو هكذا خيل إلى - لأنها وزيران
سابقان وأنا حتى من المصنفين وكاتب من الكتائب ، ولعلها يريان فى هذه (المصلحة
السكرية) ، أقل ما يجدر بالناظم للأمر فيها أن يساهل بها حكماً سابقين ،
أما أنا فليس من اليسير أن يغور فى مثل هذا التليل ، ثم إن الزميلين الكهوين ،
أصدقاء من الكبراء ، وأمهلاً وأقرباء ، أكفاء لبذل اليهود وقنهوض بالمسى الحيد ،
لدى رئيس الجمهوريّة (جمال عبد الناصر) أو لدى وزير الداخلية (رزقيا يحيى الدين)
لإحسان معاملة الوزيرين السابقين ، أما أنا فأسرقى فى (سواده) إذا قيل إن لها (مكانها)
بين الأخلاين فإن هذه للكامة تلت ، وهى آخذة طريقها إلى (القاهرة) ، حتى إذا بلغ
البارزون من الأسرة بلب (ناصر) ، طلب إليهم - أغلب الظن - أن يفتقروا طويلاً بين
صف طويل من الشاكين الكثيرين ، وحسب هذه الأسرة أنها تولت الإغراق على

داخل سجنى معناه صيدى مكنى من الوقوف كريماً إلى جانب الزميلين ، وإذا قيل
إن من أسرة والدنى وزيرين سابقين أيضاً (عبد الحيد وعبد الحيد عبد الحق)
فترابتهما أولاً بيده (أولاد بنت خال والدنى) ، وهما أولاً وأخيراً ، يمددان الله على
السلامة ، وليس من العدل أن يطلب إليهما الزج بنفسيهما فى قضية (قريب يتآمر) !!

أما أسرة أبى وأمهلى ضد حرت خفيفة إلى الوقوف إلى جانبي ، ولكها
لا تحظى لي بحكم مستولها الشهي أن ترسل صوتها عبر صيد مصر إلى القاهرة تطلب لي
(انتصاراً) من الحاكمين ولو كان على رأسهم (ابن بنى مس) ، ولو كان فى طليعة إخوانه
للنيلوى (ابن ناصر) .

وقصارى ما بكته أسرة أبى من قدر فى صيد مصر ، هو (فضل) لما (أوجد)

تباع به — بمسئولية — سائر الأسرى ولا تدري أنها بهذا (الفضل) قد ارتكبت
أبشع جريمة ، لارتكبتها أسرة في تلويح مصر الحديثة من حيث لا تدري ، ومن غير
أن يتنبه هذا الخارج على هذه الجناية .

ولعل ما يرهكك — قبل أن نخوض غمار المسألة — وما يصل بأحضان من بعض
نواصبها أن أسمر ملك بهذه القصة التي لا تخفى من ظرف وطرافة ، وأنت ترى أن هذا
الفصل كله وإن اتصل بأحق مشاعري تجاه «الرجل الذي تأمرت عليه» ، لا يخلو من
روح القصص أو من روح السمر .

أسرى .. تجنى على مصر

نعم .. للتاريخ .. أذكر أن أسرى — الفتوة الآن « في سواده » — لا تزال
تتم على بقايا آل سلطنت « باشا » عبر أجيال أربعة بقولها : « إسنا فكيا جدم
أبو سلطان من الجبل إلى دبطوه به في الصاري .. ولولا جدا .. كان السنجق
خدا أجده » .

فما هذه القصة ؟ وكيف كانت جناية ؟ وجناية على تلويح مصر ؟

لعلك تذكر أن محمد سلطان (باشا) الكبير (رئيس مجلس النواب المصري
ولأمقام الخديو توفيق أيام حرب عرابي) هو الذي خان مصر .. ورشأ البدو ..
وسكن الإنجليز من هزيمة عرابي واحتلال مصر سبعين عاماً .

هذا الرجل كان يقيم في بلدة اسمها « زاوية الأموات » ولعل اسمها الآن
« زاوية سلطان » أو « قرية سلطان » ، تجاور « سواده » التي ترقد من قديم
وسنة مسألة على الضفة اليمنى للنيل .

وكان الرجل في مستهل حياته شاباً مفتول الساعدين موفور القوة « أفرع الرأس »
ملوحاً ذكياً .. فيه روح المنيرة .. يمدل مع أبيه « الجبال » الذي وفد على
« زاوية الأموات » — قرية القابر والآثار — يبحث عن عمل له في محاجر ناهية له
(ليحمل كجده) أسجلاً ويقتات ..

وظل (محمد سلطان) الشاب الذي للناس .. يدخر من أجره .. ويرفع في
مستواه .. ويرحف على مهل إلى مناصب المدبرة في القرية حتى غدا (شيخاً) فيها ،
ثم (حدة) لها .

وكان أحد (السنجي) في حصر إسماعيل - إذا لم نحسب هذا كره - يمر
(بنهيته) .. يذرع النيل ويتلقى (الهدايا) .. حتى إذا جارت (القهية) قرية
سلطان .. قلّ للواء وسط النيل .. وكثر عند الشاطئ ما اضطرت أن تحاذيه في خط
سيرها .. وكان على الشاطئ صبة يلبيون قذفوا (القهية) باللوب والأحجار ..
فأصابوا السنجي بطوبة منها وهم يهرجون بأغنية فيهما سبيل للركي والنمالي فهاج
السنجي .. وأمر بإلقاء مراسي السفينة عند الشاطئ .. وأمر بالقبض على الصدة ..
وأن يحام به موقئ اليدين .. وأن يُربط بالحبال إلى (الصاري) .. وأنت يمد
حتى الموت .

وبدا أتباعه يتفنون أمره .

وخطر له كي من أهل القرية خاطر .. مركب جواً .. ركض به إلى سواده
ينقل الأمر إلى جدي الخالص (وكان اسمه حمزة وكان حدة سواده) .

وكان « حمزة » مشهوراً له بحسن الرأي .. وحل ما تنقد ..

و (سواده) كات - وما نزل - أشهر قرى النيل بكثرة عدد السفن فيها ..
ورُج أحليها من (المراكية) .

وأعمل (حمزة) دكا .. وأمر سفن القرية أن تعلق .. وأن نسد النيل
(بالسرض) في صورة (مظاهرة بحرية) تقف في وجه سفينة السنجي ولا نسمع
لها بالمرور .

وأقبلت (القهية) .. ووقف (السنجي) على ظهرها .. وخرج له (حمزة)

في السفينة (الشحية) التي عقد له لواء القيادة فيها على حد التصير البحري .. وقال
بخطاب السنجي :

— دى عادة بلادنا يا غدينا .. السنجي لما يقوت من هنا .. تحية اليه
بالشكل اى أنت شايته — علشان لازم ندع له الدبايح .. ونذق الطبول .. ويندى
عدنا وينرح به الشعب .

وقته (السنجي) وسر .. وانتفضت أوداجه وتمطف (بواشد غدا عند واشد
فلاخ تعلم) — وقيل إنه رأى الشرقي أعين الناس تخاف العاقبة وقبل الدعوة — وأيا
كان الدامع .. فقد رست السفينة وصعد إليها حمزه (لتقديم ولاته وتمنياته) هو
وأهليان اليه .. وما كادوا يرون (محمد أبو سلطان) مربوطاً إلى السارية .. حتى
تظاهروا بالدهشة فسألم (السنجي) إن كانوا يعرفون هذا (الكتاب) فقالوا : هو دابن معنا
يا غدينا « فأمر أتباعه لحراجه الوثاق وهو يقول : « حريس .. حظه ربحم .. كان
يحبى أكل كويس .. لسهك جناح للميه » .

وهكذا أحتق القلاح جدى .. ذلك الشاب (أبا سلطان) ليبيش .. وليتصل
بأسرة الشرقي محسباً عليها .. لفصل بينه وبين الانديوى بعد أن كان (أبو سلطان)
قد أصبح (ناظر قسم) مكافأة له على مجامحه في تسخير الفلاحين من أهل المثلثا وأسيوط
في حوزة كبيرة أمر بحفرها الجناب العالي .. ومضى أبو سلطان قدماً يرق المناصب
العالية بفضل رضا الانديوى إسماعيل ، حتى شغل أبو سلطان مصر في عهد توفيق وأسلمها
للإنجليز .

وكلت أخفض رأسى خجلاً .. كلما سمعت جاهلاً من أفراد أسرنا .. بمن على
آل سلطان ذلك الفضل .. ويذكره بالباهات مجدداً من أجداد الأجداد ، وهو لا يدري
أنها جرعة في حق مصر ، لتركبها جدى حره .. يوم لم يترك للسنجي فرصة الإجازة على
رأس الأفعى ، وكبير النخوة في حرب عرابي محمد سلطان (باشا) ، وجد (محمد سلطان)
الحالي .. صديق النجدة المسالمة (جاني مورلاي) قبل الحرب العالمية — وزوج بنت
يهودى كبير في مصر ، و (باشا) لم يهنا (بالمشوية) يوم أنتم عليه بها طروق ، فغلق

بعد أيام ، وانتزعت من (محمد سلطان) كما انتزعت نفس الألمان التي اشتغلوا له جده
(محمد سلطان) الكبير .. بعد أن كوفى ، بشرة آلاف من الخنفيات ذهباً .. وأقطع
ما أقطع من الأرض .. ثمناً لحزيمة عراقى .. واحتلال مصر .

عود إلى اللبان

وأعود بك إلى «اللبان» ، لا أراكه الله إلا مسطوراً على ورق .

أعود لأذكر لك أى انتهزت فرصة إدراكي ، أسبب للمساءلة السريعة التي
نلقاها ، وانتصحت جانياً بالقائمتام إسماعيل طلعت .. لأسأله إن كان شقيقاً لمحمد طلعت
«محافظ السويس يومئذ» — وكنت أعرف أن للمحافظ شقيقاً صابغاً في السجن —
فقال «أبوه ، مضبوط» فقلت له «طيب قل له السوادى يسلم عليك ومش هاريد هن
كله» وقال «حاضر» وتركه .

وبعد أيام عاد متلهل الأسارى يحمل لى تحيات أخيه بعد أن عرف أى كنت
ماتداً برلماناً لجريدة «البلاغ» يوم كان أسوة قائداً لبوليس البرلمان ، وكان سبيل
الرد موصولاً بيننا .

ولا نستطيع أن نتصور أى «كسب» شمرته به — بما بينى وبين غشى —
بقيام هذا «الرد» بين مأمور أول ، وبينى ، قائما سجين وهو صاحب الأمر والنهي
في السجن ، وكان الرجل مصدر رعب «للساجين» ، فأسيا في معاملتهم قساوة كنت
أعطيها — غير أنه لى هذه المرة — عرك النفس فيه ، بوصفه قصيراً مسروراً في القصر ،
وكانت هذه القصة التي يصطنعها ، تحجب طيبة قلبه عن كل سجين ، وكان كل من في
السجن يتفنسون المصدا . إذا طموا أنه قام بأجارة مثلاً .

وهكذا ، بدأت آمحائل ، لأنتوازن .

وانتهت أيام الحبر المصمى .

وقلنا إلى الطابق الرابع من المنبر رقم ١ ويسمون هذا الطابق « دور السياسيين »
لكثرة من أقام منهم فيه .

وفى دخولنا إلى هذا الطابق ، صادفنا حلف جديد آخر ، فلاحظنا أن الفرقات
الحس الأخيرة من الصف قد أخليت خصباً لنا ، وطلبت بقرية ، وأست كل
غرفة منها صالحة للسكنى — وبأبوابها مكشوفة — وماج « دور السياسيين » فرحاً
بتقدمنا ولعلم أحسوا أيضاً أن وجودنا بينهم قد يرد بعض غارات السجن عنهم ،
وأصبحت غرفتنا كحلال النحل من كثرة التلاميذ للتسليم والفرح .

وكانوا يقدمون إلينا بأسماء قضاياهم إلا أن تميزت ، فتلا « دول بتوع حسن
اللباس » أى الذين اتهموا بقتله و « دول بتوع عهد القادر طه » و « دول بتوع قضية
الجناسوسية » و « دول بتوع قضية الصهيونية » و « دول بتوع قضية الصولات »
و « دول إلى قفوا أبوريش غالى » و « دول إلى حلفوا البطرک » و « ده قضى
يوس ابن م شوكت المتوفى » و « ده كلال عبد الرزق روج زورمانى » و « ده
عبد الحميد الطرزى وزيدان بتوع قضية مورو » .

أما قضيتنا فأطلق السجناء عليها اسماً لطيفاً لم نسمه عليه إلا بعد أيام ولا نعرف
« صاحب الامتياز » فى تلك القضية .

اسمها « قضية الباشوات » .

ونج من هذه القضية أن أسم طي " شعب الباشوات الرزق " .. شعب الصحراء
المالطيين والحراس وصغار الوثنيين .. والتمروجية .. برية لم يتلق مثلها يوماً ...
أحد من أسرة أبى .. لا من خديوى ولا من سلطان ولا من ملك .

أصبحت أنا الآخر (باشا) .. كملاح وعبد الفتاح .

وشعرت بالحاجة إلى هذه الرتبة التي لم أفكر في مثلها طوال حياتي ولا أشتيتها يوماً ، شعرت بالحاجة إلى الرتبة الزاخرة ، لقرط حلقى أنا الأمرل إلى أى سلاح ولو (فاسد) ، وكنت أضيف بهذا (الزيف) أحياناً فأمر برد (السجاني) عنها ، فبدركنى (الشاب) - هاوى النظرة - وينهاى من المحاولة وهو يصرخ فى جلاء (خلتنا لكسب حوة) ، وكان هو نفسه لا يعطىنى أطم (السجاني) و (التورجية) إلا بهذه الرتبة .

أما (للسلون) فكانوا يبرفون الحقيقة طبعاً .. وينضون .

راحة وتكبير

دعوت لك صورة طابرة لبص مشاهد السجن وأرجو أن أكون قد رفعت بها هنك .

يبدأنى أرجو أيضاً أن أكون قد سجلت بها عدداً .

وهذا أن تدرك أننا وجدنا فى (اللجان) شيئاً من (الراحة النفسية) وإن كانت محكومة بالقوانين ... وأن هذه (الراحة النفسية) حاولت على أن ألم شئت أفكارى ... وعلى أن أجمع أشلاء نفسى ... وعلى أن أبدأ مراجعة ماضى كله ... وبكل ما حل من أخطاء ... مراجعة أمنية وجريئة ... رجاء أن أرى إن كان قد تبقى لنا غد ... غد لى يستحق أن أحرص عليه ... أو أن كل شئ يتبدد .

نحن هنا ... فى الطابق الرابع من السبر الأول فى « ليمان طره » ... وبجلايس السجن ... ولنا (نمره) .

ليس فى الإمكان ... أسوأ مما هو كائن .

وهندما يتبهى الإنسان ... إلى الهرك الأسفل من الجميع ... يشعر أن أى حركة جديدة ... تمنى الصمود إلى فوق ... أو تمنى التقدم ...

وهذا الشعور في ذاته خير ... محرك ... رجاء ... نور على الطريق ...

وبدأت أفكر ..

وبدأية التفكير .. أختم الرحلة الثانية عشرة في موقعي من « الرجل القى
تأمرت عليه » .



الفصل الثالث عشر

دخائر قديمة .. وجديدة ١٩

أحب أن أستهل هذا الفصل بحقيقة .. أغشى إذا أنا « حبيبنا » منك .. أن يؤدي هذا « الحبيب » إلى « سوء فهم » .

أحب أن أعلن أن السجن سجن .. وأن أحاديث عن « الساملة الكريمة » التي هزلنا بها .. لا تسمى أبداً أما كنا بمنجاة من اللوائح وأحكامها .. أو أننا لم نصادف « بعض المقاصب » و « بعض الضائقات » من جانب « بعض الأطباء » أو « بعض الصباط » أو « بعض التصرفات » أو « بعض النظم » .. ولا نسمى « الساملة الكريمة » سبياً أما كنا نمشي في « أمن » كما نمشي أنت « داخل بيتك » أو كنا نتصرف أحراراً داخل مجتمعاتنا الصغير كما نتصرف حراً داخل المجتمع الكبير .

أبدأ .. أبدأ .. ما قصدت إلى شيء من هذا مطلقاً .

كنا نمشي بالقلق الذي يعيش مثله كل سجين .

وكنا ننال ما نصاب السجون .. حتى ينلم بها كل المسجونين .

بل لعل رجاء القنطرة من صيد مصر ورضيا .. أرسى قلوبنا وأرسخ أقدامنا .. لأن لم أنبأها بحسب السجن لم حساباً .. بل لعل « المحرمين » من المصوص والنشالين أشد استهقاراً باللوائح والنظم .. لأنهم أقل حرصاً على ما سمي « كرامة » .. بل إن من يسهم من يقفأ بيديه .. إحدى عييه .. ليتهم ضابطاً يكون قد أنزل به عقوبة .. أو سبباً أن يكون قد ضبط مثلياً بخطئة أفيون .

أما نحن فأكثر تسكيناً كان مستغداً في المحافظة على ذلك القسط من الكرامة التي وفروها لنا .. أو ذلك اللون من الساملة التي حصونا بها .

ويمكن أن تعرف أيضاً أن « الحرب » دائماً « سجال » بين « السجين » و « السجن » بطبيعة التوضيح الموروث في السجن .. وما يحمل هذه « الحرب » مشوبة على القوام .. ولا تخبر الا لتتد .. أن « المخطورات » أو « المنوعات » في أنواع السجن لا حصر لها .. وحتى للخص به منها .. أجازت هذه الأنواع للمسؤولين في السجن أن يصادروه لأي سبب بمن لم أن يتفروا به .. وحول هذه « المنوعات » أو « المخطورات » يدور القتال .

ولعل هذه « الحرب » المستمرة .. تحجب وراءها حكمة حية .. فإزمن منهاك في هذه « الاشتباكات » .. اليوم .. والشهر .. والعام .. وفي ظل اشتغال السجين بالتدليل على القوام والقوانين .. وبالتحضر المستمر لمواجهة ما يجتبه له « عده » .. كما تخلص محاسن به « يومه » .. يخف حل الستين عليهم .. وتسعون في المائة منهم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومداه « الغرف » بحلات تنبشية بين الحين والحين .. بحثاً عن « المنوع » أمر متوقع في كل حين .. ولكم عانيتنا من الخروج وعان الصباط نسب هذه الحلات .. لأن المفروض أن يدهموا « غرفتنا » كما تدهم « غرف الآخرين » .. ومن غير المقبول أن نخلو من « منوعات » كالبن أو الشاي .. أو « الزاوير » أو « السخان » فكان علينا تلافياً للخروج أن نداري هذه « المنوعات » .. وكان على الضباط أن يدهموا غرفتنا .. وأن يخرجوا منها .. ليقولوا للطلين عليهم من الغرفات الأخرى .. أنهم يسوون في الشاملة بين الجميع .

كنّا إذن نحسب ألف حساب لهذه اللقائات .

وكنا يمش في « القلق » الذي يمش فيه كل سجين .

والسجون لم تستطع حتى الآن أن تتخل من الكثير من « المخالفات » التي ورتها عن الملتقى المنع .. ورجلنا — في حاية هذه « المخالفات » — يحرصون على السلطات التي تديرها لهم .. سنة الله في المطلق وفي غرائز السيطرة والاستلاء والتسلط ومع أن عبد الحكم عاهه استطاع بقرار يوم كانت السجن تاهية له أن يرد إلى

السجين للصري « كلمة » ظلت القرون مهددة يوم ألقى (الأغلل) التي كان السجين يربف فيها وبيت بها طوال مدة ضيقه — أى عشرين عاماً أو تزيد — حتى لقد سمى السجين : « محط السلاسل » .. ولستطاع بقرار ثلث أن يبرمه « الحرب العلوان » بين « السجين والسجنان » من أبشع أداء لها أو تقوم لفارها .. عندما رخص السجين بالتدخين .. وكانوا قبلًا يشنون رائحة فم — إذا لم يسهطوه مثلباً ببقاثة — وكانوا يمدحون للرائحة طداً من الجملدات .. وبقاثة طداً أكبر .. وكان « عبدالمجد عبدالحق » هو الوزير الأوحى الذى استطاع يوم كان وزيراً قشون — وعبر اليهود للأنسية كلها — أن يصدر قراراً جريئاً يجرم « ليس انليش » ولم يسلط تحت وطأة الروح الرجس القصد كان يحكم .. أن يقدم على ما أقدم عليه عبد الحكم ..

أقول : مع أن عبد الحكم علم حدد بقراريه .. سياسة التوار لإزاء السجون .. فإن عقلية « السجان » بكل ما حملت من صور الرعية لا تزال نسوس السجون سياسة تثير الفتيان .. ويجلبها للشولون فى السجون من الميون يضع خلافت يقيمونها كل عام .. تحية لعيد الثورة .. أو احتفالاً ببيد الأم .. إلى آخر أوان التفائق الذى ينفث بها كل رجس نصرانه ..

وقد حدث مرة فى عهد سيد والى — مدير المبانى — أن ضبطت مطوارة عند سجين .. وأراد للأمور أن (يصل) ٤ (محصرأ) ليجد .. خازن اللدير وقال لزميله للأمور « تعاقبه على اللطوارة ازاى .. وأنت مصرح به بشرء البطيخ وعلب التلغار المحفوظ من السكاكين .. يفتح القلب يله ويشق البطيخ يله ؟ » ولكن اللدير الذى جاء بيد سيد والى — وهو فى اللش — كان من محلفات الإنجليز .. فخرم بيع (السكر) فى السكاكين حتى لا يقال إنه يملون السجين على عمل القلى ..

وأعجب من هذا الصنف فى التفكير أن يؤخذ أربعة آلاف سجين مخبئية سجين واحد .. وأن يجرموا — وحرمتا منهم طيباً — ثلاثة شهور من (نمة السكاكين) لأن (حيثاً) أو (أفيونا) ضبط فى غرفة تضم عشرين مسجوناً ولم يعرف صاحب الأميون فوجب أن يؤخذ المبانى كله — ويسمون هذا القلب (نكديراً) فى مختلف

(المنابر) — بحريرة مذنب واحد .. في طابق واحد .. في غرفة سمينها من عتير بيته . وتنشط (السوق السوداء) ... ويزداد (الوارد) من خلرج الليان ... وترتفع الأسعار ويجد ضماف النفوس من (السجانين) و (المولدين) و (أسطولات الورش) و (المدرسين في مدرسة الليان) فرصة لا تموض لجلب (المتنوعات) معهم من خارج الليان إلى داخله .. ويتبادل كل سبعين : « فيم كانت الثبوة إذن ... وفيم كان تحرير المييد .. وفيم أنتب عبد الحكيم طمر غسه فوضع الأعلال عنهم ... ليتلقاها مدير أو مأمور ويبدها إلى عتق السبعين ... بمختلف الحيل » ؟

ولينهم عاقبوا أو (كدروا) المشريين المقيمين في الثبوة التي ضبط فيها الأفيون وإنما عاقبوا أربعة آلاف برى .

لماذا .. ؟

وقد تأنى الآن :

— لكن ... لماذا كل هذا الاستطراد وأنت تصح كتاباً عن كفرك بامر وإيمانك به ... ولا تصح كتاباً عن الحياة في السجون وما يجري فيها .

وجوابي :

— إنما أعرض هذه النماذج ولا أقصد إلى وصف السجن والحياة فيه ... لأن (الحياة في السجون) تموزها محوث ... وحدث لو عني الورير الاجتماعي حسين الشامي أو الورير المثقاني ثبوت عكاشة بدعوة فريق من المثقفين الذين قدر عليهم أن يسجنوا لتهبوا بهذا السبب الكبير ... وإنما أعرض هذه النماذج لصحتها بأهداف كتابي ... أعرسها لأنها دارت برأسي — قبل أن أكتبها — فأظلت على من خلال هذا الرأس صورة قديمة كان خصوم الناصرية قد انتصروا في القتالها من (الله واوين) والشركات والمصالح .. تدليلاً على أن ما يقال في خطب الرئيس عن العدالة ... لم يكن إلا كلاماً تمر عليه يد الحقائق فإذا هو زلحق ... وأن الرجسية التي كانت تسيطر على مرافق البلد وكنا نجد متنفساً لها ومزاء ... عند ما تمزوها للاحتلال وأمواءه ... قد ازدادت اليوم

في إدارة هذه المرافق ضرورية ... مستقرة خلف شملات الثورة ... وسجلات أعيادها ...
واللافتات تعلق على الجدران.

أعرض هذه المراجع الآن لأذكر الأمر الذي خلقته في نفسي على مطالع سجن
وأنا أحمل على كاهل النفس عقوبة السجن السوداء ... وعلى كاهل الجسد كسوة
السجن الزرقاء ...

وأعرض هذه المراجع لأمر أهم وأخطر — بالنسبة لهذا الفصل من فصولي — وأنا
أواجه مرحلة جديدة من مراحل ... وأريد أن أقول لك — بمناسبة (المنوعات) —
أن الصحف كانت قبل وصولنا إلى اليابان — ولفترة طالت حتى رحس بها — تدخل
ضمن هذه (المنوعات) ... وكان التصرف صحيحاً ... إزاء جبل من السجناء ...
يجب أن يهصر بالثورة ويأخذها السعة .

خطب الرئيس .. ممنوعات

وأريد أن أخطو في قصة الصحف المخطورة على السجن خطوة أخرى ... هي
أكثر وضوحاً أو أشد التصاقاً بأهداف كتابي .

كنت قد حملت معي من محلات (هذا القهي) في (سجن الاستئناف) بعض
ما تبقى من الصحف التي كنا نشتريها ... وكان من بينها (نسخة) نشرت فيها (الخطاب)
الذي ألقاه الرئيس في افتتاح (مجلس الأمة) يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ أي يوم قلنا
إليه من السجن الحربي .. ونسخة من (الأهرام) نشرت فيها حديث الرئيس مع رئيس
تحريرها في ٨ سبتمبر ... وبصح نسخ نشرت فيها أحاديث الرئيس أيضاً مع مراسل
الإذاعة الأمريكية في الشرق الأوسط قبل صدور الحكم علينا بأبام .

ولم أكن قد قرأت من هذا كله شيئاً ... فقد كنا في شغل عنه بانتظار الحكم
علينا فلما قلنا إلى (اليابان) ... وعرفنا أن (إمرار) الصحف جريدة يؤخذ عليها ...
انخذت من الصحف (مناقش) للحجياتي ... حتى إذا جاء الليل ... استلقينا

— إن صح التعبير — لأستوجب ما فيها ... وكان الضباط يرونها خلال النهار «مفروشة» وينتأبون منها ... في الوقت الذي كان مذياع السجن يذيع على السجاء فيه كل خطاب الرئيس التي تصبح من (المنوعات) إنما نشرت في (الصحف) .

بداية التفكير

وفضل هذه (النسخ) على .. لا أنساه .. باعتباره بداية لمرحلة جديدة .

كان باب (الزنازة) يفتح في الخامسة أو السادسة من المساء — حسب مواعيد إغلاق السجن — وكنت أتناول عشاءي وأؤدي فريضة المغرب والعشاء ... وأعد القهوة أو الشاي .. وأستل هذه الذخيرة من أعداد تلك الصحف ... وأعكف على قراءة ما بها من أحاديث وتصريحات وخطب .. ومنها — وبسيها — بدأت عجلة التفكير — في الرأس — تدور .

وكان في (الليمان) جوٌّ من : سحر في الليل .. وجوٌّ في النهار .

جو النهار ألقى فيه (المساجين) .. أساير هذا .. وأستمع إلى ذلك .. وأرد على ثالث يسأل .. وأضحك لأربع (بتكت) .. وجل (للمساجين) حافدون .. وألوان الحقد لا حصر لها .. ولكل سجين ظروفه .. وعلى ليلاه — طبعاً — ينشئ .

وفي النهار أيضاً أجمع زملائى في (الحنه) — أو في (القضية) — وكنت أقرب في (إرد الجسم) إلى (ملاح) .. وأتقرب في (التفكير للشئام) إلى عبد الفتاح .. ولم أكن أضيف بمرح (السقا) وأخباره القريبية ينقلها عن مصادر مجهولة ويؤكد أنها «علية» وكثيراً ما نشرت مصادره قرب الإفراج عنا ولم نشأ الأقدار أن تحقق هذه البشائر لصاحب المصادر ، كالم أكن أضيف (بالشب) للروف لك . إنما هو خرج من غرفته — التي كان يعيش فيها معزولاً — ليزورنى في غرفتى .. وليشكوى جفوة عبد الفتاح في معامته .. أو حشوة (السقا) في مهاجته .. أو خور (ملاح) في بشاشته .. وكنت

أشعر أحياناً بالمطغ على (الثاب) رغم كل ماسيه لنا من آلام وكل ما جره علينا من متاعب .. وكان (صلاح) يشاطري بعض هذا (الشعور) في بعض الأحيان على قهيس (عبد الفتاح) الذي كان يتأذى من مجرد وقوع عينه على (الثاب) المروى .
ولم يكن جو النهار المليء بالصخب . صلحاً للتفكير

أما جوى الليل .. فالأمر فيه كان على النقيض .

كان كل شيء عادياً . وكانت القهوة والشاي والسجائر — وهي كل (مكافئ) في الحياة العادية موفرة . وكانت تحيات (حراس الليل) تلقى علينا بين الحين والحين ومن خلال قضبان (الشراطين) كريهة ورقية — وكان الملبس الكبير «السبر» كله مفلتاً .. ولم يكن يسمح — عادة — بإدلة المفتاح فيه إلا استجابة لاستئذان .. وإذا دار المفتاح في أي ليلة .. أحدث صلصلة .. وأفظ كل ما .. فإذا استتبنا مثل هذه الحالات .. فالكون شامل لا يتركه في بعض الليالي إلا ضحكات بعض (أصحاب المزاج) من (الساجين) — وفي جو الليل بدأت أقرأ . هذه الصحف .. وبدأت أفكر في كل ما جاء فيها .

والعميل الأمر يكي ؟

ولست أذكرى لماذا لم ينفع اختيارى — من كل هذه البيانات والمطبات التي ألقاها الرئيس — إلا على ما يتصل بالانتهام «التقديم» الذي أحسن المحسوم غزل خيوطه حول ناصر من ستين . حتى ردى عن الناصرة أكثر من مرة بعد أن دوت منها أكثر من مرة .. وأعني به قولهم : إنه (عميل أمريكي) .

وقرأت ردود (ناصر) ... وملاً (الزمانة) نور ...

قرأت الردود .. وطويت الصحيفة .. ورفضت عيني إلى السماء . أستوحيا وجه الحق في هذا الانتقام .

« جويل أمريكي » ؟ نطقت بالكلمتين فيما يشبه القصة أو المص .. وقلت

لنفسى :

— حسناً .. لنعرض الواقع من جديد .. ولنحاول مرة أخرى أن نتحدث من
المقصودة . هسى أن نرى وجه الحقيقة .. والجو ساكن ؟ ! اتهموه هذه « العالة » ..
مداً من (كافر) يوم القس الترخيص لقاروق بمناداة الاسكتلندية سلباً مسافاً إلى
روما . وبأبهة الملك .. ومع صناديقه القتالية . وانهاء إلى العرض الأمريكي بشمول
السد العالي .. ولم يشأ المصوم أن يبرئوا (القائد الشاب) من هذه (العالة) يوم تسببت
أمريكا من التحويل كافتنا في فصول سابقة . ولما .. وصديقنا قولم — إنها إنما تسببت
لفتيحها أنغلتر .. لينضب « جمال » .. ليؤزم القتال .. لتقاتله أنغلتر وعرنا .. لتتقدم
أمريكا . لتتقاضى الثمن .. لتحل بفوذها محل للتوذين البريطاني والفرنسي في مصر
وقناها والى الشرق الأوسط ..

وهأنذا أنفأ (حديث ناصر) مع محرر (الأهرام) بعد العدوان بعام . وقد طرد
الإنجليز من مصر إلى غير رحمة .. وأست القتال ملكاً لنا . وبدأ المال يتدفق منها
على حزينتنا .. فهل ارتفع العلم الأمريكي (المصديق) على سارية القتال ؟

كانت أمريكا قد زحفت ضلاً إلى الطائفة باليمن . ولكنها أدركت — كما لم تدرك
من قبل — أن (ناصر) يعرف لها يددا . ولكنه لم يطرد الإنجليز ليلقى بنفسه
في أحضانها .. ولم يحارب المستعمرين ليخون قرارات بانندوج من أجلها ..

وبدأت أمريكا تمارس أشد أنواع الضغط على مصر حتى تقبل مشروع أيزنهاور
— وكانوا قد جندوا للدعاية له . كل أجهزة الإعلام الأمريكي وكل مسامى الدبلوماسية
الأمريكية — ولكن حال لم يكف رفضه .. وإنما جند لقوامته كل أجهزة الإعلام
المصري وكل مسامى الدبلوماسية المصرية حتى أجهز عليه ، وتيدى أمام المالمين في صورة
حلف بنندلو .

ولاحظت السياسة الأمريكية أن ضرب (ناصر) في (مصر) ذات أوائه .. وأن ضربه في (سوريا) جاء أوائه .. سوريا كانت قد حلت حلفو مصر وانحلت إلى روسيا تطلب أسلحة تدافع بها عن نفسها بعد أن ضرب العرب حصاراً عليها وحشد الجيوش التركية على حدودها، وتحركت جيوش موري السعيد من ناحية أخرى، ومصر كانت قد تحالفت مع سوريا لرد أى عدوان عنها، تحت قيادة موحدة مملوكة للقواء للشهر عامر ..

وفشلت السياسة الأمريكية، أو هكذا لاح للناس جميعاً .

وفي هذا الجو تحدث (ناصر) إلى رئيس تحرير (الأهرام) وكان طيباً أن يكون أول سؤال يتقدم به المهر هو عن ذلك القتل الذى أصاب سياسة أمريكا .

ودعشت وأنا أرى عبد الناصر ينشئ شدة فشل السياسة الأمريكية ويحذر المهر من مثل هذا الاضطراب ويؤكد أن خير ما يتسناه ونحضر هذه السياسة أن يتخذ الناس هنا في شرقنا الأوسط أن هذه السياسة فشلت .

● واستبان لي من (حديث ناصر)، ما لو استبان (للعصوم) من البداية، لنددوا كثيراً قبل أن يقولوا له : إنه (عميل أمريكي) .

● استبان لي من (حديث ناصر) أنه كان يعرف خلفا السياسة الأمريكية ومراسيها ويتفانى عنها لحكمة عمده وشدأ من سنة ١٩٥١ يوم عرضت على الدول الغربية المشروع الأمريكي للدفاع عن الشرق الأوسط ورفضته هذه الدول وانتهت إلى ما بعد العدوان يوم حاولت استدراج الدول الغربية إلى مناطق ضوذا .

● واستبان لي من حديث (ناصر) أنه خاض ضد أمريكا حرباً خفية وعريضة عبر سنوات خمس غيرت أمريكا خلالها كل أساليبها ولم تكن تياس أبداً ، وتولست بحلف بغداد فازلتها مصر بشن الحرب على الأحلاف فجبد الحلف ، وتولست أمريكا

باحتكار السلاح فكسر ناصر الاحتكار وتسلحت مصر ، وتوسلت بتمويل البد
ثم عادت فتسببت منه فأتم القتال لينى البد ، وغيرت الأسلوب فدهست المحتلرا وقرسا
إلى السودان ووقفت أمريكا في وجهه فتكرنا لحملو قتها ورفضنا الانحياز إليها لأننا
لا نتحاز أبداً ... فرفضت هي أن تعطينا قنحا لتسوع وركع ، فقصنا الجوع على
الركوع ، حتى حصلنا على القمح من غيرها ، ونحدث الأمريكان عن « الفراغ » الذي
أحدثه انسحاب بريطانيا من القتال . فأبينا عليها أن نسد هي « الفراغ » ... وأعلن
الأمريكان في ٥ يناير سنة ١٩٥٧ مشروع أيزنهاور ليزودنا بالمساعدات الاقتصادية
والمسكينة مقابل ارتباطنا بالسياسة الأمريكية فرفضنا المشروع ، وبدأت الصحف
الأمريكية تطالب علنا بمنزل مصر عن العالم العربي ، وقالوا بصراحة : « إن الخطر الدائم
ليس الشيوعية الدولية ولكنه القومية العربية التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج
الفارسي » .

● واستبان لي من (حديث ناصر) أن هذا كله لا يعني فشل السياسة الأمريكية ،
لأن المشروع الأمريكي نجح فعلا في خلق أخطار وهمية من مصر العرب على البعض
الأخر ، وفي تخويف الملوك والرؤساء العرب بأن الخطر الشيوعي الذي بدأ ينقض على
سوريا يوشك أن ينقض عليهم ، وصرفت أنظارهم بهذا التخويف عن إسرائيل وبدأت
الطائرات الأمريكية تحمل إليهم بعض الأسلحة فانطلت عليهم الخدعة — وما تزال
السياسة الأمريكية تحرب .

قرأت هذا كله ، ودرست أسأل نفسي وأنا داخل الزرانة .

— أهذا هو (السميل الأمريكي) .. الذي تآمرت عليه ؟

وهزئت رأسي ولم أجب .

في هذا الجو الذي جرى فيه هذا الحديث كانت أمريكا تهم سوريا رسميا وعلنا

بأنها أقتت بنفسها في أحضان الشيوعية الأمر الذي يهدد السلام بالخطر. ١٢. ولت السلام كله يتوقع عدواناً من أمريكا القوية على سوريا حليفة مصر؟ ١٣. هل تهزم مصر (الأحرار) الفرصة وسأل (ناصر) عن موقفه إزاء التهديد الأمريكي للسلح لسوريا الصغيرة؟ ١٤. وكان المتوقع أن يروج (ناصر) من الإجابة بسبب دبلوماسي يؤتم خطوة الموقف .

ولكن ناصر، لم ينسج ولم يبرع ، وإنما قال ، ولأخافى إسرار عجيب :

« ومع أن موقف مصر واضح لا يحتاج إلى تحديد جديد ، إلا أنه أعود فأؤكد : أن مصر ستقف بجانب سوريا إلى غير حد ودون قيد أو شرط ، وسها تكن تطورات الضغط على سوريا من حيث واحد لا يجب أن يسبب عن الأذهان ، ذلك أن جميع إمكانيات مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية كلها تسند سوريا في مركزها بل في مركزنا نحن ، معركة القومية العربية كلها » .

« ويقولون : عيل امريكي » وكررت العبارة ، وحذفت في نجوم السماء — من خلال (الشراقة) — أستوحيا من بورها .

وطويت الصحف ، ثم عدتُ عشرينها من جديد .

وفرشتها كما كانت ، تحت حاجياتي ..

وكان القبر قد بدأ يرسل خيوطه عبر القصب ، ولم أكن أسمع غير وقع أقدام السجاني وهو يروح ويحيى أمام (الرايين) ، وغير أخلاص النساء من المدحولين خلف أبوابها .

وتوضأت ، وحليت ، ودعوت الله أن يلهي الرشاد في الحكم على القائد الشاب .

.. ونمت .

وأرجو أن أكون قد رسمت بهذه الجولة الأولى في زنايتي الحلقة الثالثة عشرة في موقعي من « الرجل الذي تأمر عليه » .

الفصل الرابع عشر

وحدة .. وخطبة .. وتقاش

لعلك خرجت .. مى .. من الفصل السابق بأن الاتهام الذى نثل مطلقاً بيد المتصوم . وفى لائحة من تار .. وفوق رأس ناصر .. ومن بداية الثورة إلى ما بعد العدوان عام .. قد أسهار بالنسبة إلى .. وبعد أن واجبت تصريحات الرجل .. وربطت بينها وبين الأحداث ، وأنا راہض فوق « مرتبى » داخل الزنانة ، ولم يند ناصر « عملاً أمريكياً » كما قالوا .. بل عاد (خصياً لأمریکا) - كما كان دائماً - وكما تقول الوثائق .

وأحب أن أضيف إلى هذه الحقيقة فى مطلع هذا الفصل الجديد . أن انبهار ذلك الاتهام كان المسلم الثانى عن طريق تحول إلى الناصرية بعد تأميم القتال .

وبدأت أضح « كل عینى » على الحقائق .. وإن كان قد تمذر على .. أن أضح « كل ظلى » لأى (سجنه) ولا أقول : لأنه (سجنى) .

وأنا الآن على مشارف العام الجديد - ١٩٥٨ - أرى جيداً وبكل عینى ، أن عهد الناصر خصم لأمریکا التى أبدته فى مقاومة العدوان ، كما أنه خصم لاحتلال وفرنسا صاحبتى العدوان ، وسوريا هى الآن اللیدان للیأ للصدام .. وهذا اللیدان مات مكشوقاً بعد البیان الرسمى الذى نشرته الحكومة الأمريكية فى اغتيال وعصية من شيعية حكومة سوريا ، وناصر حليف سوريا ، وقد أصدر تعليماته إلى (النشر) أن يرد ضها أى عنوان .

وإذن فلندع تلك « النسخ » القديمة للفروشة تحت حاجبانى فى « الزنانة » ولتتابع

الأحداث عن طريق الصحف الجديدة التي قرأها في «مكاتب الأطباء» أو «بناها» عندنا «بعض الضباط» ، وكل هذه (للتأنيب) كانت تتم في أثناء النهار ، فإذا جن الليل رحت أراسج حياة الرجل ، على قدر جهدي ، ولا أقول بتشجيع تجريدي ، لأن الفلسفة التجريدية لا تطرق باب السجين السياسي إلا إن كان نبياً ، والسجن لم يشرفه غير التاريخ للخصوص ، إلا يوسف الصديق .

ولحظة قبل إن مصر وسوريا تبحثان في إعلان الاتحاد بينهما ، وكانت المصومة بين أمريكا وسوريا قد عبرت على كل لسان وفي كل مكان . وأستحدثنا دولياً بشير القلق حتى على الصعيد الهولي ، فإذا تحقق هذا ، كتمه لأمرىكا ، فإن معناه أن عهد الحكم طمر سيكون مستهدداً لإفناء آخر حندي في مصر ، دافعاً عن أصغر مواطن في سوريا ، والله وحده يعلم ، على أي أرض نهالون ، أو بأي أرض نموت .

ونحقق الاتحاد ..

ولم يتحقق (فيدرالياً) كما كنا نتوقع ، وإنما تحقق (وحدته) تذيب كل إقليم في الآخر ، واللهية - كما ترى - أقرب ما تكون إلى الملامة ، مهمة تنويب (المصري) في (الشام) ، من قبل أن ينوب (المصري في المصري) و (الشام في الشام) .

وأعلنت الوحدة على مراحل ، لا أذكر أحداً رغم تهمي لها أنها جهرتني .

أعلنت على مراحل نبهت لي راتبة ومرسومة ، وكأنها انطلت التفتوة فوق سلم موسيقى مرتب .. يحطوها فنان على مقرب .

أعلنوا الوحدة (رسمياً) في يوم السبت أول فبراير ١٩٥٨ - هكذا قرأنا .

وألقي عبد الناصر في مجلس الأمة للمصري أول خطاب له عن هذه الوحدة في اليوم الخامس من فبراير .

وفي خاتمة ذلك الخطاب التاريخي الذي أذيع علينا . أضمنت إليه وهو في رفرق الخطاب يقول كأنه يصرخ أو يفتن ، ويقول كلاماً أعذب من الشر ولم يكن شرّاً ، وإعما كان صفات ، يقول بالحرف الواحد :

« لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق »

« إن دولة جديدة نبتت في قلبه »

« لقد قامت دولة كبرى في هذا الشرق » ، ليست دحية فيه ولا عاصية ، ليست عادية عليه ولا مستبدية ، دولة تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تهدد ، تقوى ولا تنصف ، توحد ولا تفرق ، تسلم ولا تعرط ، تشد أزور الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تعزب ولا تنصب ، ولا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، والمشر جميعاً بقدر ما تستعمل وتطبق .

استممت إلى هذا الخطاب ، ومجيت .

لم أجد لروعة البيان فيه قط ، وإعما مجت لمعانيه ، ومجيت لمعانيه ، ومجيت للخطورة فيه ، ومجيت لتفصيل كل عبارة على قدر المعنى بها ، ومجيت لروح التحدي ، وروح الفروسية ، وروح الإنسانية ، موزعة بإسكاف وحزم وجل .

وكانت هذه هي أول مرة ، في حياتي ، ألتقي فيها (حلاوة) خطبة لمبد التامر ، ولا تذكرني بالخطاب الذي أم فيه القتال ، فشتان بين مذاق ومذاق ، ذلك خطاب ملائي زهواً بالانتراف حق كان منتصباً ، وهذا خطاب ملائي فرحاً ، لا بقاء شقيق كان منقرباً — فقط — بل بـ (عودة الروح) إلى عرى من المشرق ، يمل على العالم دستوراً أرساه باسم العروبة ، ولا يطمح إلا بقتضاه مع من يريد التماثل ، دستوراً خطيراً على الصيد العربي ، ودستوراً رقيقاً على الصيد العربي ، وفيه إيجابية ، وفيه الأثر الذي يشد ، وفيه الكيد الذي يرد ، وفيه الحديث عن التنصب والتعزب ، وعن الانحراف والانعياز ، وعن العدل والسلام ،

ومن العناء والاضواء ، ومن التهديد والتجديد ، وترك لك وضع النقطة فوق الحروف .
والسألة — إنى — ليست وحدة بين مصر وسوريا فقط .

إنما هي أمل جديد على أفق هذا الشرق ، يروى إلى بيد ، من قريب ، وبين القوة
التي انبثقت في قلبه ، (دولة كبرى) من يوم مولدها ، تستمد جلالها من مقومات
الحضارة التي ظلت القرون تستضي في حنايا تاريخها .

وقلت للنفس أسألك على طريقتي :

— ماذا يريد هذا الشاب أن يفعل ؟ وإلى أين يريد أن يذهب ؟ وهل هي فرحة
الساعة استغرقني انشغالا ولا تلتفت أن تنجذب عني وتغمد ، كما حدث لي يوم أم قناصنا
وكنت يومها من الزهو أردت مقلدا .

وعدت للنفس أتولى " الإجابة عنها :

— الأمر لا يبدو سهلا ، والجواب يستحق أن يحدد هذه المرة موقفى ، أو فلا نفرض
بدي من بحث لست مؤهلا له ، وأنا ألبية متشب ، وغدا سأنتفى بإخوانى في الحقبة
و زملائي في السجن ، وستتور كل أحداثهم حول الوحدة وخطاب ناصر ، والظير أن
أرم أنى كنت نائما لم أسمع شيئا ، وأن أستمع إليهم ولا أبدي رأيا .

وصبح ما توقعته .

وما كاد الباب ينتح ، حتى انقلت منه صحايا القصايا التي يرهمون أها سياسية ،
بما فيها قصية المسييرينة وقصية الجاسوسية ، وأقبلوا علينا وفي كل ثم (نقشة) أو (نكتة) .
وبجمعت خطتي وتلاقيت المروجة ، وأعلنت غصي ، لـ لـ لـ .

وجاء الليل ..

ورأيت أن أعود من جديد إلى النسخ القديمة للفروشة تحت حاجباتي .

وذكرت أن إحداها تحمل - كما أشرت قبلا - نص الخطاب الذي كان قد ألقاه على التواب في افتتاح مجلس الأمة قبل الوحدة بنصف عام ، وقلت لنفسى : لعل في هذا الخطاب أضواء ألقيا على طريق الآفة وأنا أحاول أن أهمم الموقف الجديد لأخذ مكافئ .

ولم أكن قد قرأت هذا الخطاب قراءة واعية .

كنت قد مررت به كزحاما ولم أنليت عنده .

وكنت أعتقد أن كل خطبة ألقاها أو يلقيها إنما هي حزمة من الأباطيل ، بضل بها الجماهير ، على نحو ما يفعل جهازه المهيمن الذي أمدد للإعلام وحيد به إلى شيطان رجيم اسمه حاتم ، وأججها روع فيه أن يتنزل في نصاعة اليانصيب وهو يصرف لنا ظلمة الليل ، ويتسلل بهذا التسليل حدودنا إلى مختلف الشعوب فتهدى إليه أفئدة عاطشة إلى الأحلام ، وأصعب مشقة للتخدير ، وكنت أصدق الخصوم وهم يقولون إن أمرين لا ثالث لهما هما اللذان نبح بها ناسر ، ولولا براعة في إعدادها لما ظلمت له قائمة : جهاز الإعلام ينثث السموم وينشر الأكاذيب ، وجهاز المخابرات يكشف المؤامرات ، ويحصد صف كل شعب ليكونوا مهووناً على نصفه الآخر .

هذه هي الصورة المرعبة التي كانت ريشة الخصوم قد رسمتها لتثيرة وصاحبها عبر سنوات خمس قميصها بينهم .

• • •

والآن .. ؟

الآن .. وقد بدأت بعض الحقائق تبين .. ؟

الآن .. وقد استهار اسم اتهام عن اسمه (العسل الأمريكي) .. ولامت الأضاني - على افتراء الخصوم - شاهداً لا يمين ؟

الآن .. أليس من واجبى نحو ضسى - ومن باب الاحترام لشكركى - أن أراجع الحساب كلها وجدت للرابعة سيلا ؟

وقلت : (نم) وتناولت خطيب (ناصر) في افتتاح مجلس الأمة .

وقرات : « . . يقول لم . . . بعد أن حياهم :

« لقد كان موعدنا معكم منذ خمس سنوات — أي في بداية الثورة — فقد كنا تصور ونعتقد أنه في استطاعتنا أن نشق بالمئتين الحقيقيين للشعب » ، ولكن التجربة ما لبثت « أن أوضحت لنا أن الأمر لم يكن بالسلطة التي كنا نتصورها » .

و « ناصر » إذن يقول لنواب أن الطليعة الثائرة التي انتمت الأبواب حموة فتفتحتها . . انتظرت « الرحم للقدس قادمًا إثر خطاها شعبًا يتلقى مسئولياته وينبض بها » لم يظهر الرحم الشهي ولم تتحقق أحلام الثوار ؟

ولكن لماذا ؟

أجاب (ناصر) أن لدى حال يسه وينهم . وجود ملك كان لا بد أن يذهب . . وجود استثمار كان لا بد أن يرحل . وجود أحزاب كان لا بد أن تحل . . وجود إقطاع كان لا بد أن يلتفت أخاه . . وحال يسه وينهم قبل هذا كله وبعد هذا كله (يأس محيف سيطر على القلوب والقلوب) بسبب تلك العقبات « فإذا الأحداث تترى على هذا البلد والمالية من شبه تكفى موقف للصرخ » و « في هذا الظرف . . ضاعت الثقة فلم يعد كل فرد فينا يؤمن أو يتق بزعمائه . . أو يؤمن أو يتق بغيره من المواطنين . . أو يؤمن أو يتق حتى نفسه . . وكان ينبغي للإيمان والثقة أن يعودا إلينا كشعب وكأفراد . . حتى نستطيع أن نشق بكم . وهكذا في الوقت الذي انضمت فيه معالم طريقنا إليكم وطريقكم إلينا . . انصمت في الوقت ذاته حدود المارك التي كان يتعين علينا أن نحوصها لكم . . ليتم اتحاد شعبنا . . ويصبح حراً طليقاً . . يفتح يده . . آفاق غده » .

قرأت هذه السطور ورحلت أسأل نفسي :

— أكان حقاً ما قاله أم لم يكن حقاً ؟

وأجبت عن نفسي :

— كان كله حقاً . . وأنت تعلم .

— نعم أنا أعلم . . لأنى (مختصراً) . . نعم أنا من أعلم الناس بأن كل ما قاله القائد الشاب . . عن الاحتلال والإقطاع . . وعن تلك والأحزاب صحيح . . وأكثر صحة منه ذلك الذى أسماه (اليأس الخفيف) . . كان كل شيء ميثوساً منه فعلاً . . وكانت جريدة (مصر الفتاة) أو (الحزب الاشتراكي) — لا أذكر — بتكسب على عرض صحتها : (رعاياك يا مولاي) وترسم صوراً من شعب حطموه وما يزال يقاوم . . وكانت طالبات (للدرسة السنية) يتظاهرن فى ميدان هابدين . . ويردد (ليليدان) أصداء حثاف غير مسبوقة . ومن فتيات طاهرات عن (بيوت الطهارة) — يقصدن لللكة فريده الطريده — وعن (بيوت الدعارة) يقصدن بيته لللكى الكريم . . بيت مولانا (تلك الصالح) . . وكان كل شيء يترنح . وكانت أسماء (فاعل) و (شيرين) و (ساميه) و (تحيه) و (ثابت) و (كحيل) تتردد على كل لسان . . وفى كل سائر . . وكانت أفاصيص كبرى وإريشيرا . ومونت كارلو ، وورلن غالى ، صفحات (بيضاء) فى كتاب (تلك السلم) يتصفحها الأجانب ، من ساسة وغير ساسة ، وكانت أفاصيص السكاباريهات ، وانماخذ كلمة (المصرى) فيها أسماء مستشاراً لحاكم (مصر) فى لياليها الحمراء ، تحرى على كل لسان وفى كل سائر أيضاً ، فى القاهرة (وفى الأقاليم) ومنها جمع (مصطفى أمين) مادة كتابه الطريف عن (مولانا للعظم) بعد أن ذهب !



وأرجو أن يكون مفهوماً أنى لا أستهدف بهذه المجموعة من المجلات ، أن أحاطم فاروق ، فليس من أهداف كتابى أن أحاطم ملوكاً أو سوقة ، ولم يعد تاريخ فاروق فى

حاجة إلى اللزيد (من الصفحات السود) وإنما أردت أن أقول إن مائة (ناصر)
من (اليأس الخفيف) كان صحيحاً .

وكان علي (ناصر) - إذن - أن يرص هذه الأكتام من الطريق التي تصد ،
حتى يطعن الشعب ويزحف .

وكان علي (ناصر) - إذن - أن يحوض أكثر من مرة - وأن يحارب
في أكثر من جهة ، ولو تردى في (الطغاة) التي تردى فيه (هتلر) ، ولو خالف
- ناصر - من أصول الفن العسكري وهو الجندى الذي عرفت فيه (القزبا) شجاعة
لم ينكرها عليه خصومه .

وكان علي (ناصر) أن يحارب حراً هدامة في البداية ، والأفاض من خلفه
ترفع ، والبناء في مكانها يقوم ..

وكان عليه أميراً أن يبذل الثقة إلى الحيارى واليائسين .

فلماذا فعل ناصر ؟

هل حقق الوعود التي ارتبط بها مع الجماهير ؟

وهل خاض - لم - هذه للمارك وقاتل هو وأصحابه بسالة ومهارة وإيمان .
أم أن كل ما كان يقول - - إنما كانت دعماً لأجهزة الإعلام والدعاية .
ولم يد التقادر حاتم في مجال النشر والفكر ولوجيه أياظه في مجال الفن (وقطار الفنانين)
(ومعونة الشتاء) -

تولى (ناصر) مخاطبة في مجلس الأمة الإجابة .

قال لم ، إنه بر بما وعد ..

خلق الملك ، قضى على الملكية ، صادر أملاك الأسرة المالكة ، أعلن الجمهورية ،

حلّ الأحراب ، وملك الجيش ، أم القتال ، هزم السفوان ، طرد الاحتلال ، بدأ التصنيع .

ولم يبق كلاً ، وإنما فله حقائق .

ولم يفس الخامة البشرية ، فبدأ يبنى « الإنسان » إلى جوار (المصنع) ، وضرب مثلاً لكل ما صنع .

• • •

وقد حرصت — وأنا أقرأ خطابه في مجلس الأمة — على أن أحثك ما لم أتجبه من البيانات التي أدلى بها دعماً لما همس به — وحسب أن أذكر لك إلى ما أت نفسي بعد أن طالت هذه البيانات السؤال المصريح التالي :

— إذا كان هذا الرجل قد فعل هذا كله غير سنواته الخمس ، فما الذي حجب هذه الحقائق عني ؟ وكيف تراءى هذا المهرم مقفوراً أمام عيني ؟ .. وأى المزايا أرتبه على هذا الوضع المتلويب ؟

— مرايا المصوم من غير شك .

— هل نستطيع هذه المرايا أن تريك الليل نهاراً والنهار ليلاً ؟

— نعم .. ويملوها أن تكون قد أوذيت .. فيتميز المصوم فرصة شعورك بهذا الأذى .. ليسجوا لك من هذا الشعور غشاوة على عينيك ، هي مرآتك التي تريك كل شيء مقفوراً .

— يبدو — إذن — أن لكل شيء في السياسة وجهين : وجه يراه الأنصار .. ووجه يراه المصوم ..

— سم .. والمحايلون هم وحدهم القادرين على التفرقة ، بين الصحيح والزائف ، أو بين الأسيل والمجهين ؟

• • •

تم هذا « بالروح » برأى ، وكانى شطرت نفسى بنفسى ، فخرج منها شخصان يصاوران ، وتلك طريقة من طرق التفكير صاحبتى طوال حياتى ، واتسع لها المجال فى سجنى ، محكم وضى وسيداً داخل عرفة منقطة .

وحيت الصحيفة جانبياً وبدأت أفسر فى أن لكل شىء وجهين حقاً إذا ما وجد لهذا الشىء أنصاراً ونصوم .

ورأيتى أنثبت بهذه (القصة) .. وأسر على احتبار مدى الصحة فيها ، باختيار بعض إصلاحات (ناصر) وتطبيقها عليها . ولتنظر إليها من وجهها وبدأت أقول للنفس :

خذ (هبة) من كل إصلاح وانتظر .

(١) خذ الحديد والصلب ، مثلاً للصناعة .

(٢) وخذ طريق الكورنيش ، مثلاً لإعادة بناء العاصمة .

(٣) وخذ الأرض التى ورثت على الفلاحين مثلاً لإعادة بناء المجتمع .

(٤) وخذ إثناء الرتب والألقاب ، مثلاً لإعادة بناء الإنسان .

وكتبت هذه النقاط بقلى فوق طرف الصحيفة ، واتكأْتُ على الوضادة ، وبدأت أتحدث إلى الإنسان الآخر الذى تتألم منى .

الحديد والصلب ؟

— نحن فى السجن يا أبنى ، وقد ترامت إلينا عبر القضبان فرحة النصوصوم وهم يقولون إن مشروع الحديد والصلب فشل ، وأن مرأى من القرنين انشراح وهو يجرى ، وأن أموال المسلمين للساكنين ضاعت .

— ولقد رأيتنا بأعيننا من نوافذ القبان ، رحكب الرئيس وهو يمر إلى جوارنا فى طريقه إلى حلوان لزيارة المصنع ، وسرطان ما ترامت إلينا الأخبار بأن الرئيس رأى

في مكتب المدير من الأثاث (للزحف) والسجاد (القاتل) ، ما لا يوجد في مكان
بعض الملوك ، فذهل ، وأسر بالسجاد قرع ، وأسر بالمدير ففعل .
وهذا وجه المصومة للصنع .

وقال أحونا يشجب هذا الوجه ويرد على أخيه الذي تناسخ منه :

— لنفرض أن كل ما قيل صحيح ، فهل يطلب على أمة ناشئة ، تنمو على الصلح
وتتقدم جريئة ومصرة ، على هذا النوع من الصناعات الخفية ، فيصاب عرن من الأعران
فيها بشرخ ؟ ومكتب المدير . ؟ لو سلنا جدلاً بكل ما قيل ، فإوجه السبب في أن
يسرف موظف مثله ويستترف ، فيجد أمامه رئيس دولة « ناساً » ، لا يجده الرمل
الأحر تفرش به طرقات الصنع تحية لقدمه ، ولا خطب التناقض تلقى بين يديه تمجيده
لزعيمه ، ويدع هذا كله لدراسة الوضع ، فيصطد المدير مثلاً بالإسراف ، فيأمر
بالسجاد يطوى والمدير يفصل ، ولماذا يحمل لنا دائماً أن قول من « الكيوب » ونصفه
مملوء بالمال بأن « صنعه فارغ » ونرفض أن قول إن « صنعه مملآن » وأنت وأمثالك
بأشئ إنما جاء بهم إلى السجن ، ذلك « النصف الفارغ » .

وطريق الكورنيش ؟

مسجرة البندادي — أحد الرفاق — يوم كان وزيراً للبلديات .

قال عنه المصوم إنه تشقق .. وأن للتأولين عشوا .. وأن الرشاوى استغذمت

ولست أدري لماذا نكذب البين ومصدق الأذن ؟

وإذا فرصنا جدلاً أن بعض ما قيل قد حدث .. فلماذا نحفل بمشرين متراً
أو مائة من الأمتار بأن عليها التشقق .. ولا نحفل بكورنيش كامل خلق الناحية
خفياً .. وأجرى التيل سائراً وأخذنا .. وكأنه لأول مرة يجري .. وكأننا لأول
مرة نراه .

لقد ترامت إلى شاشات التشقق قبل أن أسجن .. وجاءني أحد الأطباء من

الأصدقاء ذات ليلة — الدكتور الطيب ناصر — فدعاني إلى (زهرة) في مرجه حل طريق الكورنيش لأراه .. وكان منا (عمود الكولون ، المحرر بالأهرام) واتينا إلى شبرا البلد .. ولم أستطع ليلتها — وبمرغم انصومة — إلا أن أقول للمدتين ضاحكا : (ان هذا الكورنيش .. من صنع القى بميثك برش بلقيس .. من قبل أن تقوم من مقامك) لقد ظفروا مرة بشأن كورنيش الإسكندرية ومن قبل عشرين عاماً أو أكثر ، وأعدوا القبول أكثر من مرة ، وبمرغم السرعة الضخمة التي ركت رانحتها الأنوف في مصر والمنازل ، وعرضها القامى والقدانى عن إسماعيل صدق وللقول الإيطالى ، وأحد صديق مدير البلدية ، وحسين صبرى خال « لللك المعلم » وعفاظ الاسكندرية .. قالوا بمرغم هذا كله إن إسماعيل صدق القى قرر عمل كورنيش الإسكندرية خلق الاسكندرية .. وأن صنيعه هذا يجب كل إساءة له ضد وسطه ..

إذا كان هذا قد قيل عن عدو من أعداء الشعب ، ذهب في التاريخ ، مثلاً لانسى على البقرية الفاجرة في التفتيل والتفريب ولأه المستصر ، أفا كان البندادى وهو يخلق الليل خلقاً جديداً ، ويحمله حية من مصر ولا يحمل مصر حية منه كما قال مهردوت ، أفا كان البندادى وهو أحد أبطال الثورة البناءة ، جديراً ببعض ما قيل عن إسماعيل صدق وهو أسمى أدوات المحتل في هدم موطنيه ؟

والأرض الطيبة ؟

والأرض الطيبة التي نزعتم من الأطماعين ، وأعطيت للمعلمين من التلاحين .. لقد مشت الشائعات بيننا تقول حير الستين الخس ، أن كثيرين من نسلوا القنادين الخسة هجروها وأن الباقين لا يحول بينهم وبين القرار إلا الخوف ، لأن كل فلاح قبل هذه القنادين ، وليس في بيته رغبة ، يجر من الضرع زرعها ، والتلاح الذى زرع .. استولى الإصلاح الزراعى وبك التخليف ومختلف الجهات القاذبة على كل ما حسد أوجع ، لقاء ما أعطيه من تقاوى وسداد ، وما قيدوه عليه بما لا يدريه ، وهذا التلاح الذى يستغيث اليوم ولا مفيت ، كان ناهر البال أيام الإقطاع ، بطعمه سيد ويسقيه ،

ويملكه ويكسوه ، وإذا أكلت الآلات محصوله أقرضه السيد على محصول جديد ، وكما من في « النار » من « حرمة وحيال » .

ولست أدري كيف كانت تسمي مثل هذا القول الارتياح ، وتلقاه كأخبار تبشر بشيوع الخضر — ولئن كنت شخصياً لم أحضم هذا القول يوماً بحكم احتراي لقانون الإصلاح الزراعي — ومع ذلك افترضت — جدلاً — أن يكون ما قاله صحيحاً — وأن الإصلاح في « الثنائيش » و « الموائر » كان يحيا حياة ناعمة ، كالتي يحياها أهل الشمال في أوروبا ، فهل قصد صانع الثورة بالقضاء على الإقطاع إسطم الجياح ؟ قد يكون الطعام والكساء نتيجة محضومة وهذا ثانوياً لقانون ، أما الهدف الأساسي لتمليك الملم ، فقد قال ناصر عنه القواب ما يأتي بالحرف :

« وكان بيننا وبينكم — أي من الثقات والمحوائل — إقطاع استشرى خطره واستغل ضرره ولم يكف بأن يملك الأرض ، وإنما أراد أن يصير إلى ملكية الأرض ملكية البشر .. وكان لابد أن ينتهي هذا الإقطاع وزول حتى نلتقي بكم » .

هذا هو الهدف : زوال هذا « الحمايز » أو « المائل » ، حتى يتم الاتصال بين القاعدة والقمة ، وتحرر السيد الفين ضهم الإقطاع إلى ملكية الأرض ، أو تحرر المستعبدين و « للمدينين في الأرض » من « سادة الأرض » ، حتى لا يسوقهم « الإقطاع » إلى « صناديق الانتصاب » كما يساق القطيع إلى المظيرة ، ثم يقال « بحق يراد به باطل » — أن هذا المجلس النيابي ولید انتصابت حرة ، وأنه يمثل أصدق تمثيل لإرادة الشعب ..

وقد توكلن هذا « الخلقين » و « أزمين » حتى استنابنا له نحن الكتاب ، واستنابنا على « الطريق » لأنه « مطروق » ، وجرت أعلامنا مؤيدة له وبجة عليه ، وأسمه « ديمقراطية » و « حياة نيابية » وكان الضير لا يلبث أن يفتق قفرسها بين الحين والحين ، سرخة مدوية ، على حدى حدث — محل أو دول — يهز الضائر ، فتلقانا السجون تهذب القلم وتؤدب الضير ، وتصلح أسلاك الجهاز — والسجن كما لا بد أن تكون قد حلت — تأديب وتهذيب وإصلاح ، وكان لافيه مكان للقرية :

.. مملكة ممتازة أسموها «حرف» تتم تحت ظلالها بملابك المادية، وبالعلم يمشيك من البيت، وتفتك ابتسلمات مرحت على الهندية والخلق، من فئة المتخصصين فيما كان يسونه «العلم اليسى» في المحافظة أو «القسم المخصوص» في «الداخلية»، ورحم الله كبيرهم «سلم زكي» وما قبله من مصرع، وألم كلية الطب.. كلية «الرحمة» ولم يحص قصر الحويارة ولا قصر عابدين، من قصر السيف، للقسم بالأنين .

والألقاب والرتب ؟

ونخذ «الألقاب والرتب» والقانون الذى أنشأه ..

القانون .. قد يبدو فى ظاهره سطحيا وتافها .. ولكنه كان يوم صدوره دفعا ثوريا يصح إلى القس لا إلى السطح .. ويستهدف تحرير الضيدين روحيا وعلى «مستوى الطبقة» كما حررم ماديا على «مستوى الأرض» .

ولا ينبغي أن نأخذ من نحر القانون الذى من على مطلع الثورة .

ولا أعلن أنه سيؤتى نحره إلا بعد أن تم الرسالة .. لأن الرواسب الطبقة ما تزال تسيل عليها .. ولأن ما صممه هنا أكل غبان .. والاحتلال .. وصدارة الإقطاع ورأس المال .. وسيطرة ما نسميه «النفوذ والجلد والسلطان» .. وبقايا ما انحدر اليه من تقليد للهايات بالبلد الساج أو المباشر .. أو «البروكر» «الرجب» أو «الضيفة» التى أوقفت الأجداد عليها كذا من الأطلان .. كل هذه الرواسب لا يلبيها قانون .. والدليل أننا ما نزال — وبعد أن دلفنا إلى الاشتراكية فى نجاح سريع ومذهل .. ما نزال نتعامل بالرتب فى كل مكان .. وهم لما سوقها السوداء برغم القانون .. ويمنح كل منا الآخر رتبة «البكوية» محلة أو تحية .. ونضعها على «لؤلؤة الصنوبر» لبهم بمطلب لنا عنه .. ولا يزال هذا اللؤلؤ يهش لك إنأنت أضفيتا عليه .. ويغرب لها وقد يقضى حاجتك .

ولكن « القانون » كان جزءاً لا يتجزأ من أعمارك التحرير للنفوس وممارك
التحرير للقلوب وممارك التثبيت لمعنى الاستقلال .

فن أى زوايا — إذن — نظر المصوم إلى القساوس .. ومن أى الجوانب
شوا عليه النارة ؟

الجواب :

— من زوايا الأكاذيب .. ومن جانب القمص .

ولم تكن تسع منهم إلا أن شيئاً سبكاً من سراد القوم وحة الرتب فى « مصر
الجديدة » (عرف بالطف على الفقير وبالصلاة فى وقتها وبالصوم فى تهل) كان
يمشى فى الشارع ومعه خادم صغير لا يجاوز عشر سنين .. يحمل سلة ، وتلفت الشيخ
فلم يجد الصبي تفتى عليه أن يضل الطريق أو يندمه سيارة .. وكان الصبي قد لحق به
فقال له الشيخ فى عطف الولد : « تمال يا ولد .. ات رحت فىن يا كلب ؟ » وقال
الصبي ضاحكاً : أنا هنا يا سعادة اليه .. ما شئت ولا حاجة .. وكان بائع وكواه
يقفان أمام دكايمها فصاح « الكواه » فى الصبي : « ما تقولش يا سعادة اليه ..
ما فيش حاجة اسمها يه دلوات » وقال البائع للصبي : « وإذا حد قال لك يا كلب ..
قل له يا ابن ستين كلب ما يتش حد أحسن من حد » .

هذه القصة .. ذكرت — وأنا فى زى زانتي — أن أحد الأصدقاء من سكان
« مصر الجديدة » كان قد رويها لي قبل أن أسجن .. وكان يرويها لكثير من الناس

ولا أنكر أنى يومها تأثرت .. ولست قانون الرتب كما كان المصوم يملونه ..
ورحت أهل عليه .. وعلى روح التفتيح والتمريق فيه لكل ما أمر الله به أن يوصل ..
وتسنت يومها فى تخرج معنى لم يرده الله قط وهو يقول فى كتابه الكريم : « ورفضنا
بعضكم فوق بعض هوجات » .

والله وأنا أذكر الملائكة فى سجنى .. وفى السجن الذى أتى بي ناصر إلى
غياهبه .. هل أرى فى القانون نفس الرأى الذى كنت أراه وأنا أعيش بين المصوم ؟

— بكل قوة اليقين .. أقول : « كلا » .

وأضيف إلى هذا « النقي » أن واضح القاصون لم يرد أن يقول « الكواء والبائع »
تحريض الصبي على شتم الشيخ الصالح ..

هذه أخطاء .. لا بد من دفنها .. غمماً صغيراً للهدف الكبير الذي استهدفه المشرع

بل إن غضبة « الكواء والبائع » على ما طناه — خطأ — إهانة مددتها طبقة
ظلمة إلى طبقة مظلمة .. تكفيها .

ولتضل هذه القضية طريقها .. إلى (التصوير عن ذاتها) ، وليكن (الكواء) أو
(البائع) سبيء السوء — أو ما شئت وصفاً له ، أو لغة أدبه — ولكنه بدأ يسمى
« أمسه » وما عايناه فيه من مهانة ، وبدأ يذكر (يومه) وما يرجوه فيه من (عزة) ،
وبدأ يذكر « عده » وما تكفل القناصون به من « حماة » له ، ثم راح يوجه الصبي إلى
ذلك المد المشود ، راح يشق الطريق إلى الشموع ، راح يتحدى خصمه حامل الرتبة ،
راح يذيب الفوارق ولو بالشتائم ، وإذا كان التهذيب قد تحمل عنه والتصوير عن ذاته ،
هلان المجتمع لم ينجح له فرصة التهذيب .



وقلت لنفسي :

— لم تكن القنصرية عابثة — إذن — يوم عقلت في الطرقات حشداً من
القوحات ، تحمل كل لوحة منها كلمة كان قد قالها (ناصر) لهذا (الكواء) ولهذا
(البائع) : « ارفع رأسك يا أسي » ولكن الخصوم يضمكون منها ، جهالة منهم .

والجيش؟

وأخضت (غصاً) طويلاً من (السجيرة) .. أمير به قارة غصى .. ثم رأيتني
أهز رأسي في أسي وأقول لهذه النفس : (فات الوقت .. انك بكشف هذه الحقائق
تضئ ضميرك وترحق أحسابك .. وكل كلمة تخرجت من شفيعك وأنت داخل الأسوار
عن رشاد ناصر .. لا بد أن ترسم على شفاه السامعين ابتسامات لا ترضاها .. أمسك
عليك رأيك .. واسكن) .

لم أسكن .. وإن بدا كل شيء حولي ساكناً .

مشت يدي — على غير وعي مني — إلى الصحيفة أو إلى الخطبة .. وبدأت أقرأ .
قرأت ما قاله ناصر عن الاشتيا كانت — التي وقعت على خطوط المدينة بيننا وبين
إسرائيل — وعن الفلوة الفلوة التي شنها الاسرائيليون على غزة يوم ٢٨ فبراير
سنة ١٩٥٥ .

وفي جراءة محبة اعترف ناصر بخطأ كبير كان قد نردى فيه .. ولم يقنعه عليه
إلا بفضل هذه الفلوة .. اعترف أنه قبلها لم يكن يشغل عنه كثيراً بحظر إسرائيل ..
وكان يعتقد (أننا إذا استطعنا أن ننبئ في مصر هذه الأمة الكبيرة التي نحلم بيناتها فلن
خطر إسرائيل بطلاش وعنادها يلين) .

ولكن دخلن الفلوة على غزة .. انجلب عن حقيقة خطيرة .. (تلك هي أن
إسرائيل ليست الحدود المرسومة وراء خطوط المدينة وإنما إسرائيل في حقيقة أمرها رأس
حرية للاستعمار ومركز لجميع قوى أخطر من إسرائيل وأخطر من الاستعمار .. وهي
الصهيونية العلية) .

واعترف (ناصر) أن هذه الحقيقة كانت نقطة تحول في تفكيره ولستبان له أن
البناء الداخلي لا يكفي وحده لصيانة أمتنا .. ومن هنا كانت معركة السلاح واحتكاره
وكسرنا الاحتكار . وتسلحنا .

وبدأت أريج بنّا كرتى إلى ما كان يتوّه الخصوم يوم ملحتنا روسيا
وتشيكوسلوفاكيا .

كانوا يقولون إن (ناسر) يفضّل إسرائيل ذرية .. ليقم جيشاً قوياً .. يحارب
به مواطنيه فى الداخل .. ويكفّ به أغلس كل معارض .. ويرزف به إلى البلاد
الغريبة الصغيرة تحت علم (النحل) .. ليحطها دولة بعد دولة .. كما دخل محمد
على الشام .

وابتست ابتسامة باحة أزجى بها الغراء إلى متلقى القى استلم يومها تلك
الاثام التافه .. وذكّرت السدوان .. وكيف وزعت الحكومة على الشعب نصف
مليون قطعة من السلاح .. وكانت فرصة المر لى أن الشعب يريد أن يحدث انقلاباً ..
ولكنه لم يفعل .. فهل مثل هذا الشعب .. هو الذى يسلح عبد الناصر قواته من
روسيا ليضد بها أغلسه ؟

وتذكّرت (السدوان) مرة أخرى .. وجمت أن إسرائيل كانت رأس حربة ضلّاء
ومركز تجمع لقوات الاستعمار ... ومنها — ومن قبرص المحتلة — وثبتت إنجلترا وفرنسا
على القتال وكان السدوان .

وكذب الخصوم — إذن — وصدق ناسر .

وكان (ناسر) ملها — إذن — عندما جمل بناء الجيش القوى مبدأ من مبادئه
السنة من أول يوم فى عمر الثورة وكان (غملاً) عند ما ظن فى إحدى الفترات أنه
لا خطر علينا من إسرائيل .. وكان حصيلاً عند ما تنبه على انطلاق وسلح الجيش من
روسيا .

* * *

جيت غربة واحدة .. لم تقل الأحداث فيها كلتها بعد .

تلك هى دهوام أن (ناسر) إنما يسلح الجيش لينزوه به البلاد العربية .

وها هي ذي «غزوة» الأولى لسوريا .. وقد أعلنت رسمياً بإعلان «الوحدة» ..
 فما الذي ظهر لنا من خلال هذه «الغزوة» ؟

ظهر لكل ذي عينين أن الذي أراد غزو سوريا هو للاستمر بل توارت الجملة
 وغرسا خلف أمريكا التي لم تتدد .. وأذاعت بيئتها الرسمى تهم فيه سوريا أنها أمست
 شيوعية حراء .. وتحشد على حدودها حشود تركيا وحشود نوري السعيد بوصفهما
 عضوين في حلف بغداد .. ولولا إصرار «ناصر» على أن يندود عن سوريا .. ولولا
 حبش «عاصر» الذي انتقلت قواته فضلا إلى سوريا .. لوقعت الواقعة .

فهل كنا نحن الذين نهدد الشقيقة بالثرو ؟

وثبت أن سوريا هي التي جاءت إلى مصر شقيقة لها .. بمد يد «الوحدة» إليها .
 وتصر عليها برغم معارضة «ناصر» ..

ولت أن «ناصر» وضع كل قواته ، وكل سلاحها رهن مشيئة الشعب السوري ،
 ومن قبل قيام الوحدة ، بينه وبين شعب مصر ، فهل كانت هذه البداية ، طليعة لإحاء
 حرمي حمل .. أم كانت طليعة لأمبراطورية ناصرية تخيلوها ؟

لئن كانت الإمبراطوريات تقوم على هذا اللون من الحب والإخاء والإيثار ..
 لصورنا الله للعالم كله أن تقوم فيه أمبراطورية من هذا الصنف .. ناصرية أو أمريكية ..
 أو روسية .. أو غبريتية يستوى على عرشها صاحب الجلالة ملك الجن .

وأخيراً

أخيراً .. تخل رأسى

واستقر فيه .. أن التفكير على هذا النحو — ودخل هذا «البيان» لآخر
 فيه .. ولا جلوى منه .. وقد يرضى لظن الرسمى .. وما أغتالي في الحقنة عن سوء
 الظنون ..

وطويت الصحيفة ..

ورأيت أن أجثد تفكيري ، حتى أخرج من سجنى ، إن كان قد قدر لنا ، أن نخرج
منه يوماً ، ومن يدريك ، لعله يكون قريباً ..

قريباً 1152

وبعد أسابيع ؟ أو شهور ؟ أم بعد سبع سنين ؟ لعله يكون قريباً ..

لم لا ؟ وأبناء البلد يقولون دائماً : « ربنا كبير » ..

وهو فعلاً كبير .. وأكبر مما تتصور عقولنا ..

ونشرت الصحيفة مرة أخرى .. « مفارش الحاجيات » ..

وبى بىزاي ، أن هذا الفصل يشكل للرحلة الرابعة عشرة فى موقفى من « الرجل
الذى تأمرت عليه » .

الفصل الخامس عشر

سمر .. من الليل

قلت في غرف الفصل الثالث .. أرى طوبى على مطلع القبر صحن وأوراق ،
وقررت أن أجد تفكيرى ، حتى أخرج من سجنى إن كان قد قدر لى الخروج ..

وايتمت عندما سر بخاطرى أن هذا الخروج (قد يكون قريباً) ؟

وأحب أن أسمر معك فى هلال هذا الفصل — بعض الوقت — وأن أستاذك
فى وقفة عند ذلك الظلم ، لترى كيف ينسرب نور الرجاء ، إلى ظلمة السجن ، أو إلى
قلب السجين .. حتى يقوى على احتمال للشقة .. حباً فى البقاء وشدائد الحياة ..
وتلك حكمة الله ..

والنور فى السجن نوران :

نور ينبثق من أعمق السجن كرد فعل لما يمانيه ..

ونور يتنل عليه ، من المحيط الذى يعيش فيه ..

وهو لا يدرك على التحقيق ، أى النورين يسبق أخاه أو يؤخر فى أخيه .

ومن النورين ، ترى السجن يقوى حرية السجن ، بأى أمل مصنوع ، أو بأى
خير مكتوب ، من غفوا مأمول أو إفراج قريب .

والسجين إذ يقوى حرية زميله بالأمل « للصنوع » ، إنما يرجو أن يعود زميله
إليه يوماً بأمل (غير مصنوع) ، يته هو الآخر فيه ، وهكذا تم المدوى وتنتشر ، وتلقى
(البشرية) فى سهولة ويسر ، كالزيت صديقاً بائى الخزال يريد من الضعف أن

يقض "قلت له جلاً : (محطك النهار ده ، أحسن من آخر مرة ، شفتك فيها) فيرد عليك راسياً وقد شد قلته : (وانت كلان ماشاء الله نتعامل الواحد بـسبتي .. ويمسك الخشب) .

وأقوى من هذا التشبيه بالحديث (الصحي) ، ومن هذا التسميم بموضوع (السدوي) أن أنتقل بك إلى التطبيق ، ليكون سمر ، ولتصني إلى بعض ما جرى معي شخصياً وبوصني سجيناً سياسياً ، حتى يتجسد أمامك اللقي الذي أرى إليه .

والسجين السياسي يمثل ظاهرة التنقل أكثر مما يمثلها « السجين المادي » الذي لا أمل له إلا في خور من نصف مدة العقوبة في عيد كبير كالعيد المأسر للثورة أو في حادث سعيد كمودة الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد يتقرر القفو .. ويخطئه إذا لم يشهد له « ملفه » أو « دوسيه » بأنه كان في سجنه « حسن السير والسلوك » .

أما « السجين السياسي » ، فإيكاد يصح تقديمه داخل السجن ويطلق السجناء السابقين ، حتى يحضروا إليه ويلبثوا من حوله ، ليؤكدوا له أن الأمر كله لن يحدوا أسامع وإن « تبهلده » وأنقل ، فيضمة شهرور .

وعلى الألسنة أو بين الأصدقاء قائمة ممددة بأسماء من سبقوك من الأتارب بتلوها عليك كأنها في كتاب ، فلا يلبث نور الرجاء أن ينسرب إلى قلبك من قبل أن تدعى بضع ساعات في سجنك ، أسماء من سبقوك إلى (التيان) أو إلى (سجن مصر) من السياسيين أمثالك جاءوا وعلى كواهلهم أحكام ترتد لحوادث القرائن ، وتترجع بين الإعدام — وذاك البقاء — وبين الأشغال الشاقة للزبدة ، وقل أن تجد من بينها حكماً خفيف النفل .. مدته خمسة عشر عاماً ، أولئك جميعاً لم يذهب أحد منهم إلى مدافن الإمام ؟! وإنما عادوا إلى حورم وكا يعود الكرام ، وبعد بضعة أشهر في الأمم الأغلب ، وأقلهم خطاً أنخل سبيله بد حدين أو علم ؛ أساء لا حصر لها بمضطوئها عن ظير قلب ، كأنها في قائمة كما قلت .. وبتلوها كما يتلو القراء السور : ابراهيم عبد الحادي وفزاد سراج الدين وإسماعيل المصنبي وإبراهيم فرج وكرم ثابت والله كتور الغنيب ..

وحسين سرى عامر، وعمود عبد الجيد .. إلى آخر القائمة الطويلة التي يختصونها باسم (الخامس) — وما أبدته من السيلة والسياسة .. ثم تبدأ الأحاديث عن اللصاحبات التي صاحبت كل إفراج ثم يقولون لنا أخيراً : (واوعدنا تسوا أن قضيتكم نظيفة .. لأن الرئيس ما يزطوش إلا القضية التي فيها اتصال بدولة أجنبية رى قضية المراهق أو فيها جاسوسية رى للمربين التي في قضية زاروب وسويندن) .

وزمالة .. السجن ؟

وعشنا في هذا الجو الجديد .. وتفننا فيه تنفصاً عميقاً .. عن الأمل الذي أرساه في قلوبنا « الزملاء » الجدد ، وليس أحرز على السجن من (زمالة السجن) ولعلها أشد رسوخاً في العاطفة — وبمحكم الحجة — من زمالة المدرسة وإن كانت زمالة للمدرسة أبعد جذوراً .

ولا يعب (زمالة السجن) إلا ضيف للمستوى المنطوق بين السجناء باستثناء القلة السكرية التي رمت بها الأقدار إلى هذه النياح ، وقد تخرج من سجنك وكل حلبة فيه كتحقق بالحب الحميم لكل سجين ، وقد يفتك أحدهم بعد الإفراج عنه — وقد تكون قد نبهت فيه كرك بفسه وتذكره — وتفرح ببقاءه ، وقد يكون في ساحة إلى العطف خفيض عليه من حطتك كل ما تحمله عاطفتك ، وغاة تكشف لك التجربة الحية من معدن خبيث فيه لا سبيل إلى استخراج الفرمته ، أو عن عصر من عناصر الجريمة لا سبيل إلى أن تطلب له ، أو تستبدل به سلوكاً طيباً آخر ، وقد تمتد يده إلى جيبك وهو حزين وتادم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هذه اليد ، لأنها في الحقيقة ليست يد الرجل الذي عطف عليه ولا يريد أبداً أن يمس مطلقاً ، وإعسا هي يد (القس) الرابض في أحاطة ، والقس الذي يجري مع الهم في عروقه ، والقس الذي يتردد مع الفؤاد في أغصانه .

وأحطيك مثلاً طريقاً ما دمت قد اتيت أن أسهر بعض الوقت معك .

كان من بين رفاق في السجن ، سجين متخصص في تزوير الشيكات على الأغنياء

وكان الشلب دمث الأخلاق ، حبيبا إلى كل من عرفه ، وكان يعمل في ورشة الأحذية في البهان فأنقذ هذه (الصنعة) ، وكان يمسدنا بأنقر الأصواع منها ويقبل ما تذفنه ولا يساوم ، وقد سجل أرقاما قياسية في العفة ، عندما كان يقوم عمية الرسيط بين السحاة من ناحية و (الأسطوانات للسكين) في الورشة من ناحية أخرى ، فكان ينفق مع (الأسطوانات) هل أن يحملوا رسائل (للساجين) إلى أهلهم ، وردود أهلهم عليهم ، ومع الردود كل للطلب من بن أو شاي أو ملابس أو خود ، لقاء (جمل معلوم) لحامل الردود .

وكان (مزور الشيكات) يرفض أن يتقاضى أى (أنتاب) من زملائه ، و يرفض أيضا - وهذا هو الأنجب - أن يقاسم الأسطوانات (أنتابهم) مع أن العرف في السجن أن يكون الأجر قسمة بين الأسطوى والرسيط ، وفقا لاتفاق بينهم .

وحان حين الإفراج عن زميلنا (مزور الشيكات) ، وخف كل سجين ميسور إليه ، بحسب رسالة إلى أهله ، ويثنى فيها على زميله حامل الرسالة .

ولم تمس أيام ، حتى اكتشف أصحاب الرسائل أن أخانا الذى ألف ، عاوده الداء ، بعد الإفراج ، ففسى الثقة ونسى الوفاء ، واقتتح عهده الجديد بالاحتيال على كل من حمل إليهم الرسائل ، وحصل من الأغنياء فيهم على مبالغ طائلة ، وأحذية فاخرة ، وملابس جديدة وبن وشاي ، وسوى وطعام ، وتوارى في الزحام .

مثل هذه النماذج المنحلة لا تعددها طبعاً إلا بين صفوف المجرمين أرباب السوابق وأولاد النحل داخل السجن أخلاقهم ، وكان التيار أقوى منهم ، ومعظمهم من أبناء القاهرة والاسكندرية ..

أما الفتنة — أخذنا بالتأثر — من صيد مصرور فيها فقدر أن نجد بينهم منحللا من هذا النصف ، لأن (الأخذ بالتأثر) يلهب في صاحبه - مع الأسف - شعوراً غير عادى ببرة الجريمة التى ارتكبها ، ومثله لا تعرف (الجلية) طريقاً إلى مشاعره ، ولا يتصرف إلا على مستوى (الرجوة) التى دفنته إلى الجريمة ، وهونت عليه العقوبة ، بل إن من بينهم من تمسكه الرغلة — داخل السجن — على أهل إقاليه كأكات

مقفودة الراء 4 - خارج السجن - على أهل قرية أو أهل قضاة ، ومثل مزل ، محسوب في السجن حسبهم .

زعامات .. وتصيب إقليمي

والزعامات خلف الأسوار عرف يحكم سلوكها ، وحدود لا تتخطاها ، وهي أشهر ما تكون بين أهل الصيد ، وأهل اللوفية ، فإذا تار خلاف بين (أسبوطي) و (متوف) غضب الصيد كله لابن أسبوط ، وغضبت (المتوفية) وحدها لابن (المتوفية) ، أما إذا تار اختلاف بين سوحاسي وأسبوطي ، غضب أهل محافظة سوحاج كلها لسوحاسي وغضب أهل محافظة أسبوط كلها للأسبوطي ، وهكذا يمشی الخط يضيق ويتسع لسكته لا يتوسى ، والمتصور الذي يحكمه « أنا واخوتي على ابن عمي .. وأنا وابن عمي على النريب » .

وكان طريقاً أن تدركني فضة - وبرضى - من هذه الفضاليد .

كانت قضيتنا تحمل طابعا سياسيا ولا تنفى لأى إقليم ... ولكنني فوجئت يوماً بزوار من المناير الأخرى ... جاموا للتسليم على ... بوصني (صيديا) مثلهم ... بل بالغ أحدهم في التحية - فانتل والدراني على - وهو رجل طريف ونحيف وله شارب . وبايئني بالتزمنة على أهل الصيد في كل المناير ... وحلت الأمر على محل للزح ولم أهره اهتماماً ... ولكن الأحداث نبهتني على خطورة الوضع فبهتهم على حقيقة وضعي تغلب أسلمهم في ... ومضوا بالرعاية يحيطوني بها كلها قتيهم بدرجة « سياسى من الصيد » .

وزعامة ناصر

وأعلن الآن - وبعد كل هذا السر الذي طلل - أني لم أكن أسلمر منك لوجه السر ... وإنما لأقول لك أخيراً ... أن هذا « التصيب الإقليمي » عند أهل الصيد لم يقف عند حدود الصيد ... وإنما زحف إلى « قصر القبة » في القاهرة لا يزال وضماً ولا شرعاً ... وزحف جبالاً ولم يهرل ... وزحف نحو « جبال عبد الناصر » فيه .

نعم ... قد تعجب إذا عرفت أن الزملة الفاسرية التي تنضوي الآن تحت لوائها شعوب المروية من المحيط إلى الخليج ... وتطلع إليها السيون السود في كل أرجاء القارة السوداء ... تعيق في « القباب » وتضيق ... حتى تكون وقتاً على الصيد ... وأحياناً على إقليم واحد هو أسبوط ... وأحياناً على مركز واحد هو أبوب ... فإذا حدث أن أظنت كلمة نائية من قم سبعين — سبلى أو غير سبلى من القارة أو الوجه المهرى — مد جلال عبد الناصر ... ثار الصيد كله وسمتهم في القليل وهم يصرخون في عار الحظ الذي « نبأ » : « انخس يا ولد الحروق ... ده جلال سيدك ... سيد التي فضك » ... فإذا قلت لم تهدي تاتهم مثلاً إلى جلال حبيب مصر كلها ردوا غاضبين (أسد الصيد بس) فإذا كان الذي « نبأ » من أهل سوهاج أو قنا ... رد أبناء أسبوط (ولد أسبوط بس) فإذا كان الذي « نبأ » من أهل أسبوط للدبة رد أبناء أبوب (ولد أبوب بس) .

وكنت أصحح بين المتشاكين من (الأساطة) وألزحهم وأقول لم ضاحكا : (أنا كلن مايش زعم ... غير ولد عامر ... لأتدياري نفود ماكر منهم (ما ترعلش قوى كديه يا بوى ... ما هوو جلال القنال سميتاه لكم عبد الحكيم ... اسكت بوى ولها ... دانت مقامك عندنا كبير) ويصفوا الجوويروفي .

عود إلى الدراسة

وأخرج من هذا (السر) الذي قضينا فيه بعض الوقت ... إلى جو جديد آخر . ولا أعلن أنك سبت هذه القبة التي تركتك فيها بعد أن انضمت قراري إلى إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ... بعد أن قررت تجسيد تفكيري حتى أخرج من سبني . وحلوت أن أبر بوعدي — أو أخذ قراري — وظلت بضع ليال ... أنتقل خلالها بين القرآن وكتب الدين وبين القمص وكتب العصر ... أو الجلات الإنجليزية التي كانت ترد إلى (الاستكفدي سوينين) رأس قضية الجلسوسية ، أو (اليهودي

ماير مايو حلس) أبرز شاب في قضية الصهيونية ... وقد لاحظت أن (ماير) يتجبر
لهذا به — في أغلب الأحيان — المحلات التي تحصل في صحتها أعنف المجرم على
ناصر ... ولا أنظما (الصلفة) .

* * *

وكان (سويتين) و(زارب) و(الصهيونيون الخمة) يهتمون بها ... ويمثلون
على توثيق الصلات بينهم وبيننا وكان الصهيونيون أكثر براعة في توثيق الصلات ...
فكبيرهم (ماير) إذا لاحظ مثلا أني أستغل ظل الأربعة الهالكين ... أو عز إليهم أن
يلقوا بقتلهم على غيري ... وانس وحده في التودد إلى ... حتى أتوم أن الأمر أمر
سب شخصي ... وليس أمر (تكتيك صهيوني) .

وكان الصهيونيون يكتفون من دهرنا إلى تناول النداء على (ماتنهم ١١٩) —
في الترفة النفسية التي خصصت لهم والتي اقتوا في تسيقها ومن بينهم مهندس أربع في
(الديكور) اسمه (ماير زعفران) جميل من الزنابة في ليا طرة (صالحون استقبال و
هيتون) — كما أسماها المرحوم اسماعيل طلست مأمور أول الأيمان وهو يفتشها ذات
مرة ويجهز على كل جمال فيها ويمسحها سوتها الأولى رزامة بين الزمانين .

ولم يكن الخمة يضيئون بأي متاعب تحط عليهم ... وسرعان ما كانوا يبيدون
(الزنابة) إلى (الميلثوية) من جديد ... غير آسفين على ما صودر أو بدد أو حطم
أو مرق ... وسرعان ما كانوا يعودون إلى توجيه دعوتهم لنا ... إلى تناول «النداء»
على «ماتنهم» ولا سيما في الأعياد واللوازم التي يسمح لهم خلالها — بأمر من وزارة
الداخلية — باستيراد ما يشاءون من خارج السجن من أغذية «نواثم تقاليد دينهم
ومطبوخة» وحلوى غير ما يحمله أهلهم إليهم في هذه الأعياد وهذه اللوازم ... حتى
لا يقال هنا أننا نحارب اليهودية كدين ... في حين أننا نحاربهم — فقط —
كصهيونيين .

* * *

وفكرت في هذا الاهتمام بنا ... وضاع صدري .

ولم ألبث أن رأيتني — على غير وعي مني — أخرج على قرارى — وأفكر من حديد فيها يخص السياسة ... وفيما عمت من قرب أو بعد إلى « الناصرية » و « ناصر » . وجدتني ذات ليلة أسأل نسي :

— هل ما يشرقي كصرى .. أن يرى هؤلاء الإنجليز والصهيويون في قضيتنا .. حمومة للناصرية تلتقي بمحسنتهم لها ؟ وأن يروا فيها هذه « الصلاحية » لقيام هذا « الرد » وينتقا ويقيم ؟ وإذا كنت قد سمعت لخصوم « ناصر » — قبل أن أسمن — أن يضلوا بي وأن يضلوا مني صديقاً لم وعدوا ؟ ... حتى تكلمت عليه ... وحتى أرسلوني إلى هذه السلاسل .. أنا سمح لاسكتلندي كوينتون ولطالبي كراب ... ولصهيويين كلير مايجوس وماير زفتران وروبير وفيليب وخمس نسيت اسمه ... أن يضلوا مني صديقاً لم ... لأنني خضعت لناصر ؟ ثم لم لا يسلون إلينا من « الأخبار » — نقلاً عن كبار زوارهم كالقسيس أو القنصل أو كعضو مجلس العموم الذي كان يزور سوينتون وزارب .. كلما قدم إلى مصر وقابل عبد الناصر ليتوسط في الإفراج عن السجنين — إلا ما يدل على قرب روال ناصر .. وأنا تكلمت على ناصر لينزول ... ألبس معي هذا التواضع أن أمانى — كصرى ومهرى — هي نفس أمانى سوينتون وزارب وهي نفس أمانى أعضاء شبكة التجسس الصهيونية للطيرة ... التي أعدم منها واحداً ... واتصر آخر ... وقذف بثالثة إلى سجن النساء في القنطرة . وحيء بالخدمة الباقين إلى القيان ؟

وشعرت بشيآن نسي ... يلزمه شعور آخر بالمرارة ... والمخافة معاً ... ورأيتني أسأل نسي مرة أخرى :

— ألا يكن زحف هؤلاء الجواسيس السبعة من خصوم « ناصر » إلى لكي أدنو أنا من « الناصرية » ؟

وتنهت ... وانجست ...

ذلك - إذن - نبع جديد من ينابيع التحول ... وسلم جديد على طريق ...
ومين عزيرة ... وثرة ... بالتور وبللداية ... تضجر اليلة داخل قلبي ... أترامنا من السماء
هبة ... أم رملنا من الله هدية ؟

وتخايل السؤال أسمى ولم أجب .

وقلت أصف نفسي : ما أزال أردد . . حتى حيال هذا الشعور ؟ وحتى أمام
هذا المنطق ؟

وهزرت رأسي أسفاً على نفسي ... ثم عدت فأبيت أن استسلم لقرود ...
واستأنفت تفكيري ... ودرحت أقول :

- الأمر واضح ... أما « وقائع » تطغى « حقائق » فلماذا أتهيب
مواجهة الحقيقة ؟

وخفت أن أضف فتاوت قلبي - وكنت قد أعددت « كراسات » أفيد فيها
ما يمن لي أن أفهمه من خطرنا نفسي وروايتي أكتب ما يأتي :

- كل ما يرضى هؤلاء الأبناس ... يجب أن ينضبنى .
- كل ما يفرح هؤلاء الماكيد ... يجب أن يعزنى .
- كل ما يرجونه من الشيطان ... يجب أن أرجو من الله شهوته .
- كل وجه يطالبهم من الأحداث ... يجب أن أطالع من الأحداث
الوجه للضاد .

على هذه الطريق أمتنى ... إذا أردت ألا أضل طريقى .

وعلى هدى هدى للقياس السلم ... أستطيع أن أعدد مكافئ ... وشررت
بالراحة ... وأقلعت عن فكرة التجديد ... ونمت .

وق نومي بدأ جهاز التفكير يعمل .

وخطر لي ... أن وجه القرار مغنى من أحد جانبيه ... وأن لهذا الوجه جانباً آخر لم أحاول أن أخضعه إلى جانب أخيه ... لأرى الوجه على الطبيعة ينسره الضوء .

يجب أن أحب « ناصر » لأن « الجوليس السبعة » يكرهونه ؟

جميل .. ولكن أجل منه أن أجعل « ناصر » نفسه موضوع بحث مستقل عن عاطفة الحب منى .. مستقلة من عاطفة الكره منهم .. حتى أتقنع أن ناصر - كقائد - أهل للحب كجندى .

ويكون السؤال الذى يجب أن يوجه الآن هو :

— من هو جمال عبد الناصر ؟ ^(١)

وذكرت مرة أخرى كتاب « فلسفة الثورة » ..

وجهت كيف صيرت به كرمياً — ذات سرية — ولم أحاول وهو يؤرخ لنفسه فيه . ويقله ، أن أحكف عليه دراسة وتحليلاً . . وأن أقرأ فى أثناء سطوره ما لم يكتبه بالحرى .. وأنا مؤمن — وهوائى للقضية دراسة الشخصيات — أن خير امرأة يمكن أن أرى فيها أى شخص . . هى المرأة التى وضع الشخص نفسه فيها ويبدع . . وسها يمكن نصيب الوضع الذى تخبره من الصدق أو من الزيف .

وصح عزمى على أن أحصل على نسخة من هذا الكتاب عن طريق طبيباً وضابطاً .. إذا لم يمكن فى مكتبة للبيان . . وأن أحصل منه على كل ما يمكن الحصول عليه من الكتب التى تضم خطبه وأحاديث وتصريحاته وبياناته .. ومن خلالها أيضاً .. أستكمل ما عسى أن يوزن من حقائق هذا الرجل . . وفرصة السجى وسكوته « قد لا تنموس

(١) من عيائب المصادقات أن الأخط — وأنا أكتب هذا السؤال — تتلا من أوراق وكث أغلب ماطلع من ملازم الكتاب بين يدي ... من عيائب المصادقات أن الأخط أن وصحت السؤال شبه إلى قسيسة « نعمتنا بيت لى أن ناصر ليس وفدياً ولا لحوائياً وليس حيويماً ولا أمريكياً خلقت بالحرى » وهو إذن جمال عبد الناصر فقط .. فى هو إذن جمال عبد الناصر ؟ .

كبر... و « الليل » في « زناتى » بالنسبة لهذه المرأة التى استقر رأيى على أن
أبدأها .. يشبه في ميزانى .. « الليل » الساكن .. بالنسبة « العالم المتفرغ » .

ولا بأس بازدياد شغفى في هذه الفتحة .. فأحاول في الليل أن أجد نغضى ..
وأن أعدما لئلا إن كان لها غد .. وأحاول في النهار أن أرتدى « ثوب قضيق » وأصغر
إلى كل حديث .. وأسأير كل حكيمة .

نجدة .. ومن الصحافة ١٢

وكان سرهفى . لم نشأ أن نتخلى عنى داخل سجنى بعد أن تحمل كل الناس منى
مذ سجت .. وعلقت عناية الله بتحقيق لى الأمنية . وتفردى من « مكتبة البيان » مكاناً
أواصل فيه بنى .. سب « مهمة صحفية » طلب إلى مدير البيان أن أقوم بها ..
ولاسيل إليها غير « المكتبة » .

• • •

كان الأمير الالى السيد والى — المدير المهيوب لمنطقة البيان يومئذ — يود
لواستطاع « البيان » — على جلالة ١١٩ — أن يصدر مجلة خاصة به تنافس « مجلة
السجون » التى كان يصدرها محمود صاحب (مأمور سجن مصر في ذلك الوقت) ،
وكانت المجلة قد أحررت تقدماً بثير الميزة صلا ، وكانت اختصارها تذييل دائماً بتوقيع
المدير العام لمنطقة السجون ، وكان « محمود صاحب » قد رقى في تلك الأيام نائباً للمدير
العالم للصحة وأصبح « لواء » .

ولاحظ « السيد والى » أن أمامه — بل « تحت إمرته » — وزيرين سابقين
وكانتا من الكتاب كان يوماً يصدر صحفاً ، و « شاباً » كان يوماً يعمل في الصحف ،
والفرصة إذن مهيأة لإصدار مجلة لبيان ، تصرع « مجلة السجون » .

واتصلوا بنا ، وتباحثوا معنا .

واحذر عبد الفتاح حسن : بأن « القانون » صناعه وليس « القلم » ، والحقيقة

أنه احتذر لأنه يرفض أن يجمع بين « الشب » عمل - ورحبنا نحن الثلاثة ..
وشرط اتان منا (صلاح الدين وأنا) أن توقع مقالاتنا بتوقيع مستعار ، وقبلوا الشرط
آسفين ، ومضينا - وصلاح محبى قديم وكاتب - ندد لمدة مخلصين أو كالمخلصين ،
والحقيقة أن صلاح الدين وحده كان هو (المخلص) للمهمة - كما دته إذا هو أعطى
كلمة - أما (الشب) فأخلص لها لأنها كانت تعنيه من صعود الجبل ، أما أنا فأخلصت
لها لأنها كانت تفتح لى قضاء اليوم كله فى مكان مريح أجده فيه مراجبى فى موضوع
ناصر ، وبناء بى من (متاعب المنبر) ، وتوفر لى قدساً من الشاى أو القهوة المنوعة
يحيطنا بهما من البوفيه ، العابط المشرف على المكتبة أو أى مسئول آخر .

• • • • •

ودع عنك مصير الحلة ، فإنها لم تر النور قط ، وما كاد الضابط المختص يطوف
مطابخ القاهرة ويحمل نتائج (المناقصة) حتى فرغ المدير من (البلغ المطلوب) وعمل
من الفكرة ، وتركوا يتردد على (المكتبة) ولم أعلم بهذا التداول ، إلا بعد أن صدر
عدد جديد من (مجلة السجون) ورأيت فيه مقالا لى منشوراً فيها كفت قد أعدته
للمجلة الغيان التى لم تصدر ، ولم يحل لى هذا التلمس إلا (محمود صاحب) نفسه عندما جاء
المهاجر فى محبة المدير العام فيها يسوءه (التفتيش السنوى) وتبقى محمود فى حديقة القسم
الطهى (وهو صديق لى مذكأن طالباً فى مدرسة البوليس أيام عزير المصرى) وقص على
كيف أنه رأى للواد التى كانت قد أعدت للعبة التى لم تصدر فوجد المقال وعرف أنه
لى قنشره فى محله ووضع اسمى فى ذيله وعلى غلاف العدد .

دع عنك مصير الحلة إذن ، والذى يهم أن المكتبة طونفى على المطالعة فترة من
الزمن ، ثم عدت إلى (المنبر) أنقضى فيه النهار كما يقضيه كل سجين ، فإذا جاء الليل ،
بدأت أقرأ كل ما متصل إليه يداى من « ناصر » .

والأحلام والطوابع ؟

وحق تحى - نمار هذه الدراسة فى الفصول القادمة .. يطيب لى وأنا أنختم هذا
الفصل الذى ماض بهذه النماذج من ألوان إنجليزية وصهيونية .. وصحية .. يطيب لى

أن أرم جانباً آخر من الصورة أسميه « الأحلام والطوابع » بعد أن حدثتك عن
الأمل المصنوع الذى يشبه كل سجين فى قلب زميله .. رجاء أن يعود إليه بأمل غير
مصنوع .. فى إخراج قريب أو فى إخراج مأمول ..

و « الأمل المصنوع » قد يكبد صاحبه جيلاً .. أما الأمل السهل الجليل .. الذى
لا يختلج حادثاً سيئاً .. ولا عيلاً .. ولا يكبد جهوراً .. وهو يتجدد تلقائياً كلما حاول
صاحبه أن يمدده فهو هذه « الأحلام » وهذه « الطوابع » .



وأول قطر من هذا الثيث .. انهمل علينا ذات صباح .. بحث فيه أبواب
الغرف .. وأقبل المراء يقفون علينا تحية ذلك الصبح .. ورأينا عملاقاً صم الجثة ،
هرىض للسكين ، خفيف الظل ، يتقل من يديه فيها يشبه المارة والسجناء فى أثره ..
كأنهم فى مظاهرة ، وصوته يشبه إلى آذاننا مجلجلاً فى فناء المنبر وهو يصيح « على »
الطلاق يا بائعات .. أتم مروءتين بعد شهر . شهر واحد .. على « الطلاق » .

وفرعنا من الفرحة .. ومن قبل أن نهبأ .. ثم سيطرنا عليها لتستبد رباطة الجأش
وتسأل باسمين : « إيه الحكاية يا على » ؟

وكان أحونا هذا هو « على حسين » المتهم بقتل للرحوم عبد القادر طه والحكوم
عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة من سنة ١٩٥٢ وكنت أعره من قبل أن يسجن وكان
يخصنى بنصيب أوفر من وجه وجهه .. وهو مشهور بالانطباع المشبوب وبالتهور فى كل
ما يقول وكل ما يفعل .

وأسر الأمر كله عن « حلم » رآه لنا فى نومه .. وعمرنا « الفرق » .

ولكن العجب أن للسجونيين احصوا بالحلم .. وأرسلوا فى طلب إحصائين من
« وكلاء ابن سيرين » فى تفسير الأحلام .. فجئى بهج من السانير الأخرى وقص عليهم
« على حسين » رؤياه .. وفسروها بما وافق هواها وهوله .. وبدأوا يذكرون لنا أسلاماً
سأيرت « اللبان » عن تاريخه .. تتنأ عين السكين « سيجبوند فرويد » وتنفه رأيه

في نسبتها إلى الرغبات للكيونة فيها .. وتروى كيف رأى (فلان) السياسي (فلان) حلقاً تحقق بعد أن رآه (الحلم) يوماً واحداً .. وكيف وكيف ؟

وأذكر كنا من تلك الساعة أن الأحلام تلبس دورها الخطير في السجون .

وأشدّ عجباً أن تنقل — على الأليم — إلينا .. فلماذا رأيت عرفة عبد الفتاح حسن منقطة من الداخل .. وقيل لك أن فيها عبد الفتاح والسودى فانهم .. ولا تخرج .. أنه كان يقص على (رؤيا) حبيبة رأها .. ويطلب إلى .. أن أطوى صدري عليها . وبدأت السدوى نزحني إلى منصف .. فأحلم .. ومع الصباح استقبل (الزملاء) المدين (سطوا) لي .. وقد أعددت (كراسة) .. أسجل فيها كل ما جاء الليل .. كل ما كنت سمعته في النهار من أحلام المفلولين .. وكل ما كنت أراه في الليل من الأحلام ..

أما (الطوايع) — بكل فروصها — من كف ورمي .. وراية وفك .. فهي في المكان الثاني بعد (الأحلام) .

وقد ارتج (الليان) يوماً (لثأ خطير) مشى بين طرقاته . ذلك أن سمعنا كان في (سجن مصر) تحت المحاكمة بتهمة تزيف النقود وحكم عليه بالأشغال خمس سنين لجنى . به (اليوم) إلى الليان .

— وماذا في هذا الدأب أيها الزملاء ؟

قلنا إن أختنا السجين الجديد .. يؤاخي الجنى .. وقد صنع في (سجن مصر) الأهاجيب .. وطالعه لا يجيب .

وأرسلنا في طلبه .. وبذلنا جهداً غير هين حتى أذن الأطباء في شفه إلى هنريتا في طابق تحت طابقنا بعد (مستشفى) .

ورأى لنا الزميل طوالتنا ، وسعد أياماً للافراج عنا ، بعد أن حدثنا حديثاً عجيباً عن طوايع رأها للشهيد في قضية مدير البنك الصناعي ، وتباً بالبرادة لأحدهم —

وهو محمود حنفي صاحب إحدى شركات الملح - والسجن للآخرين ولم يكن الحكم قد صدر بعد وطلب أن تنتهيه امتحاناً لقدرته .

وانتظرنا الحكم ، وكان قد تمجد موعد التطق به .

وصدر ، وكان أخونا لم يزل مقياً بيننا ، ويرى محمود حنفي صلاً وحكم على الآخرين ، وارتفعت أسهم «المراب» الجديد حتى هبطت بسببها أسهم كل «المرابين» في «روايات شكبير» .

وأعترف أنني عشت أنتظر - ماهايم - اليوم الذي حذده أخونا للإفراج هنا لأن الذي حذده له صاحب الجلالة «حربط ملك الجن الأحمر» وهو ميه الذي قضى لحنفي بالبراءة .

وجاء اليوم ولم يفرج عن أحد منا ، واعتذر أخونا خطأ غير مقصود وقع ، ثم قل «مطام» على يوم آخر ، وطلب كل يوم حذده ، وكان ظريفاً في شخصه لم تنق بأكاذيبه ولم ينزل عليه بسطف .

هذه صور باحة ، استخلصتها لك من السجن القائم ، ومن حلف أسواره الرهيبة قبل أن أستاذ التفكير الجاد في «ناصر والناصرية»

وفي ميزاني أن هذا الفصل يشكل للرحلة الخمسة عشرة في موثقي من «الرجل الذي تأمرت عليه» .

الفصل السادس عشر

الوحدة .. والحياة .. والعودة

أشعر أني نثرت دهور التفكير في فناء الزاينة الساكنة .. وهبر لياليها الساحرة ..
من غير أي تنسيق بينها .. ومن غير أن أحاول أن أقدمها لك باقة إثر باقة ..
والأمسكار كالزهور . وليس بكسب أن أملاً لك جذبات الفرفة أربحاً وإنما الكسب
أن تعرف أوضاع الزهور حتى تفرق بين البالي منها والرحيمس .. وحتى تشتري ما يرضى
نوفلك وترفض ما لا يرضيه .

ولقد وقفت بك - مد سمر طلال في الفصل الأخير - عند عزم صبح على أن
أعرض لاسر معه بالمراسة والتحليل . وقبله وقفت بك عند الوحدة التي أعلنت بين
مصر وسوريا وحدتتك عن عر حتى الطافية بالخطاب الذي ألقاه الرئيس عن هذه الوحدة
في مجلس الأمة فجاء دستوراً لالتجاهات الدوة الطلبة التي قامت على كل المستويات ،
 وحدتتك مشدوداً إلى « ناصر الصيدي » عن تقاليد الصيد في الليان .. وحدتتك
مشدوداً إلى الأمل في الإفراج القريب عن صور باصة من « الأحلام والطوالع » ..
 وحدتتك عن جهود لي في مكتبة الليان .. وخدمات قفصها لنا أطباء وصباط ..
 واجتمع عندي ثماراً لهذه الجهود .. كتب وصحف وحطب وبحوث تختلج منها أدوات
لمراستي وتحذت من كتاب « فلسفة الثورة » . قاعدة لهذه المراسلة .

وأرى أن الوقت قد حان .. لأن أسبق . كل نوع من الزهور في باقة خاصة .

والسير الطيبي أن أعود إلى موضوع الوحدة .. ثم أتب منه إلى « فلسفة الثورة »

ثم انتهى إلى الصورة الأمنية للرجل الذي استغنى على .. ثم أُلحِد مكاناً من الرجل وأدعو الله ألا تطلقني من دول العروبة أحدث جديدة تنوق هذه العروسة التي صحت عزي عليها .

* * *

وقد عشت فيال الوحدة — من أول فبراير إلى الثاني والمشرين منه — فوق موجة عالية .. من الفرحة الطاغية بهذا الحدث الكبير .. فقد كان لي مع « الوحدة » تاريخ كما كان لي مع « تحديد الملكية » تاريخ .

وأخشى أن أقتل عليك .. إذا أنا قلت لك .. قرأت كاملة عن كل كتاب من كفي الثلاثة التي أصدرتها خلال عشرين عاماً تؤيد هذه الحقيقة ..^(١) وحسي هذه السطور من كتابي الثاني الذي أصدرته في سنة ١٩٥٤ « ملكة في اليزان » وكنت قد تخطيت به حدود مصر إلى صميم العروبة فساءلت إن كان من حق أن أعيد سؤالي القديم^(٢) فيزيه الجديده ثم قلت بالحرف الواحد :

(وجوابي أيها الرفاق .. أني أرو من سنين وسنين .. إلى أمنية كانت تبدو للكثيرين بعيدة المنال .. وكنت أراها بين البصيرة مقبلة في الطريق .. تحجبها عن العيون طبقة من السحاب غير الطيبي .. صنعتها بد للتصمر .. ولم تصنعها يد الله .. وعينت بالأمنية « الوحدة العربية » .. عتيها مفهومة ومدروسة .. في ولايات عربية متحدة) .

هذه لغة قصيرة .. من كتاب واحد .. أتخذ منها « شاهد إثبات » على أن الوحدة العربية كانت هدفاً من أهداف من عشرين عاماً .. وأن هذه الوحدة كما تمنيتها وعملت لها — ولايات عربية متحدة — كانت الحلم الذي راودني من أيام شبابي ولا يكون

(١) يرد المؤلف عن استعماله لإهداء نسخة من كل كتاب من هذه الكتب لكل قارئ طلبها من سوان مكتبة ٣٥ شارع جلم الاسماعيلى بمصر لاذا اوقى بالتأخرة .

(٢) يشير إلى أن الذي قلته في سطور من كتابي الثاني كان قد حله كتابي الأول « الزمان في اليزان » بسنة أخرى .

عجيباً — إذن .. وأنا أرى « ناسر » يرمح الجولة الأولى في حلقة الصراع العربي حول الوحدة العربية ... ثم وأنا أرى الجولة تتبدى أمامي « وحدة اندماج » — لا وحدة « ولايات عربية متحدة » كما تمنيتها ... لا يكون عجيباً أبداً ... ولا يكون محل تشكك أبداً ... أن أصبح فوق موجة عالية من الفرحه الطفلية بهذا الحدث الكبير .

فرحت بالوحدة إذن بين « مصر وسوريا » ، وأدركت — كما لم أدرك من قبل — أن ساعة التبعث التي تطلع إليها أجدادنا قد حانت — كما قال جمال — وأنه قد كتب بليلنا بعد ليل طويل أن يشهد مطلع صبحها — كما قال جمال — وأن الذين تحملوه في المي قد أصبح واقفاً — كما قال جمال — وأن الذي نصبت للمشاق فحول دونه قد أصبحت له وحدة قوة القانون وقدرته .

وفي إحدى الليالي التي كنت أعيدها كل ما قلته « جمال » عن « الوحدة » رأيت يدي تنسل إلى كراسي بيضاء تحت الوسادة ... وإلى قلم رابض فيها ... ورأيت القلم يجري — وكأن يداً غير يدي هي التي تجري به — ويكتب الأسماء الثلاثة التالية :

١ — ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

٢ — ماذا صنعت بنا الأحلام التي رؤيت لنا خلف أسوار اللبان ؟

٣ — ماذا صنعت لنا الرسائل التي كنا قد تلقيناها من الأهل والإخوان من خارج اللبان ؟

وتنبهت .. فكففت يدي عن الجريان .. وهجبت لهذه الأسئلة الثلاثة غلبها على قوة حية لا أستطيع لها دفعا .. وفي الساعة التي همست بأن أسعد فيها بالتفكير في الحدث الكبير الذي تم .. فهل تُرى ما يزال شيطاني القديم يطاردني ؟ وهل تُرى ما يزال مصراً على أن يحكم صفوي .. كما رأى لهذا الصفو ظلاً يقرأ على قسائني .. أوقباً يضيء في حق ؟ ثم ما هو سر دغثته في أن يهبط بي من البحث في الوحدة

على « مستواها الحزنى » .. إلى البحث فيها على « المستوى الشخصى » ، فبدأت
« ماذا صنعت لك الوحدة .. بوصفك سجيناً ؟ »

وقلت وكأنى أتحدى شعماً آخر يجلس إلى جولرى :

— سم أقبل هذا التحدى وأبحث معك موضوع هذا السؤال ولا أروع من أى
حقيقة .

ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

وقلت فى صراحة أجيب :

— لم تصنع الوحدة لنا — نحن أبناء « المؤامرة الكبرى » — شيئاً .. وكنت
أحب لو أنها صنعت .

وعند هذه الإجابة رأيت القاكزة وقد عادت لى إلى شائنة جميلة وقديمة — لمك
تذكرها — كانت قد عبرت إلينا قضبان « السجن الحزنى » يوم كسا « ضيوفاً »
عليه .. وكانت الشائنة تقول إن الرئيس قرر الإفراج عنا وحفظ القضية — وحدثت
الشائنة فى ذلك الحين يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ أو اليوم التالى له موعداً للإفراج هنا .

وتحقق الشطر الشكلى من الشائنة فخرجنا من « السجن الحزنى » فى ذلك اليوم
فضلاً ولكن إلى أبع له هو « سجن الاستئناف » لا إلى بيروت كما كان الشطر
للوضوحى يقول .

وحدثت بالقاكزة أيضاً إلى « سجن الاستئناف » وقد أدركتني فيه ذبول تلك
الشائنة فقد كان لهذا السجن — يوم عُقلنا إليه — مأمور اسمه « بهجت » ظل معنا بضعة
أيام نقل بعدها إلى المديوان العام .. سداً أن لمب دوراً يخص « الشاب » لا محل له فى
هذا الفصل .

وكان « بهجت » فارح المود .. مبسوط الأسرار .. دمث الأخلاق .. وذات
يوم كنت أكتب خطأً لأسرتى .. فى مكتب ضابط .. فى حجرة خالية .. من

بين غرفات الممر الذي هم فيه .. أرشدني إليها للأمور .. وبناء رأيت أمانى ..
فنسلم لطلاب من ليتولى « تصديره » .. وبدأ بمحاذاة أطراف الحديث ثم طأطأ
بقوله إنه كبير الرجاء في براءتنا .. فلما سأله عن أسباب رجائه قال إنه يعلم علم اليقين ..
أن الإفراج عنا كان قد تقرر لولا « حادث الإخوان » .. وسأله عن هذا الحادث
فدهش لجنلي وقال : « حادث الهيان .. ألم تقرأ البلاغ الرسمي عنه في المصنف » ؟
قلت : « لا » قال : « إن الإخوان الموجودين في لبنان طرد .. أخذوا قهراً افتتاح مجلس
الأمة شعباً خطيراً ونمردوا على قوة الهيان ووقعت اشتباكات دامية يؤسف لها .. فنضرب
الرئيس ولم يجد الجو مناسباً للإفراج عنكم » .

ذكرت يومها (شائمة السجن الحربي) - بيبي وبين نفسي - ولم أحدث
للأمور بها .. واكتفيت بأن أقول له : (والله يا سيدي .. لو كانت النية متعبة ..
لتبرئتنا .. لما قدمنا للمحاكمة) وصحك الرجل وقال وهو بهم بالاحصاف (يا أخى ..
ربنا كبير ، وما فيش شيء كثير عليه أبداً) .

وأعود بك إلى الهيان ، مرة أخرى لا أراكه الله إلا مسطوراً فوق الورق .

أعود لأعيد القول : إن الوحدة لم تصنع لنا نحن أبناء للزلمة شيئاً وكنت أحب
لأنها صنعت ، وحادث الإخوان أسمى (تاريخياً) ، ولبلو أصبح بالوحدة جيلاً ،
والحاكمة تمت ، والعمو في مثل هذا الموقف يبلى من شأن صاحبه ، وأنا أزعج الآن
بساطتي إلى (الناصرة) ، فلماذا لم يفعلها ناصر ؟

ولم أشأ أن تحق مشاهري في طريق تحول قلقت نفسي :

- إنه - على أي حال - يملك من عناصر الموقف ما لا يملك .. وهو أقدر
على وزن الأسر ونتائج قتل له عدواً .

ماذا فعلت بنا الأحلام؟

وعاد شيطاني بضحك مني ووجدني وكأنما يباينني .. ويقول :

— ندع الجد قليلا ، ونهزل ، ودعني أسأل : والأحلام ماذا فعلت بكم ؟

والحقيقة أن السؤال لم يكن هارلا .. لأن قصة الأحلام التي رآها لنا الخللون .. بلغت حداً .. جعلها لنا شغلا شغلا .. حتى أجبز نفسي أن أتجاسر وأعلن أننا آمناسمها وبسببها — ونفسيراً لها — بأن الإفراج عنا بات وشيكاً .. فلما أعلنت الوحدة في أول فبراير أحجم «الفسرون» في مختلف «المنابر» على أن يوم الإعلان «الرسمي» للوحدة هو يوم الإفراج القملي عنا .

وأعلنت الوحدة «رسمياً» .. وأفرج فضلاً عن سجناء عاديي من الفئة الذين أمضوا نصف مدة عقوبتهم .. ولم يخرج عن «الباشوات» !! ؟

وسفرنا بالأحلام .. وسفحتنا «الخلالين» .. ومرت خيبتهم أنما سينتج في نفوسنا .

ولكن «السجين» لا بد له من «حلم وحالم» ، ولا بد له أن يحلم لنفسه أيضاً .

وعدنا نولي «الأحلام» بعض «احتراسنا» بعد أن أكد لنا «المارفون» !! « أن «الحلم» لا ذنب له .. وأن القنب ذنب «الفسر» .. عدنا نبحث عن «مفسرين جدد» .

ولكن «الحقائق» الجديدة كانت قد بدأت .. فرحنا تنطلع إليها .. تنطلع إلى عيد الثورة السادس في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٨ ، وهكذا تنظّل الأحلام — في النوم واليقظة على السواء — تنظّل بالسجين من مَلم إلى مَلم .. ليقوى على احتياال الحياة .. وتلك حكمة الله .

وماذا فعلت لنا الرسائل؟

أما قصة الرسائل التي كنا نكتفلها من الأهل والإخوان من خارج البيان فقد تداعت إلى رأيي تلقائياً ولم تكن في حاجة إلى شيطاني .. لأنها حقائق لا شأن لها بالمفسرين .. أو الوكلاء للفوضين من « العلامة العارف بالله محمد بن سيرين » .

كنا قد تلقينا من الأهل في الزيارات ، وعن بعض الأصقاء في الرسائل أنباء تؤكد أن الإفراج عنا قد تحرر — وفي بعض الروايات للترزة « بات مأمولاً » — وكانت هذه الأنباء معزوة إلى « مصادر عليمة » ، وكانت تملأ قلوبنا بهجة ، لأنها قائمة على واقع ومنها على سبيل المثال ، أن ابن أختي الذي سبق أن أشرت إليه كان قد انتهى إلى « ، أنه كتب بهي — وبخطه هو — بعض الخطابات لمصنفين لم سكانهم وكان يعتقد أنهم من خلص أصدقائي ، وأن « أحدم » — وله خطره — أكد له نيا الإفراج عنا في عيد الوحدة أيضاً .

فلما جاء عيد الوحدة ولم تتحقق الأمنية ، جاءت هذه الخيبة الثالثة ضننا على إجابة .. كما يقول العرب :

وهذه هي الإجابات الثلاث على الأسئلة الثلاثة .

أطراد الدراسة

نفهم من هذا كله أني كنت فرحاً بالوحدة ، ولم يمكر فرحى غير هذه « الخيبات الثلاث » ، ولكن حزبي كان قد صح على دراسة « ناصر » كالتت ، ومن يومها لم يهتز هذا « العزم » في يدي ، وطلعت أبداً مصرأ على ألا أبرح سجنى إلا كافرأ كامل الكسفر .. أو مؤسماً صادق الإيمان .. وأكرر دعائي لله ألا يقع من الأحداث ما يؤجل هذه الدراسة .

عود إلى الوحدة

وطدت إلى « قصة الوحدة » من قبل أن أعود إليها .

عادت إلى .. عن طريق الصحف التي كانوا قد بدأوا يرحسون لنا بلا اشتراك فيها وعن طريق أهلنا وعن طريق (الجهاز الإذاعي) الملقق في الصلاة على مرمى أمتار من غربتنا .

ولقد تنبعت باهتمام كل ما كان يكتب .. وكل ما كان يذاع .

واستمتت إلى هتاف الشعب السوري لناصر .. وكان قد سافر إليهم غذاء موره في الانتصابات التي جرت في مصر وسوريا .. وثار فيها بالرسالة بما يقرب من إجماع الشمين .

وكنت أعرف أن الشعب السوري لا يزال - كما كان - من حيث الحساسة والحراة .. حليل القربان من بي حبلان ، كذا كتب أو خطب ، وكلما استقبل أو ودع .. وكلما سلم أو حارب ، ولكن الذي لم أكن أعرفه - ولم أكن أتوقه - أن تبلغ به حماسة الحد الذي قد المديح إلى أذني هتافاً .. وفكته الصحف إلى عيني صوراً .. حد الجنون الذي لا يكاد يصدق . جنون السحائر والشيوخ والأطفال ، قبل جنون المشايخ والشبان والرجال .. حد الجنون الذي يستحيل أن يتحمل ولو استقر له الشعب كله .

ولست أدري لماذا طالتني من خلال الماضي ، صورة من أيام الحراسة ، صورة « لقاء » لم يبرح ذهني حتى اليوم ، لقاء بين شعب مصر الثأرو « سعد زغلول » الزعيم ، وكان يومها عائداً من منفاه نحو وطنه فلوب الشعب وترعاه ، ولكن (تلك) كانت « ثورة شعبية قلمية » تفرغ كل « طاقاتها » وكل « إرادتها » في استقبال زعيمها الشيخ ، أما « اللقاء » بين « ناصر » و « الشعب السوري » ، فلقاء الفرحه للسالة ، ولا يحتاج أمر الفرحه إلى كل هذا المديح ، فلماذا يَستَبي هذا « المديح » - إذن - أو ماذا يسمى هذا « الجنون » ؟ ، يعني أن سوريا ترفض إلا أن تفرغ « نفسها الثوري » وطاقاتها

ولادتها هي الأخرى ، في استقبال زعيمها الشاب وعلى هذا النحو التلويحي للذئب ' ابقى حيل لي والرايو ينقل « أعداء » إلى ... أن جدران « الايلان » توشك أن تنقص .

وكان « جمال » صادقاً — إذن — عندما قال لم في أول مقطع من أول خطاب ألقاه عليهم بعد وصوله إلى دمشق : « إلى أشتر الآن وأنا بيسكم بأسعد لحظة في حياتي » .

• • •

ومضت الخطب الناصرية .. « شمعية » .. وعلى مستوى « النخبة » في يومها الأول والثاني ..

ولجأة — وفي السادس والعشرين — وقف « حال » في دمشق على « قبة موجة جديدة » تبتدئ إلى الأذهان ، تلك الموجة التاريخية التي ركب قتها في القاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقف يهاجم بغداد ، ويهاجم أوكار الرجعية في كل مكان ، ويشنها حرباً لا تعرف المهادنة على كل رأس يحمل ذرة من خيانة ، كما أعلن أنه يساند الشعوب العربية كلها وفي غير خفاء ، ويتحدى الاستعمار وأسلانه وأعوانه ، وأعلن أيضاً أن « حلف بغداد » استثمار حديد تحت شكل حديد .

• • •

وكان وزير خارجية العراق قد هاجم الوحدة ، وكانت العراق قد ألزمت مع الأردن (اتحاداً هامشياً) ، ضحك منه الناس في كل مكان ، ولكن ناصر لم يضحك بل غضب ، وتحدى هذا الاتحاد أن يبقى ، وأكد أنه سدا لم سيندو (هشياً تفروء الرياح) .

وأدركت أن القائد الشاب بدأ يصنع خاتمة الخطب التي كان قد ألقاه على النواب موصع التنفيذ عندما وصف الجمهورية العربية بأنها دولة (توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر المديق ، ترد كيد العدو)

نذير

وفي اليوم التالي — أى في السابع والعشرين من فبراير — سدد ومع الوحدة إلى صدر أعدائها و بالأسماء وفي غير خفاء قُتل السوريون على مسمع من العالم :

« لقد قام سمير الرضاوى في عمان بالقبض على الأحرار .. ولكنه لن يفلت من قبضة الأحرار » .

وتحدث عن باش أحيان وزير خارجية العراق فقال :

« هؤلاء انطونة العرب لم يوم قريب » .

وتحدث عن فاضل جمالي فقال :

« إننا لن رد عليه .. ولكننا نتركه لشعب العراق ليحاسبه .. ليحاسب انطونة .. فيحاسب أعوان الاستعمار في كل مكان » .

ولم يمد الأمر — إذن — أمر خطب تلقى أو تمحيط تزيى .. إنما هي حرب الشعوب البرية يمتها « داسر » على « انطونة من حكام العرب » .

وفي الثامن والعشرين من فبراير نفسه خطب في الوفود اللبنانية والأردنية فقال لم بعد أن حيّاهم :

« لا طائفة ولا إقليمية .. كلنا رجل واحد .. كلنا عرب » .

وللعرف أن (لبنان) جنة الله في (الشرق) لا عيب فيها إلا (الطائفية) مصدر كل فتنة بين أهلها .. فضيحة (داسر) بوصفه (راعي الوحدة الأكبر) بأنه (لا طائفية) و (كلنا عرب) إنما هي دعوة سرية من الدولة التي (تجمع ولا تفرق) إلى الشقيق الذي (يفرق ويخون) .

تقرر — إذن — وفي الأسبوع الأول من قيام الوحدة — أن يهاجم معاقل الرجعية الأردنية في شعص (سمير الرفاعي) ورجية عبد الإله ونوري السيد المراقية في شخص ماش أمين ومرجان وقامل جمال وأن يذهب (لبنان الطائفة) إلى (لبنان العربية) في أشخاص وقودها الزائرة .

وفي مارس بدأ القائد الشاب يمتص هذه الانعاجات كلها زاره عربي وعاد يذكر (لبنان الثائر) بأنه عند ما قلم ليكافح الاستعمار الفرنسي (كانت سوريا وقف معه في خط النار وكانت مصر تنهض فيها القلوب) والذي وقف ولم يتقدم مرة ٠٠ لا يمكن أن يتقدم مرة أخرى .

وعاد يتحدث في صراحة إلى مرجان — رئيس وزراء العراق يومئذ — فقال : « إن ما فعله شعب مصر في السصر ، سيفعله شعب العراق في حكمه ٠٠ » وتحدث (مرجان) أن ينزل إلى شعب العراق في الشارع ٠٠ ليرى (الحقائق) .

وحيل لي أن (ناصر) لا يمكن أن يوجه هذه التهديدات — وباسم الشعوب العربية — إلى معاقل الرجعية ٠٠ وبالأسماء ٠٠ وبهذه القوة ٠٠ إلا إن كان قد ملأ بطنه من انعاجات هذه الشعوب .

بعد العودة

وعاد « ناصر » إلى القاهرة ٠٠ أشد إصراراً على مهاجمة الرجعية في كل بلد عربي . عاد يحدث شعب مصر عما فيه من شقيته الشعب السوري ويقول في صراحة : « من دمشق بنظرة عائرة إلى الحدود ٠٠ كان من الواضح أن هناك جيوشاً متحرك ٠٠ وأن هناك تهديداً سافراً ٠٠ كما أن هناك تهماً تكال من غير حساب ٠٠ كانت هناك غير الحدود محاولات لفضيت الجبهة الداخلية ومحاولات لاختراق بين الشعب والجيش » .

وألقى بعض الضوء على هذا القى يمرى عبر تلك الحدود ٠٠ فذكر (الحدود)

وما خلقه من مرارة في (دول الاستعمار) .. فراحت تبحث عن صغار القنوس في المنطقة ، فحدث انقلاب في الأردن بعد أن علم هذا الشعب أن مليكه بدأ يمشي إلى الأهداف الوطنية معه .

وبن - إنن - أن الرجل يركز بدءاً من الآن .. على بنداد وحصان .. وإن كانت الثورة .. قد بدأت تصل عملها إلى الأخرى في لبنان .

في ذرائع الساكنة وجهت هذا كله .

وأدركت أن الوحدة .. ليست إلا مركز تجمع .. وقطعة انطلاق .

وتطلعت إلى (الزحف المقدس) - كما أسماه - بتأهب للوثوب .. ويتأهب لتحرير الشعوب ..

وبعض القسامات العربية .. بدأت إنن تبين .. على وجه القائد الشاب .

وذلك آخر طليعة من القائد العربي .. لا (أمركة) ولا (جلنزة) ولا (شيوحة) فيها ولا (إخوانية) .

فهل من أغلبر أن يعود إليه هو .. ومن بدايته .. نراه تحت الأضواء وعلى حقيقته .. بدلاً من الف والهوران حول الأحداث ، وهو نفسه حاسماً ، كما قررت ، أم أن الأحداث ممسها ، وقد بدأت تتجمع ، وتلقى محيطها إلى يده مستصرفي إلى حين من دراسته ؟

ولم أستطع أن أسيب وتركزت الجواب للأحداث .

واعتقد أيضاً أن هذا الحديث من الوحدة ، يشكل الحلقة السادسة عشرة في موقف من « الرجل الذي تأكّرت عليه » .

الفصل السابع عشر

ثورات ونكسات

كنت على الطريق إلى يوليو أو « تموز » .. أحنو في شوق ولهفة .. إلى يوليو أو إلى « تموز » ، ولم أكن أتوقع أن يقع خلاله ما وقع .

كنت أحتشر هذا الشهر دائماً ، استشاراً « تاريخياً » بحثاً ، لأنه اردان على طريق التاريخ ، بثورات إنسانية غيرت مجرى التاريخ ، ولكن في هذا العام ١٩٥٨ لم أكن أحنو إليه على المستوى الثوري أو الإنساني ، وإنما كنت أحنو إليه على « المستوى الشخصي » ، على مستوى « إطلاق سراحنا » ومن هنا كررت دعائي ، ألا يشهد هذا الشهر أحداثاً جديدة تصرفني عن دراسة « جمال » أو تصرف « جمال » من رعبه بتدنية في إطلاق سراحنا .

وكانت « الأحلام » قد نشطت في (دور السيلين) نشاطاً فاق كل حد حدتك منه . .

وكانت أباء أهلكنا والتصلين بنا من خارج (الإيمان) قد نشطت هي الأخرى حاملة إلينا ما يمشي أحلامنا ، حتى « أنير مزارعي » — الصحفي اليهودي القوي أبعد عن البلاد من عامين — أرسل إلى قبيل يوليو ١٩٥٨ خطاباً عن الطريق الرسمي — أي إلى إدارة السجن — يؤكد فيه أن الإفراج عنا في ٢٣ يوليو قد تقرر ، وقد مجبت لهذا الخطاب ، لأن « أنير » خير من يعرف الطريق إلى مراسلة السجن عن غير طريق البريد ، لماذا وقع اختياره على هذه الوسيلة ؟ وأعاني القدر من كل قلق ، فأتاح لأحد الأصدقاء التقاط الخطاب من « حامل بريد الليان » — قبل أن يمر البريد بالأمور — وجاني الصديق خطاب « أنير » سليماً غير مفوض . وإن كنت لا أشك في أن أنير إنما أراد أن يخدمني .

وكانت الثورة في لبنان قد اشتد أوزارها .

وبدا «الراقيون» يركزون اهتمامهم على «لبنان» ويرون أن الصراع إنما يقوم فيه ... بين «جمال عبد الناصر» مثلاً والتأثرين على مستوى الروية ... وبين «كبل شمعون» مثلاً في «الطائفية» — على مستوى الهوية .

هذا ما قرأته .

أما أنا فكنت أحس أن «جمال» لم يكن طرفاً في التنازل ورغم إصرار الحكومة اللبنانية على أن السلاح يهرب من «الإقليم الشمالي» إلى التأثرين في شمال لبنان ... وكنت أحس أن انتفاضة لبنان التي تحولت إلى ثورة إنما كانت انتفاضة الروية فيه ضد الاستعمار والرحمية ... وعندما اندلعت نيران هذه الثورة في لبنان ... لم تكن «الجمهورية العربية المتحدة» قد قامت — وإنما بدأت انتفاضة لبنان شعبية وعربية ... لصبر عن غضها على موقف لبنان الرسمي من مشروع أيزنهاور .. وكان للشروع كما قلنا قبلاً قد صدر في الخامس من يناير ١٩٥٧ وكان «ناصر» قد قاومه وأيدته شوب الروية حتى أجهز عليه ، ولكن «لبنان الهوية» سرحت على إجماع العرب وقبلت المشروع ، فاستأثرت للمعارضة من المجلس النيابي واختل الأمن ... والتحدث قوات حكومة ساي الصلح بالمضامين من الشعب في الطرقات ... وصرح الزعماء ... وجرت الانتعابات وأسقطوا هؤلاء الزعماء فيها .. فاتهم التأثرون حكومة ساي الصلح بالتهزوير ... وقاد «وشيد كرامي» للمركة في طرابلس وخضعت أرضها بدماء القتل والجرحى ... وكانت الثورة ... فلذا كان «الراقيون السياسيون» قد جعلوا «ناصر» طرفاً في القضية علاناً «ناصر» كان «التعم للملاص» التي تطلع إليه ثوار لبنان — كما يتطلع إليه الثوار في كل مكان — وإذا كان الراقيون قد جعلوا من كبل شمعون طرفاً آخر فلان كبل — المجاهد القديم مع الأحبار أصبح في نظر التأثرين رمزاً لقوى الرجعية التي كانت توحد بين حلف بغداد .. وبين إنجلترا وأمريكا .. وبين عبد الإله ووري في العراق ... وبين الملك حسين في الأردن ... وبين «القوميين السوريين» في كل مكان .

مفاجآت

وجاء يوليو ... أوجده « تموز » •

وكنت أهد أياهه على أصابع اليد عدداً ... فإذا مضى منه يوم ... قلت - على طريقة المراقبين في لجان الامتحانات : « باقى من الزمن ٣٣ يوماً » ... وإذا مضى منه يومان ... قلت : « باقى من الزمن ٣١ يوماً » .

وكان عبد الناصر يحوض معركة القنومة البرية من مخابره في دمشق والقاهرة وفى حلب والإسكندرية ... ضد الرجعية في البلاد البرية .

وكان كميل شمعون يتودد « للمجهوم المضاد » في مجلس الأمن عن طريق وزير خارجيته شارل مالك .

وكانوا قد ألّبوا علينا السودان أيضاً .. فبدأ جو الملاقات بيننا وبينه مشحوناً بالهوتر ...

وقرأنا أن حلف بغداد تقرر حله في آخره في ١٤ يوليو على أعلى المستويات ليشهد من جانب العراق الملك فيصل والأمير عبد الإله ونوري السعيد .

وبرغم احتراز خميس يوليو في يدي ... فقد ظلت حريصاً على « هدية يوليو » .

وفي اليوم الرابع عشر ... عدت أحاسبي وقلت كالعادة - أقصد عيد الثورة السادس الذي أنشئ على مقدمه : « باقى من الزمن تسعة أيام » .

ولكن الساعة دقت في الرابع عشر من يوليو ... ومن (تموز) ... ولم تنظر أيامي التسعة .

دقت الساعة فجأة ... ١٩

وتكهرب جو « الايمان » ... وعلت فيه الجلبة والضوضاء ... وأمسى درر
السياسين خلية من سلايا النحل تطن بالسؤال وتطن بالجواب . 'ولا ينف أي سجين
متشف من الخلوة بأى سجنان جاهل ... ليسأله في لفظة وتواضع : « إيه حكاية
المراق » !!!

وأنباء « المراق » في ذهني ... لم تكن تجاور وصول ضواهل الرجعية فيه إلى
« مطار استانبول » في نفس ذلك اليوم ... تعرف لهم الموسيقى وتطلق لحنيتهم
للدماغ ويستقبلهم جلال باليار وهدنان مندريس .

وتقول : « ثورة في المراق » ؟

ثورة في المراق ؟ وناصر ؟ أين مكانه ؟

وتقول : مكانه سيد .. سيد .. ولله الآن على الطريق .

كان قد سافر إلى بريوني ... وأسى محادثاته مع نيجو ... وأذيع أنه يهتم أن
يبصر على ظهر الباسرة « الحرية » عدائه ذلك اليوم .

وتوالت الأنباء .

قيل إن الضحايا في مطار استانبول قد رجفت قلوبهم خشية أن تكون الطائرة
التي تقل أنطاب بندق قد صلت طريقها .. أو هبت حتمها . لأن الوقت مر .. ولم تصل
الطائرة .. وتقول أن نأ « عاجساً » قد وصل إليهم بدلا من الطائرة .

وتوالت الأنباء ...

وعرف (الايمان) الدبا كما عرفه السلام كله - وأكد الضباط والأطباء - في الايمان -
أهم سموا صوت عبد السلام عارف من محطة بندق يقول : « هنا الجمهورية العراقية » .

عبد الحكيم عامر

وكان لعبد الحكيم في ذلك اليوم موقف ... لا يقفه إلا عبد الحكيم .

تلقى فجر ذلك اليوم من قيادة الجيش الأول في دمشق نبأ الثورة في بغداد وانتظار التمليات . وناصر يوهوسلاويا أو عرض البحر .. والوقت لا يعترف إلا بالتمصرف العاجل . ولا يعرف الضعف ولا التردد ، ولم يصعب « عامر » ولم يتردد .. وأصدر أمره إلى جمال فيصل . أن يستمد نفوس للركة إلى جانب للشعب العراقي الثائر . وأن يقف إلى جانب الثوار . ربنا بتلقى التمليات من « ناصر » .

ومفاجآت .. أخرى

واصل عبد الحكيم محال .. فأمر بإعلان التهيئة العامة . والوقوف على قدم الاستعداد لمعاونة الثوار إذا تطلب الأمر . . وتمتقت الأنفاس ببغداد .

وبسبب الناس كل شيء .. حتى الثورة في لبنان .

وبسببها أنا أيضاً مع الناس .. وإن كنت لم أفسأ أهدأ . الإفراج في يوليو ولكن قصة « الإفراج في يوليو » . أمست .. ولها مذاق غير اللذائق .

لم أهدأ أطلب الإفراج للإفراج .

أصبحت أطلب الإفراج اليوم لأخوض التيار .. ولأهل السلاح .. سلاحى الذى هلاه الصدا . لأهل قضى مشرعاً .. ولأرسل خلف الأحداث صرخاته . بعد أن فقدت كل قدرة على الصمت . هكذا تمتعت في تلك اللحظة .

وحيل لى أن « ناصر » هو الذى فعلها .. وهو الذى أعد لها . وهو الذى أضرم ناراها .

كان قد قالها لتورى ومرجلان .. وكان قد قالها لفاضل وبش أعيان .. والهور آت

على عمان - وثورة لا بد أن يشتد ساعدنا في لبنان . وأصداء الأحداث لا بد أن ترد
أصداءها أرجاء الشرق البري في كل مكان .

الروح القدس الذي حدثنا عنه . ما هو ذا يبدأ .

مرت هذه القنعة المظلمة بي . فشتها مسحوراً بها يوماً وليقة .

ولكن جهة التفكير لا بد أن تدور .

وعاودني داء السنين والجسم . وبدأت الأسئلة تتراكم أمامي :

— ما هو موقف إنجلترا وأمريكا وشركات النفط من هذا الاضطراب ؟

— وهل تزحف قوى الدولتين تحت حكم (الاتحاد الماشي) إلى بغداد وتقتل ثورة
الجيش كما قتلته ثورته في عهد رشيد عالي ؟

— وهل تعد يد العون (المسكري) إلى الثوار . فنرى أضواء في حرب مع الأردن
ومع الاستعمار ؟ ونحن محطون من ناحية بحكومة شمعون في لبنان . ومن ناحية بتركيا
عضو حلف بغداد ومن ناحية ثالثة بإسرائيل ؟

ثم قلت أخطب نفسي :

— وأنت ؟ ما هذه الصرخات المحسومة التي ترسلها وقد تحطيت الحسين .. وتحدثت
عن القلم الذي يشرح . والمار الذي يمانس . وتتصور بقل المراقب — لا بقل القند
السلبي — أنهم إذا أخذوا سيوفك . فسحوا الخيل أمامك . ووضعا جريدتك اللينة
تحت قدميك . وفرشوا لك الأرض بالزبل الأحمر والورد الأبيض ؟

وترازي « الخيال » بحر مه .. « أمنية » حبيبة لم تسعد بالحياة إلا لحظات ..
وقسمت بتجني الأحداث .

وعشاق ظل العروبة الزاخة يوماً واحداً وليّة ، استمعنا خلالها إلى مراسم عراقية ومراسم ، كان المذبح يلقبها وكأنه يُسبّحها ، مراسم بلقاء للثكية التي سجلوها ، وقيام الجمهورية العراقية ، ومرسوم بتشكيل مجلس السيادة يمثل سلطة الدولة في (القصة) ، ومشروع بتشكيل الوزارة الجديدة يمثل سلطة الشعب من (التعاضد) .
وتوالت الأنباء ودودة وحياة .

نبأ يقول : إن أول عمل مباشر مجلس السيادة كان برقية إلى ناصر « بمريد الفجر والاعتزاز نقدم اعترافنا بالجمهورية العربية للتحدة » .
ونبأ آخر يقول : إن الجمهورية العربية للتحدة أبرقت إلى مجلس السيادة تعترف بالجمهورية العراقية الجديدة .

• • •

وقال الناشطون من السجناء : « مصر وسوريا والعراق ، في وحدة ؟ تبقى ضاعت لبنان » .

ورد الصهيوني السجين : « تبقى الحرب العالمية » .

وقال سجين مصري يمدّ كأنه يمزح : « تبقى ضاعت إسرائيل » .

ورد الصهيوني وكأنه يمزح أيضاً : « دى تبقى من الفترات إلى النيل » .

ورأيت لأول مرة أنزل إليهم وأقول (جداً) للصهيوني الذي يتردد دائماً إلى :

— كان غيرك أشطر .. يا حليم

ودعش الشاب للهجة الجدد في حديثي وسألتني :

— مين كان أشطر ؟

ولم أتردد في أن أجيب :

- بن جويون وإيدن وسوليه .

وصحك الزاهسون .. وشمل (الزود) ولكنه لم يلبث أن انشغل للوقوف من
المروجة فصرب كفتاً سكف وهو يقول : « ده يظهر الأستاذ .. بقى من شروع
ناصر خلاص » .

• • •

عشاقى حو هذه الروية يوماً وليلة كما قلت .

أما اليوم الذى تلاهما ، غداً ينقل القرحة من سامرا ، إلى سامر سوينين
وزارب ها بناء صهيون .

جاء يعمل بأ نزول القنول الأمريكية من أسطوطا السادس إلى أرض لبنان ،
وهبوط القنول البريطانية على أرض الأردن .

وأعترف أنى وجهت .

ورادى وجوى أن الثورة فى لبنان كانت قد أوشكت على الإنهاء السلاح بيد أن
تراحم شمعون من محاولة إدخال تعديل على الدستور بمحيزه تجديد ترشيح ضمه لقرينة ،
ونزل الأمريكيون إلى لبنان ولترقع رأس شمعون ، واشتدت هضبة الأحرار فى كل
مكان ، وبدأ قلب الروس يتلذذ وهو يرنو إلى العراق ، وتكهرب الجو السياسى
فى العالم كله ، إيداناً مغرب الشمس ، ومقدم الليل ، أو نذيراً بشوب حرب عالمية .

• • •

ولكن أهل «الليان» لم يشاركوا فى الثمور عظم القيل ، أو هذا ما تصورته .

كان السجين الذى يعامس « الناصرية » ، بسمى اللحظة التى تندلع الثيران فيها
وشعاره : « ليس فى الإمكان أسوأ مما هو كائن » ، وأى (دهكة) قد يركب موجتها
إلى خارج الأسوار وينجو ..

أما أشبه لطلال اليانسين من القنفة والمغرمين ، فقد بدأوا يفركون أعينهم ويعكرون

في (غدم) ، أصبح لم (غد) يتحدثون عنه ، وراحوا يتصون عليها من ذمكريات-
(أمسهم) ، طرقاتاً عن (المدوا ، وأيام المدون) ، وكيف سمح لهم يوماً بالشاركة
في القتال ، وكيف دربوا عليه فلا . ولولا وقف هذا القتال غرخوا إلى أرض القتال
وماتوا فوقها أبطالا أو عادوا إلى بيوتهم أحراراً .. ولا عرو - إذن - إن تطلوا اليوم
إلى موقف مماتل ، أو إلى حرب قادمة .

وأحسن للشولون في «الليان» مشاعر السجاء فاشدت الرقابة على كل سجين ،
وتوات أوامر (التشديد) من (مصلحة السجن) ، وسد أن كانوا (يتساعلون) معنا نحن
الخسة ، إذا خرجنا من (التنير) إلى الشفتي وحدائقها بأي حارس نحتره نحن أو بنير
حراس ، لم يعد يسمح لنا بممارسة (التنير) إلا تحت الحراسة ويأذن خاص ، ولم أدرك
وقتها سر هذا التنير في المملعة .

وبرعم هذا كله ، ما كاد الليل يجيء ، وما كدت أنظر إلى عصى حتى بدأت
أفكر وعلى البحر التالي :

— وناصر ؟ أين مكانه ؟ يحر الآن عباب البحر فوق ظهر سميته (الحرية)
كما أذيع ؟ وهل تصل (الحرية) سالمة إلى الشاطئ المصري ؟ والأسطول السادس ..
أليس في وسعه أن يفعل شيئاً ؟ وغواصات إسرائيل .. ألا تستطيع أن تفرقها وقد تمهد
موعد وصولها وعرف خط سيرها ، من ميناء بولا ، إلى ميناء الاسكندرية ؟

ولجأة - وما أحوجني إلى استخدام هذه الكلمة في هذه الأيام - لجأة .. وعلى
حين عفة مني ومنك ومن كل دولة ومن كل فرد ، وفي اليوم المحدد لوصول (ناصر)
إلى (الاسكندرية) ، ومراسم الاستقبال تمت ، وكل العالم يتسامل عن (الغد) ، وكل
مواطن يصنم بكلمة : (وبعد ؟) ، لجأة هيبت في مطار (المرة) في دمشق (مطارثة)
كالتي هيبت في كل وقت ، وفتح بابها ، ونزل منها (جمال عبد الناصر) .

واعتزت أسلاك البرق ، إلى مختلف أرجاء الأرض ، تحمل النبا ، كما لو أنها حملت
نبأ هبوط «أول رجل» على «سطح القمر» ، وسى العالم قصة لبنان والأردن ، وبدأوا
يلتصون حول أجهزة الراديو ، تحكي لهم سقطة جديدة من سققات للارد العربي ، وكيف
يرزف ، بل كيف (يتصرف) ..

وحسكت لم هذه الأجهزة أن (ناصر) سمع وهو في عرض البحر أنهاء احتلال
لبنان والأردن ، فأدرك أن «اللاس» — وهو ابنة وصع العالم على حافة الحرب — لم
يضمه هذه المرة على الحافة بحيث يشده إلى الوراء أو يورده عنها في اللحظة المناسبة كما كان
دائما يفعل ، وإنما وضعه ليقرب فيها هذه المرة كما هو واضح ..

أدرك (جمال) هذه الحقيقة الخفية فأمر بالسودة إلى يوحسلافيا ، واتصل بخروشوف
فأرسل إليه طائرة ألقته إلى موسكو وهناك اجتمع به ثم طار سراً إلى دمشق وأذيع البيان
الرسمي عن الاجتماع بين القطين .

• • •

وعرف الشعب السوري نبأ وصول عبد الناصر ..

وزحفت بلاد الشام .. إلى قصر الضيافة في دمشق فخرج إليهم وخطب فيهم
وقال لهم :

«أيها الإخوة .. إن راية الحرية ارتفعت في دمشق ، وهي اليوم ترتفع في بغداد ،
وسترتفع عدداً في بيروت وحسان والجزائر» .. وارتجت جنبات دمشق التقياء ..
وارتجت تها لها جنبات الليان .. وهي تردد أصدااء المختافات التي ينفقها المذيع
عن القنيحاء .

• • •

وفي اليوم التالي ، قابلاً (أنور السادات) الوفود الزاخرة إلى قصر الضيافة بأن
وقف في شرفة القصر تحف به وجوه لا يبرق أهل الشام شيئاً عن أصحابها وقال
يقدمهم إلى الجماهير : «هذا هو عبد السلام طرف وأخواته جاءوا من بغداد إليكم» .

• • •

وفي هذا اليوم نفسه التاسع عشر من يوليو - أو من تموز - وقعت اتفاقية تلن أن البعثيين مصران على الوقوف كبلد واحد في المطاع ضد أي عدوان يقع على أي منها .

• • •

وعاد عبد الناصر إلى القاهرة) ليشهد العيد السادس لثورته .

وطار إلى القاهرة) - أيضاً - ثلاثة من وزراء (العراق) يمثلون الثورة العراقية في الاحتفال بثورة مصر ، وفلت إلينا الصحف ، صورة (جمال) والفاقي عربية مكشوفة وإلى جواره رئيس الوفد العراقي .

• • •

واستمنا إلى خطاب جمال .

واستمنا إلى الخطاب التي ألقاها وزراء العراق ..

وفهمنا أن (الوحدة) بينهما .. على الطريق ..

• • •

وفي نفس الشهر وصل إلى القاهرة رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية السوفيتية بدعوة من المشير عامر .. فخبه القرب على أن الطريق التي اختارها .. ليست مفروشة بالورود .

واستقبل (حل صبري) .. وزير الخارجية بالنيابة يومئذ .. السفير الأمريكي في القاهرة لينه .. في صورة (تبلغ شغوى) .. إلى أن القوات الأمريكية إنما نزلت إلى لبنان بناء على طلب الحكومة اللبنانية ، ولم ير السياسي للمصري تبليغ أمريكا أي اهتمام وهو الرجل الذي كان يسلم في صحت ، مراقباً لمصر في مؤتمر لندن ، وخاض غمار المناورات الدولية من وراء ستار كعادته .. وشهد معارح أنقلب القرب ومعهم (دالاس) و (منزيس) .

• • •

وظل ميزان القوى يتقلب ، هبط الإنجليز والأمريكان على الأردن ولبنان مهبط
رمومتر العروبة ، وربطنا على القلوب بالأيدي ..

وظل جمال إلى موسكو ثم هبط فجأة في مطار اللزة ، فهبط رمومتر الاستعمار ،
وربط الرجسبون على قلوبهم بأيديهم .

وكانت الإذاعة للمصرية تنابع هذا التطور بكل إسكاتها ، وكان (صوت العرب)
يملاً أرجاء الوطن الكبير رهواً ودويماً ، وكنت طوال اليوم والليل ، أسمع حشداً من
الأناشيد الثورية ، فبدأت أصنى إليها ، بعد أن كنت أرى فيها مجموعة من القنوط الرخيص
يؤلفه مأجور ، ويلحسه مخور ، وينتبه ناته من طلاب الظهور .

بدأت أواكب التطور العربي بكل طاقات تفكيري .

وبدأت أرى الموكب الكبير ، مقبلاً على الطريق ، بكل طاقات انطال في .
وها هي ذى مصر وسوريا وال عراق ..

وغداً الأردن ولبنان .

والجزائر لن تهدأ حتى تتأثر ، ويومها تحيى إلينا ومن حولها تونس والمغرب
وليبيا لتصافح الشرق ، وتمب منها من دم المستمر .

(ومن الخليج إلى المحيط) لم تنقل - إذن - عبثاً .

(ومن الخليج التائر ، إلى المحيط المأدر) لم تنشأ - إذن - عبثاً .

وأنا المتأتمر على (ناصر) ، لم أخرج - إذن - من العراصة فاشلاً ..

لقد دوت من الناصرية ورددت صها أكثر من مرة ، وها هو مدها للتوري
يرتفع بي إلى مستوى يقرب من الإيمان . فهل أنا على باب تحول كبير ، وراشد ؟

هذا سؤال ؟

ولكن هناك سؤالا يقابله أولا يزحف إلى قضى .

وأفضيت به إلى الكفص بصوت مسجع ولم أتردد :

— سم ما سر هذا الصمت المريب الذى لف قصة الإفراج هنا بعد كل هذا
التواتر أصلا .. وأنباء ، ومن دلائل اليان ومن الأهل فى الخارج ؟ وهل ذهب ضحية
الاحتلال الأمريكى والبريطانى ، ولا يؤمن جابنا فى هذه الآونة ، كما اتصح من مسلمة
للسوليين فى اليان وهم يشددون الرقابة علينا ؟ وإلى متى نتظر ؟ قيام الثورة مثلا هل
التاج الهاشمى إليهم الذى تبقى ؟

• • •

إن العلاقات بيننا وبين الرقائى عمتى وفى ثبات إلى مصيرها الحبيب المحتوم .

وهزيمة الرجسية فى لبنان .. أمست واضحة .. وميزان القوى يميل لمصلحتنا .

وأنا وحدى الحائر بين «سجنى» الذى أفر من ظلماته ، و«سجنائى» الذى أعجذب
إلى كل انتصاراته ..

لا بأس بهذه الحيرة ، ولا خير ، والتد كفىل بالإجهاز عليها ، أما اليوم فيحسن
أن ترف بهذا الفصل عند هذا الحد .

• • •

وعسى أن أكون قد رسمت به للرحلة السابعة عشرة فى موقفى من «الرجل الذى
تأمرت عليه» .

الفصل الثامن عشر

ركود سعيد . . ونشاط شقي

ومر بنا « أغسطس » في ركود سعيد .. كركود الحاروب فلم ينزوانه ، واسترخى في نشوة .. يحصى الثنايم .

ولم تكن التحركات للمرية خلال ذلك الشهر .. إلا ألم الشلل .. والتهاب
للعد للتهل .. فالجمهورية العراقية تمشي إلى أهدافها مطمئنة إلى أخوة قادرة .. وعبد الحكيم
هامر يطير إلى السعودية لتوثيق غس الأخوة .. والقاهرة تستقبل الأمير البدر لباحث
للسولين في تمام « مجلس الدول العربية » .. وعمر شوك يحى إلينا لباحثنا في مشروعات
التنمية في الشرق الأوسط .

كل ذلك كان يجري في هدوء - عبر أغسطس - وعلى المستوى السياسي .
أما على المستوى الداخلي .. فإننا لم ندع شجراً في أرض مصر لم تحرك داخله
لبنى .. وبنى .. ولم تلهنا معارك السياسة عن معركة البناء يوماً .

وحدث رائع ثم أيضاً تحت سماء القاهرة .
قامت حكومة مؤقتة للبرائر قولها تسعة عشر وزيراً واحترفا بها فوراً .

شيء واحد كنت أخشاه على مشارف ذلك الجو السعيد ، سرعة دوران العجلة
في الإقليم الشمال .

كانت لدى فكرة قديمة عن سوريا الشقيقة ، كنت أعرف أن شعبها وحكامها
تتافسنا يتبع ويطيق ولكنه قائم ودائم ، كنت أعرف أن شعبها حادق الوطنية .. وأن

معظم السياسيين فيها يصبرون بالوطنية .. كنت أعرف أن كل دولة عربية غنية كانت تتبع حزباً أو أكثر من الأحزاب السورية ، وحزب « البعث » للتخيم بالفلسفة كانت تتصارع داخله المطامع . ما بين « حناني » شارد .. وحوراني طامع ، وأصار في الجيش خدوعين ، وأنصار من الشلب مندفعين ، وكنت أعرف أن القبالية في سوريا ما يزال لها شأن كبير ، وأن القروزي لم يتأيد في السويداء — أم قرام — وما حولها ، وأن العلويين في بلادهم لم يتأيدوا أخرى ، وأن الزعملة في دمشق الفيحاء تخاف من الزعملة في حلب الشهباء ، وكنت أعرف أن الرأسمالية في سوريا قوية وعاتية ، وأن للتجار لا يتداولون غير التهرب عملة لهم ومزقاً ..

شيء واحد كنت أخشاه : سرعة دوران العجلة ، في بلد تتجانب تلك السيطرة فيه كل هذه الأهواء المتضاربة والمصالح المتنافسة ، والمطامع التي لا تقف عند حد .

• • •

وومض اسم العراق وأنا أفكر في سوريا ، تخيل لي — في حدود معلوماتي — أن العراق من حيث التنافس أشد استعصاء على العلاج من سوريا ، ولم أشأ أن أوصل البحث في العراق فقلت أبحث الموقف في سوريا ..

• • •

كنت أنوح خيفة .. ولكن لم أكن بالأسف ..

كانت المرحمة — من فرط إيمانها بها — تلوح لي وألمها مهيماً .. تنكسر عند قدميه كل خلاقات البنات والبنين وها هو كل شيء يتقدم ..

صدر قانون الإصلاح الزراعي في سوريا .. وحلف الفلاحون لناسر ، ووجع الإصلاح .. وفروحت ؟؟

وأنتى قانون الميثاق .. ولم أفرح ، لأنني — في حدود معرفتي — أتيهيب الانتفال المنيق والجريء والسريع بالمشيرة إلى سلطان القانون .

وحدثت قلت :

— ولكنها ثورة وليست إصلاحاً ، والثورة إنما قامت لتفضي على المتعاضات في الجحش ، فكيف تتفاضل نفسها في أبرز أعمالها بين إقليم وإقليم ؟

وعدت أنه هذا الرأي وأقول :

— ولكني أعرف أن «التضيق» — إحدى هوايات الثورة — إنما يسبق بين مستويات «مناخ» أو على الأقل «مقاربة» ، ومصر وسوريا لا تماثل بينهما في المستوى ولا خاراب ، مصر قطعت أشواطاً ، لم تقطع سوريا منها بعد ، شوطاً ، حتى في «الأدب» ، شئت مصر من «الواقعية» ، في حين أن (الوجبة الكلاسيكية القديمة) ما تزال هي (التطبيق للفضل) عند الأدباء السوريين ، كأنه لم يزل أديباً (أمويًا) يرضيه من لما كرم أن يخلع عليه حكة وأن يقول : « يا غلام ، أعمله ألفه دينار » ، ولا أقصد طبعاً تلك الفئة من الأدباء الضميريين ..

• • •

. و برغم هذا (الديالوج) — بين الشخصين اللذين يعيشان في شخصيتي المزدوجة — عادت الوحدة تلوح لي من خلال هذه المخاوف والها مشياً ، تنكسر عند قدميه خلاصات الهدات والهدن .

ودكرت شمائل المروية وشاليد القوية عبر التاريخ العربي ، وكيف كانت المدافعة تصهوها كما كانت شمائل النخوة والتجدة والكرم تصهوها ، فظهر عمر بن عبد العزيز في نفس الرقة التي تحدث اليوم عنها ، فبهرت بملك واستقامت له في سر رائع ، هذه الكفة تطدئن (ناسر) ، و (ناسر) لم يذهب إليهم ليأخذ منهم ، وإنما ذهب إليهم ليعطيهم وليأخذ بأيديهم ، وليقدم بهم ولا يتخلف .

رشيد عالي الكيلاني

وأضيت سجيناً أقرأ .. وأفكر حل هذا النحو .. فلماذا اضطرب حبل التفكير في يدي .. حدث إلى القراءة وكان كل تفكيري يدور حول أبرز حداث خطير يخمس شخصي وقع في ذلك القصر .. واستفقد كل طاقات ذهني .. وأعني به سفر رشيد عالي الكيلاني إلى بغداد .

. وحسبك في أن تسأل هذه المرة عن الرابطة بين عودة زعيم العراق إلى العراق وبين

شخصي .. حثك هذا لاثلك فيه ..

وإجابتي بسيطة ، وهي تماثل أناك لما سبقت ..

إجابتي : لأن لي مع رشيد على .. تلويحاً .

• • •

سافر رشيد عال الكيلاني .. الزعيم المراقى الحرقديم .. حائناً إلى العراق .. بدعوة من التوار المراقين الأحرار الجدد .. ليبتدوا باسم الوطن الحرقم صبح به المستعمرون وموري والأخوان .. وليردوا إلى رشيد أمواله التي صادرها عبد الإله ثم انقلها .. وإن كان النشر جميعاً .. يمحرون عن أن يردوا إلى رشيد .. سبعة عشر عاماً من أغل سنوات العسر .. قضاهما مقرباً حزيناً .. ومؤمناً وصبوراً .. ما بين إيطاليا القناشية وألمانيا النازية . وللملكة السعودية .. والقاهرة أخيراً .

• • •

كان النبا بالنسبة لي ... « ساراً » و « أكثر من سار » .

فقد قلت عنه في كتابي « عند مشرق العروبة » الذي صدر في سنة ١٩٥٧
وقبل اعتفالي بشهور : وإنه ما يزال — وقد جرد من إكبات الكفاح ... كبير
الرجاء في أن يعود ويخود^(١) .

(١) لك في ذلك الكتاب وأنا أعرس العروبة بفلج مضيقة . بأن بالحرف :
« فإذا انقلت إلى رشيد عال الكيلاني في العراق — وهو اليوم صبح مصر — فقصه
لم تقب من أدمع الجليل ... وسبها تختلف الآراء على حركته من حيث النتائج ... فإن أقل ما يقال
عن الرجل أنه أول رئيس للورداء في بلد عربي تحتله بريطانيا — سيده البر والعمر يوشد — فقل
لإيطاليا — وإذا قبل إلى اعلاسه رشيد في سنة ١٩٤١ كان مصكباً بسبب أن يقال إنه كان أيضاً
وشياً ... فقد رعى أن يأخذ لبريطانيا في إزال لوانها إلى العراق ومضى بجيحه إلى مطار الحامية
والل ... فإذا كان الثوبيق قد حمل من رشيد ، وإذا كان الأرض قد جعله ... وإنما كان الألمان
لم ينجوه .. صر رشيد إلى أوروبا ... ولجأ إلى ابن العمود عبد العزيز — فأكرم وعادته ...
وجاء إلى مصر من عابدين ولا يرق أكرم لاجيء ... إذا كان هذا كله قد حدث فالوجه الذي
يشتبه من تاريخه أنه قال بجيحه وعصبه أكبر قوى المستعمرين في ذلك الحين ... وأنه ما يزال
— وقد جرد من إكبات الكفاح — كبير الرجاء في أن يعود ويخود ...

وها هو ذا يعود .

والأبصار كلها تتطلع ... وكلها أيضاً تتوقع أن يبعد إليه مجلس السيادة في رئاسة الجمهورية أو في رئاسة الوزارة ... وتشكيل الوزارة يسمى « الوحدة بين مصر والعراق والجمهورية العربية المتحدة ... الحدث الذي ترتد لمجرد تحريك غرائص العرب والرجعية العربية .. والشوعية التي لا تنفي هذه الوحدة بالنسبة إليها ... إلا أن يتركز عملها في الشرق الأوسط كله ... في قطعة تجمع واحدة .. وهي لبنان .. ولبنان اليوم محطلة بالأمريكان خصوم الشيوعية ... وهي غداً متحررة من هؤلاء ومن أولئك .. وحشية التاريخ التي ينشدق بها الشيوعيون هي التي ستضج الطريق أمام لبنان الحبيب ... ليمشي غداً إلى الصف وليأخذ مكانه بين الأشقاء تحت الراية ولا يجد الشيوعيون يومئذ مكاناً لهم فيه .

هذا ما كان متوقفاً أن يحدث ... لو أن الركب واصل سيره ... ولكن الركب توقف .. فذكرني أتوقف أنا الآخر قليلاً ... لأحدث عن « تاريخي مع رشيد عالي » لأن لهذا التاريخ صلة بأهداف كتابي — ثم نشق مرة أخرى على أرض العراق انزرى ما جرى على الرجم الحاند .

حدث ما حدث لرشيد ... وقصته مع السعوديين معروفة ... حسن بداية وسوء نهاية ... قصته معروفة يوم ضاق جأكر أمين الحسيني المتطلع يومئذ إلى إميراطورية عربية مركزها القدس يحسبها الصليب النازي ... فرأى رشيد أن يترك له ألمانيا ... واستطاع أن يصل إلى السعودية متكرراً — بدرحلة وهيبة شرتنا جاباً منها في « السوادى » بقم رفيق « سوري ... ودخل على عبد العزيز آل سعود في « مجلسه » وأخذ مكانه بين الجالسين ... وسأله عبد العزيز عند انتهاء المجلس إن كان الضيف مطلب قتال الضيف ما مثله « عربى مستجير يريد أن نجبره ... وأرجو ألا يكون الأمر فوق طاعتك » وغلن لذلك أن القنبلة التي تطارد الضيف قوية ، وعز على الملك هذا الصعدى الملهذب قتال الضيف « عبد العزيز في طاعته دائماً أن يجبر ... مهما يكن أعدائك ... أير ناك بارجل » فكشف الضيف عن وجهه وقال للملك « أنا رشيد عالي ياساحب

الجلالة » وتماك عبد العزيز فيه — وكان ملكاً — وقال (أجنالك يا رشيد) وخاض عبد العزيز بهدائه القنطري حرا كما سيلياً رائساً ... حتى رضام وعضوا الطرف من المطالبة برأس رشيد .

وظل الرجل مقبياً في السعودية حتى مات عبد العزيز .

نك قصة نشرت ... وقرأها كثيرون ... وأحبك منهم ... وأنت إذن تعرفها .

أما الذي لا تعرفه ... فهي قصتي مع رشيد لأنها لم تنشر .

وأنا لا أشرها اليوم لأضيق في الكفة القابلة لكفة القصة الأخرى ... نداء لك أو رئيس حكومة ... إنما أشرها ... لأن لما كانت قصة بأهداف كتابي ومراسل بطوري إلى (الناصرية) .

وقد فنت بسيرة رشيد كِبَل من أبطال التاريخ ضحي بكل مراحله ومملكاته في سبل وطنه .. وعرض حياته وحياته أسرته لفضل .. واحتل في تاريخ القضاء السياسي للكان الذي احتله وتولتوى في تاريخ القضاء الإنساني ... كلاهما إقطاعي ورأسمالي ... وكلاهما نزل عن المال والإقطاع ... وتولتوى عرض نفسه بهذه القصة لوحشية زوجته واضطهادها له ... ورشيد عرض زوجته وبنااته القشريد والثعالب والثربة ... وعرض نفسه للوت عمارياً ... وللناس مضياً ... وللحماية لاجئاً ... وللثربة دامت سبعة عشر عاماً ...

فنت بسيرة رشيد ولم أكن أعرفه ... وفنت له في صدر جوبدي « السودي » وودت عنه ... وكنت أفتن دائماً بكل حركة فردية تخلف الرجعية الثانية ... وتخلف للتصير للسلع ... وتخلف الطاعة من المالكين ... وكنت يومها أشد أيضاً أزر الحركة القومية التي أعطها الأمير إبراهيم ... من « عدن » ضد أبيه الإلمم يحيى حيد الدين في « صنعاء » وثالث أزيد الأمير إبراهيم ... وأنت في « السودي » أهدافه وتدابيره ...

من غير سابق تلوف حتى نجحت الحركة وقتل الإمام ثم حدثت الفسكة وقتل الأمير
وإن الوزير وعلمت الرجسية أشد ضرراً على يد الإمام أحد « أمير المؤمنين ... »
الحال في « أمين الخضر » !! للهالة ...

• • •

وأعود ... إلى « رشيد » وانتاني به ... وكفاسي من أجله .

شاركت بجهدى للتواضع في جريدتي ... في بذل السامي التي شارك فيها
« الكتيرون من زعماء الروبة ... لدى الأمير عبد الإله ... وقد حسبته « مريباً » ...
واضردت « السوادى » بنشر الصورة الزمكوفرافية للريضة التاريخية التي رفضها
ملك الأمير تحمل توقيعاتهم ... وظلنا نقد التوصل الضافية عليها ... وثبت أن
« عبد الإله » هو عبد الإله ... وعد ... وعامل وسوف ... وأحياناً رفض ... وكان
كل ما أملكه أن أبقى ... ولم تند بصتتي ولا بصفة جريدتي ... حتى يصق
« ناصر » فبصق المراق ... فذبح عبد الإله .

ويبدو أن « رشيد عالي » « العراق » تأثر وهو يقيم في (الرياض) أو (السعودية)
بطلوع صيف (مصرية) فلداع عنه وهو في محنة ... لا يملك لأحد نقماً ... وكان
للك عبد المرز قد أسر زوجة رشيد وبناته أن يضمن في القاهرة ... على مقربة من
أهل المنوار الأسرار من الضباط أنصاره عن أعضائهم عبد الإله فهرب النساء والأطفال
إلى القاهرة ... ومنهم حرم الشهيد محمود سليمان وطفله :: يرعاه شقيقه (محمد سليمان) .
وكتب (رشيد) إلى أحد في القاهرة ليشرحوا لي باسمه ذلك الجهد الذي أبذله ..
وجاءني محمد سليمان ومعه نجم السهروردي للدرس المراق الشاب « وزوج إحدى بنات
رشيد » والياور المسكرى السابق لرشيد — ونسبت اسمه — ومعه الدكتور الطيب
ناصر ليقدمهم لي : . وألح محمد سليمان^(١) — وذكر هذا الاسم وأقرأ الخامس — في أن

(١) محمد سليمان ... مدير المذنب ... ظل لاجئاً سياسياً في القاهرة ستة وسبعين ... يحصل
هذه التفتيش ... ولا يستطيع العودة إلى وطنه ... حتى يملك له السامي فيق في الجباسة البرية
وظل يترق حتى أصبح معزلاً على جزيرة النول فيها ومرت له في منصبه الكبير بعد كل ما عاناه ...
حياة ولا أفرد كيد ... حين وزيراً لقول في حكومة عبد الكريم فلم ... ولا أبعد حتى الساعة
تضيق لهذا الجيب .

أنزله زوجة أخيه الشهيد لأرى طهته البطل الصغير المدلل .. وفي أن أنزله أسرة الرئيس
رشيد «لأن معهم رسالة منه وبخطه يحبون أن يملأوها لك» وزدتهم .. وأحست من
يومها أنى غدوت واحداً منهم .

• • •

ومرت السنين ..

وذاث يوم أخطرت الدكتور الطيب أن رشيد عالى وصل من أيام إلى القاهرة ..
وأه زاره في فندق هليوبوليس .. وأنه يريد أن يرانى وذهبتا معاً .

• • •

واستقبلنى الرجل بالقبلات وظلال الموع نروح ونجىء في عينيه .. وبسات
الناصب .. تحدث على وجهه في صورة تجاهد .. وكان يرتدى جلباباً صينياً أبيض وعباءة
خفيفة يسمونها « رفيف » وهالاً أسود .. وأمضيتنا وفقاً طويلاً .. في جلسة لانسى ..
وهو يقص علينا .. بعض ما لقيه في السعودية من كرم عبد العزيز .. وبعض ما قدمه
لعمد المزير من مشورة .. وبعض ما لقيه من مستشارى عبد العزيز من دس غير كريم .
وانضم الرجل قصة الإقامة الكريمة .. بقصة مضادة لا تكاد تصدق — لو لم يكن
(رشيد) صاحبها وراويها — ويكفى أن أقل منها آخر جاراتها .. أمراً تلقاد غاة
— ومن غير سب — بمبارحة السعودية فوراً .. وعلى طائرة مبددة .. ولم يسمح له حتى
بإلابه .. ولم يسمح له — طبعاً — سبب أى مبلغ من أمواله المودعة في المصارف
لأنها صودرت — ثم قال يملطى :

— ولكن بارك الله فيهم سمحوا لى بأن أرتق إلى صديقك (نحم السهروردى)
فطار المسكين إلى القاهرة ليكون في استقبالى .. ولولا هوده .. لا وجدت أجر هذا
الفندق الذى ترانى مقياً فيه .

رشيد وناصر ؟

نم انتقل الحديث إلى عبد الناصر — ولم يكن رشيد يعرف أى من خصومه فقال فى برامة وحرارة أن هذا الشاب قد عوض الله به شعوب البرودة خيراً .. عن كل ما لقيه من المستمرين والطغاة والمالكين .

وسأله إن كان يقول هذا القول مجاملة بوصفه نزيلاً على مصر ولاجئاً سياسياً هند ناصر ؟ ونفى رشيد أن يكون هو .. هذا الرجل .. وأن يجرى حديثه مع السوادى هذا الجريح .. ووجد ما أكد أن الله عوض به شعوب البرودة خيراً .. وأجزل فى التمويض وأنه يقرر هذه الحقيقة عن يقين بها .. وقد دعى إلى لقائه .. ونحدثنا طويلاً .. وخرج مقتنعاً بأن الحقيقة تفوقت على كل ما كان يطوى عليه خياله .

وأكد رشيد — وهذا هو الذى ينبغي فى المرحلة القصوى — أن كل بلد عربى سيجبر بفضل هذا الشاب .. وأن العراق سيكون فى الطليعة ... حراً كريماً ... وأنه هو — أى رشيد — لا بد حائد ... وأنه سيؤد ليغود ... وسيكون أول إجراء يتخذ مع مصر على المستوى الفردى ... دعوة توجه منه إلى شخصى الضعيف لأزور العراق ... ولأعرف أن بنداد ترى الجليل .

وتلك هى أوجز خلاصة لما حدث بينى وبين رشيد .

وأرجو ألا تكون قد نيت أن هذا الشريط كله — شريط الذكريات التى سقتها لك مساق القصص — قد مر أمام عيني لليلة — إحدى ليالى أغسطس — وأنا فى غرفتي أقرأ نأ حردة رشيد على إلى بنداد .

تقد عاد ...

ولا أشك فى أنه سيغود .

ويومها .. سأكتب إليه ... وسأقول له : « تذكر أن صديقك القديم صديق ...
قل لصديقك الكبير ... يأمر بفتح الباب للنلق » .

وتدرك من ذلك الجو الذي رسمته لك أن سحبر جاء وملؤه النشريات والأمل .
طار رشيد إلى وطنه ليسترد ماضيه ... وعمن والعراق ... في ارتقاب الأمل
النشود ... وعندما أغلقت الأردن الحدود بينها وبين الإقليم الشمالي فتحناها مع العراق
الحر ... لترسل إلى اللادقية أكفاساً رهيبة من الأسلحة والعتاد والذخيرة ... ومن
الألغام والقنابل وقاذفات القنواريج والبنادق والسيارات والرادار والمدافع ... تنقل من
سوريا إلى العراق . . ليتسلح الشقيق الذي نحرر .

وطائرات أكتوبر ؟

وكا ازدان سحبر بمنزلة « رشيد » إلى عاصمة الرشيد .. جاء أكتوبر بمحادث
جديد سعيد .

حدث هبوط نفع عشرة طائرة من أحدث طائرات « الميج » .. إلى مطار
« الحلبانية » بين هتافات الجماهير العراقية .. يمزجها « ناصر » سلاح الجو العراقي ..
وكانت الأسراب العربية يبرضها الجوى في سماء بغداد والنساء يزفرن .. وحناجر
الرجال والشباب تكاد تسكت ضجيج « للميج » .

وفي وسمي أن أقرر أن « أكتوبر » كان شهراً بديعاً . تسطو جو « الزنابة »
خلاله بأريج الروية المساعدة .. وسطابى إلى « الناصرية » خطى واسعة .. لو لم يختم
بنها هر أصحباى مرة بالنة .

● في أكتوبر سافر عبد الحكيم غلر إلى موسكو .. وفوجئ العالم بانفاته

مع روسيا على تحويل الرحلة الأولى من الدلتا إلى وسط في يد من سحب ، وذهبت
التي كثر .

● وفي أكتوبر انسحبت القوات الأمريكية من لبنان والقوات البريطانية
من الأردن .

● وفي أكتوبر تولى توقيع الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية بيننا وبين العراق .
كان كل شيء .. يمشي إلى أحلامه .

ولكن بعض الأطباء والضباط قلوا إلى أن أمهات خريبة بدأت « الحطبات
السرية » تذيبها علينا ، ولا تكاد تملق ..

وقيل إن محاربات الاستعمار بدأت تسيل داخل العراق بالاتفاق مع الشيوعيين
المحاربين من سوريا ويزعمون بين الجملتين أن كل ما يقدمه ناصر العراق من مساعدات
إنما يقصد به الاستيلاء على نفوذ العراق تحت اسم الوحدة ..

وقيل إن اتصالات بات ملاحها على وجوه الثوار العراقيين وبدأ فريق
منهم يطلق اسم « القوميون » على دعاة الوحدة ويصورهم في صور السلاسل
للمتطوعة النازية الزائفة .

بدأ الاستعمار يسيل .. نن .. ومنه الشيوعيون في العراق .

ونجاة .. أقدم السودان — بعد مناورات عابرة — على إنشاء اتفاقية النيل من
جانب واحد .

وبدأ الاستعمار يسيل — إذن — في السودان .. وحده على هذا الصعيد .

تقجير في الجامعة

وهذا مجلس الجامعة العربية في نفس الشهر جلسة خاصة يستقبل بها وفد تونس الحبيبة بمناسبة انضمامها إلى الجامعة ، وأقيمت خطبة الترحيب من كل رؤساء الوفود ، وكان الجو حارياً خالصاً المروية .

ولم يبق إلا أن يخف مطلوب تونس ليشكر .
ووقف ولكنه لم يشكر .

ولما وقف ليتأى بياناً مكتوباً يهاجم فيه الجمهورية العربية المتحدة .

ووقف عبد الحليم غالب رئيس وفدنا — وهو معروف بالانزان والخبرة — فقال بين ذهول السامعين إن كل ما قيل — إذن — من خطط تدبر داخل الجامعة ضدنا، لم تكن وكالات الأنباء التي أذاخه متجنبة فيه كما ظننا .

وانسحب هو ووفده من مجلس الجامعة .

وهكذا وثب الشقاق إلى بيت الأسرة من نافذة جديدة .

وهجبت للأحداث وما تصنع بنفوس الناس ..

ذكرت .. فصبحت .. فنبئت .. فسكت ..

ذكرت الصديق القديم — حبيب بورقيبة — وهو لاجئ سياسي في القاهرة وكان يتردد على مكتبي في «السوادي» — مع الصديق الفلسطيني الأقدم محمد علي الطاهر ورغم التعاقب التي كان بورقيبة يلقاها فقد كنت أحب في عينيه الحياة التي تطل منها حراء قانية .. ترسل دائماً وهباً من التار ، أو ثوباً من الخم .. كيف وقد أجلسه بلاده على كرسي «الباي للعلم» ، لا يملأ هذا الكرسي العربي العربي بكل الطاقات الثورية التي كانت فيه ؟ وكيف أجاز لنفسه هذه القصة ؟

ونكسة في العراق

وأجب من هنا كله ، أن تلقى هذه الخطبة التي تروى فيها تونس مداها عند
دعاة الفرقة في العراق وعلى مستوى الدولة ، فيصرح وزير خارجيتها — وكان يومها
في نيويورك — أن العراق متضامن مع تونس .

نبح الاستعمار — إذن — في السودان وفي تونس والعراق .
وبدا الشقاق يدب كما قالت الأنباء بينهم الزعماء في العراق .
وبدأت أضغ يدى على خدى وأنا في زنتائق وأقول حزناً : يا خسارة يا عراق .

• • •

ولكن توفير جاء ..

ورضت يدى عن خدى .. وبدأ أول الفئيش .. وغضبت على استحياء : مرحبا
بك يا سوداني .

جاءت الأخبار أن جيش السودان .. تار .. على أحزاب السودان .

• • •

ولم أستطع أن أقول شيئاً إلا أن « نامر » ما يزال على الطريق رابط الجأش
موفور الإيمان .

أما أنا .. أنا .. ما يزال أيضاً على الطريق .. ولكن الوقت لم يمن بعد ..
ولعل الذي حان .. هو رجائي أن أكون قد رسمت بالصدق المسكن هذه
للمرحلة الثامنة عشرة في موقعي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

الفصل التاسع عشر

كفى سجنًا

منيت معي فضلا منك - ولا أقول « منيت بك » - نبر الحياة في السجن ..
واقعة بعد واقعة في السر ، وشبرا بعد شبر في الزمن ، وحاجة بعد حاجة في الفكر
والقلب معا .. حتى لقد شعرت أني خرجت بك - أو كذبت - من موضوع
الكتاب .

وإذما حلّ - إذن - أن أعرضك عن هذا اللون الذي استوائى من « لزوم
ما لا يلزم » ببطة أطوى بها سنة ١٩٥٩ في هذا الفصل القصير ، فأشير إلى بعض
« الملام » على الطريق ولا أوضح ، وأعمل عندما له علاقة بأهداف الكتاب ..
ولا أفرع .

ومع أنه علاقة بهذه الأهداف - أو على التحديد بمراحل تحول ذلك « العطف
الكريم » الذي لقيناه من الرئيس مائلا في (المناخ الكريمة) التي يشتر على أي حاكم
من حلم ودم ، أن يرتفع إلى مستواها ليمثل بها خصوصا تأسروا عليه ووقعوا في قبضه .

نكسات ... ومفاجآت ... ونجائع

ويهمني أن يكون واضحا ، أن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن يشتر بأي
غزوة جديدة ، أو بأي مناسبة سعيدة - على الصيد البري أو على الصيد البحري -
ينتهج بها (جمال) ، فيأمر بإخلاء سبيلنا ، بل - على النقيض - لاح لنا أن نحيوط
للملوك بدأت تلوى في يد القائد وتشابك ، ورياح الأحداث بدأت تهب على المنطقة ،
على غير ما اشتهى وتقدر .

بل تهبت (النكسة) في (الرائق) ، وكأنها مناسبة لعروبة كأم ، وغية لكل
عربي ومأم .

كانت نكسة لم تجل أبداً بخاطر .. وهي وحدها التي استأذنتك في أن أتجمل عندها
حزيباً .. وفي أن (أركز عليها) قليلاً ..

و (الرقيق) في رأيي بد تس ..

وهو أشد تلمسة في (قبضة ظلم) منه في أسطك التفتتات .. التي حكاهما تاريخه
للنعم بالمطهَّب ..

وإذا كانت (بنداد) قد سقطت في قبضة المتول ، وظلت وحدها تملأ (التفتتة)
قروناً .. فالمتول كانوا (منيرين) وكانوا (أغراباً) .. و (البربرية) كانت (صفة) لم ..
تلازمهم .. والمصر كان يحتل مظلمهم .

كانت أسرة (محمد علي) تحكم مصر .. وثار (الضباط الأحرار) ثورة يضاء ..
وحرروا مصر من حكم هذه الأسرة .. وكانت القيادة في يد مصري شاب .. طرد
الاستعمار .. وقضى على الإقطاع والاحتكار .. ومضى يبلاده قديماً إلى مكانها .. جزياً
لا يتجزأ .. من الأمة العربية .

وكانت (الأسرة الحاكمة) .. تحكم الرقيق .. ونسج (الضباط الأحرار) في البه
التفتيق على (متوال مصر) وثاروا .. واختلقت الظروف فكانت (ثورتهم حراء)
وعزرائم .. سحلاً بعض الأحياء من الحساكين وقطعوا بعض الرقاب في (القصر
الملكي) وعزرائم .. ونسج القيادة حراق شاب .. تخفنا إليه .. وأخذنا بيده ، وقفنا
ننود عنه أقوى دول الأرض .. وعرضنا أنفسنا لمدون جديد — كان متوقفاً — من
أجله .. فما كان منه إلا أن انقلب علينا ، ثم عاد فاعطب على بلاده قديماً ، فأغرق
طرقاتها في بحر الجلي من الهم .. وسحل (زملاء الأحرار) في التلوع .. وزج بمن
نجا من (السحل) في السجون .. وفتح الأبواب على مصاريها .. أمام الشيوعية

والاستمرار — معاً — يتناولان في تفتيت المروية العاصدة .. وفي تثبيت قوائمها اللندامية ،
وراح يتلدى في المجموع بنفسه (زحياً أوسد) ، وأضحك الناس ولم يضحك ..

وهكذا غشيت المروية غاشية المزمنة في ساعة النصر .. ولأن أن كل شيء مريض
للضياح إذا لم تتحد يد الله إلى هذه الرقعة المريبة بالرحمة الحانية .. لتنفذها من ردة
الاحتلال إليها ، أو من سيطرة الشيوعيين عليها ..

وكنيت أشعر أن (يد الله) لابد أن تتحد .. وبدأت أقرب ما يجد ، وقلبي يحترق ،
وصبني على ناسر ، وما هاهنا يصنع ، وال عراق بسيد ، بسيد ..

ومضى (ناصر) سليم الأوصال ، يسالج (القديحة) التي أصابت (مصدر العراق)
بطريق التهورين من شأن قاسم .. ويثير ضحك الجماهير — واليهالي سود — ويسميه
مرة (قاسم العراق) ومرة (آثم العراق) ويميط اللثام عن شخصيته وعن اليهود التي
بذلها — أي « ناصر » — في سبيل إعادته إلى حظيرة المروية .. ويكشف للناس يد المستعمر ،
والتميل الأحمر ، ويمخر أي طامع من محاولة (التدخل) على مستوى العلوان ، بعد أن
سكت عن (التسلل) على مستوى الأفراد ..

ومضى (ناصر) ، سليم الأوصال ، وعين الإدراك ، يهدهى دائرة التأثيرين حتى
يصفى أنصار قاسم أنفسهم بأشبههم وتسلط أوراقتهم ورقة بدورقة ، وتندفع المروية
نمداً لفتحة من (شذوذ) طاماً أو عادي يفضيها حاكماً ويمضى ، يمضى وبأيدي
المراتيين أنفسهم ... إلى نفس المصير الذي مضى إليه زعيمه نوري وأميره عبد الإله .

ومضى (ناصر) يبنى سوريا ومصر في اتزان وجد .. وكأن كل شيء في العراق
هادئ ..

ومضى (ناصر) أيضاً يصفى الجيوب مع البول المطاية ، ويتقد الاختباقيات مع البول

المسألة ، حتى نخل قهلم أن التكتلات التي أصبحت بها العروبة على أرض العراق لم تعد
عائلا من عوامل التمييق للركب العربي .

وهكذا طب الجراح في مهارة ، وعرف كيف يضحك وفيه مضم بالمرارة .

وأحب أن أقرء أني خرجت من الكفة العراقية وقد زادتني احتراماً لشخصية
هذا القائد .

ولمّاك تدرك الآن - وقد تلبد جو العروبة بالنيوم - ما حنجه هند ما قلت لك
إن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن فيه ما يشر بقرب الإفراج عنا على الرغم من
أن صلاح الدين كان قد نقل إلى قصر السبي .. وبعد التفاح حسن كان قد نقل إلى
مستشفى القمرداش ..

وما كاد يوليو يبدأ - وفيه عيد الثورة السابع - حيث تزدهر الآمال في كل
هام .. حتى كنا على يقين - نحن الثلاثة الذين حُطِّقوا - من أن التفكير في إطلاق
سراح السياسيين في هذا الجو المكثف ضرب من الخيال لا يحمل أن ينشئ
بأمر الله عاقل .

وفي الرابع عشر من يوليو أو من تموز - عيد الثورة العراقية الأول - استيقظت
من النوم وتناولت إنظارى ، ومرت ذكرى العراق بخيلتي ومر معها صدر البيت
المعروف : « عيد بأية حال عدت يا عيد » فبرزت رأسي في أمسى ، وجاء أحد نموذجية
المستشفى يقول لي إن (طبيب أول القيلان) يريد أن يراني ، وكانت مثل هذه الدعوة
عادية .. بالنسبة لي و زملائي في التفتية ، وبالنسبة للطبيب كلما تلقى من الإدارة الطبية
بالديوان العام استفساراً عن الحالة الصحية لأي منّا ، فهو في هذه الحالة يستدعي

المستصرحه ليرى ورثه ، وليرد على المليون رداً (روتينياً) مأثوفاً يذكر فيه الورث ،
والأمراض ، ولا شيء .

وارتديت ملابسى وذهبت إلى المستشفى بصحبة التمورجى .

وما كدت أقرب من ماها المديدى المفتوح حتى سمعت الجلاويش .. رئيس
التمورجية ، ينادى فيهم : (إنتباه) فأدركت أن المدير لابد أن يكون قادماً ، وتلفت
خلفى لأحبيه فلم أجد أحداً ، ورأيت الجلاويش يتقدم منى ضاحكا ويهجم على عنق
بنزاعيه ويقبلى ، ودهشت لهذه المأبأة التى لم يسبق لها مظاهر بينى وبينه . وقلت له
غاضبا : (إنت اعمت ؟) فلم يبال اعتراضى ومال إلى أذنى هامسا : (ألف مبروك ،
جه أمر الإفراج عنكم ، س ما تقولنى إنى قلت لك) ..

— صحيح ؟

— والمصحف الشريف ، آمال أنا أجرات وبستك إزاي ؟

وشكرته طيباً ، وشيت سه .. أجازبه الحديث وأطبل فيه ، حتى أسطر على
أهصابى ، فلما استمدت هذه السيطرة أنعمت ثابت الخلفى أقرب إلى الدهوس إلى مكتب
الأطباء فقال طيب أول وهو يحسب أنه بدلى مفاجأة لآخر لى بها :

— نى يا حى سوادى ، ما انش عاير تسمع محاصرنى الى حاقبها عليكم فى المكتبة
يوم الاثنين القادم علشان تقول لى ملاحظاتك عليها ؟ كرهتنا خلاص ؟

وقلت وأنا أنظلم بالهشة :

— إيه الكلام ده ؟ مين قال لك إنى مش حاسمها ؟

وقال وهو يهقه برغم ما عرف به من ميل إلى الجدل العارم :

— والله العظيم مانت سامعها .. مبروك يا استاذ سوادى .

— حل إيه ..

— حل عتنا بأه .. الرئيس ياسينى اتطف وأمر بالإفراج عكم وأنت
تعاامل والله .

وقلت فى تيات :

— وحدى ؟

— كلكم ..

— الحمد لله .. الرئيس ييجى منه كده وأحسن من كده .

وتبارى الأطباء فى التهنئة مسجيين بثباتى .. وهم لا يعلمون أن اللقائات استنفدت
قوتها من قبل أن أقام .

فى طريق إلى الحرية

كان ذلك يوم الثلاثاء الرابع عشر من « يوليو » ... وأقول الآن بملء فى :
« ومن تموز » .

وهو — كما تعرف — العيد الأول لثورة العراقية .. احتفل به كل حاكم على
طريقته .. خشنه « قلم » بالقلم .. وعطشه « ناسر » بالورود .. وكان لنا — نحن
الثلاثة الذين خففوا — وردة منها كبيرة وذات أرجح .. هدية منه فى الذكرى الأولى
لثورة الرابع عشر من « تموز » .

طرفت الفكرة رأسى .. واتسربت إلى قلبي .. فلذا التفت وتاب إلى « الناصرية »
فى سرعة « الذى عند علم من الكتائب » .. ولولا حرصى على أن أبدو ساعة النصر
« وقوراً » .. لحضت من أحماق غير مخدوع .. باسم « الرجل الذى تأمرت عليه »
عذرها ..

كان الخبير .. قد ملأ « حباب اللبان » .

وكان الزميلان قد لحقا بي ..

وعندما نحن الثلاثة .. تربط بيننا القرعة بعد أن فرقت بيننا الحقة .. وبين حشد من المؤمنين .: اختل منه « النظام » واختلط فيه السجين والسجين .

وأعود وأقول إن خبر الإفراج جاء يوم الثلاثاء ..

ولكن الإفراج فيه لم يتم إلا يوم السبت ..

هذه الأيام الأربعة التي استغرقتها « الإجراءات » .. كانت كلها إفراجاً لا أنسائها .. ولا استطع — وحتى هذه الساعة — أن أعرض لها بالتفصيل .

فرح لنا .. كل سجين .. مع أننا عائدون إلى بيوتنا وم باتون .. فما هو التفصيل ؟ لا أدري .

وكل الذي استطع أن أدريه .. أن السعادة بمنقها وحلاوتها — وكل ما يفنئ الروائي المصنف في وصفه لها — لم أهرقها طوال عمرى إلا في هذه الأيام الأربعة التي بدأت في ١٤ تموز واشتت في مساء الثامن عشر منه ..

أسعد أيام الحياة وأحلاها .. عشتها في زمرانة .. وخلف أسوار ليمان ١١؟

وأطوى هناك ما جرى خلال الأيام الأربعة .. إلى كتاب آخر من حياة الحيارى وللهذين خلف أسوار السجن إن قدر لهذا الكتاب أن يصدر .. وأطوى أيضاً وصفي لحقتنا مع صباط الحرس إلى وزارة الداخلية .. وأطوى كذلك رقة صباط اللياسث العمامة .. وهم يهربون لنا عن أعينهم في أن يكون فضل الرئيس في الإفراج عنا مقدوراً منا .

والهم أنى وضعت قدمي في عربة « لنا كسي » .. وقلت لائق الذي لا أهرق :

« الفحاة يا أسطى » وقال الرجل مجمللاً : « من عنيه » .. وإذا نى أرد صادقاً وكأني
أهوى كل حرف : « تسل عنك » قلتها .. وأنا أحس .. أن نى فى هذه اللحظة من
لحظات عمرى ، شحنة من الرضى ، تكفى لإدخال السعادة إلى كل قلب ، لو أتيح لى
أن أشرها ، على أهل هذا الكوكب ، قلتها وأنا أغنم سيدياً : « كفى سجعاً » .

وحرام أن تسألنى الآن ، عن « مكانى » من « الناصرية » ، ففى مثل هذا الجو ،
لا يسلم الجواب من الشطط وسخف الحديث ، وتحدث ، بعد أن تسطر الحياة بالشاعر .
وبعد أن أجمع من « الجوى الحر » خيوط الحقائق ، فى يدى ..
وأرجو أن أكون قد رسمت بذلك الوصف مرحلتى التاسعة عشرة فى موقفى
من « الرجل الذى تألمت عليه » .

الفصل العشرون

مع الأحرار .. فى الجوارح

وسود الآن مما إلى « الحياة » .. وأقصد نفسى ولا أقصدك لأنك « حر » .

خرجت من السجن إلى « الحياة » .. أحمل شحنة من « الشوق » إلى « الأحرار » .. ملهوقاً على أن أضيق إلى صدرى كل « شئ » حتى « .. كنت أحس إحساساً حريصاً وعميقاً بفصل الله على .. فلم أكن أضيق شئ .. »

وعدت إلى « فينكس » « مقهى القديم » .. فى محاد الدين .. ثم لم ألبث أن عدت إلى « مكتبي » وكان منطلقاً .. فعدنا شباباً واقتنع — وبدأ الصبح يترددون عليه من جديد ..

وبعد عودتى إلى الحياة بأيام خسة .. احتعلت مصر بعيد ثورتها السابع .. وألقى الرئيس خطابه التقليدى .. وفى هدوء البيت الآمن — حيث أنام لأول مرة على جنبى — بدأت أسمع الخطاب — بعقل واع .. وقلب متفتح .

أقول (لأول مرة) .. وأعنى كل حرف .. فقبل السجن .. كانت مسموم انحصوم — حامله الجرائم السود — جرائم الشكوك والأكاذيب — قد انسربت إلى كل خلية فى اللع .. ثم وثقت إلى القلب فنشرت أشباح الشك على كل كيانه .. وتركته مختل الضربات يخفق خفقة الخوف من كل تصرف تقضى للناس .

أما اليوم .. فقد عدت إلى الحياة .. وفى القلب طهر .. وفى النفس سكينه .. والخ — ولا أعنيه بالمعنى التشريعى — جهاز استقبال وديع وواع .. لكل ما يلقاه من نأ .. وجهاز استقبال منصف وهادئ .. لكل ما يتولاه بالبحث .

وكان في غيبي كما قلت قبلا— وما أزال عند هذه الغيبة — أن أضع بكل ما أمك من طاقة الإنصاف .. كل اتهام وجهه الخصوم إلى القائد الشاب عبر السنين السبع.

يبد أن الخطاب الذي ألقاه في العيد السابع .. جاء بالنسبة لأهدافي (ثروة) لا تندر .. ألقاه وكأنه عنائي به .. وضع كل أمثالي .. من الذين ضلوا .. صادقين في الغيبة — وجاء الخطاب .. حصيلة فريدة — تتبين عن كل تحصيل — للثروة وما صنعت عبر السنين السبع .. بكل رشادها وأخطائها — وعلى كل المستويات التي عاشتها .

ومألت غيبي :

— هل الخطاب فريد في بابه بين الخطب .. أو هو قلبي الذي تفتح .. وهقل الذي أدرك .. وهين التي انجذبت عنها الفتشاة .. وفسى التي تخذت من سكوت الزناغة صومعةً تطهرت فيها ... وخلعت من كل عاشية غشيتها . فلما خرجت إلى الحياة . وضحت الرؤية أمامها ؟

لعل الاحتمالين صحيحان ...

أسلوب جديد

وحديثي معك من الآن — إذن — يلونه وضعي الجديد ... ولا محل لأن أناقش الخطاب ... وهو فيها أذكر من أطول الخطب التي ألقاها ... لأنني أشعر أني مقدم على أسلوب غير ذلك الذي تناولت به أقوال الخصوم ... مقدم على أسلوب أقرب ما يكون إلى (البحث أو المحرس) ... وأنا أرمي آخر الخطوط لآخر المراحل في تحول من الكفر إلى الإيمان ... وعلى "إذن أن أخطئ لهذه الدراسة في هدوء ... وكل ما يهني الآن من الخطاب الذي ألقاه أن أقبس من (نوره) ما يضيء طريقى ... وأعتقد أن هذا (النور) سيظل يمشي بين يدي حتى يفتوب — في دفرقب الكتاب — في وجهي (البشرى) .

الرجل البناء

وسيل ... أن أطلق هذا (الأسلوب) على (جمال عبد الناصر) .

لقد قال لنا وأعاد القول — غير السنين التي قاد خلالها الـركب — أن بناء السدود والمعاصر أمر ممكن ... وأن إصدار القرارات والقوانين (أمر حين) ، وأن الصعوبة كل الصعوبة ... في (انخراط البشرية) ... في (صنع الإنسان) .. في (بناء للوطن) وأخذ على عاتقه مهمة هذا البناء .

و (ناصر) — إذن — هو الرجل البناء :

وللبني الذي أقامه — ولا يزال يملأ به طابقاً فوق طابق — هو ما نسميه (الناصرية) ... وللذهب الذي التزمه في إقامة هذا البني هو (الناصرية) نفسها .
و (الرواء) الذي اتسع لها وحدد معالمها ... هو ما أسماه أخيراً (الميثاق) .

وعلى مطالع الثورة أصدر كتابه (فلسفة الثورة) .

وهذا (الكتاب) — إذن — كان (مقدمة) و (بداية) ، و (الميثاق) — إذن — كان (نتيجة) و (نهاية) .

ولقد — إذن — إلى المقدمة من بدايتها .

ولكي يستكمل البحث ملاحه ... ونحفظ للدراسة حلقاتها ... يصح أن أربط بين (البداية) و (النهاية) أو بين (فلسفته) و (سياسته) .. وأن أختر في البناء الذي أقامه . . هل خالف فيه من تلك المصطلحات التي قامت عليها هذه الفلسفة — وعن تلك الانجاعات التي مشت فيها هذه السياسة ... أم أن الأمر كله كان (قدراً مقدوراً) لا فضل له فيه ... وكان (سطقاً) محضاً ... كما يحلو للضموم أن يسووه ؟

مؤمن .. وجاد

وأول ما أسارع إلى إثباته في هذا الفصل أن حبيبة دراساتي المهمة التي انتهت مخروسي من السجن .. وحصيلتي دراساتي الحادثة ... بالقل الواهي والقلب المفتوح بمد أن عدت إلى الحياة ... انتهت كلها إلى (حقيقة كبيرة) لعل (الأمر كله) يتركز فيها ... ولعلها تنبئني عن الخوض في الفلسفة وفي الدراسة وإن كنت أبوى أن أخوض .

هذه (الحقيقة الكبيرة) أرفع اليوم رأيتها بقلبي ... فوق سارية كتابي ... وملء قلبي ارتياح وملء قلبي اقتناع وملء ضميري سكينه ...

هذه (الحقيقة) تقول : إن هذا الرجل (البناء) مؤمن وجاد ... مؤمن بالرسالة وجاد في البناء ... مؤمن — في قرارة نفسه بأنه يحمل للأتالي .. رسالة إنسانية ... ومؤمن بأن قوى الأرض جميعاً بما فيها (قتابل الكوكلات) التي لم تصنع بعد — لا تستطيع أن تنزع هذه الريبة من يده .. وهذه العقيدة من قلبه .

وتستبين هذه (الحقيقة) من غير جهد ... إذا نحن ألقينا نظرة شاملة نعبث بها الطريقة التي يخوض بها للمارك ... لنجد دائماً أنها مارك (دفاعية) وإن تبدت في نظر السطحين (هجومية) .

إنه يبنى ... ويلتزم الخط مستقيماً كما تقضى أصول البناء .. يدهوه الشعب العربي في سوريا مثلاً إلى (الوحدة) ، و (الوحدة) في سياسته يحميها التاريخ — وهو إذ يستجيب لدعوة الشعب السوري إنما يعيش مع تيار التاريخ ولا يقاومه ... فإذا كان المحصور في الأردن أو في العراق يتبررون وصول قواته إلى سوريا عدواناً وهوماً ... على (الحلال الحبيب) الذي يحملون به ولا يتبررون وصولها دفاعاً عن سوريا التي يتآمر الاستعمار معهم عليها ... فذلك شأنهم ... وإذا جاوزوا مطلق (النقد) أو (الاستياء) إلى نطاق (التخريب) أو (المؤثرات) قد فرضوا عليه الحركة فرضاً ... وحق عليه أن يخوضها ... وهم أحرار في أن يصفوا عليه الوصف الذي يطيب لهم .

ونسود إلى التفرقة التي تلقينا على طريقته في المارك «الغرامية» التي تفرض عليه فلاحظ إنه لا يزال في هذه الحالة .. أن يكون خصومه «دولا عظمى» تمكن أن تحو يلاذه .. عن المراقبة .. أو أن يكونوا .. أفراناً يقفون في وجه هذه الرسالة .. فإذا أصابه في إحدى المارك «مكة» .. قابلها بقلب لا يعرف القزع ... وبأعصاب لا تهتز ولا تضطرب .. ووقف رابط الجأش يصارح مواطنيه علانية بكل الأخطاء التي وقع فيها .. ويسمها «تجربة» و يرض أن يسميها (هزيمة) .. ويطن في جنان ثابت أن «التي يعمل» هو وحده الذي لا يحطى .. فإذا انتهر الخصوم فرصة هذه الانتكاسة ... ورأوا أن يفرضوا عليه معركة جديدة .. أملا منهم — وهو متنب — في أن يتراجع .. شذ فانت على الفور ، وخاض المعركة الجديدة بأعصاب أشد سلامة وصلاية ... فلذا أحرر النصر ... حذر مواطنيه من (البطر) ... وبه على (الند) وعلى ما يحمله من خطر .

وهذه الملاحظة ضما تستطيع أن تتخمن سلامتها ... في معارك البناء المخاض بعيداً عن الحدود والخصوم . وللمؤامرات ... والسلاح ... وخذ مثلاً لهذا اللون من المارك السلفية (الإطار) الذي اختاره لقلعة الرسالة ... في البدء اجدع فكرة (هيئة التحرير) ... وقامت الهيئة ، وشئ بالتجربة ، فلما استبانت الأخطاء في «تصميم البناء» لم يتردد في تطويرة إلى (الاتحاد القومى) الأول والأخير ، فلما استبانت الأخطاء ، لم يهتز للمول في يده وهو يعلم البنى الذي أنامه بالسر والفكر ، وبالأعصاب والقلب ، وبالجهد والفرق المتصعب ، ليقيم فوقة المبني الجديد للسمل ، حتى إذا وضعت الرؤية تماماً وحضر على (اللدن) الذي ظل المر يبعث عنه مؤمناً بالشور يوماً عليه ، تقدم إلى شبه في غير زهر ، ووضع بين يديه خلاصة الأخطاء وحصيلة التجارب ، ودعا للسمل ، واليهوض بمسئوليائه .

هذه (الظاهرة الخطيرة) في تكوينه الشخصي وهذه (الحقيقة الكبيرة) في الرسالة التي يحملها ، كان لها أكبر الأثر في تحولى ، نم ، أصبحت أحضد ، أن (إيمانى أنا)

بسلامة (إعانه هو) ، كان نقطة التحول ، في تحول من (الكرامية) لناصر إلى (محب) .
وليد الدراسة بالمثل الرأى ، والقلب المنفتح .

فلسفة الثورة

هذه الحقيقة الكبيرة التي اعتدلت إليها ، لن أضع خيوطها تحت من يدي كما
كانت كل الخيوط تحت .

هذا الرجل يحمل رسالة .

ولابد — إذن — أن يكون له من (مقومات الشخصية) ما جعله (جاداً) في
أدائها ، وحملها ، وما سكن له ، من هذا الحل ، ومن هذا الأداء .

وإنما — إذن — أن أعبر حياته ، لأعرض لأمرين عبر هذه الحياة : الأمر الأول
مؤكد شعوره النامض بحاجة بلاده إلى كفاحه كفرد ، ومسايرة هذا النفوس في الشعور
حتى تبلغ مكان الوضوح فيه — والأمر الثاني : مؤكد شعوره بحاجته إلى الجماعة وتنظيمها
كنهج أصيل وقاعدة طيبة لهذا الكفاح ، وكعب أخير لتلقى الثمر .

والأمران يتصلان بأهدأ أوتى اتصال ، الأول يكشف عن وجهه (الأصل) في
(الرسالة) ، ومدى «البدئية» فيها وعن جنود (الثورية) في (شخصه) وعن مدى (الطاقة)
في هذه «الثورية» والثاني : يفصل بين (شعبه) و (فردية) ، أو بين جوهر الديموقراطية
التي ينادى بها ، و (الهديكثاورية) التي عقلت بأطرافه .

وكتابه (فلسفة الثورة) ، هو في رأبي — ويد كل مطالعته ودراساته —
(مفتاح) للوقوف كله ، ولله يهدينا إلى ما هو أبعد .

بنور وبنور

وتبدأ مهمتي بالبحث عن «جنود الرسالة» في «أعناق ناصر» .

وفي «فلسفة الثورة» حاول هو أن يبحث عن «بنور الثورة» في نفسه . .

ضاد بذاكرته إلى اليوم الأول الذي اكتشف فيه هذه البذور .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد في حياته من أزمة مادي الضباط في سنة ١٩٤١ لأن تنظيم الضباط الأحرار كان في ذلك الوقت قائماً بياثر نشاطه .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد في حياته من فضيحة الأسلحة الفاسدة .. لأن التنظيم كان « موجوداً قبلها » وكان نشاطه « وراء الضجة التي طغت حول الأسلحة الفاسدة »^(١) .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد في حياته من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ بداية الحرب في فلسطين .. لأن خلايا الضباط الأحرار كانت (تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز)^(٢) .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد في حياته من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وإن كانت هذه الطعنة (ردت الروح إلى بعض الأجساد وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستملوا للدفاع عنها) .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد في حياته من ذلك (القودان) الذي عاش فيه طالباً يمشي مع المظاهرات في سنة ١٩٣٥ .

والتضحك له — بعد أن لاحظ أن تلك البذور لم تكن كامنة في أمهاته وحده وإنما

(١) صحيفة الأسلحة الفاسدة .. كان قد أنزلها الزميل « إحسان عبد القدوس » في مجلة « روز اليوسف » وسبق لرفاتي بأن إحسان « قال » في كل عمل يباشره .. فقد كنت أهد لرفاتي بأن وراء ربيعة الثقل الذي أحسن رسم الفضيحة ثورة محمد بهمة ليياثت كثيرة .. ولم أكن أهرب أنها ثورة « الضباط الأحرار » إلا من كتب « فلسفة الثورة » .

(٢) وقال ناصر في كتابه يشق على نقاط الخلايا في فلسطين ما يأتي بالمرء :
« في فلسطين جاءني سلاح سالم وركبنا معي الذين واختاروا الحصار إلى القنطرة وجلسوا إلى الحصار لا يهرب له نتيجة ولا هجاء » . وكان حديثنا العاطل ومنا الذي جعل علينا أن نحاول إقناعه . وفي فلسطين جلس إلى حوارى كمال الدين حين فقال لي وهو سالم الفكر شارداً الثورات : هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟ قلت : ماذا قال ؟ قال كمال الدين حين وقى سوتة برة حميدة ولي ميبة نظرة أعني : لقد قال لي : إسمع يا كمال ، إن ميشال الجهاد الأكبر حوى مصر » .

(ولدت في أماننا حين ولدتا . . وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه في وجدانا جيل سبقنا) .

ويبدو أنه أحس أن قارئه كان ينتظر منه تحديد اليوم فصلا ولم ينتظر الحديث على المستوى الفلسفي الذي ارتفع إليه .. فاحذر بأنه يمشي وهو يضع الكتاب في دوامة وأن الذين يمشون في أعماق الدوامة قد تختلط عليهم بعض التفاصيل البعيدة لها .

البذرة والنبت

لم يستطع أن يحدد اليوم الذي اكتشف فيه بذور الثورة في نفسه .

وهو على حق — من حيث البذور — وهي بطبيعتها غير قابلة للبحث عن وقت إبداعها . . لأن البذور إنما تنقلب يد الله في الصدور . . كما تلقى يد الفلاح في أرضه بذور زرعه .. فإذا مررت بالأرض سد إلقاء البذور فيها .. لم تر شيئاً .. أما متى تعرف أن هذه الأرض أودعت بذوراً .. فتد ما يظهر النبت فوق الأرض . وال لحظة التي تقع أعيننا فيها على هذا النبت .. هي التي نحدد يومه وتؤكد أن بذوراً أقيت في أرضه .

وسواء أكانت هذه البذور (أملا مكبوتا خلقه في وجدانا جيل سبقنا . .) أم كانت أملا مكبوتا .. رسنته في أحماق عقلا اللوامي .. أجيال وأجيال .. وراث إنساني صارب البذور في تاريخ الإنسان .. فإن (رملاء جال) في النشأة وفي المدرسة . وفي البيئة وفي الطبقة . . وفي العبا والشباب . . وفي الكفاح وفي السلاح . . كلهم . . أو جلهم — كان له الحظ نفسه من ذلك (الأمل المكبوت) ومنهم من زاملوه في كل مراحل النشأة . . وفي كل ألوان الكفاح . . ومنهم من ثاروا معه . . وأكثوا وما يزالون يؤكثون . . أنهم (رجال غير عاديي) .. وأقول أن (رملاء جال) . أولئك وهؤلاء — ورغم التماثل والتماثل — لم يخرج منهم إلا (حلال) واحد فلماذا ؟

هذا هو السؤال .

وهذه هي (البذرة الخاصة) التي تتأهل للبحث عنها في (ذاتها) وفي (خاصيتها)

قبل البحث عن « القصيدة » التي تحصى إليها وتشاركها فيها كل « البديور المتتية » . .
أو قل : هذه هي « البديرة العظيمة » التي نستطيع أن نهت عن « اليوم » التي (نبئت)
فيه لتتعب التبت من يومه الأول إذا تنظر البحث عن (البديرة) في ذلكها . .
وعن سر تكويناها . إيماناً منا . . بأن أسرار التكويرة ، تظل تضرب في زمن لا يعرف
مداه إلا الله راجية بنا في تسلسلها إلى الزراء هير ملايين السنين . . أو غير التاريخ الإنساني
الطويل . بل عبر أزل لا ندريه . . إلى خالق الكون وصاحب سره المكنون .

في المدرسة مثلاً ؟

ولقد قرأت كثيراً مما كتبته . . وأتبع لي أن يكون من بين صحبي أساتيد
تتقى دروسه على أيديهم وشبان اتصل بتاريخه . . تاريخهم . . ومواطنون يعرف كل
منهم شيئاً عنه في مختلف مراحلها ولست في حاجة إلى أن أضيفهم . . أو أنظر إليهم نظري
إلى (المراجع) في (البحث الأكاديمي) وإنا أنا أعتبرهم (معارف) وقت عليها . .
أستخرج منها ما تدل عليه . . لأرى هذا القائد أخيراً بين بصيرتي . . أو بين ريشتي .
وفي الصورة التي ثبتت سلامة همي . . لمراسلة التي يحملها . . ولأوجه « الجلد » فيها .
والفتحة ، التي أطلق منها ، ولطاقة التي تسلم بها ، وللمواهب التي أهلتها لها ، وللأدوات
التي غلّت تفجير الطاقات وتلهب المواهب ، ونؤكد من كل (دفع ثوري) ، قوة (دفع
آسر) علم يهدأ ، ولم يلهث ، ولم يرهب ، ولم يتردد ، ولم يلق الراية يوماً .

وأماي الآن (حقائق) نشر جاب منها ، وعرفت أكثره من المصادر التي أشرت
إليها فدهنا ترحم ، بين ريشها ، فترة .

● في سنة ١٩٣٠ وكان تلميذاً صغيراً يبلغ أحد عشر عاماً ويعيش في علمه الثاني
عشر ، لم يكن بأن رسدو خلف بائع حطري يشتري بقرشه شيئاً منها ، كلا . . في ذلك العام جرى
حلف مطاهرة وآها تشنهك مع (البوليس) في ميدان للنشبة في الاسكندرية ، وهي تهتف
بجسوط الإنجليز والظنات ، ورأى نفسه يتصرف فيها ويضرب مع الضاربين في رجال البوليس

وليصاب مع المصابين بحرج ، وليعود إلى منزله يحمل أول روسام حمله ، من غير أن يفهم شيئاً
فإننا نسمى هذه الخلدات ؟

نسى — في رأيي — إن هذا المصبي (نورى بالنظرة) .

وهذا (النسى) هو أول مظهر ، الذبت وقد شقت البذرة الأرض من فوقها لتطل
على سطحها ، وأنا أرى أن لحظة اندفاعه تلك ، تحدد اليوم الذى يبحث عنه فى
(فلسفة الثورة) .

• • •

ولا أشك فى أن أهله .. وصفوه فى ذلك اليوم بأوصاف شتى ، بمفردات وحل ،
« بشقى » و « عفريت » و « جن مصور » و « هوه ملكه ومال للظلمات » و « الولد ده
مش حايجيها البير » .

ولعل « العبارة الأخيرة » قد قيلت .

فإن كانت هذه العبارة قد قيلت ، فقد كانت « صوت القدر » ، يصب فى آذان
الأرض « صورة القدر .. » أو « حير القدر » .. من غير أن يدرك « مرسل العبارة » ،
أى صدق أرسل .

• • •

وهذا كله من ناحية « جمال » وهو يبحث عن يومه فى فلسفة ثورته .

أما من ناحية فأننا أبحث عن « بذرة الرسالة » لآعن « بذرة الثورة » ، لأن
« الثورية » ، وقود الثورة ، ولأن « الثورة » ، أداة « الرسالة » ، وفى رأي أن انخراط
المصبي وهو فى عامه الثانى عشر فى مظاهرة تهنئ لمصر وتغرب « البوليس الظالم » —
وصورة البوليس كانت فى تلك الأيام مكسوة على ذهن كل صبي بأشنع صور الظلم
فيها — تحديد لا شك فيه لأول نبت نورى فوق سطح المصبي ، ولأول يوم تواجد فيه
مع القدر إن كان لا بد من عودة إلى قصة القدر التى وثقنا على أوتارها أول ألسنها
فى تمهيدى الكتاب .

ولو أن «الصبي» رأى للتظارين يحيطون الكواكب وينهبون اللعب أو النكاح أو الحلى أو الساعات أو الأفضة أو الأحذية ، تخاض غلرها وشرى وباعها - كما يقول ابن شداد - قلنا إن الصبي إنما « تمتع » ليتنعم ، وتفيدنا الحوادث في حسابه للدين « مطرة من بذور التفتية » لا الثورية .

ولو أن «الصبي» وقد حرج .. حرج يحرجه على جريدة «البصير» أو « وادي النيل » ، وطلب أخذ صورة له كبطل صغير ، لتفيدنا الحوادث في حسابه للدين « بذرة من بذور طلاب الشهرة » على طريقة الصور التي يراها فوق الفاشية ، ولسكها كانت « نبأكا » طمر « لبذرة » كنت .

مصر الفتاة ؟

(٢) وعلى مطلع العام الدراسي في سنة ١٩٣٤ التحق مدرسة « النهضة المصرية الثانوية » بالظاهر ، وما كاد يبدأ الدراسة حتى كان محط أنظار الأتراك ، لأنه اندمج في صمت وجد يسهم في جميع أوجه النشاط رياضية وخطابة وتمثيلا - دينا مود .. لا يعرف الحدود ولا الراحة - ثم لم يلبث أن انضم عليهم فناء المدرسة وهو يحمل شارة (مصر الفتاة) وكانت يومئذ شيئا (شبابيا) و (تقدميا) و (مثبرا) ، كان زعيمها أحمد حسين ثوري الزعة ، وكان قد قام وهو في الخامسة بمشروع القرش سنة ١٩٣٣ فلما فرغ منه أغراه بحاجه في الاتصال بالجاهلير والتأثير فيها بخوض غمار السياسة فأسس جماعة (مصر الفتاة) وزعمها ، وكان ساعده فيها ، حتى وضوان وكال الدين صلاح ، وكان من بين الشبان البارزين فيها محمد صبح ، فلم تفت (جمال) هذه القرصة لتضيق طاقته الثورية فيها ، فالتحق بها ، وتحسس لها ، ولم يترك اجتياها متقدما لم يشهده أو لم يشارك في النقاش وفي الشجار ، وفي مقارعة الحجة بالحجة حتى إذا عاد إلى مدرسته راح يشر مباده جماعته ، ويتبع كل شاك ، فإذا انتقل أتراه إلى (للزاح) على المستوى الذي يجري عادة مع التلاميذ اعترلم ، ولأذ بالصمت ووقف بعيدا ، كأنه شيخ وقور يرفع عن النزول إلى تصرف الشيلب العائش ^(١) .

(١) وأنا أعتقد في تصرفاته على روايات أظنها عن اثنين من أساتيد جا برسي المبدى رحمه الله وأحد حبيبي القرون - وكلامها كان مدرسا لثة عربية وكلامها كان صديقا ل .. وأولها كان استنادا إلى ذات علم .

فلماذا تنى هذه الوقائع ؟

تنى - فى رأى - أن هذا المصطفى ألقى من الصبا طاقة شاعرية وكفاحية غير طرية وتننى أنه صبور على السمل ، جاد فيما يعمل ، وتننى إذا آمن بالفكرة ، فنى فيها ، وداد عنها ، وقاىل فى سبيلها ، وتننى أنه بطيسته معزول من السملر والمضاهة ..

والقيادة ؟

(٣) وفى أواخر سنة ١٩٣٥ أذاع سمبول حور - وزير الخارجية البريطانية - تصريحه المشهور يرفس فيه حودة دستور سنة ١٩٣٣ (وكان إسمايل صدقى قد اعتره دستوراً قصفافاً واستبدل به دستوراً جيبياً آخر) فثار الطلاب وخرجوا إلى الطرقات واندفعت الجمهير نشد أزرم ..

فى تلك الأيام ظهر الجانب الرضاء من هذا الفتى ..

ظهرت شخصيته بكل مقوماتها فنظم من الطلاب مظاهرة ، وقادها إلى ميدان باب الحديد فى نظام عجيب ، ليلقى بطلاب المدارس الأخرى ، كان قد عين فريقاً من الطلاب يتولون (المتناف) بعد أن حدد لهم (المبارات) ، وعين فريقاً ثانياً لجاية المظاهرة والانتحام بالبوليس (عند الروم) ورسم لهم طرائق الانتحام . . والفرومى يكون ، والكر وكيف يكون .. وعين فريقاً ثالثاً للدهاية لدرسته بين طلاب المدارس الأخرى ، وللانصال برعاء هذه المدارس والترف طيبهم أثناء المظاهرات ، ودعوتهم للاجتماع به بعد أن يروا ثمار تنظييه .

وردت خطورة للمظاهرات ، التى انتهت بطرح الرعاء على التكتل ، وتأليف اللجنة الوطنية ، وإنما يمتنى من البحث أن فنانا استطاع أن يعظم للمدارس الثانوية تشكيلاتاً ، وكانت الانتصايات للجنة التنفيذية العليا الطلبة على الأبواب فانتصب ممثلاً للمدارس الثانوية فيها ، وقاد جموعهم قيادة رشيدة لا يبلها إلا المدرسون عليها ، وانقضت له عجة (المصور) يومئذ صورة نشرت له وسكتبوا تحتها اسمه لأول مرة رعباً (صغيراً) بين رعاء الطلاب الثائرين ، وقد طوى هو تلك الفترة للشبوبة - على كل

الروعة فيها عبارة تناعت في التواضع وهو يقول في « فلسفة الثورة » بحثاً عن يوم
اكتشاف البثور في نفسه أنه أبعد أيضاً من « الثوران الذي عشت فيه أيام كنت
طالباً أمشي مع المظاهرات الطائفة سوداء المستور » .

فإذا يعني هذا الذي ترمي به كرمياً وأسماء « فورانا » ؟

يعنى - في رأيي - القدرة المتوارثة على التنظيم ، والسيطرة عليه ، وحسن توجيهه
هـ ، بل إلى تشكيل التلاميذ الذي أطلقه « فني » وأسماء « مورانا » ، كان النموذج البدائي
أو الصغر ، نفس « التشكيل » الذي أقله من الضباط الأحرار ، وهو « شاب » ، وسيطر
عليه ، وأحسن توجيهه .

والفارق يا « أسى » ، أن « أخانا الفتي » في تشكيل التلاميذ سنة ١٩٣٥ ، ضرب
وحبس وأصيب رصاصة ، وذهبت جهوده عبثاً ، لأنه كان يطلب الاستقلال والحرية
جذالات ومظاهرات ، أما « أخونا الشاب » في تشكيل الضباط في سنة ١٩٥٢ علم يضرب
أحدًا ، بل خلع ملكاً ، وتزوج شعباً ، وصنع تاريخاً ، وحرر شعباً ، وأسس قدوة ،
بسطت جناحيها بالنور على كل فج من فجائع العالم معتم وورقت بها على كوبا وأمريكا
اللاتينية ، بعد أن أغارت بجاهل آسيا وإفريقيا ، وانتهت بالاستمرار إلى قرار تصفيته .

والديكتاتورية ؟

وهنا ينفض اعتراض يتصل بأهداف الكتائب وأكاد أنشر فيه ، لأن الناصم
ما يزالون يلوكونه ويرددونه ، وهو اتهامهم إياه بالمرور إلى الديكتاتورية - فهل كان
بجراح هذا الفتي يومئذ في السيطرة على مدرسته وعرض رعايته على طلابها إرضاءً بالثمة
التي توجه إليه الآن وهو زعيم ؟

الجواب (الكبير) على (السؤال الخطير) يبين من (حلات صغير) أسوة
إليك في سطور ..

كان (جمال) ضوياً في (مصر الفتاة) كما قلت .. لأنه كان (ثائراً) ، ولأنها
كانت (نائرة) ..

وكان يوليا كل قلبه للنض .. وكل طاقاته (الثورية) .. ويساهى الآخرين
أو يستعدهم بحمل شلوتها فوق صدره ..

وذاث يوم ظهر الفتى بين آرايه .. وصدره غير مزدان بالشارة ..

وعرف الأكراب أن (جمال) لم يضل عنها قط ، بل حلمها وألقى بها فوق الأرض
بعد نقاش طويل وحاد .. وداس الشارة بقدميه في غير تردد ولا رحمة ..

فهل تعرف السبب في هذا (الاغلاب) غير المتوقع ؟

السبب أن (جمال) رأى — خطأ أو صواباً — أن زعيم الجماعة نراخ إلى
(الديكتاتورية) ، وأنه يسخر جهود الجماعة لإعلاء شأنه هو .. قبل شأن مصر .. ولبناء
أعجاده هو .. قبل أعجاده مصر ، واحتج ونقش ، ونخاض غمار النصوصة وناضل ، حتى
التنع أخيراً — خطأ أو صواباً أيضاً — أن أحمد حسين يريد أن يكون ديكتاتوراً —
كوسلوفسكى وهتلر — وجمال لا يكره بكل قطرة في دمه إلا الديكتاتورية ، ومن أجل
هذا ضعى بالجماعة وداس الشارة ، وداح يبيحث عن مجال شهابي جديد ينفجر
فيه طاقاته .

هذا الفتى قبل هذه القطة صغيراً ، هو الذى انتهت النصوص بالديكتاتورية زهياً
وقد وقت برعم حتى تحت هذا الوم ، ورفضت بكل قطرة في دمي أيضاً أن
أضوى تحت لواء هذا (الديكتاتورى) ، حتى صحت ..
وكان لى هنوى ..

وكان كل الذين ضلوا .. صادقين في الضقة مثل .. لم ظفرم ..

كان جمال في مستهل حكمه يجمع كل الخيوط في يده .. ويستأثر بكل السلطات
وحده ، وكان من حقنا فضلاً أن نسيه (هتلر) ..

ولكن القى فانا ، أنه إنما جمع كل السلطات في يده ، خوفاً عليها من أن تنفلت كلها ، وترسح إلى الأحراب مرة أخرى ، جسمها فأقام بها بناء مشغوراً ، وها هو ذا يسود في خشوع فيرد الأمانة إلى أهلها ، ويسلم الشعب في (الميثاق) ، المبني والمفتاح معاً ، ويقف أمام الباب الكبير ، جديداً ، (ديدهانا) ، وحارساً لا أكثر ..

وتخرج ؟

وتخلى الفتوة وتخرج ..

وفي متباد التقي يزملاء ، وفي السودان التقي يزملاء ، وفي القاهرة وغير القاهرة التني يزملاء ..

وعرف كيف يختار الرفاق ..

اختار منهم ، أصدقاء الفكرة ، وأصدقاء العقيدة ، وأصدقاء الاحماء ، وأصدقاء الأسلوب ، وأصدقاء الهوى ، ومشوا في الصف إلى التشكيل من غير تشكيل ، وبأيوه بالزمامة تلقائياً من غير أن يدهوم إلى البيعة ، ووضعوا أيديهم على ميزة القيادة فيه من غير أن ينادى بنفسه قائداً ..

ومن هذا الحق في هذا التواصي ، ومن مدى الصدق في هذا التآخي ، تدرك مدى السلامة ومدى الصلابة في الأساس الذي قلم عليه للبنى ، ولا تدعش أبداً للصلبة التي ربطت بينه وبين عبد الحكيم عامر مثلاً — حتى لقد أسماه بسمى الناس يوماً بالرجل الثاني في الدوة ، ولحققة أن الدوة ليس فيها رجل ثان ولا رجل ثالث ، وإنما فيها قلوب تواصت بالمثل وتواصت بالقيم ، وتجاوزت في قائد ، وفيها القائد الذي يتروج وينجب فيسمى ولده (عبد الحكيم) .

ولم يكن المجد رخيصاً إذن ، ولا كان وليد صدقة ، ولا كان (خبطة) من (خبطات الخط) كما كان الخوصم يقولون .

لقد بدأ كل شيء يتكشف على سهل .

والخفافين قد تستغنى طويلا ، ولكنها تظهر يوما .

وحاموذا .. (ممل) على طريق السكك ، رائع ومضى . ، وقد ظهر أخيراً على الطريق ومد عشرين عاماً ولم يكن أحد قد تسلم به قبل ، ولا خطر لقائد الشعب أن يشير إليه يوماً ، وهو أكبر دليل على أن (الثورة) في جلال عريضة فيه عرافة لهم في المروق .. وكانت تعرضه للخطر من مطالب السر ولم تكن له منيا .

عزيز المصري ؟

وأخى هذا « الممل » .. ذلك « القاء » الذي تم بين عزيز المصري وجمال عبد الناصر ومعه خمس صبية .. والفتنة الشعب أخيراً وعبراً من م « جمال » وهو يخطب .. ويشير إليه ولا يوسع .. ليكرم به رجلاً يباشر الشيوعية في داره ويمشي إلى التسمين ووجب أن يكرم .

ثم من عشرين عاماً .. وفي سنة ١٩٤٢ .. تلح ثلاثة من الشبان الثائرين .. جمال و بنداري وكل الدين حسين .. يبحثون عن الثورة في عسكري شيخ .. محروب ومدرّب .. ويطرقون الباب على صاحبها من غير أى تطرف سابق .. ويسألهم عن صفاتهم ويقولون إنهم صباط صفار في الجيش .. في حاجة إلى من يرشدكم إلى طريقة لتحرير بلادكم .. ويصبح الشيخ الشجاع صبيحهم وفي غير تحوط ولا تخرج : « الثورة ... ولا شيء غير الثورة .. ولا يعني أن تكونوا ضباطاً ثائرين .. أو جواسيس على .. فقم السيلسي » ومن ذلك اللحظة أدركوا أن لهم تحت سماء البلد آياتاً روحياً .. يتخفون من ثورته مناراً^(١) .

(١) ولما كنت لا أستطيع تحديد دور عزيز المصري في توجيه أولئك الثوار إلى أستطيع أن أرى صياحه على بني القنارات التي جرى بها تم جال وهو يقول في كتابه « وما أكرز الحظوظ في مستها في تلك الأيام وما أكرز القائل التي سهرتها أعد القصة للاممال الإيجابية . كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة برهسية شجرة .. كانت لنا أسرار حاله .. وكانت لنا رموز .. وكنا نشعر بالظلام .. وكنا نرس القسائم جوف القنابل .. وكانت ملفات الرسائل من الأمل » .

فلماذا تمنى هذه الواقعة ؟

تمنى — وهذا رأيي — أن من أبرز صفات هذا الشاب إحصائه الاختيار .. لمن يرشده رائداً .. ولن يملوه أفعاً .. وتمنى أن الرابطة بينه وبين صحبه أعضاء القيادة قديمة ، وأن القسوة تجمع بينهم من مطالع شبابهم ، وأن الأمر كان من بدايته جيداً لا شك فيه .. وإقديماً لا جبن ينتشه ولا ضعف يبروه .. وحسبك أن تعود إليه زكريا بمعي الدين وصلاح سالم اللذين اتحما حصار الثوار جراحاً ونحت طلقات العدو وفي فدائية قُلت مظاهرها ليقيا « جال » .. ولينباحث الثلاثة في أمر مصر .. والمحصار مضروب حولهم . « والله » .. نعم أمره عليهم وأهمه ^(١) ..

ولم يكن الأمر — إذن — أمر شيان فارغين يتظاهرون أحياناً .. أو أمر قوس يتسجل أعباداً .. أو أمر جهالة تفرح حقا ..

وأنا .. أعرف « عزيز المصري » ؟

قد تكون مفاجأة لك ، أن أتهز هذه الفرصة — وعزيز للمصري على قيد الحياة والشهود باستثناء اثنين أحياء — فأروى لك قصة لم تنشر .. لثرى أن عزيز المصري كان يد الثورة قبل قيام جمال بها بشرين علناً .. ولم يكن مجيئاً — إذن — أنه يقول لجمال وصحه « سد عشرين » ومن غير أن يعرفهم : « الثورة ولا شيء » غير الثورة .

أروى لك هذه القصة — وأرجو أن يتقبلها أحد الضباط الأحرار من بلعوا في الثقافة والنسب شأواً ، يفرض عليه حاية القربى الشهي ، وأخى به الأديب الفنان

(١) والله زفر « جال » إحدى حاسناتنا — بعد نجاح الثورة — وسبق بإيجله الأسايد فيها — وكل منهم يريد أن يقدم فيه بدلاً من أن يقدم له أنكره ، فلتسمع أن يؤدي كل منهم واجبه وهو في مكانه ولا يقرب على فلكه الوقت في كتابه : « ولم أبدأ أن أقول لهم إن مسلم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساطنة في كلية أركان الحرب ، وحدا دليل على امتيازهم في حاجتهم كجنود محترفين وفلكه لم أبدأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة هم عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكان الذين سجدوا رفاقاً عزيمت استثنائية في ميدان القتال في فلسطين » .

العلم ثروت مكاشه ، أرجو أن يتبنى هذه « الحلقة من تاريخنا الثورى » فيتمرنى من عزز للصرى يائها وينهض بقله — ويكتب من كتبه — بحمة تبيها .

كان ذلك قبل أن يطرق جمال وصاحبه .. باب عزز للصرى بسمة أهوام أوغمانية .

كان عزز مديراً للدرسة البوليس (كلية الشرط الآن) وقد بحث الحياة فى شرايينها وألم صالة للمحاضرات فيها ، وجاء بأصدقاء الكفاح القدامى — للتدسين — من أمثال الرحوم الدكتور نصر فريد ليحاضروا الطلاب لقاء مكافآت ، وكان لبلوك الطلبة الضباط حكمدار شاب واسع الأفق والخيال — هو للرحوم اليوزباشى عبد الحكيم الشريبنى (من أسرة الشريبنى المعروفة فى بلدة دجا — أسبوط) وكنت صديقاً لعبد الحكيم ، أتردد عليه فى مكتبه — وكنت قدمت استقالتى من جريدة « كوكب الشرق » الوفدية فرأى عبد الحكيم أن يفسح لى مجالاً فى الدرسة أكتب لهم منه ما يحتاجون إليه من بيانات ومحاضرات ومقالات وخطب لقاء مكافأة أيضاً كما كان عزز للصرى يفعل مع نصر فريد .

وكان عزز يقيم فى الدرسة مع روجه الأمريكية التى هربت بعد ذلك بطلقها معه إلى أمريكا ، وكان يولى عبد الحكيم ثقة لا حد لها ، وكان — أى عزز — يعتقد أن عبد الحكيم خلية ثورية لا شك فيها ، وكان لعبد الحكيم طاعة من الشبان التابعين كلهم يومئذ برتبة ملازم — باستثناء (اليوزباشى) خليل الديب — ومنهم الرحوم محيى الدين أحمد ابن عم زكريا محيى الدين ، وقد توفى من بضعة أعوام وهو كبير السن فى كلية الشرطة (نفس الدرسة) ، ومنهم عبد الحميد خيرت (محافظ سوهاج الآن) وعمود رياض ، وعمود الشافعى (مدير الأمن فى محافظة الاسكندرية الآن) والسيد عبد الحفيظ (فى الممثل الآن) .

ووقع اختيار الملك فؤاد على أحمد حسين وعزيز المصري ليرافقا ولي العهد (الحبيب ١١٢) و (أمير الصعيد ١١٢) فاروق إلى لندن .. رائدين ومشرفين على دراسته .. وإعداده للملك .

وقبل أن يسافروا.. أسرَّ عزيز المصري (إلى عبد الحكيم الشريفي) بما ينويه وقال إنه سيد الأمير الصغير (إعداداً) لا يحول مختاراً إليه .. وسيخرج منه ملكاً ثورياً غير مسبوق في تاريخ اللوك .. وسيود به ليظهر مصر من المستعمرين .. وأن على (عبد الحكيم) أن يمد قسه لكفاح ثوري قريب .

* * *

وسافر عزيز .. وبدأت خطباته ترد على عبد الحكيم .. (ولا أترك في أيها محفوظة عند آل الشريفي .. لأن توفيق شقيق عبد الحكيم كان قد تزوج امرأة أخيه ليري أولاده) .

وكان (عبد الحكيم) يولني ثقة لا حد لها أيضاً .. ويدعوني إلى بيته في مصر الحديثة ويطلبني على هذه الخطابات ، وفيها يرسل عزيز صرخات نارية من (المهر) الذي يدفع إليه أحمد حسين ولي عهدنا الصغير .. وأن خطبات عزيز إلى الملك فؤاد بالشكاية والاحتجاج لم تكن تلقى أي رعاية ، وأن (يدأ) ذات سلطان في القصر تحمي حسين من هذه الاتهامات .

والذي يهني أن عزيز المصري .. كان يلح على (عبد الحكيم) أن يمد خلاياه الثورية ويتأهب .. حتى يمود عزيز .. وكان عبد الحكيم يضحك ويسألني : « إيه فكرك ؟ الرجال حا يودينا داهيه » وكنت أقول : « ولا داهيه ولا حاجه .. ما تحبش أمله فيك لما يبي ونشوف تكتيكك إيه ونحكم » . ويقول عبد الحكيم : « الرجل متدفع يا عمده .. ده يقوم لك وهو في الستين من العمر الساعة خسة الصبح و بينطلون شورت ويمررى رى الجن كذا كيلو لو جريها أي شاب متنا يقطع قلبه » و يضحك عبد الحكيم ويقول : « طيب يا سيدى ملينى إلى إنت هايزه » وأمل .. وهو يكتب بخطه .. ويظل عزيز يكتب .. ويظل عبد الحكيم يرد ..

وأحزن خاتمة لقعة أنى لا أعرف على التحديد .. معبر الثورة التي كان يد لها
عزير لطره المحلل و « حكم البلد دى بثلاثة أو أربعة مخلصين » - كما كان دائماً يقول -
لا أعرف ممبرها في ذلك القلب الذي لا يشبع .. لأن عبد الحكيم الشريفي عليه
رحمة الله ذهب ضحية حادث وقع لسيلوته في الطريق الصرلوى .. ولا أعرف حتى
الآن إلا أن « جمال » مع صاحبيه زلوه في سنة ١٩٤٢ فقال لم « الثورة ..
ولا شيء » غير الثورة « فأعلنوها في سنة ١٩٥٢ وأستطيع أن أرى بيني خيال «موقع
الفرجة وهي تنسقط يومئذ من بيني عزير للمصرى .

من هو جمال ؟

وأحب في خاتمة الفصل أن أراجع معك بعض ما وقفنا عليه من جواب الشخصية
الناصرية ومقوماتها ، عبر إني حشر عاماً ، من سنة ١٩٣٠ عندما هتف في ميدان المشية
وضرب ، حتى عام ١٩٤٢ عندما قاتل لم عزير « الثورة .. ولا شيء » غير الثورة « .

اكتشفنا في هذه الشخصية الحقائق التالية :

- ١ - ثورية فيه كاستة من الطوق .
- ٢ - طاقه نشاطية لا حد لها .
- ٣ - قدرة على السيطرة نفسه دائماً في مركز القائد .
- ٤ - قدرة على التنظيم بفكر مرتب .
- ٥ - قوة على الإقناع إذا هو ناقش أو خطب .
- ٦ - قوة على التبصير إذا خاض المجتمع .
- ٧ - حب للعمل ، و قدرة على التوجيه ، وحزم في التنفيذ .
- ٨ - حسن اختيار للأصدقاء .

٩ — البحث عن التجربة والانتفاع بها .

١٠ — إيمانه برسائلكه .

هذه للمسلم المشرقة — تبدو واضحة على طول الطريق الذي تبلورت فيه شخصيته
بدءاً من عامه الثاني عشر وانتهاء إلى عامه الرابع والمشرين .

وأرجو أن أكون قد استطعت أن أرسم الرحلة المشرين في موقفى من « الرجل
الذى تأمرت عليه » .

افضل كادى وعشرون

اغتيالات .. وصرخات

رأيت وأنا أدرس الرجل « البناء » من « بدايته » . . وأصمى مع لىنى صديقاً إلى ما انتهى إليه من التشويخ ... أن أأخذى أرى العالم على طريق الصمود ... حتى لا تضيق من قدى الطريق^(١) .

وأبرز للملم على مطالع الطريق هو كتابه : « فلسفة الثورة » .

منه ألتقط « العبارة » ... فتذكرنى بالتهمة ... فأعرض لها بالبحث ... وبين وجه الحق .

ومنه ألتقط « الرأى » ... وأنظر فى القى وقع ... وهل خالف « الواقع » من « الرأى » ؟
أولم يخالف ؟ وأنظر فى « التلطة » ... وأنظر فى القى وقع . وهل تمت سداد التلطة أو أن الفساد هو القى ثبت ؟

وقصة « الاغتيالات » فى « فلسفة الثورة » هى إحدى دعائم الدراسة ... وأؤثر أن أأخذ منها حللاً لهذا الفصل .

كان جمال قد استقر رأيه على أن « السبل الإيماني » يجب أن يكون طريقه .

واحترب أن « الاغتيالات » توجهت فى خياله للشمول فى تلك الفترة على أنها « السبل الإيماني » القى يراه وجلس إلى رملانه ... ووقع اختيارهم على « نواء » معروف كواحد

(١) « ونضج من قدى الطريق » تعبير نزل على كليل المشاوى فى سينماتيكه الشهيرة الرامسة « لا تكذبى » بفرى المصير مشوراً على قلى ... ونفيت عليه ... لرأيت أن أأخذ الفصل للمصاحبة .

من رجال الملك^(١) ... يجب أن يزول من الطريق ويعترف « جمال » أنه كان في حيرة
تتميز فيها عوامل متشابهة « من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القوة ، ومن
الإيمان ومن الشك » ومن العلم ومن الجهل .

وكانت « الخطوة » أن يطلقوا الرصاص على الرجل ... وهو عائد إلى بيته
في الليل .

ويقدرة « جمال » على التنظيم ... رتب « فرقة الهجوم » ... و « فرقة الحراسة »
التي تحميها ... وفرقة ثالثة لتنظيف الأسلحة والإفلات ... وخرج بنفسه مع جماعة التنفيذ
وأطلق الرصاص ... ونجحت الخطوة .

ومن هنا ... تبدأ مهمتي ...

من هنا أنت مدعو ... إلى الإصغاء بكل جراحة فيك ... إلى هذا اللون الساحر
من التفريد الإنساني الحزين: « ولجأة دوت في سمى أصوات صراخ وهويل ... وولولة
امرأة ... وذهب طفل ... ثم استنائة متصلة محومة ... وكنت عارفاً في مجموعة من
الاضطرابات المثارة ... والسيارة تندفع في مسرعة . ثم أدركت شيئاً عجيباً ... كانت
الأصوات ما زالت تمزق سمى ... الصراخ والهويل والولولة والاستنفات المحومة ...
لقد كنت بمدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ... ومع ذلك بدا
ذلك كله كأنه يلاحقني ويطاردني ... ووصلت إلى بيتي واستقيت على فراشي .. وفي
عقل حتى ... وفي قلبي وضيري غليان متصل ... ولم أتم طول الليل .

وهنا أتعلم ... حتى تضع يدك إلى حواريدي ... على جمال « الإنسان » بكل طاقاته
الروحية — بعد أن رأيت في الإعداد والإقدام وإطلاق الرصاص بعض قدراته المادية .

(١) لم يتأ « جمال » أن يذكر اسم « اللواء » في « غلطة الثورة » ولكن الصحف حرم
محاولة اختزال صاحبه لتسريته .. وكلمته تعرفته ... و « ليل طرة » حرمه إر الثورة وهو اللواء
حسين سري حاصر .

هذه «الشحنة» من الباطنة هي أكبر «سلم» على «طريق شخصيته» ... تنمو
في جباه الفارسين ...

ومثل هذا «الإنسان» لا يمكن أن يكون «البيكتاتور» - الذي سدتى عنه
«الانصوم» - والذي يمشى إلى «أبعاده» فوق الأشلاء والجناح .

ويعض الرجل - وهو مستلق على القراش - في «ديالوج» طويل ... يئنه
وين نفسه ... يسألها : إن كان على حق فيها فعل ... وإن كانت هذه الوسيلة هي
الوسيلة التي لا مفر منها ... وإن كان مستقبل بلده يمكن أن يتصور إذا خلصناه من هذا
الواحد أو من واحد غيره ؟ وأحس «أن المسألة أعمق» كما أحس أنه ليس مهماً أن
يعض من يجب أن يعض بل اللهم أن يعي . من يجب أن يعي . .

وسمع هائلاً يقول له : « وإذن ؟ » .

وأجاب هو : « يجب أن تتغير طريقتنا » .

وأحس براسة صافية ... «ولسكن الصفاء ... ما يلبث أن تحترقه هو الآخر
أصوات الصراخ والمويل والزلزلة» ووجد نفسه يقول فجأة : « ليت لا يموت » .

وما كان أسبده في الصباح ... أن يُهرج إلى إحدى الصحف ويحد أن الرجل
الذي در احتياله « قد كتبت له التجاه » .

وأعتقد أن بطبع هذه «الفريدة الفريدة» على «شريط كتابي» قد وضعت
الرجل «في الصورة» ... وأخفت إلى خطوطها الأساسية ... خطاً جديداً .

عني على سوريا

وأحي « فلسفة الثورة » جانباً ... لأعود إلى حيث المراحل ... بعد أن كشف لي كتابه عن جوانب فيه لم أكن أبداً قد تنبّهت لها ... والذي سقته لك هو جانب واحد منها .

وكنت قد وقفت بك عند النكسة في العراق ... وكيف عاجلها حق خدوها ... وسحب النطاء فوقها ... وانطلق يني لمصر وسوريا .

ونحن الآن نواجه عام ١٩٦٠ فما هي انكساراته يا ترى على شحنة (الإيمان) التي خرجت بها من سجن وغذيتها بالمرامة علماً ؟ وعلى أي الصور ... وجدت المصوم الذين خلقتهم قبل للسجن بكل ما برعوا فيه من أحاديث الإفك ؟

وجدت خصوصاً قدامى .. لم تطور الأحداث تفكيرهم - وإن جُذِّت شعورهم - ونحيل إلى وأنا أنظر إليهم أهم ماتوا تماثيل من الحجر ... أقرأ فوقها نقوشاً باعثة ... تحمل أماناً قديمة ... فنصر الذي عاشوا فيه .

ورأيت خصوصاً آخرين لم تطور الأحداث تفكيرهم ولكمهم ليسوا تماثيل ... وما يزالون يتكلمون ... ويرددون - ولكن في خفوت - نفس الاتهامات المعبية الرثة وما يزالون يحملون بأشباح تهبط من السماء أو تنشق عنها الأرض لتتولى هي القضاء على ناصر .

أولئك جيلاً أودعهم (متحف الفكر) حلقى . . ومضيت أبحث عن غيرهم .

وبعد عني رأيت فريقاً آخر من المصوم ... طوروا تفكيرهم ... وطوروا شعورهم ... فهدوا أكثر شأناً ... ولكمهم لم يتصدوا بالتطور أن ينتهي بهم إلى

الإيمان بناصر ... وإنما طوروا تفكيرهم في الأحداث .. فرأوا أن لا محل لأن يتكروا على الرجل « انتصاراته » ، فاعترفوا بها ، وعلوها بما علوها به ، وركزوا على « سوريا » وانتظروا « لتغير » منها ، و « لتغير » في ميزانهم هو « انضمامنا » عنا ، والانضمام في « تقديرهم » زوال ناصر ، والذي يجعل بهذا الانفصال — في رأيهم — قيام « الاتحاد القومي » في إقليمنا الشبلي .

وأعترف أن « الخوف » قد داخلني ، أو خابني ... انطوف على ناصر هذه المرة وليس من ناصر .

ونصحت « عيناً » على سوريا ، و « عيناً » على الاتحاد القومي ، وبدأت أصني . واطون على الخوف ، رأي لي في سوريا ، سبق لك أن طالعته في فصل سابق ، رأي في شعبها النشج ، وللتطلع أبداً إلى القائد ، يتود انتضامته ومجده أمجاده ، ورأي في الزعامات والقيادات والرجسية والإقطاع ، والاحتكارية والأحزاب ، وكيف يرتدى السامة مسح الاشتراكية للآجهاز طليبا ، وكيف يتسربون إلى عصوية الاتحاد القومي للسيطرة عليه . وكيف يأخذون باليمين وبالشمال من كل ملك أو حاكم أو مستعمر .

وكان لي رأي في (الاتحاد القومي) مذ كنت في (اليابان) لم أقله لك ، ولم يعبر خروجي من السجن وانحامي للناسرية من هذا الرأي .

وفكرة الاتحاد ترامت إليا ونحن في (اليابان) ، وكان الذي يبشر بها في الذباج هو (أنور السادات) .

ورغم ما فعله أنور من جهد في الصياغة وروعة في الأسلوب ورصانة في الإلقاء ، لم أستطع أن أنفهم شيئاً كثيراً .

وخرجت من السجن أسأل الأحرار عما فهموه ، بعد أن فتح باب الترشيع أمام كل مواطن وبغير أي قيد أو أي شرط فقد كان واضحاً لي أن الرجسية بكل مستأصا ستط تملها على هذا الاتحاد لأن كل ما حدث للإقطاع لم يجرده من قوة المال ، ولأن الرأسماليين ما يزالون يملكون الملايين . ولأن الحزبيين من أولئك وهؤلاء ما يزالون

أقوياء ، ولأى لا يريد أن يرشح نفسه منهم لأى اعتبار ، يستطيع أن يذبح أخاه أو ابن أخيه للتشريح وتكون النتيجة قيام برلمان كبير يضم قدامى المزيين أو أجدادهم أو أقرباءهم ، فما الذى ستكون قد صنعتاه ؟

وإذا كان هذا هكذا ، بالنسبة إلى مصر المسترة ، ومصر التى خطت من غير شك أكثر من خطوة إلى قلب الاشتراكية ، فكيف فكر الزعيم الراشد فى تصدير هذا النظام إلى سوريا ، وقد حدثتلك من التزعزعات فيها ، لينتقل إلى مقاعد الاتحاد القومى حاصلة المهربين وأصحاب الشركات الخاسية والرجعية تشد أزدحم ملايين الدولارات والظلمات تتدفق إليهم عبر الحدود من لبنان والأردن ؟

وسأفنى الموقف ، وتقبض قلبي إشفافاً ، وتعتبت لو كان فى يدي قلم ، لأرتفع فوق المخاوف وأكاشف الزعم برأى وليسكن ما قدر أن يكون .

وهذا الثمور من جانبي هو الذى يستينى .

أنا — إذن — أمشى إلى الناصرية جالداً .

ولم أهدأ أطيق أن أصنى إلى النصوصم .

وكنت أود دائماً أن أصنى إليه هو . كلما تحدثت وكلما خطبت .

وها هو ذا يطوف بسوريا ويخطب فى اللاتنية وعكا ودير الزور وحلب وحمص والسويداء ودرعا ودمشق ... كان يخطب على المستوى العرى .

كان يخوض تجربة رهبة وجديدة .

ووجه اهتمامي بهذه التجربة يرجع إلى جوانب أخرى من شخصية «البهاء» كنت أؤمن أن أرى . الحديث عنها إلى أن أعرض للبحث . ولكن يبدو أن السياق يفرضها الآن على ريشتي .

وفي « فلسفة الثورة » حديث عن الوضع العربي له صلة بما يجري الآن على المستوى السوري لأن سوريا أتاحت لنا أن نضع « الوحدة » موضع التنفيذ كتجربة أولى .

وفي « فلسفة الثورة » - في جزئها الثالث - كلام عن المرحلة التي مضى عليها .

وها نحن أولاً ومن بداية الثورة وهو بهم بوضع كتابه .

كان يجلس يومئذ في غرفة مكتبه ويسرح بخواطره ويسأل نفسه :

— ما هو دورنا الإيجابي في هذا العالم العربي المضطرب ؟ وأين هو المكان الذي يجب أن نقيم فيه بهذا الدور ؟

كنا على مطالع الثورة كما قلنا .. وكان كل عمل داخل حدود مصر .. ولكن خواطره كانت تدبر العالم كله .. وهذا هو جمال عهد الناصر الذي تراثت عنده قبل أن يعود ونمبر السنين إلى الحديث من جديد عن سوريا والاتحاد القومي .

كان يجلس في غرفة المكتب ليقول لنفسه : « إن القدر لا يهرل .. وليست هناك أحداث من قبل الصدفة » وراح يتأمل :

(أ) أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة مريية تحيط بنا .. وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ؟

(ب) أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها .. وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مرير حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟

(ج) أيمكن أن نتجاهل أن هناك ملكاً إسلامياً نجسنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية لحب وإعنا تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟

دور يبحث عن بطل

ولم تنف الخواطر به عند هذا الحد وإنما شردت به إلى الشاعر الإيطالي بيراندالو وقصته : (ست شخصيات تبحث عن عمالين) وقال أى جمال :

(ولست أدري لماذا يحيل إلى دائماً أن في هذه المنطقة التي نبش فيها دوراً دائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به) وأن هذا الدور بدأ أن أرقته التجوال في المنطقة قد استقر به الطاب على حدودنا (يشير إلينا أنه تتحرك)

ونفى أن يكون الدور دور زعامة و (إنما هو دور تفاعل وتحارب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة المخالفة للكسامة) .

ولم أكن هازلاً - إذن - وأنا أقل إليك صفات عن كتابه .

تقد بات الملامح كلها ، وخلق ، ومن حيث أراد له قدره

دور هائم على وجهه يبحث عن بطل ؟

ولم يتصور (حال) أنه هو البطل ، تصور أن الدور تفاعل وتحارب مع العوامل التي أشار إليها .

وصح ظنه مع (تعديل حضري) .. كان لابد لهذا التفاعل من وعاء صالح .. وكان هو الوعاء الصالح .. سوته قدرة الله .. فكان قدراً من أقدار الله ..

وضع غبه في خدمة (الدور الهائم) فوضع القدر كل (الدور) بين يديه لينهض به فكان البطل .

ولكني نمود مرة أخرى إلى سوريا .. يحسن أن أطوف معه بتاريخ المنطقة العربية التي تعتبر سوريا (قلباً) لما نرى منه أنها عانت معنا نفس المحن وعاشت معنا نفس

الآزمات . . محبة المسلمين ومحبة للتول ومحبة السانين ومحبة الاستمرار ثم امتزجت منا بالدين فضلت مراكز الإشباع من مكة إلى المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة.

ومطلع الرمي العربي بدأت تتساقط إلى تشكيرة تليها بقود المظاهرات ويهف بسقوط وعد بلفور من غير أن يجد في شبه صدق عاطفياً الهتاف ، حتى بدأ يدرس في كلية أركان الحرب «حمة فلسطين» فلما بدأت (حرب فلسطين) كان مفتتما في أحامه « بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في أرض عربية وهو ليس انسحاق وراء عاطفة وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس » .

وأحبك الآن تدرك — كما أدرك — أنه لا يحمل رسالة إلا وهو مقتنع بسلامتها (في أحامه) وأن الوحدة مع سوريا والبلاد العربية لم تكن حلماً من أسلام الامبراطورية القنارية التي روج لها الناصوم . . وإنما كانت واجباً (يحتمه الدفاع عن النفس) .

أريد دليلاً ؟

بين أيدينا الآن حداث . . الشاهد عليه خصم له ولا يستطيع أن ينكره . . إنه أمين الحسيني مفتي فلسطين ..

غضب صدور قرار تحسم فلسطين في سبتمبر سنة ١٩٤٧ دعا ناصر إخوانه الضباط الأحرار إلى اجتماع ، وقرروا مساعدة للقومة في فلسطين وذهب جمال في اليوم الثاني إلى الحاج أمين في منزله بـلزيون وقال له : « إنكم في حاجة إلى ضباط يقدرون للمارك ويدربون للتطوعين ، وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع » واستمده المفتي حتى يستأذن حكومة القرائشي .. ورفضت الحكومة .

وهنا يقول جمال بقله :

(ولم نسكت ، وبمدها كانت مدغية أحمد عبد العزيز — القائد المصري الذي

قائد قوات المتطوعين قبل أن تقرر الدول العربية الاشتراك في الحركة — تلك المستعصات اليهودية جنوبي القدس وكان قائد المدسية هو كمال الدين حسين .

فأين النضية هنا . وأين الإمبراطورية الناصرية ؟

أتريد دليلاً آخر ؟

هذه المرة .. حسن إبراهيم وعبد الطيف البندادي .

ثم سافر (حسن) إلى (دمشق) واتصل ببعض ضباط فوزى القنوقى ، المحاهد العربي اللبناني و (وضع حسن إبراهيم وعبد الطيف البندادي خطة جريئة لقيام بعمل حاسم في الحركة التي تستمد لها قوات التحرير) .

أندري ما هي هذه الخطة التي اعترزم الرجلان تنفيذها برغم أنف حكومتها ؟

الجواب يتولاها مطار سلاح الطيران المصري يؤمئذ ، ويتولاها الحركة التي بدأت فيه ، (وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإصلاحها وجهود واسعة في التدريب سرت كالحق في قوس عدد من الطيارين ولم يكن هناك إلا قلائد يعرفون السر) .

كأنوا ينتظرون أن يحيى الإشارة السرية المتفق عليها ، فيخلق الأبطال من ضباط الجو الأحرار إلى جو فلسطين ليضربوا حداً للحركة الحاسمة في الأرض المقدسة ثم يودون بمطار دمشق ويترقبون مصائرهم .

ولم تعد الخطة لأن الحكومات دخلت حرب فلسطين رسمياً قبل يحيى الإشارة وليتها لم تدخلها .

ذلك هو تشكيل الضباط الأحرار قبل ثورة مصر بسنوات أربع ، فهل كان جمال بريد أن يتهم إمبراطورية ناصرية في فلسطين ، وهو وإخوانه يقتلون حياتهم وضيعة هكدا وكأفراد لا وزن لهم يؤمئذ وعلى مذبح فلسطين البلد العربي البعيد ؟ وهل

يقاس هذا الإيمان برسالة الوحدة على مطالع الصبي ، والشباب .. بمن ضاقوا بالرسالة
تفرجوا عليها ليكونوا انتمالين في سوريا وسفاحين في العراق ؟

أردت ان أقول إلى اجليت هذه الرقاع عبر دراساتي لماضي عيد الناصر وجه
الحقائق ، فخذ هذا الوجه وقوداً جديداً لمراسل ، وأنا أتب إلى (الناصرية) وثباً .

أفريقيا .. ونحن حراسها ؟

ولا ندم من الآن « ناصر » .

وهل السكتاب شيء ... غير تحولى من الكثرة به . إلى الإيمان ؟

حان لدراسة أن تكمل ... وحان لكل القضايا أن تسين .

ومرة أخرى ... إليه ... وهو جالس وحده في غرفة مكتبه يسرح محاطوه وتتجه
إلى القارة السوداء التي لا نستطيع أن نحمل عن الصراع الحبيب الذي يدور في
أعماقها ... فزرى أن شعوبها سوف تظل « تنطلق إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمال
لقارة » وأنا لا نستطيع بحال أن نتخل عن مسئوليتنا « في المأونة بكل ما نستطيع على
نشر النور والحضارة حتى أعماق الثابة السوداء » ولأننا ليست مسألة عاطفة وإساية
وحيرة ومسئولية فقط وإنما هناك مسألة أخرى وسبب هام هو أن « النيل شريان الحياة
لوطننا يستمد مائه من قلب القارة » .

ولل القاريء الآن يدرك سر الوفود السود الذين يترددون على القاهرة ... وسر
رعاة إفريقيا المضطهدين أو السكاكين وهم يتصفون من عاصمة مصر الناصرية مراكز
لقياماتهم . وسر الطلاب السود الذين نجى بهم لنيلاً وموسم نوراً ... ليكونوا الطلائع
الثورية في بلادهم .

بل إن ابتسامة تلو شفتي اليقة وأنا أكتب لك هذا الفصل وأذكر أنى كنت

ظهر اليوم أجلس في المقهى فجاءني شاب ليبي ميتور أحد القرايين وقال له « هو الذي
سف بيوت الضباط البريطانيين في طبرق أثناء العدوان على مصر تاراً لها من العدو
وأنت رغب في أن يراني فأرسله إليّ » المجاهد الليبي الكبير واللاحي، السياسي الكريم
صديقنا صالح بوعصير وكيل مجلس النواب الليبي الأسبق ...

وكان مع الشاب الليبي شاب آخر فاحم السواد وسم التقاتيل اسمه (محمد) جمع
بينهما فندق واحد ... جاء من قلب القارة السوداء مع إخوان له كثير .. أحبوا
ناصر ... فأمروا على أن يروه ... وعلى أن يملأ لهم رموسهم نوراً ... وعلى أن يمدم
إلى بلادهم سكانين منه ليحرروها .
وسألت الليبي : ولماذا ترضيان في رؤيتي ؟

وقال الشاب : نحن في ليبيا نمرطك كاتباً وقد أردت أن أسألك — وقد قرأنا
من للزائرة — رأيك الآن في ناصر... والشاب الإفريقي عرف قصتك فأحب أن ينضم
إليّ في سؤال . . . وقلت لها طلباً ما يسرني الله لأن أقوله ، وإنما الذي يستبى ... أن رسالة
ناصر التي كُفّر بها حصومه من بني مصر ... وكفرونا معهم بضع سنين .. آمن بها
شباب القارة السوداء ولم يصدقوا أن كاتباً مصرياً يمكن أن يتأمر على « ناصر » وانضم
« محمد » إلى « الليبي الذي نسبت اسمه » ليسألني الرأي في « ناصر » .

وقد يكون مفيداً أن أسأل المنصوم الآن بمناسبة الشاب الإفريقي : إن كان
عبد الناصر ينوي أن يتخذ من آلاف الطلاب السود الذين يفتنون علينا ليجلأوا رموسهم
سوراً « طواير خلاصة » تنهى نيا سالاتد وروادى أوراندى وزنجبار وموزمبيق لنزو
ناصرى ... أم أنها شحوب القارة تتطلع إلينا ولا نستطيع أن نتحل عن
مستولياتنا بجاهها ؟

ولا أجيب .

الدائرة الثالثة

أما الدائرة الإسلامية الثالثة التي سرحت إليها حواطره ... وامتدت عبر القارات ومحيطات ... وضمت مئات الملايين من الإخوان في العقيدة فيكنى أنه اتخذ منها معبراً إلى صداقة البلاد التي يعيشون فيها ... إلى باخوج ومبادئها المشرقة التي هزت قوائم الاستعمار وأرست أسس تصفيته ... في العالم كله وبمواقفة هيئة الأمم أخيراً... وأقامت بين للمسكرين قوة إنسانية رهيبة تعتنق الحياض الإيجابية وتدعو إلى التمايش السلمي وتحمل على كنفها في وجه الاستعمار ورأس المال والصهيونية والشيوعية نفس الرسالة التي حملها للمسيح في وجه الرومان الذين ملقوا باليهود الذين ضلوا .

وإن الدائرة الثالثة هي التي وضعت له الباب إلى الدائرتين التين لم يرد ذكرهما في « فلسفة الثورة » ولما لها كيان ... خارج غلاف الكتاب .

وبعد

فأحسب أنني لم أحاد الكتاب وأنا أدرس شخصيته وأصفه فقط ... وإعما نهلت من عباراته حتى ارتويت .

وفي ظل هذا الارتواء أرجو أن أكون قد استطعت في وضوح أن أجد بعض الجوانب الرصانة من ذلك المارد الذي شق لرسالة طريقها فوق الشوك وبين عصف الرياح ، وفي حو تألبت عليه فيه أقوى دول الأرض فلم تهتز في يده الزاوية ولم يركع ، وساروب وما يزال يحارب .

كما أرجو أن أكون قد استطعت أن أكون أميناً وأنا أرسم الرحلة العشرين من مراحل في موقعي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

الفصل الثاني والعشرون

آمنت إلا قليلا

بعد ليل ممتع طال مداه .. هأنذا أراه ..

أراه بكل عيني المبصرة .. وبكل قلبي المفتوح ..

(ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفهموا قولي) .

هبرت منك عروء — مد الله في عروء — يذمنا من صباه ..

وتقللت في مقومات شخصيته ، باسحا « تحتها » عن « البذرة » و « فوقها »
عن « الثنت » وصاعداً قديماً .. حتى « قلة المود » — وما كفا في سكون السجع
على دراسة الأحداث في هدوء .. ومتحرراً بعد السجع من كل تأثير أو تحيز خلفته
رواسب الشائعات أو أكاديب الحصرم .

وخرجت من كل تلك البحوث بحقيقة أراها ثابتة — ولا أهنئ « الحقيقة »
بعمداها المطلق — وهي تقول لكل من يبحث عنها ، أن هذا الشاب ، هبة من السماء ،
ورسالة من القدر ، في فترة من فترات التاريخ ، يشتمل خلالها وجه التاريخ ..

وعلى ضوء هذه « الحقيقة » ، لا بد أن تكون قد اعتقدت أنني وقد رأيت « ناصر »
بكل عيني المبصرة .. وبكل قلبي المفتوح .. لا بد أن أكون قد آمنت بسلامة
« الناصرة » .

ولكم أود ، أن أقول بملء القلب والضمير والإدراك : « سم .. »

ولكن يدا - أحسها ولا أراها - تتسلل إلى في - من خلاف - لتضع
الكلمة فوقه ، حتى لا أقولها ، وصوتنا من الأعماق يسلب عادتنا ورزينا إلى أذى
ليقول لي : « تمهل » .

» » »

وأعترف أن كل الاتهامات التي وجهوها إليّ ، نهاوت تحت أقدام الدراسات
اتهاماً بعد اتهام ، واستثناء بمصر « الجيوب » أنتظر أن « تصنيفها » الأحداث والأيام .
لقد درسا « الشخصية » بكل قدراتها وطاقاتها ، وبكل خاصيتها وميزاتها ،
ودرسنا الرسالة بكل أهدافها وانماهااتها ، ودرسنا البناء الذي لاح في البداية مقلداً يمشي
ثم نما ، وواصل النمو حتى أوصلك على أن يتكامل ويستقر ، فما الذي يحول دون الإيمان
الكامل إذن ؟

تحول دونه المحبوب التي تنتظر التصنيف ، يحول دونه الموقف « المسيح » في سوريا
حتى يبالغ ، وتحول دونه الثمرات المفتوحة في الاتحاد القوي حتى نسد ، ويحول دونه
حدث جديد وقع في هذا العام ١٩٦٠ ولم أستطع أن أفهمه بعد ، وأصعب به « تأميم
الصدافة » أو ما أسموه « تنظيم الصحافة » ، ويحول دونه ذلك النشاط الاستعماري
المتبع الذي بدأ يستغنى خلف الملوك والحاكين في المنطقة ، وبدأ ينثر هوامل الإغراء
بين الضعفاء وليس أكبرها شأنًا - عامل الذهب الوهاج ينثر في أسواق السياسة بسخاء ،
ويحول دونه شكوى « السوق » في مصر « سوق الأفراد » ، من الكساد الذي ساد ..

ولكن من حسن الحظ أن كل الذي قلته لم يبد - على كثرته - وهي صفة
المقدرات والعبارات التي استقرتها للتعبير عنه - تقلا في ميزان الإيمان ، وإن كان يحول
دون درجة (التمسك) أو دون ملغ (الكمال) ودون الجهر به أو إعلاء في الناس
أو إشهاره على الأشرار ، وهو بين ما أسميته « جيوباً » أنتظر « تصنيفها »
حتى أقول بل . القلب والإدراك والقيم : « أشهد أنهم أي آمنتم » .

• • •

تأميم الصحافة

وأخون أمانة الفكر — (كلان) متوافع في آخر صف من صفوف (السدة) الساجدين في (الحراب) — إذا أنا أمكرت أن عملية التأميم لهذا الجهاز الفكرى حائضى لأول وهلة ، وأقت على نفسى ظلاً قائماً لا يوائم الأضواء الجديدة التى تنشر حثاها •
وسألت نفسى :

— كيف 'تتلك' الدعوة ، تنظيها من تنظياتها — اسمع الاتحاد القومى — أدوات التعبير عن «الرأى الحر» ، وهى تزعم أنها إنما تصل على (تحرير الرأى ؟) ، وهل سلفت تصرفات (الاتحاد القومى) عنه من اختلاف الآراء فيها ، حتى يتحكم هذا (الاتحاد) في آراء الآخرين ؟

ولم يطل الوقت هذه (المصيبة) إذ دعا (الرئيس) كبار الصحفيين إلى اجتماع (مفتوح) — أو (مربح) — عقد معهم ، وناقشوا معه الوضع كله ، وطلمت عليه الصحف بما أسسته (محضر الاجتماع) ، و«مر» (مقتهى) بعض الصحفيين الذين شهدوه وقصوا على كل ما جرى فيه ، ما نشر منه وما لم ينشر •

وفهمت أن (الرئيس) لم يكن راصياً عن هذا الجهاز الخطير من أجرة الإعلام ، وأنه لاحظ — وبحق — أن حياز الصحافة ليس (الجهاز الثورى) الذى كان مرجواً ، وهو لا يؤيد الثورة التى نبشها عن إعلالها ، وعن تعامل معها ، وعن إدراك حقيق رسالتها ، وإنما يؤيدها بالطريقة التقليدية التى جرى طلبها في جهود الملك والأحزاب ، يكتبل المدح لها كم جراًفاً ، ويحمل على كل رأى يمارضه أيضاً جزافاً ، ويشتم كل خصومه في الداخل والخارج بنفس الطريقة ، وأنه — أى الرئيس — إنما أسم هذا الجهاز أو نطقه ، ليحرره من سلطان الإعلان ، وسلطان رأس المال ، ومن الرغبة في الكسب ومن الرغبة في الاستغلال ، وأمه لتبيح الحرية لكل الأتلام داخل الإطار الثورى والبيادى الستة ، وليصير الكتائب الأحرار في العهد الجديد — جماعة البنايين بأوجه الخطأ أو أوجه الصواب •

وهلت أن (الرئيس) دال على سلامة ملاحظاته بما يكتب في الصحف والمجلات ، هي تستفد منظم قولها ، وتبدد كل طاقاتها ، في نشر الصور السارية ، وأنباء الماطلين بالورثة ، والأماكن الخائرة بالمجون والخنافة ، والتقصص المثيرة لفراتر السود ، وكأننا لم نثر ، ولم تنفجر ، ولم يهدم ولم نطهر ، ولم تُرس مبادئ . ولم نملأ أهدافنا ، وكأننا ما نزال في عهد الملكية والإقطاع ورأس المال ، ونخطف الزوجات وقتل الأرواح ، وكأبري ونيس ، ومونت كارلو وباريس ، ثم كأن هذه (الأمّة) لا وجود لها ، وكأن هذه الصحف لا مكان فيها لقرية والفلاح ولا مكان فيها للمصنع والعامل ، ولا مكان فيها للعامل واليهود .

صفت كل مادار في الاحتجاج — وما أشرت إلى جانب منه — وبدأت النقاشات تنجاب عن هيئتي ، وبدأت الحجة تنحسر عن حنايا النفس ، وبدأ هذا (الجيب) يصني ، وبدأت أرى في (الفتاسيم) غير الرأي الذي بداني لأول وهلة ، مشدوداً إلى مفاهيم نشأت بها عمراً ، يوم أن كنا نتحدث عن حرية الرأي ، ونزعم الرأي في بنك ، وعن حرية الأكتلام ، ونبيح الأكتلام بالملارسة .

أقول (بدأت) أرى ، ولا أقول : (انتهيت) إلى رأي لأن (الشيطان) إما يزداد ضنطه ، كلما ازداد (المؤمن) إيماناً ، وقد عاد شيطانى ليسأل :

— وهل تنق المبادئ ، ويضع الحق على الواجب ، ويتعذر القلم من المطامع ، ونشحن النفس انغماساً بالطاقة الثائرة . - نخطاب يُقضى ، في اجتماع يُبدد ؟

وتوليت الإجابة :

— طبعاً : لا ، ولكن من بين الصحفيين والكتّاب ، من ودوا حنايهم وخص لهم في النقد البناء ، والانطلاق ، ولكمهم يتحدون — ولا أقول يخافون . وعلمهم اليوم أن (الرئيس) لم (يؤزم الصحف) ، إلا ليورد على الأكتلام حريتها ، وليبيح للناد انطلاقاتهم ، ويفسح للأراء في الاختلاف وفي الصراع ، عليهم بهذه الحقيقة — والحققة

بين أيديهم — لابد أن يجتهد بالبنية التجملات الجديدة ، وحتى (التأويل) — من جهة
« للمرارة والحلف والطار » — سيحاولون أن يسلطوا الانجاء الجديد ، راحة بموجبهم وقد
تنقل إلى قصورهم — مع الزمن — عدوا .

* * *

وحق عام ١٩٦٦ لم يكن التأسيم قد آتى ثماره .. أو عكس على الأقدام كل آثاره ..
أو خلق طائفة من الكتف الذين كنا نحلم بأن يلتقي بهم على الوصح الثوري الجديد ..
إذا استتبنا هدفاً منهم كانت طلائع النور تمشي بين أيديهم قبل أن تؤم الصحافة ..
فراهم التأسيم سوراً .. فلذا قلت مثلاً أن نالداً كبيراً مثل « مندور » قد ملأ حجاج
الصحف بحثاً وهذا وأعلى لحركة الفكر .. حياة وجهها .. ووصل بينها وبين المجتمع
الثوري الجديد وما يستهدف .. فإن « مندور » كان كائناً يروج بالحياة قبل التأسيم ..
وكان نائراً على كثير من الأوضاع ومن أبناء جيلنا القديم .. وإن قلنا مثلاً أن شاباً مثل
أحمد بهاء الدين وثب إلى التفاعل مع الثورة بحسب واسعة في زمن قصير .. واستوى
حل سوقه فحضر المنت وأرف القتل فاضج الثر .. فقد كان هكذا يبدو لنا من
قبل أن تؤم الصحف ..

وإذا قلنا إن أدبية كبيرة كالبيدة عائشة عبد الرحمن « بت الشاطيء » قد عرفت
كيف تصل بين تخصصها وبين مجتمعا فأسهمت داخل مصر وخارجها بما يرضع من
شأن « القلم » في يد « المرأة » فلن « بت الشاطيء » كانت هكذا من قبل أن تؤم
الصحف شأنها شأن مندور وشأن حسين فوزي وشأن كثيرين ... أما الذين تضجوا مع
الثورة مثل بهاء الدين فهم بضعة يبدون على أصابع اليدين .. وأنا أمثل « ولا أصر ..
حق لا يستط اسم من أسماء الصعب فيحب ... وما إلى شيء من الحصر ... أفصد .

ولكن عام ١٩٦٦ ما كاد يحى حتى ظهرت « بعض » أمراض « الطاقة الثورية »
على الصحف ... وأعاد « الرئيس » كل صاحب دار أمت إلى داره ... فاستقرت القمص
واستقامت الأقدام ... ووضعت لفناهم ... وبدأ « الركب الثوري » يتحرك .. وأراد
الحمر من سلطان « الإعلان » ومن سلطان « رأس المال » في الانجاء بالصحف انجاءها
« علياً » متواصلاً وأصبح من المؤلف أن يطوف أي صحفى بأ كبير بلاد العالم غير مهال

أى مال يفتق في رحلته ... بعد أن كانت البيوت تفتح وتضم من فرط الفرح ...
يوم كانت « أخبار اليوم » توفد محرراً مع كبير مصوريها إلى الشام ليأني بأخبار
« الإنسان المزال » ... ولم يمد يدهش قارىء لوطاف « أنيس منصور » باليابان وجزر
الهاواي مرة أو مرتين أو ذرع العالم شرقاً وغرباً وشغل الطالبات بأبناء « السنة » ...
أو بموسى صبرى ... يطير إلى أمريكا اللاتينية ليحمل تحياتنا إلى أختنا كاسترو الناصر
في كوبا ... وإن كنا ما تزال في أول الطريق .

وفي هذا العام الجديد

وأمام هذه الحقائق ... وعلى مطالع سنة ١٩٦١ شرت أن بينى وبين الإيمان
بالناصرية مسافة قصيرة ... تقوم عليها للملم التي اعتبرتها « جيوباً » ... ومما كالت
« سوريا والاتحاد القوي » .

وكثر الماثنون من سوريا .

وكثرت الأحاديث المروية لنا منهم أو للتقوة إلينا منهم .

فيل لنا أن أموال الملك والمالكين .. بدأت تتدفق عبر حدود لبنان والأردن .
وأن المأجورين من الممارين بدأوا يفجرون بعض للفرقات في قلب دمشق . وأن بعض
السياسيين ممن يحوا من المناصب الوزارية وغير الوزارية قد نشطوا نشاطاً ملحوظاً . وأن
بعض « الصباط » الذين أحيلوا إلى الاستيداع يحملون الاتصال ببعض الضباط الماملين
ليحدثوا حدثاً . وأن ضابطاً سوريين آخرين من الموثوق بهم إنما يضمنون شارات الولاء
فوق صدور مقصاة بالسداء . وأن جواسيس الاستعمار زاد تسلطهم . وأن الكلام من
الانفصال لم يمد خافاً . وأن التحريض عليه لم يمد خافاً . وأن عهد الحميد السراج
أعرف الناس بأوثك وهؤلاء يحذر منهم . وأن القيادة النصرية تحب أن تحسن الظن
فيهم ، وأن القوانين التي تمس نظام النقد والاستيراد والتصدير أفرغت نجر التهريب
وأصبحت يتوقسون المزيد من هذه القوانين . وأن الجبهة المتحدة لنا في سوريا — ومن
ورائها ذكاء الاستعمار وذكاء الرجعية — أمست جبهة حقيقة وهريرة .

وقيل لنا أن (الاحقاد القوي) متى بخنية كبيرة ، لأن فريضة كبيرة من أنباع الإقطاع ، والمسلمين عدد رؤوس الأموال ، قد تساقوا إلى الجهاز وسيطروا عليه ، وبدأوا يشنون الغارة منه .

وبدأت أمكر في هذه الحقبة ، من غير أن أفكر في الردة ، بعد أن آمنت بناصر ، وبقي القليل لكي أومن بالنصرية .

وكان يميزني أن هذه القوة المسيطرة والمستغلة لم تكن هي الشعب السوري .

وحرحت من العرض كله بأن هناك أخطاء ، والأمل مفقود على أن يدركها رجل الذي يعترف دائماً بالأخطاء .

ومصر تشكو

والأدهى ، أن مصر بدأت هي الأخرى ، تشكو .

ولا أعني : (مصر الدولة) التي ملأت كرسياها في الساحة الدولية محذرة وشرف وأخذت مكان الصدارة من الجهة الحيادية بين المعسكرين ، نظرا بحسب حسابيه . وفرضت عليه النصرية بقوة (القذوة) على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، أوكل لها نزاعة إلى التحرر ، ونزكت بأعظم إمبراطورية في التاريخ إلى دولة مهزوزة في النصف الثاني .

ولا أعني (مصر الأمة) التي تحلست من الملكية والأحزاب والإقطاع ، وأعت التتال ، ومصرت مؤسسات المال ، وأحالت الخراب إلى عمران ، وأقامت المصانع والمبشود ، ودخلت مصر القضاء .

وإنما أعني (مصر الأفراد) ، الأفراد من بينها شعروا بأنفسهم فترة الانتقال ، وكساد التجارة على مستوى الفرد ، و بأن عليهم أنهم يسانون (ضيقاً) في الحياة اليومية أو (ضيقاً) في القوة الشرائية .

هذا (التمن) الذى كان لا بد أن تدفعه (مصر الأفراد) لأيجاد (مصر الدولة) ولبناء (مصر الأمة) ، أتاح الخصوم فرصة ، مشوا فيها بين الناس الذين لا يعنيه من السياسة غير (التمن) يقولون لم إن (النصرية) ترسل أموالهم إلى (سوريا) وإلى الصومال والكوسو وإلى (الترنوج) في (جبليل إفريقيا) غير ما يرسل طبياً إلى الجزائر الحليمة .

وزاد (التمن) المدفوع (فضاحة) يأس الأضياء — من المصريين والأجانب على سواء — ومحابلهم على تهريب أموالهم إلى الخارج مما أتبب الدولة كثيراً ، وصرف جانباً من جهد العاملين فيها إلى مقاومة هذا التهريب ، وإبطال التعامل ببعض أوراق النقد ، الأمر الذى ترك أثرًا غير دين في السوق ، فاضطرت الدولة إلى فتح أبواب الوظائف فيها على مصاريها لكل من يحمل مؤهلاً ، حتى لا يجد المستعمرون والرجيون في ضيقه وفي ضيقه تربة صالحة لردته .

وأشد سوماً من كل هذا سوء أن الرجبية في سوريا — سوريا التي تمدحها بكل ما ملك القلب من (حب) ، وبكل ما حمل (الجيب) من (قد) ، وبكل ما حصلت (القوة) من (خبرة) — رامت تقول للوطن السوري ، أن (ناصر) إنما جاء ليحتله ، وبترزع خبرات بلاده ، وبخبر يتروها ليستولى عليه ، ويشق الطرقات ليسهل مهمة جيشه .

هناك أخطاء

ولو أن هذا كله كان قد قيل عبر السنوات التي خلت — بدءاً من الثورة وانتهاء إلى السبعين — لسكان وقوداً لأحقادى ، ولتفكرت من تلقائى في التأمر على (ناصر) من غير حاجة إلى التشكيل الذى قام ، ومن غير حاجة إلى (الشاب) الذى ضمى إلى التشكيل .

أما الآن ، أما هذه المرة ، فكل هذه الأقوال لم تنل منى ، ولم تزعجنى من المكان الذى أقف فيه ، كنت قد درست الرسالة فكرة وعقيدة ، وكنت قد درست

(ناصر) من البذور والجذور إلى الثبت والعمود ، وإلى القمة التي تحمل القمر ، وتخفيه
عن العيون تلك الجيوب التي خلقتها الأخطاء ، وخلقتها السرعة في البناء ، وآمنت
بالأسباب التي دعت إلى معونة سوريا والجزائر ، بل إلى معونة الكونغو والصومال .
لم أترشح ، ولم أترجع .

وإنما رحلت أقول لنفسي موجع القلب : إن هناك جيوباً ولا بد أن يضي
(ناصر) بضمية هذه الجيوب ، وأن هناك ثمرات ، ولا بد أن يسد (ناصر) هذه
الثغرات ..

وعسى أن أكون قد رسمت بهذا القميص هذه المرحلة الثانية والعشرين في
موقف من (الرجل الذي تأمرت عليه) .



الفصل الثالث والعشرون

وزلزلت الأرض زلزالها

وأقبل عهد الثورة التاسع ، أو أقبل يوليو من سنة ١٩٦١

وكنْتُ - أنا وحري - في مصيف الاسكندرية ، ننتظر مقدم ناصر في السادس والعشرين لير أماننا على طريق الكورنيش ، ولأملاً عيني (الجديدة للبصرة) منه ، وهو على قيد أشجار أو أمتار مني .

وكنْتُ ألتصق أخباره وأقول لزوجتي إن قلبي يمدني بأن هذا العيد يحمل (معجزة) لا أعرفها هل التحديد وإنما أحسها مقبلة في الطريق .

وكانت تقول لي وهي (ناسرية) من قديم :

— دانت قرّبت خالص ، طيب إليه موضوع الفجأة دي ؟

وكنْتُ أجيب في حرولة الراق :

— مش عارف ، موضوعها شي . لا أعرفه ، بملاً الفراغ ، ويصحح الأخطاء ، ويد الترات .

ومن اليوم التاسع عشر أو العشرين ، بدأ الفئث ..

وخيل لخصوم أن الأرض بدأت تزلزل زلزالها وتخرج أختلالا ، وقال الخصوم يومئذ : (مالها ؟) وكانت هذه الكلمة ، هي كل الحصة التي فيهم ، وهم يرون كيف يتجلى الله عليهم بصفات منه وأسماء نسوها — من أسمائه الحسنى — وفي طليعتها (التضم) و (الجبار) و (الحكيم) و (العدل) .

أما الجماهير فكانت فرحتها طافية ، كانوا يرقصون وجوههم في شكرًا وعرافًا
وكان سبحانه يتجلى عليهم وكأنه يقول لهم بلسان هذه اللالين التي توالى : « ففتحنا
أبواب السماء بماء مبهر ، وغرنا الأرض ميوتا فالتقى الماء على أمر قد قدر » .

أما أنا فكنت أطوف بالبيت أحيى مشاعري التي لم تكذني وأردد كالحنون :
(سد الثغرات ، أصلح الأخطاء ، أكل البناء ، ملأ الفراغ) .

صدت قرارات يوليو .. قرأوا بعد قرار .

لم يكن إذن غفلا عن الحقائق ..

كان يد لأصحاب رموس الأموال في الجبال حتى يشقوا بها أنفسهم وحتى يشهد
العالم عليهم وقد استشرت ضراوتهم .. واستندموا للآل في التآمر على بلادهم ..
وهربوا الجانب الأكبر منه - وهو مال مصر - إلى لبنان وسويسرا وغيرها .

أول بهم الفسرية .. وتركهم مواطنين أحراراً يعيشون في الأسواق مع اللاشين ،
بل قد ترك لهم أكثر مما يكتفيهم إذا أرادوا أن يكونوا مواطنين شرفاء .

وماذا قال ؟

وندع القرارات الآن لتسنى إليه وهو يخطب ، والمطلب في يوليو في هذا العام
غيره في كل الأحوال ، إن مجتمعاً جديداً يستكمل ملامحه الأساسية ، هكذا قال جلال
في حلال الخطاب ، وهكذا كان ينبغي أن يقال ..

وجاءت هذه العبارة جواباً على سيرتي وسيرة اللالين ، لم يكن المجمع اتقى قد
والمنصر .. قد استقر .. وكنا نأمل ، ولا نجد حياء ، لأنه لم يكن قد استكمل « ملامحه
الأساسية » .

نعم كان قد نادى بالرسالة الاشتراكية .. ومهد لها وبشر بها .. ودعا إليها ، وقصو
على الإقطاع ليمهد الطريق أمامها ، ولكنه لم يكن قد وضعها موضع التنفيذ بناءً متكاملًا
ولنا خاص بها - ضد رأس المال - الحركة بقوى غير متكافئة ، فكان سلاء

مدجيباً بالحق ينلنى به ويدعو إليه ، وكان سلاحهم مدجيباً «باللادين» التى اغتصبوها من اللواتلين .

وكان زود الجيش بالأسلحة فى سنة ١٩٥٥ فأصبح جيشاً ، زودت الاشتراكية بهذه القرارات فأصبحت اشتراكية .

كانت الحرب بين الاشتراكية ورأس لثال حرباً ظلمة ، وكان (اللواتن) هو الصعبة فيها .. اللواتن المادى الذى لا يتكلم إلا بلغة (الرغيف) ولا يضيئ إلا بأزمة (القرش) وكان على حقى أن يضيئ ، أما اليوم فلا حق له ، لأن (الحق) كله أهدى إليه ، وليس معنى هذا أن الجيوب التى كانت فارغة من المال قد امتلأت به ، أو أن حركة السوق (الفردية) فى ميدان رأس المال (الخاص) للتهات ، قد راجت بسحر ساحر بعد طول كساد ، وإنما قضت للهوة يرد حق اللواتن للواتن ، ولا بد أن يحتاج (نقاذ) هذا الحكم إلى بعض الوقت ، وإلى بعض الإجراءات شأن كل حكم يصدره أهل قضاء مختص به .

إن (حل أمين) يقول لك فى إحدى يومياته فى جريدة (الأخبار) ويقول بحق (وكذلك وأنت تشكو من ارتفاع الأسعار تنسى أن سعرى فى السوق قد ارتفع أيضاً) نعم أصبح اللواتن (رفقاً هائلاً) تحسب الدنيا حساباً ولم يعد (صفرأ بين الملايين) كما قال الكاتب .

هذا وجه آخر من أوجه قرارات أول يوليو .

أصبح اللواتن (رفقاً هائلاً) لأن أمة جديدة تتحرك .. ولأن (أمة جديدة تحصل مسئوليتها لتكون قوتها الحرب جيماً) كما قال ناصر فى خطابه .. ولأن (أمة جديدة تميد كتابة التاريخ والأحرار جميعاً فى كل مكان لتكون لضالم قاعدة ، لتكون لسلامتهم حسناً وقلمة ، لتكون قوتها دجلة لسلام ودجلة لمعارك التحرير)

هكذا قال « ناصر » وهو يترجم قراراته ...

ولا يعنى هذا القول أننا لم تكن قد ضلنا شيئاً قبل هذه القرارات ، كنا ضلنا وعلنا .

حقى دهل العالم كله بما ضل ، ولكن هذا البناء الشائع الذى قام على أساس قوى ، كان يبين على يصر (الطوايق) فيه (خلل) ، كان هناك فى الشرطات (ميل) يتذر بالخطر .. كانت هناك أخطاء ، وجاءت هذه القرارات فاستقام البناء واعتدل ، واستراح البناء واستقر .

إن الجماهير استطاعت فى هذه السنوات التسع أن ترسم خريطة أمنها من جديد وببفسها كما يقول ناصر ... وبربشة كما أقول وأمر على القول .

لقد تم عمل كبير عبر السنوات التسع ، ولكنه كان معرضاً للضياع والانهدام لو لم تتداركه تلك القرارات .

● « إن مئات الأتوف من القنين .. من العلماء ومن التخصصيين يقودون اليوم من مراكر أبحاثهم ومعالجهم .. سركة تطوير شاملة .. تمنح أمنهم حياة جديدة خصبة وخلافة » .

● « إن مئات الأتوف من الضباط والجنود يربضون اليوم بأقوى الأسلحة على حدود وطنهم يحرسون نضاله » .

● « إن ملايين الفلاحين الذين كانوا فى بلادهم بلا حق ولا أمل يبتون اليوم على أنهاره الكبرى أعظم الأعمال الهندسية فى العالم على نهر الفرات ونهر النيل » وشول الفرات لأننا نتحدث حتى الساعة من يوليو ١٩٦١ .

هل هذا سر يشدو به ناصر ؟

أم هو حقائق لا يستطيع أن ينكرها .. حتى للكبار ؟

ومع روعة هذه الحقائق .. كانت كلها — ولا أمل التكرار — معرضة للانهدام لو لم تتداركها قرارات يوليو .

الشيء الرهيب

هذه القرارات قد وضعت حيوتنا على شيء لم يكن سلم من أمره شيئاً .
وعلمنا به اليوم . يصرم بين ضلوعنا نلراً لا نهدياً .. على أرجسية ورأس اللال ..
ولولا حكمة القائد وسلامة أعصاب الطبيب .. لجن الجيش ولما للريض .
ولولا بقية دين أسكت علينا إيماننا بالله لكفرنا بكل شيء . وللميلاد بالله ..
ولاحرقنا إلى اليسار في عصف غير مسبوق .. واحتفنا ميلادى . « ماركس ولينين » ..
وأخذنا مرغنين بوسائل « ستالين » ..

هذه « الحقيقة » لم نضع يدنا عليها .. إلا بعد أن أذهبت القرارات .. وتولت
جريدة « الأهرام » نشر « القوائم » التي كان قد أعدّها « البنك المركزي » لأصحاب
الأسهم في بعض الشركات .. وكنا تناسلها في كل صباح . وكل منا ينظر إلى أخيه
ولا يجد كلاماً يقال .

من الذى كان يملك ؟

وخرجنا من القوائم ونحن نقاسل :

— من الذى كان يملك مصر ؟ وهل كانت « دولة » كما كان يقال لنا ..
أم كانت « ضيقة » كما نقول لنا الآن هذه القوائم ؟

— ومن كان صاحب هذه « الضيقة » .. وكيف استطاع أن « يفسر »
لفعل فيها — وقاء انظر الجلف والثوب المرق — أربعة وعشرين مليوناً يستثنى منهم
نصف مليون من اللوثنيين ومن في مستوهم يحملون القوت والسكاء بالمرق للتميب .
— من ؟

وتولت « القوائم » الإجابة فقالت بلنة الأرقام والحقائق :

— كان الذى يملك مصر .. « طائفة » من شفاذ الآفاق .. والقولدين

والبنيا .. ومنصوص متضمنين .. من اليهود والأرمن ومختلف الجنسيات .. وكل من فتح للسكاري « خزانة » أو أدار لمابين « بيتاً للذخيرة » أو جلب من « قيسنا » الرقيق الأبيض .. ويلجهم بعض مصالح القماء من بلاد شقيقة ومن الأرمن والإصطاعيين ومن أسام الرئيس الماطلين بالورثة .. في مصر

كان من قرارات يوليو الكبير — على سبيل المثال — القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦١ بتحديد ملكية الفرد في ١٩٥٩ شركة حددها القانون ونص على أنه لا يجوز للفرد أن يمتلك من أسهم هذه الشركات ما يزيد قيمته السوقية عن عشرة آلاف جنيه وتؤول للدولة ملكية الأسهم الزائدة وتحدد الحكومة قيمتها بموجب مصادات إسمية على الدولة لمدة خمس عشرة سنة وبثلاثة ٤ ٪ سنوياً .

ومن إذن أمام قانون واحد — مثلاً به — من عشرات القوانين .. يحكم صفراً واحداً من أصناف الشركات التي أمت أو حددت فيها الملكية .. شركات بينها ولها حددها .. والمسام فيها لا تحتل أسهمه كل ثروته .. والدليل أن ما تملكه أسرة « عبود » فيها يقدر بنصف مليون من الجنيهات مع أن ثروته تجاوز ثلاثة وثلاثين مليوناً من الجنيهات .

وأحب أن نلاحظ أن جل هذه الأسهم مملوك لليهود من الجنسين .. ولأجنبيات يعرف المجمع الرافق منهن « طهرات » محترقات وهلويات .. ودع عنك القلة من المائلات ذات السمة الطيبة .

ويقراء المصريون « القوائم » ويتفتنون في ذعر وفزع .. ولا يجدون كلاماً يقال : أهذه ثروة مصر .. وفي هذا الصنف قسط ؟ وما هي البقية إذن ؟ وما الذي كنا نملكه ؟

ووجد من يقول لبند الناصر سليل القرية النازقة في القل والحفاة : كيف أمت ولماذا أمت !!!

دعونا نصبر...

نعم .. لنترك الحقيقة .. ولنرى أنفسنا .. ولنحدد مكاننا .. دهونا نهر وحل جناح طائر إن أمكن .. أى جانب من هذه القوائم .. بمجرد نظرة مليها على أية قائمة ولا أكثر .. لأن قوائم هذا المصنف وحده ملأت ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير في كتاب « الثورة الاجتماعية » وكل صفحة حلت خمسة وعشرين اسمًا .. ونحن إذن أمام ستة آلاف وخمسمائة اسم تقريباً .
هي نظرة عابرة وخاطفة إذن .

تجارب الجسد

وأنا أحنى الرأس احتراماً أمام بعض الأسماء لبعض العلماء أو الأطباء أو التجار الذين عرفوا بالأمانة وجمعوا هذه الثروة بالكساح والصبر .. وكلها تناهت في التواضع إذا قبست بنبرها ولا اعتراض على أبداً على أسهم قيمتها ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات يملكها الدكتور « محمد كامل حسين » مثلاً .. ولا على مثلها يملكها « الدكتور مورو » مثلاً ولا على مبلغ يمازى الألاف المشرة يبلغ ثافته يملكه أديب كبير مثل « محمد كامل سليم » أحرف أنه « نحوثة العمر » بدءاً من مطالع شبابه سكرتيراً لسعد واستاء إلى سناشه سكرتيراً علماً لجلس الوزراء ولجلس النواب .. فسيروا .
هذه الأرقام ومثلها لا نستوقف أحداً .

إنما يستوقى اسم رده « ندى السيارات » في عهد الملك .. وردده سهرات القمار التي كان « جلالة » يفضل بالمشاركة فيها .. اسم أحرف أنه جاء من لبنان « قديراً » .. وقد أصبحت الأسهم المقتبذة بأسماء أطفاله وآله في هذا المصنف الواحد من الشركات تجاوزت خمسة ملايين من الجنيهات .. فما هي إذن ثروة هذا الرجل .. « فرنسوا تاجر » ؟ وكيف جاء بها .. وكيف جاءت إليه .. وعلى هذا النحو ؟ وما هو القدر الذي حربه إلى لبنان سبباً على متوال صديقه (كافوري) ورائسته (مصايفي) ؟

وهذه واحدة ..

ويستوفنى اسم رجل مهذب من غير شك.. وقد ولي مرة وكالة الخارجية ولا مطن على كفايته .. وأسئلته يومًا الرصاية على ذلك لأنه خال .. ولأنه حفيد سليمان الفرنساوى ولأنه زوج ابنة على يكن ، يستوفنى اسمه .. لا لنقص فيه شخصياً أو فى خلقه أو فى كفايته .. وإنما .. لأسهم له فى هذا الصنف الواحد من الشركات جاورت قيمتها أربعمائة ألف من الجنيهات .

وأسكت أدباً ولا أسهب .. لأن الرجل كافت مؤدب .

وإنما أقول نلصوم ناصر : تأدبوا أتم أيضاً .. ولا تقولوا له ؛ كيف أم ؟
أولمذا أم ؟

وهذه ثانية..

ويستوفنى اسم (سباهى) وقد استغرقت أسماء الأطفال صفقة .. وجاوزت الملايين قيمة .. فبالله هو الآخر .. وكيف بلغ ؟ وهل يدور الحلال كل هذه الملايين يا رب ؟

وهذه ثالثة..

ويستوفنى اسم مهم كبير أحرف قدره ووزر سابق لم تطلق به شائبة .. وقد ملك أطفاله ومن هذا الصنف وحده أسهماً جاورت قيمتها ربع مليون من الجنيهات ؟ أترام إذن قد اقتنى ثروته من العمل مستشاراً للأمريكان فى شركاتهم .. أم تراها (المخامات) درت عليه كل هذا الملايين ولم تدعها على (يوانكارية) القى ولى رئاسة الجمهورية الفرنسية ثم عاد ليمسك محامياً .. ليمش .. أنا لا أريد أن أقول لهذا الوزير شيئاً لأنى شخصياً أحقره .. إنما أريد أن أرجو من أمثاله ألا يقولوا لناصر .. كيف أمت ولماذا أمت ؟

وهذه رابعة..

والأجانب ؟

هذه لغة عبرت بها بعض من وقعت عيني على أسمائهم عبراً من المصريين .

أما الأجانب فلا سبيل إلى الخوض فيهم .. ولا أشعر بالرغبة في أن أخوض في هذا البحر الزاخر بالزبابة والخطل والفتنة والمفارقة ، وحسبهم أنهم جموا واقتصبوا وسرقوا .. وحصلنا بمصر ما جئناه .. واسترددناه . وغفر الله لهم ما هربوا إلى الخارج وما أغفوه على السنين .. وما يخفونه حتى الآن عن العيون .. وإن كان يطمئن في تصرفنا (الرحيم) أننا أخذناه منهم (باليمن) وتركناهم أعنياء ولم (نصلح) . بل دفنا على ألسنة اليمن (فوائد) وهي صورة مفرحة للضيق المصري .

لكن لعل ضميرك يبدأ ، إذا هيرنا قوائم هؤلاء الأجانب . والتقطنا منها بعض الأسماء ، وثبت أنها أسماء (حبيبة) لنا و (حمية) ؟ وليست (دنقية) علينا ولا (عربية) .

« كوتسيكا » مثلاً ، هل تجده ؟

غاناهي ، وجيولاني رحاشا والمزينة (جورييت مجوري) ، والنانالية (اوليت مجوري) والأفلى (هيلين مجوري) ، أليست كلها أسماء حبيبة وحمية ؟

واذكر في التوراة (آل مراكوح) ، إنهم كانوا قوما صالحين ، مراد وأليير وإميل وإندوارد فر كوح .

واذكر معهم آل (أولاديا سالم) وفي اليهود البائدة كانت لهم قصة — مورييس وأليير وإميل سالم وكليم بالملايين .

أما آل ديلب — رضى الله عنهم أو لم يرض — فكل ما ملكوه مائة وسبعون ألفاً .

ثم دع حلك ماتوسيان ومالكويان ، أولئك ملوك التدخين ونخون المشرة إن أشرنا إلى ملايينهم ولها أقل سوماً من ملايين سوماً ، ولكن لدينا من الأسماء التي تنهى بـ (آن) ولورنيزيان أكفاس يملكون ملايين وملايين ، ومنها عابله جوجانيان — ولورناتك جوجانيان ، وأنا هيدنا كفوريان .

ولا تنس « أوس » ولا « آس » من أمزاتنا الإغريق ومقدم لا يحصى وظل
سبيل القافية « ديمتري كونوس » و « يتولا فرنكيسكوس » و « اندروس » و « سوتير
بونا كاتس » و « أرغيس » و « ليلاك لانودا كيس » .

وإذا لم تكن قد تشرفت بمعرفة الطوافة خانيكا جولر فاحضر إليه ماسم مصر
الاسرية « الظالة » التي أمته ولم يكن — وحده يحك ، ومن هذا الصنف وحده أيضاً
إلا ٥٣٢٢٣٩ جنيتها في حين أن الفريق ميز للصري طلت « نحويشة صره » — ودخل
بها ثمن بيته الذي باعه في حين شمس — مبلغ ١٨٩٨٩ جنيتها .

ودعك من حمياتي وشقالي وماري صوصه ومارسيل ليثي وفيرا تكاملولي وهيلين
نسكح ولده اسماطون .. وحزن آزاريان .. فكلها تنوير للتشيان .

كل هؤلاء كانوا يملكون مصر .

كل هؤلاء كانوا يسيطرون على رأس المال في مصر .

وكل هؤلاء هم الذين يقولون للعاصر : كيف أممت ولماذا أممت ؟

وعن نفسي

هذا عن النظرة العابرة من أجلي وحق لا تغل ..

أما عن غسى فلم أعبر .. فقد قرأت .. وتريت .. ووعيت .. وغشيت .

وإذا كنت قد خرجت منها موجه القلب ، متضجاً بالجرأح ، فزأني أنها حلت
إلى قلبي « شحنة » من « الحق للقدس » على كل مال مستل ، مصري أو غير مصري ،
و « شحنة » من « الحب للأقدس » .. الذي جرد هؤلاء للضلين من هذا السلاح
للدنس .. فظهره .. وردّه إلى أهله كريماً غير مدنس .

نعم يوليو الكبير

و يوليو في عام ١٩٦١ يوليو كبير ، لأن القوانين التي صدرت فيها قوانين كبيرة ، وكلها من النوع الذي لا ينسى .

والكتاب ليس مجلداً ، وإنما أشير إليها ، لأنها هي «دفتى» الأخيرة والكبيرة إلى الناصرة ، أجهزت على كل شك وكل تردد ، لأنني استطعت على أوضاعها أن أرى صورة واضحة المعالم والخصائص للمجتمع الجديد الذي يبنيه (ناصر) .

وقد حددت قوانين يوليو الملكية الزراعية تحديداً جديداً أيضاً .

وقال الخصوم : « ألم قل لكم أن ناصر لا وعد له . . . وغداً يهبط بالمائة الجديدة إلى حسين فداياً وإلى خمس إن واثقه الظروف ؟ » .

وقلنا : « حقا ... لم تعد المائة مائة «وعد» يرجع فيه ... أو «عرف» يواتيه .

المائة مائة خلاف جذري في المفاهيم .

مفهوم « الثورة » عندكم إنها تغيير في شكل الحكم .. تحدد شكله .. فوجب وضع حد لما يمكنه ..

والثورة على هذا النحو تصبح « أخلاقياً » الحصول على السلطة دون أن تتجاوز ذلك الحد لتصبح معنى اجتماعياً بيد الأثر عين الجنود « كما قال عبد القادر حاتم وهو يقدم لهذه القوانين .

إن ما تسمونه «وغداً» أو «حداً» إنما ينشئ وضع حد للتقدم .. والثورة لا تعرف في التقدم بمواطنها أي حد تقف عنده ، إلا توفير الرخاء لم جميعاً .. وتهيئة الفرص المتكافئة ألسهم جميعاً ... ولن نقول فذلك عند كفاية : « قف » وإنما نقول له : « مزيداً من التقدم » .

قد أمت المستاعبات الضيقة ... وأمت الشركات المستعنة ، وحولت إلى القطاع

العام ملكية النصف في الشركات للتوسعة ، وتقرر أن توزع أرباح الشركات على
الساكنين والموظفين والمال ساء ، وأن يكون للموظفين والمال مشروط في مجالس إدارتها ،
كما أتمت البنوك ، وأصبح الاستيراد والتصدير عملية ناسية أو ناسية أو خاصة للقطاع
العام — وحرم أن يزيد مرتب مواطن على خمسة آلاف جنيه في العام وتفاضت الدولة
تسعين في المائة من أي دخل بعد أن يصل إلى عشرة آلاف من الجنيهات سنوياً .

وبات على وجه المختص الجديد كل قسماته الإشرافية .

الإشرافية بدعائها الملتزم تقوم عليها : الكفاية والمعدل .

والكفاية تقتضي توجيه كل الطاقات إلى الإنتاج ومن هنا كان الإقتصاد موجهاً .
والمعدل يقتضي إعادة النظر في التوزيع ليمود أثر الإنتاج بالخير على الجميع ، كل
حسب إنتاجه ، ومن هنا كانت القوانين المالية الجديدة وإشراك المال والموظفين
في الأرباح .

وهذا كله يصنع « الوطن » .

وبقى أن نصنع « للوطن » .

وصنع « للوطن » تكفلت به القوانين الجديدة التي تمنح كل فرد « فرصة
مطلقة تتحرك فيها مواهبه ليحظى للوطن كل ما يقدر عليه من طاقة الفكر والعمل » .

وبحسن أن شرف عند هذا الحد ليرى القراء أي أثر تركته هذه القوانين في عالمنا
وإدراكه ... وأنا أحمل للسلطة الحرام بين السكر والإيمان ... في طريقه إلى « قلب
هذا الإيمان » كما رأيت في تطور مراحل عبر الفصول السابقة .

لم يكن يحول بيني وبين التوب على « قلب النور » غير تلك الأخطاء التي استندتها

الرجية في سوريا ، وقوضت بها « الاتحاد القومي » هناك ، كما أوشكت الرجية في مصر على أن تقوض أخاه فوق هذه الأرض الطيبة و « كان لابد لنا من أن نجرد الطبقة التي تحمكت فينا في الماضي من أسلحتنا بطريقتنا ، بطريقة سلبية ، بطريقة مايفيهاش دماء ، بطريقة تتشبي مع طبيعتنا ، بطريقة تتشبي مع تقاليدنا العربية » .

بهذه المباراة اعتذر القائد من تأخير الضربة كل هذه السنين لتجيء في حينها ، بيضاء كما كانت الثورة نفسها بيضاء .

وأنا من أشد أنصار هذا « الميهاش » .

والدعوة لا تؤمن أبداً بالضربة « الحمراء » .

وقد مشى القائد النروي على سهل ، ولم يسجل ، ولم يقتل ، ولم يلمخ في الدم ، ولم يثار ولم يفتحم .

ولكن يبدو أننا تأخرنا بعض الشيء ، ودخل التطار بحملته الجليّة الآمنة .. بعد الموعد بدقائق ...

واتهز الخضم فرصة اللحاق وتسلل .

ولكن .. لا بأس .

المهمة أجل ... من اللحاق ومن التسلل .

إنها رسالة تبني على أسس .

وإنها أهداف .. تتحقق هدفاً بعد هدف .

وإنه تناقض طبقي يزول بالحسكة ومع الزمن .

وإنها إثراكية ناسرية وعربية لا يستلها صاحبها من ماركس ولينين ، وإنها رأسمالية مظلمة غير مستهنة لا يستلها صاحبها من الاحتكارية الأمريكية أو الانجليزية .

إشترائية لا يحدى مبادئ الإسلام ... ولو أنها فلت رجعت عنها القهقري ،
إلى التآمر عليها جاداً هذه المرة ... لا مصتياً إلى حديث شاب من الشبان عنها ، ولهذا
قلت في فصل سابق : كل شيء أقبل التهاون فيه إلا ديني ودي .

قال ناصر وهو يخطب من قراوات يوليو .

« في أيام عمر أموا الأرض ووزعوا الأرض على القلاحين » .

وأقول أيضاً خلا عن قراماتي إن ابن الخطيب كان يرى أنه ما من أحد إلا وله
في مال الدولة حق يضافه « الرجل وبلاؤه ... والرجل وقدمه ... والرجل وغناؤه
(أي كفايته) ... والرجل وحاجته » وهذا سبق « عمر » جميع فلاسفة اليسارية من
ماركس وإنجلز ولينين وستالين ... بفرون وفرون .

بل كان « عمر » مصرّاً لو امتد به الأجل على أن يصادر كل فائض على حاجة
أي غنى وقال في آخرات أيامه ما منته :
« والله لو استطعت من أمري ما استدبرت ، لأخذت فضول الأغنياء ، فقسمتها
على قراء للهاجرين » ...

وبرغم هذا المستور الخطي يقال لناصر : لماذا آمنت ؟

يا أخى القري . .

أرجو ألا تسألني بعد هذه القراوات إن كنت آمنت أو لم أؤمن والخير
أن تسألني :

— متى تشهر إيمانك ؟

وأرجو . الإجابة ، إلى فصل مقبل ، وكل مرجو أن أكون قد رسمت بأمانة
هذه المرحلة الثالثة والعشرين ، في موقفي من « الرجل الذي تأمرت عليه » .

الفصل الرابع والعشرون

من يوليو الكبير، إلى الميثاق الأكبر

استكمل المجتمع بقوانين « يوليو الكبير » ملامحه الأساسية .

وتنهى المجتمع المنشود ، واضح المعالم وضاه اليات .

ولكن القوانين شملت — باستثناء قانون واحد — إقليمنا السوري — فما عسى أن يكون وقع هذا التصجير الثوري الرهيب على الإقطاع ورأس المال والحزبيين الماضيين في هذا الإقليم ؟ وأي فرصة تتيحها هذه القوانين ، لتوثيق الصلات من جديد بينهم وبين الاستثمار والصهيونية بل ما عسى أن يكون وقع هذا « التصجير » على « الرجعية الحاكمة » في كل (بلد عربي) ، وهي ترى أن (الاشتراكية الناصرية) لم تعد تزحف على مهل — كما كانت عبر السنوات الشر تقفل — وإنما (انطلقت) ، وانطلقت (تركس) إلى (أهدافها) ، تدمر كل من يحاول أن يسوق رصاصها ، ونهز يديها الإيمتين معاً ، وبكل قوة (الحق والعدل) فيها ، كل فلاح وعامل ، وكل غافل منهما أو نائم ، في هذه الرقعة العربية الحساسة ، التي يقع الحدث فيها على شاطئ الخليج ، فيتردد صدها خلال ساعات على شاطئ المحيط ؟ رقعة عربية حساسة تموج إقطاعاً — ولا بقاء للإقطاع في يد الإقطاعيين إلا بنبذة التلاح — ورقعة عربية حساسة تعيش فوق بحيرة من البترول ، ولا بقاء لمائد البترول في يد الحاكمين ، إلا بنبذة العامل

وقوانين (يوليو الكبير) توقظ الإيمتين معاً — الفلاح والعامل — وتجهز على الإيمتين معاً ، الإقطاعي والحاكم ... ودع عنك من تجهز عليهم بسيف تلقائهم وفوري من أصحاب الشركات ورعوس الأموال والمصانع ؟

إن «الكبرى» كلها تهتز تحت أولئك جيما بدءاً من قرارات «يوليو الكبير» ...

و «كرسي القياد» يهتز بدوره تحت «الجلسة العربية نفسها» بعد أن ظلت تجمع تحت سقفها «للطبع بالفتاق» بين «الأعداء» في صور «الأصدقاء» رمزاً «شكلياً» لفكرة «القومية» أو لفكرة «الوحدة» ...

لم يبد هذا الكرسي قلداً على أن يثبت .. بعد قرارات يوليو ...

إن كل حصو فيها تحكم بلاده .. حكماً رجبياً موروثاً له جهازه الفكري الذي لا يمكن إصلاحه .

و (الناسرية) تحرق بقوة ذلك المحطب الذي كان يسدل فوق كل وجه رجبى .

وكل (عامل) من (المحيط إلى الانطليج) يسأل اليوم أخاه : (أين حقوق ؟ أنت إنساناً ؟ أنت عربياً ؟ أليس لي مثل ما لأخى المصرى - ومثل ما لأخى السوري ؟) .

إن حال القول في القنطرة وليبيا .. وقطر .. وغيرها .. كلهم يلتفون في هذه الأيام حول (أجهزة الراديو) يصنعون إلى صوت (الرائد) و (المتأند) وهو يؤمم الشركات والمصانع والمصارف ويسلّي المال للمصريين والسوريين ربع أربابها .. ويشركهم في مجالس إدارتها .. ويشرع لهم من «الحقوق» الجديدة .. ما يرد عليهم بعض ما سلب من هذه الحقوق (قديماً) .

وهو يأخذ من الملك التي .. ليعطى القلاح للمدم .. ويحدد دخل الفرد .. حتى يبدأ أبناء (القاعدة) .. يأخذون طريقهم إلى (القصة) .. وحتى يتصالح أبناء البروبا جيماً .. في منتصف الطريق .. أسرة متحابين ، ومتكافئين في الفرص - على (سرر) - أو على (حصر) - متقابلين ..

أي (أعداء) لهذه القرارات ... ترددها جنبات كل بلد عربي ... في قبض كل ساحم رجبى ؟

وأى رعب دب في أوصال المستمر وهو يرى (ناصر) ، يرفع هذه المشاغل ، أمام القلاح والسائل ، في هذه الرقعة الكبيرة التي غطت أكثر من نصف بقول العالم ؟

• • •

والمستمر كان يحس أن عهد الناصر لابد أن يتابع ونهاته .
وقد رأى الاستثمار أن يتفزع زمام المبادأة من يده ولو دفع ثمنها ، دماً مسفوفاً ، ومعارك مفتوحة ...

وبداً خلا ..

بدأت (فرنسا) تتحدى على صديقتها (نونس) ، وجرت (العماء) في (بنزرت) .
وانتهزت (الانجليا) فرصة حلاقة غير مسبوقه في تاريخ الرعونة انطلقت من قم (المريض الأوحده) - وأنا أصف ولا أشتم - يهدد بها (الكويت) الحبيبة ، أن تتقبل الوضع على (مراته) إقذاناً لنفسها ، من ذلك (الرباء الوائد) ومن ذلك (المؤرخ الأحمق) الذي اكتشف فجأة ، وفي زاوية متضخمة من (كتاب تاريخ) مزعوم ، أن (الكويت) جزء لا يتجزأ من (العراق) ، وكأن (الكويت) ، إربابنا عربية ، وكان الدين بصر (المريض الأوحده) على تحرير أرض العروبة منهم (شيوخ هولنديون) أو (أمراء من الأراضي المنخفضة) .

ظلت «انجلترا» - وكانت منطقية مع سياساتها - أن الوقت قد حان لاستغلال «الحلقة القاسية» في تفتيت (الجبلة العربية) ، لأن أى بلد عربي يطاون (الكويت) لابد أن يخامر (العراق) والعكس صحيح ، وتحركت القوات من (كينيا) ، ونيغرت أحاطيل الملكة نعدتنا عن نظرية جديده اجتكرتها قواتها المضاربة وأسمتها (القوات المائعة) ...

• • •

وهكذا لاح أن (الوحدة العربية) بعد أن وضعت موضع التنفيذ بقيام الجمهورية

«العمية المتحدة .. باتت (أى الوحدة) فى مهب الريح .. خرقاً برمقة ..
وأشلاء متناثرة .

وكان (ناصر) قد تبادل فى (خلفة للنوبة) .

— أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة حربية تحيط بنا وأن هذه الدائرة منا
بوتن منها ؟

وقال عن هذه « الدائرة الحربية » أنها امتزجت معنا بالتاريخ « وسين وقعنا تحت
سنايك خيل التراث كانوا معنا تحت خس السنايك » وهاهى « الكويت » تقع تحت
سنايك خيل المحتل من جديد — وبرضاها هذه المرة — لتصد عنها غزواً حريباً يندى
له جبين الروبة . وهاهى تونس تكاد ترحم .. وإذا عاد الاحتلال الفرنسي إلى كل
أراضيها ، أصيبت ثورة الجزائر فى مقتل .
فإذا فعل ناصر ؟

إذا تحركت لجندة تونس والكويت .. فإسرائيل واقفة بالرصاد لتستغل الفرصة .
وإن هاجمت إسرائيل .. فليس بمستبعد أن يتصل الأردن بالرجعية السورية ليحقق
حلمه ويضرب « الوحدة » فى قلبها النابض .. أو يضرب « جمال » فى « سوريا »

كان الموقف يحمل أى « شجاع » على التردد .. وكان « التردد » يسى فى ناموس
الرجعية « حكة » وكانت « الحكمة » تضى على « ناصر » بأن يترث .. فى إصدار
« قرارات يوليو »

ولكن « ناصر » لا يحب أحياناً أن يكون « حكيماً » لأنه ليس « سياسياً »
محترفاً « كما قال ذات خطبة ..

وقد رأى أن هذه « الحكمة » تصيب من « الرسالة » مثلاً

ولم يخالف ناصر عن « الرسالة » ولم تهتز « الرابة » أبداً فى يده .. ولا
« اهتزت » « العقيدة » أبداً فى قلبه .. ولا اهتزت « الكلمة » أبداً فى « فمه »

وأعلنها مدوية على العالم كله .. أنه سيخوض للركة إلى جانب حصص « بورقيبة »
وسيعض تحت طلبة كل إسكانيات الجمهورية العربية للتحدة .. وسارع فأرسل الأموال
والسلاح والأطباء والمرضيين والأدوية .. ووقف في الأمم للتحدة ينير الضمير العالمي
ويؤلب الدول الحرة على فرنسا الباغية .

وأعلنها مدوية أيضاً ضد قلم .. قال له إنه يبارك وحدة العراق والكويت
إذا أجمع عليها الشعبان .. ولكنه ينكر سياسة الصم بالقوة ويقف بكل ما يملك إلى
جانب « الكويت » واتجه « ناصر » إلى خصومه في السودية والأردن وإلى كل
بلد حربي يهيب بهم أن يتضامنوا معه في إرسال قوات عربية لتخليص « الكويت »
من قوات المصمر .. واتجه إلى مجلس الأمن يطالب انحدرا بسحب قواتها من
« الكويت » .

وبلغ أهدائه في تحرير « الكويت » وحمايتها .. وفي رد العدوان الفرنسي من
تونس .. وعن تمويق الثورة الجزائرية في كفاحها^(١) .

وكل هذا الذي صله « ناصر » — وعلى خطورته — ليس بذى بال إذا قيس
بما هو أشطر .. أو بالأدعى والأمر .. وبالجراءة التي لا تحطرب ببال بشر .. بقرارات
بوليو يبتها في هذا الجوه العكر .. ولا يبال أن تثير عليه نائرة الحاكين الذين يطونونه
في « الكويت » ضد قلم .. ولم يملأضوه في موقفه من تونس لا شيء إلا لأنه
« الرسالة » التي جعلها فرضت عليه أن يذبح قراراته

وقلت لنفسى :

— هذا هو ناصر .. أراد رأى الدين بالدين .. وأراد أيضاً بمل .. وهي ..
ومل .. قلمي .. ومل .. وجداني .

(١) وقبل الكثير من « السياسة الصحية » بين فرنسا وتونس .. و « السياسة الصحية »
بين الجزائر والعراق .. وذلك بحيث لا يصل بالعداء الكتاب .

ودار رأس الرجبية تحت ضربات (يوليوس الكبير) كما لم تدر تحت ضربات
الصنن التسع الحافظة بالخطى للسانية .. وبانصومة يلها صلح .. والصالح تليه
انصومة .. وبضير الملك الماشي الحسين بن طلال .. يصحرك مرة في شهر الصوم ..
ويذبح رسالة بأسلوب عبد الحميد أو ابن القنفذ .. ويرسلها إلى أخيه (جمال) ..
بصعيد بها أخوته في المروية وأخوته في الإسلام .

دار رأس (الرجبية) الحماكة بعد ضربات (يوليوس الكبير) كما لم تدر من
قبل .. وتصلحت ردوسهم مع الرجبية غير الحماكة في دمشق .. ومع المستصر (بستر
خلفه اليهود) ووقع الاختيار على (سوريا) .

ونتم الأخلاق

وكان التهدد أخفاً سيئه من قبل ذلك بوقت غير قصير ، كما حدثت في فصل
سابق ، كان الجو ملهياً ومهياً ...

وبدا المال يتدفق ، جارفاً هذه المرة ..

وبدا السلاء ينسلون تحت أستار الظلام إلى بيروت وحمّان وإلى جنيف ولوزان .

وقيل إن (عبد الحميد السراج) صرخ واستنثت ..

ولكن (القيادة المصرية) رأت أن تظل ماضية في طريق البناء ، وتطبيق
القوانين والقرارات ، والأترض بالثقة على أي (ضابط سوري يتعاون معها) ، ولم يدر
بخطرها مثلاً أن الذي يدير مكتب (للشير) في دمشق على رأس الثائمين .

انصرها عن كل الذي يجري ضد قرارات يوليوس في السراييب لتطبيق قرارات
يوليوس في اللدائن والقري ، ولتأخذ بيد الفلاح السوري والبائل السوري إلى مكاته ،
الذي أحده .

وعلى غفلة منا ، سحبت الرجبية ضربتها ..

وكانت الضربة أليمة ، وموجة بالنسبة لنا ، وكارثة وخيمة بالنسبة للشعب
السوري ..

وكلنا نذكر كل ما جرى ..

البيان الناصري

كلنا نذكر .. ذلك البيان الذي أذاعه « ناصر »

وكلنا نذكر .. ذلك « القدر » وكيف وقع .

وكان في وسعه أن يجهز على حركة الانفصاليين في ساعات ، لو أنه جرى على عشر
مشار ما يجري عليه « قاسم » في « العراق » .

ولكن « ناصر » .. لا يسل أحدًا .. ولا يقطع رقابًا ..

و « ناصر » الذي لم يمتص له جفن يوم حاول أن يقتل رجلا من رجال الملك
وظلت الأصوات تلحن في أذنيه وتطرد النوم عن عينيه .. وفلوة امرأة .. وصراخ
طفل .. ليس هو الذي يتصور أن جندياً مصرياً يقتل جندياً سورياً .. ولو كان في
قتل هذا الجندي المرشد إقتل لسوريا .

وعادت الفلسفة الناصرية تأخذ مكانها من كرسى الأستاذية حزينة هذه المرة
وملائكة .. ثم لم تلبث أن ارتفعت إلى مستوى الموقف بكل جلال فيها وبكل حق
في الإدراك ... ارتفعت فوق كل الآلام وفوق كل الجراح .

وأشهد .. وقد سمعت كل خطباء عصرى باستثناء زملائه الثوار الذين استمعت
إليهم عن طريق للذبايع ولم أر منهم حتى هذه الساعة أحداً .

وأشهد وقد استمعت بكل شبابي طالباً إلى سيد زغول سيد خطباء هذا الشرق
غير متازع .

بل أشهد وقد استعنت إلى ناسر ضه يوم أمم القنات ويوم الجلاء ويوم
المسلون .. ويوم قرارات يوليو .. وفي كل مناسبة خطب فيها .. مستصراً
أو مهزوماً ..

أشهد بعد هذا كله أني ما استعنت في حياتي بكل أغاسي اللامعة .. وبكل
قدسية الشعور المتيق في حرنى .. وبكل جلال الجمع العربي للبهن في عيني ..
وبكل خلجات النجل للعروة في مشاهري .. أشهد أني ما استعنت غير حمري
إلى مثل ذلك البيان الهامى .. ولا إلى مثل ذلك الصوت المتيق الأحن ..
ولا إلى مثل ذلك الإلقاء الطيبي المادى .. ولا إلى مثل ذلك الترفع الهاكى .. أو
الهكاه للترفع .

يقي - وكان ليبتها بموج بالضيوف - كان كله يكي .

ولم يكن بكاء ضف أبداً .

والدليل أنهم تساقوا عبر السهرة - وسد الصخرة - في الزمان لا على
« حودة الوحدة » بل على « موعده العودة » .

راهن أحدم على شهر .. وخسر

وراهن ثمان على ثلاثة .. وخسر

وراهنت ثلاثة على ستة .. وكادت في أواخر آذار تكسب

و « الوحدة » حتى الساعة لم تند ..

وعسى ألا يجاور بها القدر هذا العلم القى نيتيه .

ووددت لو أراهن أنا الآخر .. بتلى .. وهو كل ما أمك .. على هذا للوعد
القى أناشد القدر ألا يتأخر بمودة الوحدة عنه .. حتى يحدث أبناؤنا في البد ..
من « علم القدر » ويؤرخوا له .. ويؤرخوا به .. ويقول أحدم « ولدت وإسفاه

على مطلع عام النسر » ويقول أخوه « بعد عام النسر يوم » ويقول الأخير « بعد عام النسر .. بعام » .

وزارة .. وبيان .. وبناء

وأريت عند ذلك « النسر » الذي أحرزته الرجعية على أرض سوريا .

أريت لأرى وأسكر — في الصلة بين الحرس القاسي الذي تلقيناه ، وانطلق الرشيدة التي خطوناها بعد ذلك البيان المؤثر ، لأتأمل إن كانت هذه انطلاقة العجبية ثمرة تلك الحرس القاسي ، أم هي خطى مدروسة ومرسومة ، أتى (الحرس) أضواءه على الطريق أمامها ، فلم تضل بعد ذلك طريقها .

نم حدث بعد خبة أسابيع من حادث « التفريق » للوقت — ولا أحبه « الاغتيال » أبداً — أن عدلت هيئة الوزارة لتنف من عضويتها الوزراء السوريين الذين كانوا في « القاهرة » من مهام قد يرجعهم القيام بها أو هكلنا خيل إلينا .

وحدث أن تولت اجتماعات الوزارة الجديدة برئاسة عبد القاصر حتى إذا انتهى اجتماعها الثامن أذاع هو بيانه التاريخي الثاني في الرابع من نوفمبر ، عن حلى جديدة لتنظيم العمل القومي .

وأنا إذ كنت محققاً عند ما فكرت في الصلة بين أحداث سوريا وهذا البيان .

وصحيح أن قرارات « يوليو الكبير » كانت تستلزم حتماً ، تنظيمياً شاملاً داخل إطار محكم ، يمكن لها من أن توضع موضع التنفيذ الحسب ، بعد أن سدت كل ثغرة في البناء ، وبانت كل التسهلات على وجه الجمع الجديد .

ولكن أكثر صحة أن بيان الرئيس الذي تقدم به لتنظيم الجديد أشار إلى وجوب

استمرار العمل الثوري وإقامة تنظيم « يوفّر له الحماية ضد المؤامرات التي تستهدف
تصويته » وأكد دور « الجمهورية العربية المتحدة » كقاعدة لحركة الطليعة المادفة إلى
تحرير الأرض العربية وإلى تحرير الإنسان العربي ...

وهذا التصير الأخير يماز الحفود السورية ويضطلعها إلى كل بلد عربي غير متحرر
فهو تيمير « نصح » به المتطعة ، ولا تحف به عند سوريا ، لأن سوريا في رأيها لم تنفصل ،
وأقوى دليل احتفاظنا باسم « الجمهورية العربية المتحدة » .

وأحداث سوريا — إذن — كان لها الفضل في أن يحى « التنظيم الجديد »
بالشمول الذي جاءنا به ، وبالقدرة التي قام عليها ..

لقد قال البيان التاريخي الرابع ما يأتي بالحرف :

« إلى المسئوليات الضخمة الملقاة على شهب الجمهورية العربية المتحدة ، تجاه واجبه
التاريخي كقاعدة لحركة الطليعة العربية ، المادفة إلى تحرير الأرض وإلى تحرير الإنسان
العربي من كل سيطرة أجنبية ، ومن كل استغلال خارجي أو داخلي ، استعماري
أو راسي ، أصبحت تحمّ ثبته القوى الشعبية في الجمهورية العربية المتحدة وتنظيمها
ديمقراطياً على نحو يكفل استمرار العمل الثوري ، ويضمن تجديده ، ويوفّر له
الحماية أمام كل المؤامرات التي تستهدف تصويته . وكذلك يؤكد للأمة العربية دورها
في دفع التقدم الإنساني وتطور الحياة بالكفاية والعدل وما أساس الاشتراكية
وجوهرها » ..

واضح إذن .. أن الرسالة لم تتلوهيوطها في يد حاملها قط .

وواضح — كما ترى — أن ما يملته « ناصر » في أواخر سنة ١٩٦١ ليوضع
موضع التنفيذ في سنة ١٩٦٢ هو حين ما جاء في « فلسفة الثورة » وعلى مطالبها ..

والجديد أن قرارات يوليو ... حققت الاشتراكية ، وأن التنظيم الجديد ، يحقق الديمقراطية ... وأن أحداث سوريا ، حدثت على أن عمد أيدينا إلى الأخص فوق وجوه الرجعية الحاكمة وغير الحاكمة في المنطقة العربية فسرقتها جبهة ... ونسب العالم أن الجمهورية العربية بدأت تحمل مسئولياتها الضخمة تجاه واجبات التاريخ ، وأنها كقاعدة لطلحة ، مصررة على أن تحرر الأرض العربية كلها ، والإنسان العربي في أي شبر فيها ، من أية عبودية يفرضها عليه مستعمر من الخارج أو حيل من الداخل ، أوروبي حاكم . وهكذا كشف السطاء وبرج انخفاء ، وكان ذلك كله فصل العربية التي سددتها الرجعية إلى قلب العربية في سوريا .

ورأى البيان أنه قد حان ، أن توضع حصيلة التجارب الثورية التي عاشها شعبنا ، وأن توضع مع هذه الحصيلة آماله البعيدة وأن يضم هذا كله إطاراً شاملاً يصعب منها صياغتها واضعاً للعمل الثوري الوطني .

وذكر البيان ، أن الشعب وحده هو الذي يستحق عليه الآن ، أن يقود التطوير بنفسه وأن يشق طريقه إلى غده الذي يتطلع إليه ، ويناضل بشرف لكي يشرق غره .

وتقرر أن يصدر قرار جمهوري بتشكيل لجنة تسمى « اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني لقوى الشعبية » لدراسة الطريقة التي يتم بها تجميع ممثلين لقوى الحقيقة الأصيلة للشعب لكي تجتمع في « مؤتمر وطني » من « طريق الانتخاب الحر » على أن ينقد هذا المؤتمر في سنة ١٩٦٢ ليستمع إلى تقرير يقدم فيه الرئيس مشروع ميثاق العمل الوطني ثم تجرى مناقشة التقرير بواسطة المؤتمر ولجائه ، ثم تكون الحصيلة النهائية بمثابة البادرة السلية ليثاق النضال الوطني الشامل لأساليب العمل الشعبي وأهدافه ، ويكون هذا

الميثاق أسس الانتصافات العامة لانتخاب اللجان التأسيسية للاتحاد القوي في كل قرية ومدينة لتكون قاعدة للوثمر العام للاتحاد الذي يقرر وضع الدستور الدائم .

والبيان لافت .. في بعض فقراته ... إلى « جديد » لم يعرفه أى تنظيم سابق ...

نم لتنى البيان إلى جديد فيه ... هو « تجميع ممثلين لقوى الحقيقة الأصيلة للشعب » ... وإلى « دعوة الشعب إلى تسلّم زمامه وقيادة التطوير وخلق طريقه بنفسه إلى عده » ...

وإن فاحداث سوريا أدخلت على المجمع كلمة « التطهير » .

وإن فالسوس الذى كان ينخرق عظام الاتحاد القوي ... اكتشف ...

وانطلقا - إذن - سيصحح ...

ومحكم قرارات يوليو ... وعلى هذا التنبه على الأخطاء ... سفرغ من « كل البناء » ...

قرارات « يوليو الكبير » استكمل بها البناء الاجتماعى ملاحه الأساسية ...

والتنظيم الشعبى ... آت على الطريق ليقوم عليه البناء السياسى ...

ومن الحصيلتين يقوم كيان الثورة الجديدة فى إطار محكم اسمه « الميثاق » مبرأ من كل حبيب .

هذا ما لقضى البيان إليه .

أما الذى لم يلتفتى ذلك البيان التاريخى إليه ، فهو هذا « الميثاق » ..

كنت أتصور أن يكون « الميثاق » أى شىء .. إلا الشئ الذى كآه ..

ومع هذا .. فمحبتي ؟

يحسن أن أكتب بهذا القصر القصير عند هذا الحد .. ولا تأتي : متى موعد
الإيمان .. يشجر ؟

إنني أحاذق فكرة يحسن فيها ألا أسأل أو أسأل ..

يحسن أن أعيش هذه الفكرة .. بكل معنى مبصرة وبكل عقل واعياً .. وبكل
قلبي مفتوحاً ..

وأرجو أن أكون — على قصر القصر — قد استطعت أن أرمي للرحمة
الرابعة والمشرين في موقفى من « الرجل الذى تأمرت عليه » .

الفصل الخامس والعشرون

من قبل إلى ما بعد الميثاق

أجل يا أنى العربى الصاعد ..

ها نحن أولاء نكاد نلتقى فى « دغرف » هذا الكتاب .. و « الحلم الكبير » الذى انتصناه به فى « التمهيد » .. قد تحول فسلا « فى عزه وشموخه إلى حقائق تدبر الرموس » .. « والجميع المجدد » . الذى كان موضوع « الحلم الكبير » فى التمهيد .. ها نحن أولاء « نراه اليوم رأى المهن وهو يقوم » ..

ولقد قلت لك فى صدر كتابى إن « الميثاق » لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى « من الرجل الذى تأثرت عليه .. وإنما كان ذروة هذا التحول .. ولم يكن أبداً « بداية » الطريق .. وإنما جاء « نهاية » الطريق .

وكان « إيمانى » بالناسرية .. قد استوفى كل مراحل .. وبلغ « نكاته » كما رأيت فى الفصول السابقة — ولم يكن قد بقى إلا أن يحىء حدث منير .. أركب أنا الآخر قة موجه .. وأشهر « إيمانى بناصر » .. فى « إنشاق انشمال » له كل مبرراته .. ساحلاً به كل « كبرياء المخلد » — وما أشد المتوفى بها — وشاقاً بين جموع الميالمة وصغوف التردد بين .. طريقى إلى (محراب الحق) .. فى شجاعة وشرف .. وفى غير سيرة .. وفى غير تردد .

وجاء « الحديث المنير » .

جاء « الميثاق » الكبير .

وها هو ذا يذاع على الناس (بياناً للناس) .. ليناقشه الناس .. وليقرروه .
ثم ها هو ذا .. يقرره مؤتمر من الشعب ، فيذاع على الشعب (بلاغاً للشعب)
ليحصل منه كل الشعب .

وهأنذا أقرر في غير تردد أن (أشهر) إيمانى ..

وهأنذا أبحث عن طريقة تحقق لى هذا (الإشهار) ، وتحقق له كل أركان
(العملية) فيه .

ولكن هناك مرحلة أخيرة تبدأ من قبل الميثاق ، وتنتهى بعد الميثاق .
بداً من هذا الفصل نرسم هذه المرحلة ..

اللجنة التحضيرية

ولمأت تذكر البيان السياسى الذى لا يسى — بيان الرابع من نوفمبر ١٩٦١ —
الذى عرض بالتحديد لمعلم التنظيم الشعبى الجديد .. وكانت الخطوة الأولى فى ذلك
(التنظيم) تشكيل (اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) لترسم اللجنة
طريقة قيام المؤتمر ، وليناقش المؤتمر الشعبى ، ميثاق الشعب .

وشكلت (اللجنة) ونهضت بواجبها ، ورسمت الطريق ..

وأخون أمانة المراحل ، إذأ أنا أهدرت هذه المرحلة ، ولم أقل لك إن هذه اللجنة
كانت (تجربة مثيرة) ، على طريق (الديمقراطية) ، وكانت التجربة الأولى التى
(تمارس) فيها (الحرية) إلى غير حد ، أو إلى الحد الذى يتحلى لنا عنده ، (مجلس
المصوم) فى بريطانيا بكل ما حمل تاريخه من حق فى اللباهة بحرية الرأى ، تلك الحرية
التي تنظمها داخل المجلس (كراييج المجلس) وترسمها خارج المجلس ، الهيئة التنفيذية

الحزب الذي يخفى إليه المصطفى ، كلما تعلق الفضائل الذين يرمون أن يجرده ، بالجماعة
سياسي الحزب (رأى) فيه ..

...

أحب أن أقرر — بوصني (نقاداً برلمانياً) سابقاً عاصرت (الشيوخ والنواب)
الساجدين قرابة العشر من السنين في كل برلماناتهم ... وكنت أفردي في قفدي بطريقة
تركت على تلك الجلسات بصمتها ... أحب أن أقرر في هذا الفصل — وهذه الصفة —
أن اللجنة التحضيرية (وثيقة شرف) لاشك فيه ... لأول تجربة مثيرة .. مارس الشعب
فيها (حرية الرأي) على (مستوى البرلمان) .. بكل ما تمنيه (الديمقراطية السياسية)
من المنى الواسع لكلمة (برلمان) ...

بيان الرئيس

وإذا كنت أصيب إلى هذه « الحقيقة » أن البيان الطويل لل... الذي افتتح
به الرئيس أعمال هذه « اللجنة » وما اتسم به من صراحة جلوزت كل « الحدود
التقليدية » التي يقرنها رؤساء الدول في العادة — كان « النور » الذي غمر القاعة ...
وسر الأعضاء ... فاندسوا في إثره — وعلى أضوائه — يمارسون الحرية على أرفع
مستوياتها ... فهذا القول ... « واقع » تقتضي أمانة للراجل التي حبأتني لإشهار
« الإيمان » عند إعلان « الوثائق » أن أسجل في هذا المكان ... لا أن أزيجه نوتاً من
ألوان « التنا » الذي جرى بمس الكاتبين على أن يزجوه إلى الرئيس كلما كتبوا ...
اتصل « التنا » بموضوع الكتابة أم لم يتصل .

قد كان ذلك البيان .. (سرّاً موضوعياً) أحذاً إلى صبح التعبير . . . « سرّاً
موضوعياً » بين (قوم) إجماعاً بكبيرهم .. ليشاوروه في أمورهم .. فجاء (السر) ...
وثيقة شرف أخرى ... لأقدس الشورى ... ولونا مشرقاً من ألوان (الرأي الحر)
و (الرأي الجريء) .

...

لقد صارع « إخوته » بكل كبيرة وصغيرة .

قال لهم إن مهمتهم كبيرة في خدمة أمتهم التي أخذت على عاتقها بشرف وسمعة أن تطور سميتها في جميع المجالات ، والتي أخذت على عاتقها « أن تكون قاعدة لتحرير الأمة العربية كلها سياسياً واجتماعياً » ...

لم يحف عليهم هذه الحقيقة الخطيرة برغم (التفريق) الذي كان قد حدث بيننا وبين إقليدس الشمال ... لأن الأمر لم يعد أمر تحرير هذا الإقليم من برائن الرجعية وإنما هو أمر تحرير (الأمة العربية كلها) لا (سياسياً) ومن (الخارج) فقط ... بل (اجتماعياً) و (من داخلها) أيضاً ...

ولم يكن المطلوب خطاب افتتاح كما كان مفهوماً ... وإنما كان وصفاً لتجربة العمل الثوري كما بدت له طوال الفترة التي عاشها (مع نضال هذا الشعب العظيم خلال سنوات حافلة ومليئة بالأعمال البكبرى ومليئة بالمشارك الكبير) ... معارك مع الاستعمار ... (تبدأ بإطلاق الأكاذيب وتنتهي بإطلاق القنابل) ومعارك مع الرجعية (تبدأ بمظاهر المحبة ... وتنتهي بطعنات في الظهر والفلان) ومعارك مع التخلف الطويل (الذي أرضعنا عليه والذي ورننا منه ما يسانيه شعبنا من المشاكل المساتقة) ومعارك مع أخسنا (مع قطع الصنف فينا ... حتى لا ننسى على الطريق أهدافنا) .

هذه الألسنة تحدد ذلك الموضوع ... الذي جرى في خطابه مجرى السر .. وهو يحدثهم عن (المرحلة القادمة .. مرحلة الثورة الاجتماعية) .. ولما كاد جندوها ولما سط سيرها وهي نتيجة كفاح طويل وشعبة وهي وتوسع .

وحديثهم بدءاً من الثورة عن كل للامسل ..

وعت أن الرجعية كانت هي التي تنوق الركب في كل مرحلة .. في موضوع الأحزاب ، في قصة الأرض والإقطاع ، في مشكلة رموس الأموال ، في كفاحنا مع الاستعمار « في أزمة مارس - بقصد ١٩٥٤ - الأزمة التي حصلت في مجلس الثورة وإلى وقف فيها عمد بحبس في جانب والثورة في جانب كانت أسساً بفعل الرجعية » التي

« استطاعت أن تختمه بأنه يستطيع أن يحكم البلد لوحده » ... في التصحيح و(رأس المال الجلبان) ... في الدولن ، في الحصار الاقتصادي الذي هزمته ، في (الائتماد القوي) أفلست الرجبية شيئا وتسلت إليه (وانضطك علينا) .

أرأيت إلى أي حد ، جاوز الرئيس كل الحدود التي يرسمونها لرؤساء القبول ؟
جاء فيه يقول لأعضاء اللجنة ، وجلهم كانوا أعضاء في لجان الائتماد القوي (انضطك علينا) علينا ، يعني (أنا واتم) ..

أرأيت إلى أي حد ؟ الرجبية (شاطرة جداً) ، و (طلما الاشتراكية يبط بس ، هم مبسوطين ، طلما الاشتراكية شمارت بس ، هم رعلاتين فيه ؟ ده هم هايزين كده ، ومستبدين يبطوا شمارات في الاشتراكية أد الهى بقولها عشرين مرة بس مانعطش الاشتراكية موضع التنفيذ وما نطبقهاش) ..

وبدأ الأعضاء يؤمنون بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثوري الجاد لا إلى « ائتماد قوي » تسيطر عليه الرجبية .. ولا إلى « اشتراكية ديموقراطية تعاونية » تقوم على الشمارات الزائفة و « البفط » ضد منافذ الطرقات ..

آمن الأعضاء بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثوري الجاد .

وكيف لا يؤمنون وهو يتحدث إليهم على مسمع من العالم كله عن حوادث الرشوة ، التي كشفت والفساد الذي يحاول أن يسيطر عليه وكل ما كان انطوصم يتجرون به ، ويحسبون استغلاله ، ويميلون به للصدور احتقاداً ..

وعندما إنا أنا توقفت عند سراية الرئيس سطوراً لأقول هنا ومن ناحيتي وهذا القول هو جوهر كتابي :

« وكل ماملًا المصوم به صدرى فضلت الطريق مسنورًا ، وحفظها صادق الصلة » .

وأعود إلى حطاب الرئيس ، إلى السر للوضوح العجيب .

إن الأعضاء يصمون الآن مشهورين إلى ذلك « الرجل الذى تأمرت عليه » يقول لم على مسح العالم كله وفى ساحة القى لا يجب لير الله أى حاسب :

« يعنى تقريباً أنا فى يوم من الأيام قلت إن الرحمة والأسمالية المستغلة بدأت تمهد الثورة ، والثورة التى قامت سنة ٥٢ ضاعت » .

أتريد مزيداً من المصراصة ؟

« البلد يعلسكها » ٪ وفيه ناس كثير النهارده بعد القوائم التى نشرت فى الجرائد يقولوا .. الله .. آمال كانوا ساكتين ليه من سنة ١٩٥٢ » .

هكذا ناب « جال » من أى عضو ينظر له هذا السؤال فأعلمه نفسه وبدأ يمدد المقبات التى كانت أمامه .. وظل يضطلها حقبة بعد حقبة .. متأصلاً بدستور الله وقرآنه الكريم الذى أنزله فى ثلاثة وعشرين عاماً وكان فى رسمه وهو القادر أن يزره دفعة واحدة لكن « ليه ربنا عمل كده ؟ حتى يطينا الفرصة والحليل أو الوسيلة التى نكدر نسل بها فى حياتنا وفى دنيانا » .

وكان لابد بعد التئيب على الصواب من دليل ينتج مبرونا على الأخطاء نتيجة لتجاربنا الزمرة ، ومن هنا دعيت اللجنة لتقيم مؤتمرًا يقدم إليه مشروع ميثاق يصبح « دليلًا للعمل » لأنه « نتيجة لدراسة مشاكل المجتمع » ، المجتمع الذى حرم بنوه من تكافؤ الفرص ، و « ابن النطوى يطلع فلاح وابن الإقطاعى وابن الباشا يطلع سحادة عليه » .

هل يشك الأعضاء بعد هذا كله فى أنهم مدعوون إلى تحريد الرجعية من كل

سلاح في يدها ؟ ومن عزها بيداً عن البناء الثوري الجديد ؟ « الحرية كل الحرية للشعب » هذا هو مفتاح التطلع الأوسع ، ولئن فُيِّجِب أن يعزل عن « المؤتمر الشعبي » كل أعداء الشعب لستطيع المؤتمر أن يتناش الميثاق ، وأن يطلق باسم الشعب هذه المسئولية التاريخية من غير أن يحكم مأساة الاتحاد القوي أو شعارات الإشتراكية الكلامية .

تحدت مهمة الأعضاء وآمنوا بسلامة المهمة وخطورة المسئولية ، وأرسيت أسس « الصديق الرقيب » بيد الرئيس ، وتوخله في كل كلمة قالها ، لم يحسب حساباً لغير الحق ..

تحدت مهمة الأعضاء « كل الحرية وكل الديمقراطية للشعب ولا حرية ولا ديموقراطية لأعداء الشعب » .

ولكن عملية التحديد تلتقي خلافاً على الرأي الحر الذي دهام إلى عمارته في أوسع نطاق بشري ممكن ، فواجه الحق في هذه الملاحظة ؟ وجه الحق أن الذي كان رأياً ٤ .

وهو يدعوهم إلى إبداء آرائهم بنفس المراحة التي يلتزمها في حديثه .

وهنا يحى « وثيقة الشرف » التي تحدت بها .

هنا يحى دورى لأسأل :

— هل نكسر الأعضاء على أعضائهم ونهيبوا المدعوة ؟

والجواب :

— ابداً .. لم يتهيبوها .. بل شجروا عن سواعدهم وخاضوا عمارها أشداه طلقاً ، بكل حاتمى هذه الكلمات من معان ، ولم يخطر ببال عضو أن هذه المدعوة إنما وجهت إليهم

أترأ من آثار الاضلال الذى أصاب «جمال» بعد الاغتيال السورى .. أبداً ..

« فيه ناس قالوا إن الإغتيال الرجس فى سوريا هو» الى غير الثورة الاجتماعية هنا فى مصر ، ده كلام لا نصيب له من الصحة لأن إحنا بنلدى بالثورة الإجتماعية من أول يوم » ..

إن ما هى الحقيقة ؟ أجلب :

« الى أقدر أقوله : إن الإغتيال الرجس فى سوريا كان رد فعل رجس الثورة الإجتماعية التى أعلنت فى يوليو من أجل مصالح الشعب ومن أجل مصالح الجماهير .. الإغتيال الرجس فى سوريا يمكن أن نلحقه خدنا منه دروس وخذنا منه عظة ، خدنا منها دروس كيف نلحق الرجسية وكيف شكلت نفسها .. إزاي مأمون الكزرى كان مثلاً رئيس لجنة المحاد قوى » .

عفا الله عما سلف

ورقطة أرانى مشدوداً إليها وأنا أدلل على أن اللجنة التحضيرية كانت (وثيقة شرف) — لاشك فيه — لأول تجربة مثيرة ملرس الشعب فيها (حرية الرأى) على (مستوى البرلمان) .

قال لم جمال :

« بعد الوحدة ما جاءت ، فيه فضائل كانت موجودة .. فتزدت .. هل حابىدى بعد الوحدة خضع ناس هذه الحاكم وفتح هذه المصحات ؟ قلت عفا الله عما سلف) .

وقص عليهم قضية كانت قائمة هى قضية المندشى ، وكان المتهم الأول فيها مأمون الكزرى .. وبعد قيام الحكومة المركزية طالب بعض الوزراء السوريين بمحاكمة المتهمين فى هذه القضية ، وكان للمندشى قد اعترف على مأمون الكزرى وصبرى الصل بالرشوة التى كانوا قد أخذوها ، ورفض (جمال) واكتفى أن يطلب إلى صبرى الصل أن يستقيل بعد أن ثبت عليه ما ثبتت ولا سيما فى محاكمات بداد ..

وكان بأمر الكزرى الذى عفا عنه هو أول رئيس وزراة فى الاغلاب السورى
التنادو ...

• • •

ومهم الأعضاء إذن أن سياسة القفو عما سلف من الرجسية هى التى جرت علينا
كل المتاعب التى عايننا منها ما عايننا ، فهل قال الأعضاء : (آمين) - و (آمين)
هنا لا غبار عليها وتلوح كأنها كلمة الحق بعد أن أبدعها (الواقع) الذى (وقع) - كلا ..
بل وجد من بين الأعضاء من طالب باستمرار سياسة القفو .. وللزيد من القفو ..
واشتد فى المطالبة وتلج فيها وأصر عليها ، حتى لاحظ الأمن للامام والأعضاء أن كلاماً كثيراً
عما قاله هذا المارضى يبنى حذره من محاضر الجلسه ، فكان جمال عبد الناصر هو الذى
حمى حرية هذا القفو ، وأصر جمال على ألا يحدف من المضبطة أية كلمة تقال فى اللجنة ،
لأن أعمالها جزء من التاريخ ، ولأن حرية الرأى مكتفوه للجميع ، ولأن هذه (الحرية)
إنما لم تمارس هنا فلا مكان آخر لها تمارس فيه ، وإذا لم تنهض بمسئولياتنا كاملة لزاد
هذه الحرية فلا جدوى من أى مبنى نبنيه ..

وقصبت للمارضى (خالد محمد خالد) بل خيف أن تتردد القصف فى نشر كلمته
كاملة فهبطت الصلبيات ليلا على الجريدة التابعة بلسم الحكومة (الجمهورية) أن تنشر
كلمة (خالد) كما قلنا .

الرئيس والمعارضة

وحيد « خالد محمد خالد » أطيل الزخرف .

لقد طرح « قضية » وثيقة الصلة بأعدائى ... وليس بالمين أن تطرح مثل هذه
« القضية » ولا أتأمل جددا .

و « خالد محمد خالد » من حيث هو « خالد » لا يبنى أعدائى ... فى قليل أو كثير
- برغم إعجابى به ككاتب ومفكر - أما « القضية » التى أثارها ... قضية تاملت
فى الخطورة ... ولعل الرئيس كان مشدوداً إلى غرض النقاش بهذه الخطورة فيها .

كان خلف يمارض مبدأ « العزل » .

وله الحق في أن يمارض أى مبدأ ... وأن يقاوم أى اتجاه .

لقد قال في شجاعة محمد هـ :

« صدقوني أيها السادة ... ليس من صالح أحد أبداً ... أن يسلح الشعب في
فترته الانتقالية هذه بشعارات حثيفة .. أبداً ... يجب أن نسلحه بطبيعته — طبيعته الطيبة
والثقة والوفاء والحب — فنسلحه بطبيعته هذه ، وهو شعب ذكي وقوي ، هذا ما أريد
أن أقوله ، وسأظل أقوله ، وسأظل أؤدى به لأنى وأومن بشمى » .

وذكر أنه لا مصلحة له فيما يدعو إليه ... لأنه ليس غنياً ... وذكر قصة محضر
رآه وهو طفل يجبر على ماشيتهم لحساب التفتيش الذى كان أبوه يقاومه ... ورأى الجند
يتنصرون أباءه وهو يلبس القوم وفي منتصف الليل ... وأعلن أنه كان محطاً حين طلب
للعمرويين « الرحمة » وأنه إنما يطلب لم « العدل » . لأنه لا ينهى أن يؤخذوا أبداً
بحرية لم يرتكبوها في الجمع الاشتراكي الديمقراطي الصاوى .

ولست أشك في أن كثيرين — من النصوص والأسرار — أجبوا بشجاعة هذا
« العضو » ... ولعلنى أنا أيضاً لم أنقذت من شعور الإحباط به ... رواسب من ماضينا
ليس من السهل أن تتخلص منها ... رواسب إيجابنا بالضعف الأعزل إذا هو عرض
الحاكم القاندر (بالحق أو بالباطل) رواسب من ماضينا الذى رسب فيها الكراهية
لحكام ... وامية أو غير وامية .. عياء أو مبصرة ... محقة أو مبطلة .

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد .. لما استكملت « القضية » ملاحمها ..
ولما انصلت لأهداف كتابى ... وتشكون — أكثر ما تشكون — رأياً يديه ...
ويطلب من الرئيس فيه ... مزيداً من التسلمح ... بل لعل لي مصلحة في أن أناصر
« خلف » ... لأن أول طائفة تحرر عزلها ... هي طائفة المحكوم عليهم ... وأنا تأمرت

وحكم على ... فاندرج اسمي تحت بند النزل الأول ... بالحق أو بالباطل ... وبينني
إذن في الدرجة القصوى أن أفسد « خاك » .

لكن الأمر كما قلت كان أكبر وأخطر .

الأمر أن « خاك » كان يرى أن « التسامح » الذي يدعو إليه ... هو الحرية
التي ضاعها في كتبه ... وهو يطالب بالزيادة منها إن أردنا أن ندعها ... والحرية التي
ضاعها هي الديمقراطية بشكلها الأوروبي والأمريكي ... أو مفهوم الغربيين لها ...
وبالمفاهيم التي نحرسها .

وكل معنى من هذه المعاني يستأهل أن يناقش ... وأن يناقش في عمق ووعي .

وقد رد الرئيس على الموضوع أكد له أن العملية ليست أن نطلب لم الرحمة أو أن
نطلب لم العدل ... إنما العملية عملية معركة غنوصها ويجب « أن أضمن على أن الجيش
الذي ممي ويقاوم في المعركة ... قياداته قيادات مؤمنة بهذه المعركة ... فإذا
لم تكن القيادات مؤمنة .. فلن كل المساركر الذين سآخدم ممي سيكونون ضحايا
لعدم حسن اختيارهم لهذه القيادات » .

والسلبية إذن — وأحدث سوريا لم تسكن ببلدت — عملية تأمين لهذه الثورة
الاجتماعية ويجب « أن أوفر لها سبل الأمن .. ولا أقول سبل الإرعاب ... ولا أقول
سبل الخوف ... ولا أقول سبل الظلم ... ولكني أقول سبل الأمن ... ولو كنت أقول
الظلم .. كنت تقدر ترد وتقول العدل ولكني أقول الأمن » و « الجماعة الذين دخلوا
عليكم في يتكم وضر بركم وجروكم مقليل موجودون ... والله إذا وجدوا الفرصة لفسدوا
هنا في بيروتا وضر بونا أيضاً وجرونا بالليل ولن يتركونا » .

كان الأمر واضحاً .

لم يكن « النزول » إذن محاكمة لأحد ... أو حقبة لأحد ... أو سبباً لأحد ..

وإنما كان تأييداً للثورة ... بعد أن تسال الرجسبون إلى الاتحاد (القوي) فأفسدوه
وإلى (الاشتراكية) فسبها فأصبحت لاختات وشعارات ... و (كل ما تريد أن تسفه
هو ألا يتولى هؤلاء الناس القيادة السليسية لا أن تسلم لم عاكة عسكرية)
وقد يقع في (الزل) ظلم قوم لا ينبغي أن يزلوا .

وقد يكون بين أعضاء اللجنة نفسها من يستحق (الزل) .

ذلك كله مرده للتجربة ... والدين للفتوحة ... والنقل القواهي .

والهلب مفتوح ... حل مصراحيه ... للتجربة ... يخرج منه من دخل ... ويدخل
إليه من خرج حل ضوء هذه التجربة (وأنا قلت أمس أنه يمكن بعد ستة شهور أن تسأل
ثانية ما هو الوضع ؟)

ولكن خالد وصل بين (السبل) و (الحربة) ... وبين (الحربة) و (الديمقراطية)
ووضع أنه يطالب بالديمقراطية بمفاهيمها الغربية .

وجاءت (وصلة خالد) بعد أن قال الرئيس (إنه لو فرض أن أتينا نحن بأنفس
لنعضوا دستوراً وثقرافيه الإنقطاع والرجسية فسوف أذهب وأرتدى القلعة السكاكي
وأحمل ثورة عليهم من أول وجديد ... ومهما تكلفنا فلا عودة إلى الوراء بأي حال
من الأحوال) .

وقف خالد يرد ويثنى على الرئيس والثناء دائماً ميسور ... ميسور له وميسور لي
وميسور لكل من يحسن الكلام مثقولا ... والكلمة مكتوبة ... وهذه حقيقة مطلب
لي أن أكررها وإن كانت لا تظلم أياً في صدق خالد وهو يرجي ذلك الثناء ...
إنما أردت أن أقول إن الثناء لم يكن هو المهم في كلمته إنما أهمنا منه قوله :

(وأنا بصفة خاصة كواهل أن نأمل أن نصل نحكمي عشرين سنة أو أكثر ولكن
الحكم الديمقراطي القوي أو من به وأرجوه) .

ولم تكن العبارة قد استكملت ملاحظتها وإن أقتت ظلال الحرية على الحكم الذي يدعو إليه النظام القائم ... ضد خالد بوضع الديمقراطية التي يؤمن بها ويقول :

* (وأعرف لك في هذا — يقصد (النذل السياسي) — مواقف جلية كما كم نزيه عادل ، ولكن الشيء الذي يحز في كبدي وخشي ، أن خصومك وخصومنا ، لا يحدون ما يقولونه سوى حجة واحدة .. هي قولهم أين البرلمان ؟! أين الدستور ؟! أين المعارضة ؟)
و « خصومك وخصومنا يقولون ؟!؟ » ... هكذا يقول خالد .. وهكذا كنت أقول .

و (خالد) إذن ما زال يصرب في الضلال — صادق الضلع وهو عضو في اللجنة التي تمزل .

و (أنا) أضع هذا الكتاب لأخرج من هذه الضلع وأدعو إلى الرشد أمثاله ... واسمى مدرج تحت أول بند ... ضمن أول طائفة ... قضت هذه اللجنة بهزما .

و (أنا) و (هو) ... صحة (خصومك وخصومنا) وما قالوا وما يقولون .
وهو ما يرال والقائم تحت تأثيرم ... يحز في كبدي ونفسي معاً ... قول الخصوم أين البرلمان وأين الدستور وأين المعارضة ؟

وقصة (الخصوم) هي التي قام عليها كتابي .

ومن هنا قلت أن (خالد) أثار قضية خطيرة تحصل بأهداف الكتاب .

• • •

ولقد قال لي الرئيس في رده أن هناك ديمقراطية بالمنى الذى ينيه وأن هناك اشتراكية بالمنى القريب أيضاً ، هناك اشتراكية (موليه) في فرنسا ... وهناك ديمقراطية الأرمن ..

أليس في الآذن دستور و برلمان وأحزاب ومعارضون ؟

أو لم يكن لدينا دستور قاتلنا في سبيله و برلمان وأحزاب ومعارضون ؟

فكيف كانت تحكم مصر إلى سنة ١٩٥٢ وكيف تمحكم الأردن حتى الآن ؟
أيقال إن الأسرع مع التارق لأننا هنا نوار ؟

لقد تولى أناتورك - أو مصطفى كمال - الرد على هذا التساؤل ...

نار وحارب ... وحرر تركيا من جيوش الاحتلال ... وحكم ومج ... وكان
حكمه قويا ... واستجلب الذي يؤمن به خلفه ... فوضع دستورا وأقام برلمانا وأنشأ حزبين
أحدهما يحكم . والآخر يمارض ... ليتخلص من الحرق السكيد وق النفس - ومن
أقوال المنصوم : أين البرلمان وأين الدستور وأين للمارضة ... وإذا بالهذ تقسم ...
والبلد يكاد يضيع ... فناد إلى نظرية حربه الواحد . وهو حزب لإنونو حزب الشعب
ولم يحول ثورته من السياسة إلى المجتمع - فأكاد يموت حتى ضاعت الثورة - وبقي
الإطعام ورأس المال والتحكم والأمريكان .

ولمحن لا نخاض الدستور ولا البرلمان ولا للمارضة .

وسنضع دستورا وهم برلمانا .. وترتفع فيه أصوات للمارضين .

أما أن نقيم أحرابا في مجتمع إقطاعي ورأسمالي فلا ... يجب أن نذهب للتوارق
بين الطبقات أولا .. ومنى تطهر المجتمع ... أقام الشكل الذي يريده بلا خوف عليه ،
أما أن نسلم المجتمع الآن إلى الحزب الشيوعي المصري الذي يتلقى تعليماته من صوفيا
أو إلى حزب آخر يتلقى تعليماته من إنجلترا أو أمريكا ... لا نشئ إلا لأن المنصوم
يقولون أين وأين ... فلكلام لا يهبي أن يقال أو لا ينهى أن يسمع ..

هذه هي القضية التي أنارها خاله محمد خاله .

وهي من زاوية أخرى .. تدعم رأيي في أن اللجنة (التصفيرية) وثيقة شرف
لحرية الرأي إلى غير حد ... لأن هذا الكتاب عضو في هذه اللجنة .. ولأنه من
المؤمنين - كما يقرر - بالثورة ... ومن المؤمنين بناصر ... وقد قبل المضوية على
أساس السبل داخل الإطار الثوري . ورغم هذه الحقيقة تسامل عن مخططات الإمبراطورية
بمفهومها القوي لا بمفهومها الناصري ... ولم يتكر عليه (ناصر) هذا الخروج عن

(الإطار) وإنما ساجله في سمة أفق وسمة صدر ... وذكره بكتبه ٤ ومقالات ... وذكره بالسطر و (صفحة ٣) وعلى القور ومن المذاكرة .

وقد يكون مما يكمل الصورة - وعلى هامش هذا النقش - أن ثبت هنا ما أحلته خالد محمد خالد . عند ما قل فرئيس :

« ولعلك تذكر يا سيادة الرئيس ، حيناً أسعدتني ودموتني إلى بيتك ومكننا معاً في قفلس ساحين أو أكثر »

هذه الكلمة لما خطر لها .

رئيس دولة ، يواصل إليه بهاره ، مقاتلا ، وأعداؤه لا حصر لهم من الغرب والشرق ، ومن الداخل ومن الخارج ، ورسائله تقوض حروشا وتهدم ظناً ، وتجور عبيداً ، وتبيد إقطاعاً ، ثم هو يقرأ كل كتاب جذير بالقراءة ، ثم يستدعي كاتباً ككلاه ، ويناقشه في آرائه مناقشة تند تند ، أكثر من ساحين ، رجاء أن يقتنع ، كأنما هو (قل دول) في معركة حاسمة ، ثم يقال بعدها أن (ناصر ديكاتور !!!)

ومرة أخرى...

ومرة أخرى ، أهود إلى اللجنة .

أهود لأقول إنها أمرت لنا من الرأي وجوها لم تدر بخلفنا ، وأبرزت لنا من الأعضاء مواهب كانت خافية علينا ، وأبرزت لنا من الشبابة ألواناً ، لم يستمع بثلتها أخصاء البرلمانات في أفرق الدول ، وأبرزت لنا من (النصف الآخر) مستوى من الوعي لم يكن أحد يصدق أن (الراة) يملكه ، وأبرزت لنا طليعاً - وهذا بديهي - ألواناً من «التفاهق» لا يمكن أن تبرا منه لجنة قوامها مائتان وخمسون صصواً ، ولو دعا إليها هر ابن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز .

وقد لا أوافق اللجنة على كل قرار انتهت إليه .

وقرارات اللجنة ليست قرآناً ، وليست مسطرة من الخطأ .

إنما الذى يمتنع أن كل شيء قبل غيرها ، وأن (ناصر) تجل بكل مواهبه وهو يوجه نقاشها ، ويبسط الحقائق ، ويعترف بالأخطاء ، ويرى الأسس ، ويحدد المعالم ، ويضع الرسالة فى مكانها الصحيح .

كانت اللجنة إذن مبدأ للوئمة ، وكانت (هيئة استبدال) رشيدة وواعية لتقديم (الموثق) ، وعرفت كيف تحيى للوئمة بدفء التورى من صميم الشعب لا من حواشيه ، ومن محاميه وفلاحيه وأصحاب السلعة فيه ، لا من مغزيه الكسالى ولا من عاطليه التافهين .

ولعل من حق - ولا تزال الحرفة تلاحقني - أن نحويا فى سمائها ، قد التمت فى سماء هذه اللجنة ، وطأنا على الجبل الصاعد ، من الكتائب المؤمنين بالنصرية ، وأراى مشدوداً برهوى للمنى ، إلى أن أذكر اسم كل الدين الحناوى ، واسم أحد بهاء الدين ، واسم الدكتور عائشة عبد الرحمن ، واسم الدكتور زكى مجيب محمود (وهو محسوب على القلم وإن حسبه على الجلاسة) ، واسم الشيخ الشرباصى (إنما أجهه أن يكون محسوباً على دولة القلم) .

أما أستاذة الجلاسة الذين لموا فى سماء القاعة ، وأما السيدات ، وأما العمال ، وأما الفلاحون ، وأما تهب الحليين والحاسون ، فأراى مشدوداً أيضاً إلى إعلان أسماء الشرات منهم - وجُلُّهم فى غير حاجة إلى الإعلان - لولا كثرتهم ونحوى من أن أنسى إسماءه قدره وأنجيل .

• • •

الذى يمتنى أن (للوئمة الوطنى لفوى الشمية) إنما جاء على الصورة التى جاء عليها بفضل هذه اللجنة التحضيرية

وجه المؤتمر

نعم ، جاء ، وتقدم إليه (ناصر) (بشروع الميثاق) .
ووقفه أخرى لا بد منها وأنا أستقبل (الميثاق) ليسترد القلم أخاه :

• • •

ومضى أن أكون قد استطعت أن أرسم هذه الحلقة الخامسة والمشرين في موقعي
من (الرجل الفنى تأمرت عليه) .

الفصل السادس والعشرون

آخر الأحاديث ... من « ناصر » ومن « الأحداث »

قلت .. إن « الليثاني » قد جاء ...

وجادت معه وقفى الأخيرة .. أعلن الناس فيها .. على وقع خطواته للنفومة ..
أنشودة إيماني .

وعدت فرأيت .. أن أجمل من هذه الأنشودة .. آخر فصل في كتابي ..
لأن هناك بعض « الجيوب » لابد أن تصفى قبل الفصل الأخير .

وعلى صوء هذا الرأي .. أتسبب الآن من التحدث عن الليثاني إلى أحاديث
أخرى .. هي آخر الأحاديث .. أنتقلها هذه المرة من « م ناصر » و « من نفس
ناصر » .. ثم أنتقلها بعدئذ .. من «م الأحداث » .. من ماضٍ لها .. خلقنا فيه جيوباً ..
ومن معارك لائقة وقادمة .. نحاول أن نموق الركب القوي زحف .

من « ناصر » ومن « قصة » ١٩

ولقد وصفت لك « ناصر » داتيل « الإطار » الذي أعده له قلمي . وكافهمته
بمقلي ومشاعري .. وكما قال لي تاريخه عن أستاذٍ طموه .. وعن ثلاثين زاملوه .. وعن
كسب حاولت على قدر جهد واضميا أن تجمع بين البيانات عن نشأته .

ولقد ذكرت عند هذه (النهاية) من كتابي أن جريدة (المندلي تيمس)
— كبرى صحف الأحد في بريطانيا — كانت قد عيَّنت لي (دافيد وين مورجان)
في الحصول على (قصة ناصر) من (م ناصر) فنشر قصولها على نطاق الليد المباشر
للثورة . ونهض كاتبها بالهمة .. واستقبله (ناصر) وأفضى إليه بقصته وقلت (الأهرام)
بعض قصولها ..

وعدت إلى هذه القصول .. فرأيت في إجابات (ناسر) ما يربطها وبقاً ..
ببعض ما عرست له في فصولي السابقة وما يصوب بعض البيانات التي نقلتها عن بعض
الكُتُب التي لم تدرج للتحقق في الرواية .. أو اعترتها لمرعبة في مدح (ناسر) .. بأرقام
أو أسدلت لا تنطبق الواقع .. ورايت أخيراً أن من الأمانة للتاريخ أن أثبت هنا ما جاء
في فصول (دانيال وين مورجان) .

(١)

ذكرنا في فصل سابق أن التليذ جمال عبد الناصر كان متجهاً إلى ميدان المشية
بالإسكندرية في سنة ١٩٣٠ ولم تكن سته تحاوز إتني عشر عاماً ورأى اشتباهاً بين
البوليس والأهلين فانصم إلى الأهلين وشارك في ضرب البوليس وجرح .

ولكن (ناسر) يقول للكاتب الإنجليزي (وين مورجان) رداً على سؤال له
ما يأتي بالحرف :

« — كثيراً ما سئلت هذا السؤال : متى أصبحت ثورياً لأول مرة ؟ .. وهو
سؤال تستحيل الإجابة عليه ، فهذا الشعور أمله ظروف تكويني وتشغلي وغذاء شعور
عام بالضغط والتحدى اجتاحت كل أبناء جيلي في المدارس والجامعات ، ثم انتقل إلى
القنوات المسلحة .

« وما زلت أذكر بوضوح أول حدام لي مع السلطة .. كان ذلك في سنة ١٩٣٣
وكانت يومئذ تليداً في الإسكندرية لم ألق بعد الخامسة عشرة من عمري وكنت أهر
ميدان المشية في الإسكندرية حين وجدت اشتباهاً بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين
قوات من البوليس ، ولم أتردد في تقرير موقفي ، فلقد انصمت على الفور إلى المظاهرين
دون أن أعرف أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون من أجله ، ولقد شرحت
أنني في غير حاجة إلى سؤال ، لقد رأيت أفراداً من الجماهير في حدام مع السلطة ،
واتحدت موقفي دون تردد في الجانب المهادي للسلطة .

ومرت لحظات سيطرت فيها المظاهرة على الموقف ، لكن سرعان ما جاءت

إلى المكان الإمدادات حولة لورين من رجال البوليس لتبرز القوة وهمت علينا جماعتهم .. وإلى لأذكر أنى — فى محولة يائسة — أقيت حبراً لكنهم أدركونا فى مثل لمح البصر ، وحلوت أن أهرب لكننى حين التفت هوت على رأسى عصا من عصا البوليس تلثها ضربة ثانية حين سقطت .. ثم شحنت إلى الحبرز وللم يسيل من رأسى مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإنلات بالسرعة الكافية .

ولما كنت فى قسم البوليس وأخذوا يمالجون جراح رأسى سألت من سبب المظاهرة ، ففرت أنها مظاهرة نظمها جماعة مصر الفتاة فى ذلك الوقت ، للاحتجاج على سياسة الحكومة .

وقد دخلت السجن تليذاً متحصلاً وخرحت منه مشحوناً بطاقة من التمسب ، وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبدل أنكارى وستثنائى وحطلى ولكن حتى فى هذه المرحلة الباكورة كنت أعلم أن وطنى يخوض صراعاً متصلاً من أجل حريته .



ونستبين من هذه الإجابة أن الحادث كان فى سنة ١٩٣٣ وأن منه كانت قرابة خمس عشرة سنة .. وأن اسم « مصر الفتاة » عرفه فى ذلك اليوم ... ولم يكن صديقاً إذن أن يجرى إلى القاهرة فى العام التالى يحمل جراحه ... وهو عضو فى الجماعة التى ظلت فى صفوفها من قبل أن يعرف شيئاً عنها .

كذلك استبنا من إجابة « أخرى » عن سؤال آخر .. أنه بعد تلك الحادثة اندفع بكل جوارحه إلى « المظاهرات الساخنة » مع التلاميذ الآخرين يرمون شوارع الإسكندرية وأصبح « عضواً فى لجنة تنظيم المقاومة » لاسيا السيطرة الأجنبية .. فأتى به المستوفون فى المدرسة وضاق به أبوه فأرسله إلى القاهرة ليعيش مع عمه والتحق بمدرسة أخرى (مدرسة النهضة طبياً) .

وإذن قد مارس المقاومة فى الإسكندرية وبرز فيها واختير عضواً فى لجنها ..

وجاء إلى القاهرة « طريد السيلة » وكل هذه الحقائق تقصر لنا الصلة مدرسة « النهضة » بخولا فوق ماضيه .. مزداناً بجراحه .. مدرباً على القسوة .. متمسكاً بالمظلمات ..

(٢)

ولكم يسعدنى أن تعد فصول « وين مورجان » فراغاً كنت أحس به وأنا أتحدث إليك عن البذور والبنود والنبات والعمود في « ثورية ناصر » ولا أجد غير « سر التكوين » أو غير « سر خامس » لا أدريه .. دافعاً له وهو صغير .. إلى تلك اللغزات التي خاضها وكانت كبيرة .

لقد سأله « دافيد وين مورجان » عن الصدمة النفسية التي قبل إنها وقعت له في تلك الفترة من العيا أو الفتوة ؟ وقل « ناصر » إن ذلك الذي قبل صحيح ، وإن أباه كان مصرّاً على معارضة مشاعره وأعماله الثورية وإن أمه كانت تنظر إلى السياسة نظرها إلى شيء لا يمتنعها وكانت العلاقة بينهما هي علاقة الحب الخالص الذي يربط ما بين الأم وولدها ثم قال جمال :

« ولم أكن أصغر من أن أقرأ في رسائل زهوة أسرى .. لكن حين انقطعت أباه أمي فترة من الزمن سافرت زهوة الأسرة ولما بلغت البيت لم أجد لها أثرًا . وعلت أنها قد ماتت قبل ذلك بأسابيع ، ولم يجد أحد الشجاعة الكافية لإبلاعي بموتها .. ولكنني اكتشفت موتها بنفسى بطريقة هزت كياني .. وعدت لتورى إلى القاهرة حيث كرسّت نفسي لنشاطى السياسى ولكن بصورة أعنف من دى قبل .. وخفف الزمن صدمتي ولكنني ظلت مبتدأ من أسرى لمدة سنوات — فقد كان قد أمي في حشد ذاتة أسراً محرراً للضايقة أما قدما بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت في شعوراً لا يمحوه الزمن .. وقد جعلتني ألامى وأحرانى انطاعة في تلك الفترة أجد مصحاً بالآلى إلى إرث الألام والأحزان بالتعب والمستقبل السنين »

تلك حقيقة يعرفها رفاق « ناسر » على التحقيق .

ولست أشك في أنها تسربت إلى كثيرين وذاعت بينهم ولم يد إدلائها في هذا المكتب مثبثاً بالنسبة إليهم .

والإنارة على أى حال لا تصيبني .

إنما يصيبني أن الحادثة تحمل لى « هذه الصدفة » في ثورية ناسر .. ولم أكن قد عرفت هذه الصدفة قبل اليوم وقبل أن أراجع فصول « وين مورجان » لأكتب لك هذا الفصل .. ولو أنى قرأت تلك الفصول يوم نشرت .. لكلمات الحادثة ركيزة لمبحث عريضة وحقيقة .. في المكتب .

أما اليوم وأنا أستودعك آخر فصول عشي أن أسجل ملاحظاتى العائرة فيما على :
« كان جمال « ثورياً » وكان أبوه يمارس الثورية فيه .. وكان يقابل هذا الموقف حسب خالص ربط بين العشي وأمه كتمويس لا بد منه من الممارسة الأبوية .. وكوقود لا بد منه الثورية .

« كان جمال بطوى ضلوعه على هذه الشحنة من الحب لأمه .. ولا يزور الأسرة حتى لا يغموس في معركة أبيه .. وحتى يتحرك حراً في جو الكفاح الوطنى بعيداً عن جو الممارسة .. ومثل هذا البعد عن الأسرة .. يزيد حتماً في حبه لأمه .. وقد بانث أهراس هذا الحب في سفره إلى الأسرة برغم قيام « الجفوة » بينها عندما انشغلت عنه أتهاء أمه .. وهناك — في البيت الذى أحب وجهه .. لم يجد لربة البيت أمراً ولم يبرؤ أحد على أن يقول له أن أمه ماتت .

« وهناك اكتشف الأمر بنفسه وعلم أنها ماتت قبل ذلك ستة أسابيع .. ولم يقل لنا « كيف علم ؟ » لا بد أنه علم « بطريقة طاجية ومؤثرة ومثيرة » . لأنه يقول لنا لن فقد أمه في ذاته كان أمراً محزنًا للغاية « أما قددها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت في شعوراً لا يمحوه الزمن » ، شعوراً لا يبرقه إلا من لجم في الأمومة على هذا

الحنو، وتندر أن يفتح صبي في أمه على هذه الصورة التي أشار إليها حزينا واثق مجرد الخوض فيها وهو في الرابعة والأربعين من العمر .

« وكان طيبا أن يعود إلى القاهرة لغوره .. وكل قطرة دم فيه .. تريد أن تشق لها الطريق خارج العروق .. وأهجز بدوري — وعلى ضوء هذه الحقيقة — أن أنصروه « الآن » ، وهو عائد « يومها » . وكيف كان ؟ وما مدى الضيق ؟ وفي أي المجالات يتحرك ، ويصرح ، ويدمر ، ويحطم ، ويكتسح . ١١٩

عاد لينمل هذا كله ، ولكن القدر كان يدخره ، و « الحزن الثوري » كان يعود « الشيء » الذي يقهره ، وقد جاء هذا « الشيء » وجاء « عنيقا » ، فاجبه به إلى الكفاح السياسي في سبيل بلاده يكوس له كل نفسه ، ويفرغ فيه كل عنفه ، وكان « جبال »

« وثمة جانب آخر من جواب الحادث يحسن أن نستوعبه قبل أن نطويه ، بعد أن اسعد أثره إلى كل كفاح الرجل ، وإلى كل زعامته ، وإلى كل بناء شخصيته ، ذلك هو قول « ناصر » في بساطة :

— « وقد جئتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجده مصصا بالآفي
إزالة الآلام والأحزان بالنير في مستقبل السنين » .

هذه « حقيقة كبيرة » يارفاق ..

« حقيقة تقول : إن حامل هذا الشعور لا يمكن أن يكون « الليكثاتور » الذي يمشي إلى أمحاده الشخصية فوق الأشلاء والجماجم .. يحمل .. ويدمر .. ويقطع الرقاب ..

« حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور هو الذي دوى في سمه أصوات صراخ ومويل .. ولوعة امرأة .. ورعب طفل .. ثم استنفاته متصلة مجموعة .. أصوات ظلت تطارده وتمزق حسنه وهو عائد إلى بيته سد أن أطلق الرصاص على حسين سري عامر ولم يتم ليبتها وقام وصلى لله — والصلاة هنا منقولة عن « وين مورجان » لا عن

« فلسفة الثورة » — ودعا الله أن يحفظ حياة الرجل . ولم يثبت إلا بعد أن صدرت الصحف وعرف أن الرجل لم يموت .

« حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور .. إنما يستجيب له .. وهو يفتح أبواب السجون بعد شهر .. أمام الذين تأمروا عليه وحكم عليهم القضاء بشهادات السجين .. »
 إنه ما يزال يمد مصفاً باتناً في إزلال الآلام والأحزان بالمير .. ولو كانوا انفصاليين في سوريا ، ولو كانوا .. الذين يشنون أن يتخلصوا منه .

تلك النقاط في تاريخه .. كم أسدى أن أدركها — قبل أن أعض قلبي من آخر فصول — وأحب عندها في خشوع وإكبار وتأمل — وإن كان الوقت قد فات ، ولم يعد بمسوراً أن أطيل الوقوف حيث كان ينبغي أن يطول .. ويطول .

(٣)

وأصبحت تذكر ذلك الجهد الذي بذلته — وأنا أتأمل عن شيوعية « جمال » وإحوايته ووجدته وأمره بركيته — حتى استطعت أن أستخلص من الأحداث أنه لم يكن شيوعياً ولا إخوانياً . ولم يكن ودياً ولا أمريكياً وإنما كان : « جمال عبد الناصر »

وفي حديثه مع « دافيد وين مورجان » مثل « جمال » عما يقال عن محاولة له واسعة لاستكشاف الأحزاب السياسية في مصر فوافق على أن الأحزاب السياسية شتمته طويلاً « سنوات التكوين » وأما انضم لمدة عامين — بعد مظاهرة الاسكندرية — إلى جماعة « مصر الفتاة » و « لكنني تركتها بعد أن اكتشفت أنها رعم دعاواعة الثمالة لا تحقق شيئاً وانحما » ..

ونور « جمال » إنه فوجئ في عدة مناسبات في أسر انضمامه إلى الحزب الشيوعي : « لكنني رعم دراسقي للذهب للاركسي ولكتابات لينين وجدت أمانى عتيبتين أساسيتين ، عتيبتين كنت أعلم أنه لا سبيل إلى التغلب عليهما » الفقية الأولى هي أنه الشيوعية في جوهرها ملحدة وكان هو دائماً مسلماً صادقاً ومؤمناً بالله ، ويستحيل على

أى إنسان (أن يكون مسلماً صادقاً وشيوعياً صادقاً) ، فأما النقطة الثانية فهي أن الشيوعية (سيطرة) من (روع ما) من الأحزاب الشيوعية السالفة وهو يرفض هذه السيطرة ولا يرى فرقاً بينها وبين السيطرات التي يقاومها من الحتل ومن الإقطاع .

واعترف « جمال » بأنه كانت له اتصالات بالإخوان المسلمين رغم أنه لم يكن عضواً في هذه الجماعة ، وإنما أحس بقوة زعيمهم حسن البنا ، ولكن عيهم كان (المنصب) وهو يرى أن (القناص) يجب أن يكون ركباً من أركان المجتمع الذي يحلم به .

واعترف « جمال » أن الحكومة الوفدية ضمه هو وذكرها بحسب الدين ومحمد أمور السادات من أبناء دمه وأبناء ثورته عندما أصدرت بعد مهادنة ١٩٣٦ مرسوماً يقضى بفتح الكلية الحربية للشبان بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية وثروتهم فكان الثلاثة مع نفر من الآخرين الذين ظلوا فيها بعد رفضاً حامين ممن من استطاعوا الانتفاع بهذا الموضع ونخرج الثلاثة في سنة ١٩٣٨ وعينوا في سفاد ثم قتل في سنة ١٩٣٩ إلى الاسكندرية فالتقى بعد الحكم عامر وكان يشاركه الاعتقاد في ضرورة الثورة والتغيير ، وسارت الأمور .

• • •

هذه النقطة من الحديث تنير أموراً ..

تنير ذكرى أكاذيب الخصوم ، وترسم صورة لبراعتهم .

كانوا يعرفون أن « جمال » درس الماركسية ، وفتح في الانععام الشيوعية ، وكانوا يعرفون أنه كان على اتصال بالوفديين عن طريق لجان الطلبة ، وكانوا يعرفون أن أمريكا حاولت أن تطويه بدماً من الثورة ، وعبر السنين التي توالى حتى ظهرت خصومته لهم ، خرف الخصوم كيف يسلدون إليه تهمة الشيوعية ، وتهمة الإحواية ، وتهمة الوفدية ، وتهمة الأمريكية ، كل في حينها ، لم ينفقوها من الفراغ ولم يخلقوها من الدم ، وإنما كانوا يبحثون في تاريخه عن (حقائق) ليستخلصوا منها الأكاذيب ، وأكادها صلا (مصانع) لها آلاتها ولها رجليها ، وللخبرة أكبر نصيب .

• • •

وتتبر هذه النقطة أيضاً ما لعله جال من قراءاته للذاهب ، ومن اتصالاته بأصحابها ، في الاعتناق بكل ما فيها من نمار الفكر المبدع — والشيطان عسه خلاق ومبدع — ليخرج علينا بالناصرية مصرية الجذور عربية الفروع — لا شرقية فتلسف بالله والأحلاق والقيم — وتؤمن بالصف والإرهاب وحماسات الدم ، وتسود طبقة واحدة تم تسيطر ، ولا عربية تؤمن رأس المال والاحتكار وتفرق بين الطبقات وتتخم مواطنها واحداً ، ليجوع سببه مائة من المواطنين .

(٤)

وفي سياق البحث عن كل ما أستكمل به بحوثي أذكر كشفاً لصحفي مصري أكرم من كشف (وين مورجان) لأن الكاتب الانجليزى إما سأل وأجيب ، أما الكاتب المصرى فقد بحث وأصلب .

نم ذكرت مصطفى أمين وكشفناه وفنى إليه ، ولا أراى فى غنى عنه ، وهو ركن فى الشخصية صارب الجذور فى ماضيه وضاء الحنين فى القبلية المشعة .



فى السابع من يوليو نشر مصطفى مقالاً وسرد علينا القصة كاملة ، قصة (أخبار اليوم) وكيف كانت أول جريدة فى العالم تكتب عن جمال عبد الناصر ، ويفاجأ مصطفى بهذا الشيء الغريب الذى نشرته جريدته ، وهو يقلب صفحاتها (بحثاً) عن دور الصحافة فى التمهيد لثورة ..

والقصة أن ضباط القلوجا المحاصرين ، كانوا يصعدون مجلة من نسخة واحدة محط اليد وكان اسمها « مجلة القلوجا » وفى أحد أعدادها وجّه « محررها ١٩ » عشرة أسئلة إلى عشرة من أفراد القوة من مختلف الرتب وكان السؤال :

— ما هى أمنيتك فى الحياة إن هشت ؟

وقال السيد له قائد القارجا « وضربها للشهور » :

— « فيلاً ملك في الإسكندرية .. والصحة والسفر » .

وقال القاتم منيد رزق الله :

— « آكل وأعيش منهى » .

وقال البكباشي يس عزلاوى :

— « أسم بالحياة بين روحى وأولادى » .

وقال كمالخ جمال عبد الناصر :

— « أحق مبادئ وأرى مصر بلغت ما أرجوه لها » .

وقال اليوزباشى أمين أحمد :

— « أشوف إبنى فى مركز كويس » .

وقال الملازم أول أمين فريد :

— « الستر » .

وقال للملازم ثان مدحت شعيب :

« أنصر شويه » .

وقال السكرى السواحلى :

— « أجى رطامى » .

ولا أحب أن أطلق .. إنما أحب أن تردوا هذا الكشف العجيب إلى منى من
شخصية هذا القائد من مطلع الصبا .. بدءاً من البذور والجنود .. وانتهاء إلى قمة العود .

ومرة أخرى لا أحب أن أطلق ..

وأكتفى بقول مصطفى وهو يقب على الخيل :

« إنك لو قرأت هذه الصفحة من أخبار اليوم قبل قيام الثورة بثلاثة أعوام وخمسة أشهر .. ودققت في الإجابات لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل » .

وأضيف من ناصيتي وصفاً قتل لهذا « البطل » .

— لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل ، وعلى دوره أيضاً ، ذلك الدور الذي ظل يهيم على وجهه في منطقة الشرق الأوسط باحثاً عن البطل كما قال (ناصر) في (فلسفة الثورة) .

ومن الأحداث ؟

وإذا انتهت مهنتي في الجانب الأول من هذه الأحداث .. (من مصر .. ومن فه) بقي أن نقف قليلاً عند أحداث لم نعيشها (من فم الأحداث) غسها ، وكل حدث منها يسأهل كتاباً ، ومن يدريك ، لعل القدر يأذن لي .. وأحدثك عنها في كُتُب ، أما الساعة فهي ليست من مهابي إلا من حيث اتصالها بالرجل ، ولكن بأي رجل ؟ هل هو الذي تأمرت عليه ؟ أم هو الذي آمنت به ؟

هناك أحداث تتمثل بالرجل الأول ؟ ومراسل التحول ، ولكي أربطها إلى هذا المكان من الكتاب لأنها هي أيضاً ما تزال تتحول ، ولم يكن سهلاً أن نمسك عليها . في مطالع تحوُّلها ، كأجهزة الثورة ، وهناك أحداث تتمثل بالرجل الثاني ، رجل الذي آمنت به لأنها وقعت بعد أن آمنت لنا رادتي إلا إيماناً ، كأحداث سوريا ، وشاؤون حكومتها مع إبليس والشيطان ، والفريت والبلان ، ضد عبد الناصر ، وتقديسها بالشكاية إلى مجلس الجامعة العربية ، وانسحاب ناصر من عسوية هذه الجامعة ..

مثل هذه الأحداث وقعت كلها بعد إيماني ، فرادتي لإيماناً ومن حثها على الريشة التي في يدي وهي تستودعك القبول الأخيرة أن تجري بكلمة حق بها .

التوعية والميثاق

« إن فلسفة العمل الوطني يجب أن تصل إلى جميع العاملين في الوطن في كافة المجالات بل ويجب أن تصل إليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم » .

« إن الوضوح الفكري أكبر ما يساعد على نجاح التجربة »

(حقيقتان) كبيرتان موحودتان في (الميثاق) .

ولا سبيل إلى الربط بين كافة المجالات في الوضوح الفكري عبر التوعية .

و (التوعية) إذن هي إحدى الخطوات التي يقوم عليها بناء المجتمع الجديد .

ويبدو أن (الدعوة) سبقت (الميثاق) بالبدء في التوعية ، في كثير من المجالات ولا نقول (في كافة المجالات) .

ولكن (الميثاق) متى بالربط بين هذه المجالات يحتاج بالربط بين أجزاء البناء .

ومن هنا أحب أن ألاحظ — كقؤمن هذه المرة غير مهزوز ولا متردد — أن وسائل التوعية تعددت ، بتعدد المجالات والمستويات ، ولكن شيئاً ما ينقصها حتى يربط بينها وحتى تندمج كلها مشدودة إلى البناء ، شيئاً لابد أن نعمله يوماً (روح الميثاق) .

وسائل الإعلام هي أخطر جانب من جوانب هذه التوعية ..

وقد سجلت هذه الوسائل في جوانب منها نتائج مذهلة — دعا إليها (الميثاق) ، من قبل أن يصدر الميثاق .

« ولم يند في شرقنا العربي — وفي كل أرجاء الدنيا المعنية بوسائل الإعلام — من لم يجهز التقدم الإذاعي والتلفزيوني في الفترة القصيرة الأخيرة .

• وليس من شأنا أن نرجى الشتاء لئلا القادر حاتم أو لأعوته ، فالثاء مكانه في الصيف ، أما الكتب فتشمل الحقائق .

• إن التليفزيون المرئي - مثلا - أثبت (ثورته) بصورة مذهلة وغير مسبوقة .

• إن الإذاعة - بحاجتها - أخذت بين إذاعات العالم مكانة لم تتناول إليها إذاعات الدول المنطوية إذ أن قيس هذا التناول بالزمن الذي استغرقه التقدم .

• إن مصلحة الاستعلامات - وللطبوعات التي تنشر بها جامعي المروية - سجلت هي الأخرى رفقا فهايا يثير الحجة ، وأصبحت سوق الفكر تستقبل كتابا مطبوعا في كل ست ساعات .

• إن التأثير الذي أمست وسائل الإعلام في القاهرة تحدته في كل مواطن عربي خارج الحدود المصرية ، بات خطيرا و رهيبا ، وأسهم بتسبب خطير و رهيب أيضا في ذلك معقل الرجعية وهز الكراسي تحت الحاكمين المتصنين هذه المناقل ، فانطلقوا شرقا وغربا يستأجرون كل مصري قار ، وكل أفاق وصال ، وكل من يحسن الإنقاء أو التمثيل أو التأليف ليواجهوا تيار المروية وهو زحف فوق اللوجة المارمة ، موجة الأثير إذاعة ، وموجة الكلمة .. كتباً ..

• إن (السياسة) هي الأخرى بدأت تلعب دورها في توعية السامعين بنهضتنا وجذب العدد الكبير منهم إلى بلادنا ، بوسائل دعائية بارعة ..

• إن الملصقات في كل حلقة وشارع وفوق كل لوحة و جدار و واجهة ، وعلى كل أداة تقل تدب فوق أرض الوطن بدأت هي الأخرى تدير الرموس .

• إن المكاتب التي يشها بمجي أبو بكر باسم (الاستعلامات) في عوامم المحافظات والمدن الكبرى آخذت طريقها مع الزمن إلى قلب القري لتزسل على ظلماها أنوار التفكير الثوري .. وهاجية .

كل هذه حقائق ..

وكما قامت قبل أن يصدر (الميثاق) ..

ولكن (الميثاق) صدر ..

وصدر (كلاً) متناسق الأجزاء ، ودها كل قطعة أن تأخذ مكانها الصحيح ، في الآلة
الفضة ، حتى تضبط الزر وتدور الآلة ..

• • •

و (التوعية) ، بكل شعبة فيها - لابد أن تستهدى بالميثاق ، في التنسيق
بين (الشعب) .

وإذا قيل إن المشرف على السياحة والإذاعة والتلفزيون والاستعلامات كاد يجاوز
الطاقة البشرية فيما يبدل من جهد ولا يستطيع أن يرى شباك نشاطه إلى أبعد من هذا
المدى .. من (الميثاق) - إذا قيل . - يستطيع أن يروى على هذا القول ، بوجود (ناصر)
وأن (ناصر) لم يتعب ليكون رئيساً (مؤلفاً) للدولة ، وإنما انتخب لأنه (ناصر)
وهو مشرف على التطبيق ، ومؤمن بالتنسيق ، فلا خوف على وسائل التوعية ،
مهما تعتمد لأنها مشدودة بالميثاق ، إلى أهداف لا تتناقض .

والتوعية - كما يريد (الميثاق) - تكاد تقتضى ورارة خاصة بها ، تشرف
من بعيد على - كل قطعة في الآلة .

و (الصحف) - مثلاً - كوسيلة خطيرة من وسائل الإعلام يملكها (الاتحاد
القومي) ، و (غار الفكر) وأجهزة (الكلمة) . كلها موزعة بين (الاستعلامات) و (وزارة
الإرشاد) ، و (وزارة الأوقاف) ، و (إدارة التربية) وجهات لا حصر لها ، ولا يربط
بينها غير الاستهداء بهدى (الميثاق) ، و (الإدارة المحلية) في المحافظات تسهم في التوعية
كل حسب حاجتها ويتحدا ، ولكن النسيم الملهي المعنى - الذي يجب أن يستهدى به
الجميع وهو (الميثاق) بهم بعيد ، مكانه في السماء ، وأنا من الساجدين في الحراب ، وكل
أمل أن يدنو هذا (النجم) منا ويطلق ، حتى يبلغ القرية على مستوى إدراك القرية ،
ويصل إلى المدينة على مستوى إدراك المدينة وهو ما مطلب به (الميثاق) .

ويحدثني أخيراً ، وأنا أتحدث من «التوعية» التي أنا دائماً مشغول إليها ومفتون بها أن أهدى إلى كل مسئول عن توعية الجماهير في منطقة الشرق العربي كله هذه الكلمات المتقاة من صميم «الليثاق» .

● « إن جهوداً عظيمة وواعية يجب أن تتجه أيضاً إلى فتح الطريق أمام التيارات الفكرية الجديدة حتى تستطيع أن تحدث أثرها في محاولات التمزيق وتصلب على بقايا التثقت الفكرى الذى أحدثه ضغط ظروف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين » .

● « والجمهورية العربية للتحدة وهي تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية لا بد لها أن تنقل دهرتها والبادىء التي تكسبها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربي ولا يفيى الوقتوف لحظة أمام المحبة البالية القديعة التي قد تمتد ذلك تدخلا منها في شؤون غيرها » . . .

والعلم ؟

و « العلم » طالب به « الليثاق » لأن الثورة إذا نخلت منه كانت « مجرد انفجار عصى تنمس به الأمة من كبها الطويل ولكنها لا تنير من واقعها شيئاً » .

و « ليثاق » يرى أن مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمى و صنع المستقبل لا تقل عن مسئولية السلطات الشعبية المختلفة ... وأنها طلائع مضدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

• • •

وفى ٢٦ يوليو وفى «استاد الإسكندرية» خطب الرئيس وفى بيانه ثلاثون أرسل العبارات الخطيرة التالية :

— « النهارده بعد مرور عشر سنوات من الثورة ... أستطيع أن أعلن أننا نفذ

العلم الدراسي القديم ... سيجعل التعليم كله مجانياً في المدارس والجامعات
وللناهد العليا .

أي عبارة أرسل ؟

يا أخى جمال ... يا ابن شمسى العريق .

أمك أنا الآخر عبارة لا تقل خطورة عن هبارتك ... أمك أن أقول لك
— وقد فعلتها — أن ابن أحمى الفلاح .. سيخرج من قلب « سوانه » الفقيرة عما
قريب ليدخل الباب الذى فتحه أمامه ... بغير مقابل ... وسأقدمه إليك بقلبي للتواضع
بعد سنوات قلائل — إن مد الله لنا فى الحياة — سأقدمه لك باسمه الجديد يومذاك
« بوبوفيتش الصيد الأوسط ... يقدم لقائد تحياته » .

والصاروخ ؟

وق هيد الثورة الماشر وقف جمال يحطب الجماهير ويقول لم :

« كنت تخشى بقولكم أن هذا الجبل من شطب مصر على موعد مع القدر »
و « التهاوده بعد عشر سنوات من الثورة أقدر أقول أن هذا الجبل جاء فى مواعده
مع القدر » .

ثم قال لم وهو يتحدثهم عن الصناعة ... وفى مسألة مرة أخرى :

« كنا سنة ٥٢ » يستورد إمرة الغليظة ويستورد المسار ... ويستورد ما كيفة
الغليظة ويستورد العربية يستورد كل حاجة — التهاوده يستطعم أن « نخر بأننا صنع
كل شئ » من إمرة الغليظة إلى الصواريخ » .

وانطلقت الصواريخ ... !!!

يا أخى جمال ... يا ابن شمسى العريق .

صدقنى أن هذا الفتح العلمى الذى ألقى الرعب فى قلوب الملوك واليهود ... لم يدهشنى .. إنها صواريخ متواضعة ... وهم يبرغون مدى تواضعها ... إذا قبست بالصاروخ المرحب .

إن الذى يخيفهم صاروخ آخر ... بعيد المدى ... عابر القارات بدءاً من آسيا وانتهاء إلى أمريكا اللاتينية ... أنت ذلك الصاروخ عابر القارات يا أبنى ... يا ابن شمسى ... ذرى وقد دخلت مصر صر الصماء ... ذرى أحنى الرأس إكباراً ... وردنى القهم إيماناً .

رفضنا إنذارهم ؟

وما دماً قد عرصنا محولين على هذا الصاروخ لخطب « جمال » فى عيد الثورة العاشر ... عيسى - وقد صفيت الجيوب إلا جيأ ، أن أصق على مطلع العيد ذلك الجيب الأخير ... وقد صمء هو ولم يحوجنى إلى أى تصفية . . وثبت من خطابه أن الإنجليز كانوا قد أرسلوا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ إلى مقر القيادة فى الإسكندرية إنذاراً من السفير البريطانى أو القنصل بأعماله وتسله أمور السادات يملكون فيه الثوار مسئولية ما يحدث للأجانب ويطلبون حظر التجول وبقاء الملكية ... ورعص جمال الإنذار ولم يمنع التجول وتراجع الإنجليز .

ولم أكن أعرف قصة هذا الإنذار يوم شككت فى الثورة على مطالعها ونساءت عن القوات البريطانية فى القتال إن كانت تنوى أن تتحرك وتصرب (أم أن المحتلين راضون عن التصير ؟)

وها نحن أولاء نرى ... أنهم لم يرضوا ... وأنهم وجبوا إنذاراً ... وأن صانع الثورة رفض الإنذار . وأن التجول لم يحظر ... وأن الملكية طوى بساطها ... وانقص سمرها .

والوحدة أخيراً

وأبقيت لفرغ الفصل أغلى الأحداث ... وأعذب الأحاديث .. الحديث من الجزائر والحديث عن إقليمنا الشالى ... عن سوريا الحبيبة ... عن جناح من جناحيننا .. بل عن الحركة الحقيقية بين الاستعمار والرجعية وبين الوحدة العربية تجرى فوق أرض سوريا . وتجري فوق أرض الجزائر .

والأمر لا يبرزه وضوح .

وفى اللقاء باب بفاته من أبوابه المشرقة . موضوعه (الوحدة العربية) .

وأول سطر فى هذا الباب :

— إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقدم وفى تدهيه وحايته . تمتد لتشمل الأمة العربية كلها .

« إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

« لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته .

« ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكرى ولا أساليب الاتهازية الفردية ولا أساليب الرجعية المتعككة ، على نىء إلا على دلائلها على أن النظام القديم فى العالم العربى يماهى جنون اليأس وأنه يفتقد أعصابه تدريجياً وهو يسع من يهدى فى قصوره للمزوجة وتم أقدم الجماهير الزاسفة إلى أهدافها .

« إن الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة وكان عبءه الطبقي يحكم الظروف داخل قصور الرجعية .

« إن الشعوب تريد أملاً كاملاً ، والجامعة العربية بمحكم كونها جامعة للحكومات لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن .

• إن الجلسة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربي في المرحلة الحاضرة لكنها في نفس الوقت وتمت أي ستار وفي مواجهة أي ادعاء لا يجب أن يتخذ وسيلة لتجديد الحاضر كله وضرب المستقبل به .

وكان الميثاق كان يقرأ (المليب) وهو يسجل هذه (الحقائق) .

والمرحلة التي قامت في (شعورا) بين الحكومة السورية (غير الشرعية) والجمهورية العربية المتحدة .. أرادت أن تتحد من الجلسة (وسيلة لتحديد الحاضر كله وضرب المستقبل به) تأمياً لنفسها ، ولحاكين الحاضرين الذين ياتلونوها والاستمرار الخفي داخل قصورهم .

وقصة الرحمة معروفة .

وقصة الصديق بين الإقليمين معروفة .

• • •

وفي عهد الثورة للعناصر خطب الرئيس فقال :

— « أنا لما أبص للضلع ما يا اشعرشي أبداً بأي نوع من الندم ، ولو عادت سنة ٥٨ مرة أخرى قبلنا الوحدة مع الشعب السوري » .

وقال يحاطب الشعب السوري من القاهرة :

— « أيها الإخوة عن معكم على طول الخط . أيها الإخوة إننا لم نكفر بكم أبداً » .

وبقية القصة معروفة أيضاً .

جاء الوفد السوري ليرض شكواه على مجلس الجلسة العربية الموقود في «شعورا» اللبنانية .

وسافر الوفد العربي إلى « شتورا » ليرد على هذه الشكوى .

وبعث الوفد السوري . وهو يرى أن رئاسة الوفد العربي معقودة للقواء إلى « أكرم ديري » السوري وأن الوفد مكون من سوريين آخرين ومن سفيرنا في بيروت . وهذا معناه أننا لا نعترف بشرعية (الحكومة الاصلية) ولا بشرعية (الانفصال) التي ركب الرجعيون السوريون قفة موجهة .

وفرغ الوفد السوري من عرض شكواه . ومن الإدلاء بكل ما حمله حكومته من أسباب ... وفرغ الوفد العربي من الرد عليهم في حدود الموضوعية وبأسلوبها .

وفي الثامن والعشرين — الثلاثاء — من أغسطس (آب) قدم أكرم ديري إلى مجلس الجلسة في بداية جلسته التاسعة بياناً رسمياً انسحب بعبء إلى خارج القاعة .

وفي هذا البيان يعلن وفد الجمهورية العربية « أنه ما لم يقل مجلس الجامعة العربية في هذه الصورة كلمة صريحة واضحة في كل مهزلة السباب والشتم التي جرت من فوق منبرها فإن الجمهورية العربية المتحدة تقرر أن تنسحب من جامعة الدول العربية » .

وليس من مهيئ في هذا الكتاب أن أنسحب بإصرار الجمهورية العربية على الانسحاب من الجامعة العربية رغم الوساطات التي بذلت من الرئيس اللبناني ومن أمين علم الجامعة وغيرها .

وليس من مهيئ أن أنسحب الحلف العسكري الذي قام بين السعودية والأردن دوماً لأخطار (ناسر) .

ولكنني أحب أن أعلن صادقاً — ودائلاً إطار أهدافي ومراسل تطوري عبر كتابي — أن الوزير السوري الحفيم — واستنفر الحفاني — خليل الكلاس . لواء

فعل فعله . يوم قررت الانضمام إلى التشكيل العسكري المجهول متى . لفضل (مصر)
من (عبد الناصر) فيما بين عامي ٥٦ ، ٥٧ لما ترددت يوماً لحظة في أن أستقِر
(عبد الناصر) من خطيتي . ولما ترددت لحظة في التأسر على الكلاس وعصايه
— فرض كفاية من العرب جيداً — وتطهرت لشرف المروبة التي يمرغ في الوحل على
مسح من (رجال) يمثلون (دولاً) .

وبيني أن نطن أن أسر في لحظة الغمائل .

والكتاب ليس محبة أو جريدة . حتى أضل فيه بالأحداث التي تتغير .

وليس أبعد من الحقيقة من أن نطن أن أقصد إهانة «الكلاس» بسباب معناد .

دعة وضيقاً . ما قصدت إلا أن أقرر حقيقة أزها الإدراك قبل المشاعر . ولا محل
أبدأ لأن نيش فوق هذه الرقة العربية من هذا الكوكب الأرضي . ونسى أضنا
(دولاً) إذا سمح (لرجل عربي) يمثل (دولة حرية) أن يقول عن عبد الناصر أنه
(جاسوس صهيوني) . »

و « أن الجمهورية العربية لم تصنع أي شيء لكفاح العربي » و « أن الجيش
المصري بصواريخه جيش قزينة والاستعراض » .

و « إن الجمهورية العربية نفذت في سوريا سياسة رجعية استعمارية مجرمة » .

توانين بوليو الكبير ، سياسة رجعية !!! ماذا تكون القضية إذن ؟

إغلاق المصارف الفرنسية والإنجليزية وتعميقها سياسة استعمارية مجرمة ؟ ماذا
تكون القضية إذن ؟

جيش مصر الذي تصرخ من صواريخه إسرائيل في نفس اليوم الذي خطب فيه
الكلاس جيش المعرض والزينة ؟ ما الذي — إذن — يحول بين إسرائيل ، وبين
أغنيها المحسومة « من القرات إلى النيل » ؟

جمال عبد الناصر (جاسوس صهيوني !!) ماذا أقول ؟

وهل يقال من بعد هذا كله .. أني أقصد إلى الشتم وأنا أقرر العقوبة التي أراها
عادلة ؟

وأنا لا أعني بالعقوبة شخص هذا (الكلاس) ، لأنني لا أعرفه .. إنما أعنيته
رمزاً ويمثت في شخصه من الطريقة التي يمكن أن ترد على العروبة شرفها الذي
دبس ، وعزتها التي مزقت ، ولسان عربي ، وفي منظمة عربية لحكومات أو لدول ،
وهل مسيح من مندوبيها الأمثال !!

وقد لا يكون من حق أن أترك حرفة (الكاتب) إلى حرفة (المراف) .

ومع ذلك أراي مشدوداً إلى شرف (المرافة) لأقول لك في رفرق هذا الفصل
شيئاً ، لك أن تسبه (نبوة) ولك أن تسبه (طائفة) .

أريد أن أقول أن هاتماً بطارد أذن في كل ليلة وأنا أميل برأسي إلى الوسادة أرلود
النوم ، هاتماً هامساً يصب في أذن الشهادة التالية :

— « كما قل شعب العراق يخيمل ونوري وعبد الإله ، سيفعل شعب سوريا
بتنظم والنظم والمجوراني والكللاس ، وكل سوراني وكل كلاس ، وهما قريب » .

سجل عبارة هذا الهاتف في حافظتك أوفى ذا كرتك ، هاتني قل أن يكذبني .

وستفتي يوماً ... وتذكري .

وتد تفتي قريباً ... ومذكر ما فوق أرض سوريا الحبيبة وفي دمشق
قلب العروبة .

والجزائر ؟

ووددت — وقد أرجأت (الجزائر) إلى آخر فصول ... أن أحييها .
ولكنني أردت قلبى سرياً من هذه الخطوة ... وأطوى قلبى إلى حين على
هذه التحية .

إني أكتب هذا الفصل في لحظة حاسمة من لحظات التاريخ العربي .
إني أكتب في هذا الفصل والخلاف بين زعماء الجزائر على أشده .
والزعماء دائماً يختلفون ... متى وجد في البلاد جندي واحد من جنود العصير .
إن الاستعمار يزاوِل (لبسته القديمة) ... إلى آخر لحظاته .. ويزاولها حتى وهو
يلفظ آخر أنفاسه .

إن تاريخ النضال في الجزائر تنامي في الترابية .
إن كفاح بن ميللا وشعب الجزائر ... فاق كفاح دى فاليرافي لإيرلنده وماونوسه
تورنج في الصين .

إن التاريخ لم يشرف عبر كتابه الكبير بصفحة أشد إثرائاً من الصفحة التي
كتبها شعب الجزائر وهو يقاتل — أمزل من السلاح أو كالأعزل — قوات باغية
جاوزت صف للليون هذا ... وعلى مدى سبع سنوات بنير توقف ... وعلى هذا اللدى
صمرت قري بأكلها ... وتولدت عن الحياة أسر بكل أفرادها ... ولم ينج بيت من
الباقيين ... لم يقدم على مذبحة الجهاد ضحايا .

وبعد سبع سنين في الحرب .

وبعد ١٣٢ طمأ في ظلام التبودية والاحتلال ... جاء النصر .

وفي ساعة النصر وقع الخلاف .

إلى أكتب لك هذا الفصل ، وقوات من ييلا تنسج إلى مدينة الجزائر باسم
(الكتب السياسي) لتمر الأمن فيها . وقوات الولاية الرابعة التي تحتل المدينة ، تعقم
للتأريس في الطرقات وتنصب للدفاع في أوكارها على مداخل المدينة استعداداً لرد جيش
التهريب عنها . والجيش الفرنسي يحجب بديلاته بعض الأحياء لحماية المستوطنين الأجانب .
موقف تنامي في القنارية .

ولكن مؤمن برغم هذا كله أن الجزائر العظيمة لا ترجع بشعبها للقتال خطوة
إلى الوراء بل إن شعبها المقاتل ، بدأ يتدخل فعلاً ، وعلى صورة لا يرتفع إليها ،
إلا شعب الجزائر .

تدخل الشعب الجزائري ، وجاءت الأخبار بأنه خرج بشبه وشباهه ، ورجاله
ونسائه . ورددوا في الشوارع ليمنوا تقدم أي جندي جزائري نحو جندي جزائري
آخر . فعلاً في الجزائر ما يقفه برتراند راسل في لندن ، ومن غير حاجة إلى فلسفة
أو إلى فيلسوف .

خرج الشعب الجزائري يحمل اللافتات ، وقد كتب عليها : (سبع سنوات تكفي) .
إنهم يقيمون (متأريس بشرية) . هم ومن أطفالهم ، ولا يزالون أن تمر السيارات
المصفحة فوق أجسادهم ، وقد أتر الشهيد في جنود الطرفين المرافلين حول مدينة
(الدية) ففأخروا وتناولوا السكيترون منهم طعام الشاء معاً .

مثل هذا الشعب لا يفرق أبداً ، مها يفرق السياسة بفعل الاستثمار
أو بفعل المطامع .

فانصر .. والجزائر

وإذا كانت (المخالفة) قد حلتني على مدعاه ، إلى ذلك الحديث الحزين الذي
خفته على مسع منك ، فالتبر أن أعود إلى (الجزائر) ، من حيث اتصالحا بأهالي .

كنت أحب أن أرخص نفسي في فصل طويل كامل ، أتناول فيه أخطر ناحية

في حرب الجزائر ، ناسية الصلات بينها وبين (ناصر) .
ولكن للموقف لا يحتل الساعة مثل هذا الحديث .
ولا أشك في أن (ناصر) ، على اتصال في هذه اللحظة بالجزائر ، ولا محل إذن
لأن أتحدث عما صنع لها ، أو قدم .

في نقطة واحدة أريد أن ألمح إليها على استحياء وأطوى أوراقى .

- « ابن الملقى تار في الجزائر ، هو شمس الجزائر .
- « وابن القى قاد الثورة في الجزائر ، هم الطليعة الثائرة ، الذين ياتلون طلائع ناصر .
- « وابن قائد هذه الطليعة هو أحمد بن بيللا .
- « وابن أحمد بن بيللا كان يمد للثورة من معقله في القاهرة .
- « وقد اتفق جمال بن عبد الناصر ، مع أحمد بن بيللا على إشعال الثورة في الجزائر .
- « وتمهد « جمال » بأن يمد الثوار بالسلاح .
- « وعندما وصلت الأسلحة الناصرية إلى نوار الجزائر أعلن بن بيللا ثورة الجزائر .
- « وكان الوزير الفرنسى حتى سقى يوم قال إنه إنما شارك في المدوا على القتال
لأنه إنما جاء لمحارب الجزائر على أرض القتال .
- « وثورة الجزائر إذن — لها قائد ووالد ، قائدها المكرم بن بيللا ، ووالدها
الروح وراميه ومتبنيها هو ناصر ، و « الخوراني » و « الكلاس » و « المظلة »
يعرفون هذه الحقيقة الرجعية الرائسة .

« وهذا السر لم تمرره الجمهير — وعبراً — إلا بعد أن دقت ساعة النعير
في الجزائر .

« وحتى اليوم لم يثأر « ناصر » أن يتحدث عن دوره في الجزائر وأسلمته الجديدة
حلتها السفن العربية ووصلت بها إلى وهران وأنا أكتب هذا النص . على جاءت الساعة
أنباء باستيلاء بن بيللا على مدينة الجزائر بنور قتال .

ولسوف تخلصت جيئاً وقريباً ، وللهم أن يسود السلام إلى أرض الجزائر .
وهو لا بد عائد .

وبعد !

أرجو أن أكون قد استطعت أن أقبل إليك هذه الأحاديث من « قم ناصر »
ومن قم « الأحداث » وعلى مستوى المرحلة السادسة والبشرى — على مستوى الفصل
قبل الأخير من كتابي — في موقفين من « الرجل الذي تأمرت عليه » .. أستمر الحق
وأبدأ من الآن أقول : في موقفين من « الرجل الذي آمنت به » .



الفصل السابع والعشرون

الميثاق

ليس أبعد عن الحقيقة من القول أنى سأتناول « الميثاق » بالتعليق أو بالتعقيب أو بالحمد أو بالثناء .

ليس أبعد عن الحقيقة من هذا القول .

والكتاب أصلاً لا يستهدف « الميثاق » .. إلا من حيث كونه « الحدث الكثير » الذى اخترته لأشهر — عنده — إيماني بناسرو بالنصرية ... لأشهر إيماني لحناً ناهياً من صميم الروح والوجدان .. ومن أعماق الصبر والإحراك .. أو قمه بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا (الحدث الكثير) .. سعيداً .. سعادة من اعطى إلى الحق وآمن ..

أما (الإيمان) فى ذاته .. فقد خاض إلى كماله طريقاً طويلاً .. مليئة بالإقدام وبالتردد .. ومليئة بالتخلف وبالتقدم .. ومليئة بالدراسة والتقصير .. وأنت على هذه للراحل شاهد .. ولم يستكمل ملاحمه إلا على قرارات (يوليو الكبير) عندما ملأت كل فراغ ، وسدت كل ثغرة ، وصفت كل الجيوب .

وقد قلت لك أنى كنت يومها أنتظر (حدثاً شيراً) أعلن الناس فيه — وبدافع تضامن بالغ النصف ، أنى آمنت

وجاء الحدث الكثير .. ميثاقاً .

ولم يحرجنى (الميثاق) إلى أى اضمال .. أو أى انسياق .

ولم يكن (اليد القوية التى أمسكت يدي .. وظلت تضغط وتضغط .. فى حزم) للربى ، (وفى حنان الولد) ، كما توقعت فى (التمهيد) .

وإعاجاب (الميثاق) فأنفاني قد جثوت على ركبتي فى محراب (يوليو الكبير

ولاجاء ، ملا الحراب نور ، وكل ما قلته الليثاق أنه صالح في : (أسجد واقترب)
لجئت أصبح فيك : « آمنت ، بالرجل الذي تأمرت عليه » .

ثم أي جدوى تعود عليك من حديثي عن « الليثاق » ؟
تقد قرأته أنت كما قرأته أنا وكما قرأه كل عربي ، وكل ممنى بشئون هذه
المنطقة العربية .

ولا أعرف — على كثرة ما قرأت — حدثاً مقروماً تناوله الناس بمثل ما تناولوا
به هذا الحدث ، خطابة وكتابة ، وتعليقاً وتعليقاً ، وغاشاً ملؤه الجد والحدة والحرارة ...

و (الليثاق) أصلاً ، كان (مشروع ميثاق) ، وقد طرح على ساطع البحث ووضع
موضع النقاش ، أمام مؤتمر شعبي غير مسبق في تاريخ الشعوب ، مؤتمر ضم أعلاماً وسبيلانة
وخسين عضواً من الرجال والنساء ، أوفدتهم إليه (القاعدة) من صميم القرية ، وعلى
كل مستوى ، ومن كل بيئة ، حتى الرامية التي تمصب رأسها بالتدليل ، جاء بها
الاكتساب إلى هذا المؤتمر ، وتناقشت الليثاق .

ورأى (السيد يوسف) وزير التربية والتعليم أن من حق (التلاميذ) بوصفهم
رجال القند أن يبدوا رأيهم في (ميثاق القند) فأمر أن يورع عليهم ، وأن يكون موضع
نقاشهم قبل أن يكون درساً لهم ، حتى يحى النقاش في الميثاق بين التلاميذ على مستوى
كل للراحل بدءاً من السلم للدراسي .

ورأى محافظ العاصمة ، أن من حق كل مواطن أن يناقش ميثاقه ، فأقيمت
(الندوات) في كل قطاع من قطاعات القاهرة ، وشارك المحافظ في النقاش ، وأصنى
أساتذة الجامعات وأصحاب النظريات إلى آراء الباعة المتجولين أصحاب المشكلات ،
وشهدت (حرية الرأي) أكبر مهرجان أقامته أمة تحية لهذه الحرية وممارسة لها .

ونجح الحكم المحلى كله وفي مختلف المحافظات ونجح القاهرة .

وأعرف شخصياً أن عبد القطع قواد محافظ العليا — بجى — دعا كل قرية إلى ذلك القتل ضرف أهل القرى لأول مرة أن من حقهم أن يمارسوا هذا اللون من الحرية على مستوى البرلمان الذى كان مجرد ذكره أو مجرد اسمه بطلاً بارهبة قلوبهم ويرسل الرعدة إلى أوصالم .

أما الصحف والمجلات فلم تفرغ من مناقشة الميثاق إلا من عهد قريب — بل ما يزال « الميثاق » يراد الأعلام فيها بين الجن والمجن .

أما الكتب التى صدرت فى هذه الفترة لتناقشه ، فهى أن تزور مكتبة كبيرة من مكتبات القاهرة حتى تدرك أن القادرين على التأليف نهضوا بمسئولياتهم .. بل لعل آخر كتاب صدر من أسامع واحتضت من عنواته (عملاق بنى مر) أن واضعه — الزميل سليمان مظهر — قصد به إلى الحديث عن (ناصر) ، لعل هذا الكتاب كان يحسن أن يسمى (ميثاق السلاط) بعد أن استفاد الكاتب كل طاقاته — وهى كبيرة ومقدورة — فى إبراز كل اتجاه فى هذا الميثاق ، بعد أن أحضت ريشته رسم السلاط .

أى جدوى بعد هذا كله فى أن ناقش (الميثاق) ؟

وكتاب — إلى جانب اندام الجدوى — لا يستهدفه — كما قلت — إلا من حيث كونه (الحدث الكبير) الذى اشغرت له أشهر عنده إيمان « بالرجل الذى تأمرت عليه » .

وليس معنى نحلى من مناقشة « الميثاق » ، إخراجنا من دائرة قلقى ، أو من دائرة تعبكبرى ، بل إن أى كاتب يحاول حيناً أن يتجنب « الميثاق » إذا أراد أن يكتب عن مبارك المرومة التى تحمى اليوم فوق المنطقة البرية ، أو عن أى عمل يقوم اليوم على أرض هذه الجمهورية التى يحكمها هنا « الميثاق » ، أو عن أى تصرف يهض به أى حاكم عربى تجاه أى اتجاه فى السياسة الدولية دون أن يحدد موقفنا منه على أضواء هذا « الميثاق » ..

لقد أصبح هذا «الليثاق» بالنسبة لنا ، دستور السماير ..

وعلى كل النقاش الذى دار حوله ، ودار عليه ، ما أزال أحقد أنه لم يناقش كما كان يجب أن يناقش ، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا الحد ، وأحقد أن خير لنة ، تشرح الليثاق ، هو تطبيق الليثاق ، وأن خير شراح لليثاق ، هم الذين يصمون الليثاق موضع التنفيذ ، ويومها يكشف لنا الليثاق — بنية لا تعرف للدلالة ولا النطق ، عن أسرارها وخوافيها ، وهما يبينه كل سطر فيه ..

وفى رأي أن «الليثاق» مميزة «ناصر» ، إن رخص لنا «المجاز» فى استخدام هذه العبارة ، بنية طاهرة ، ومن غير أى تأويل خبيث ..

«ناصر» يُلَوِّزُ تاريخ أمته ، بكل أجداده وبكل جثاته وبكل تحاربها ، وُلَوِّزُ حاضر أمته بكل انتصاراته وبكل نكساته وبكل معاركه ، وبلور مستقبل أمته ، بكل آماله التى لا تنف عند حد .. والذى يرجو أن تتحول بين يديه فى القند .. بناء شاعراً يقوم فوق أرضه فى عزه وشموخ ..

«ناصر» بلور تاريخ أمة ، فى أسماها ويومها وغلدها ، وبلور شخصه معها ، بكل قدراته وطاقاته وآلامه وآماله ، وبكل تورية فيه وموهبة ، وبكل حكمة أوتيتها ، وبكل معركة خاضها ، وبكل تجربة اجتازها ، وبكل مرارة لقيها ، وبكل تأمر يتوقه ، وبلور هذا كله مزيجاً منه ومن أمته ومن هروبه ومن شقيقته ومن إسلامه ومن إنسانيته ، فكان هذا «الليثاق» .

وخير (مقياس) أنيس به هذا الليثاق ، هو ما كتبه عنه الكتائبون ، وما تحدث به المتحدثون .

وحسب الكتاب والمحدث ، ثبت أن الباب سيظل مفتوحاً أمام المزيد من الكتابة ولأمام المزيد من الحديث .

وأعتقد - وأرجو ألا أكون ظالماً - أن واضع (الليثاني) نفسه لم يدرك بحذقه الكثير مما دار محله الكتابيين والمحدثين - وهو يوضح الليثاني .

ويعرف كل من مارس الفن والأدب ، أن حياقة الفكر في كل عصر ، أرسوا أنوارهم عبر الحياة تنابها ، من غير أن ينظر لهم أن القسرا والفساد عبر القرون التي تتوالى سيذهبون في استنراج ألوان من المراكمة في أعماق التناسخ ، مذاهب لم تجل مخاطر الصبري الذي ألتج .

ذلك شأن الرسالة التي تنزل على الفكر إنساناً من غير أن يرى الملم كل أبعادها .
(ناصر) يحمل رسالة ، ما يزال يؤديها ، وما يزال يقاتل في طريق أداها ، وليس لديه الوقت الكافي لأن يدير رأسه إلى الخلف ليرى أي الخن اجتاز ، وأي الضربات دلت ، وأي الجهد بذل ، وأي الهائل سهر ، وأي التجارب حصل ، ليس لديه الوقت لأنه لا يزال يخوض المعركة ، ولا يزال يمشي بالراية إلى أهدافها .

وكل الذي حدث أن مراحل على الطريق طواها ، وبلغ حداً تحتم الموقف عنده لبيداً مرحلة جديدة ، فكان زاماً أن يكون للرحلة الجديدة والأشيرة دستور يحسبها ، ويمضيها ، ويحلونها ، ويحدد لها شهابها كلما حاولت الشيوخة أن تعطل عليها ..



والذي حدث أنه قاد الطلائع الثائرة - باسم أمته - عشر سنين ..

وحان أن تتلقى أمته الأمانة وتهض بالسب ، بعد أن جهّد لها الطريق ، وحرر لها الأرض والفرء ، ومكن لها من أن تكشف ضحاياها ، فكان عليه أن يقدم لها حساباً عما حقته وحصله ووعاه ، ومن «رصيده» المتبق «لنفسه» في «مصارف الأمل» جاء يردّه إلى صاحبه ليقوم عليه ، ولتتولى القاعدة التسمية زمام القيادة بنفسها ، بكل طلائعها للندخنة ، يجهّد أمر طغل فيها وأكبر شيع ، بكل الأفكار الخلافة في القرية واللدنية وبكل السواعد الفتوة في كل شطب وشاية ..

أن لقائهم — بفصل هذا القائد — أن تتقدم القيادة ولا تتخلف عنها لأن الطاقات الخلاقة في التسوق هي وحدها التي تستطيع أن تصنع القندء و (اليثاق) بحمل لها تجارب أسسها وسامرك يومها ، وعليها هي أن تمشي إلى غدها ، والفجر أو شك على أن يرسل حيوطه فضية وضادة ، برغم كل ما يلوح في أفق المنطقة من هامة عابرة ..

الكل الآن يسل ، أو يتأهب للسل ، أو يفكر في أن يسل .

إن (اليثاق) انتحاح لهذا السل ..

و (القائد) عندما ألقاه نصوصاً ، إنما قص شريطه ، وضبط زره ، وبدأت العجلة تدور ، والعمال يتدفقون .

و «لريس عوض» يراه علماً متكاملة ومن هذه الزاوية يناقشه ..

وعطاء الإسلام في «نور على نور» يرون فيه تحقيقاً لأواصر الإسلام ونواحيه .. ومن هذه الناحية يناقشوه ..

والدكتور عيسى من أساتذة كلية التجارة يرى فيه بناء اقتصادياً متكاملًا .. نبع منا .. ومأشئ شريعتنا ، ووافق طبيعتنا ..

وأحمد جروش يرى فيه — وخشيته العسكرية تطارده — أنه يحدد للناس «خطوات السير» .

وكامل الشناوى ، يرى فيه مصدر وحى له ، يحصل بين يديه أنشودة تنفى ، وهو في يد السامى وإسنان ومحموظ وبدرى وغراب قصة تروى ..

وعبد الرحمن الخليسى ، يرى فيه السلام الذى يمه ، خير مجلوب ، من أى مؤتمر في فيينا أو موسكو ، وغير مصنوع في أى بلد .

وعبد الرحمن الشرقاوى ، يستمد من أضواءه ، مسرحية تتخل ..

وسهل عاشور .. « يفتت » منه « الليثانية » التي لا تهر .

وسعد وهبه .. يرى فيه بناء درامياً يحكى الواقع .. ويمر بيد المحو على تاريخ
الرسوم ارسطو .

والنشائي ، يرى فيه صورة المائدين إلى الوطن الحبيب .

وبنت الشاطئ ، ترى أنه رد الكرامة إلى الأرض الطيبة التي أكلت إيزيس
وتوَّجت حشمسوت وكتلوي بانة وشجرة الدر قبل أن نسح الدنيا بمحقوق النساء .

والفلاح يرى فيه أنه إنما وضع ليرد إليه أرضه .

والعامل يرى فيه أنه إنما قام ليخلصه للمنع .

وناديه المحكم .. رئيسة قسم التجميل بمحلات مر افندى وهضو للزئمر ، ترى
فيه أنه إنما جاء لينفض عن المرأة أكفانها ، وينطلق بها إلى محلات مر افندى أينما .

والشعوب العربية ترى فيه أنه إنما فصل على قدَّها ، ثوباً لوحدها .

واليهود قد يرون في أبوابه الشريرة ، خلافاً جاء في ألواح موسى التي حطموها ،
إلى العروبة المساعدة ، التي تحترم « الوصايا العشر » وتحضر التلويح البدواني الزائف .

أما المؤتمر الوطني للقوى الشعبية فله رأى شامل في الليثاني ، سد أن مارس أعضائه
حرية النقاش على أوسع نطاق .. وشاضوا القنار أحراراً ، بكل سفاكية الرئى منهم ،
وبكل أمية الأئى فيهم ، وبكل علم العالم وفق الفنان ، ورأى الباحث ، وانهوا أخيراً
إلى ملاحظات لم ، ثم لم يجدوا بينها وبين الليثاني تناقضاً ، فسملوها على هامشه وعمرجوا
من أن يمسا نصوصه وكان هذا هو رأيهم .. على الرغم من أن واضعه إنما طرحه عليهم
ليدخلوا ما شاءوا من التعديلات عليه ، وأكده لم أن زمناً سيجي . ينشئ هذا « الليثاني »
فيه ثوباً ضيقاً ، أو بالياً — ويومها لا بد لم من أن يصمتوا بأنفسهم ميتافاً غيره .

بقى بين هذا الزحام رأيي للتواضع في اللياق — كواطن تأمر على واضح اللياق .
وقد حرست أمري كأطعت .. ورأيت ..
رأيت تحية ٤.. أن أنفض عنه .. وأن أشهر إيماني براضه .. وهذا هو « كل رأي » ..

وحق لا يبقى بين جنهي سر لم أنفضه أو لم أنفضه عنى ، أصارحك القول ، أن هذا
الكتاب لم يكن فى ذهنى يوم قررت إشهار إيماني *
وكان أول ما خطر لى — والحرفة دائماً تدركنى — أن أصدر حرية ، أنخذ من
أول أهداها ، « مشيراً » أشهر من فوقه إيماني ، ولكن اللجنة التحضيرية سددت إلى هذه
النية أولى ضرباتها فقررت عزل كل من حكم عليه فى القضايا السياسية .
وقابلت الضربة بإبتسامة راضية ...

ولم أشأ أن أنس « إخلال » من هذه « الضربة » كما صل « غبرى » ، بل لم أشأ أن
أفقتهم ، حتى إلى حلف ، « استصدرت من » الاتحاد القوي « ترخيماً بمجلة أسبوعية
تقانية^(١) باسم حري ... وهى شاعرة بآسرية على مستوى القيدة ... واستجبت كل
قوى لمقاومة القراء بالمدد الأول منها ... وإيماني مشيراً على صفحتها الأولى ...

ولكنى حدثت فد كرت أن إشهار الإيمان فى مقال لا يكتفى ، وأن القارىء
فى حاجة لأن يأنى : « لماذا كفرت بالرجل » ، ولجبت والى كفى حتى تأمرت عليه «
ثم » لماذا تمىء الآن لتعلن إيمانك به ... وكيف تصدق أنك صادق فى هذا
الإيمان ؟ » ...

ونحيت « المجلة » — أو على التحديد أصدرت هذا منها احتياطاً بالترخيص
أو استمراراً للقانون — وبرزت فكرة هذا الكتاب .

(١) اسم المجلة « رسالة الفكر » لصاحبة إيتازها السيدة بليدة وما .

ومضى أن أكون بهذا القصل القصير ، قد استطعت أن أشير إيماناً في وضع
الليثاق لحناً نابهاً من صميم الروح والجيدان ، ومن أجماع الضمير والإدراك ، أوقفه
بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا « الحدث الكبير » .

• • •

ومن غير أن أعرض بأي ضلّ للليثاق ، أرجو أن أكون قد رحمت بأمانة
هذه المرحلة السابعة والعشرين في موقفى من « الرجل الذى تأمرت عليه » وأسئفر
الحق مرة أخرى وأقول : « من الرجل الذى آمنت به » .



كلمة ختمية

حديث ... في الرسالة والرسول

أراني في «خاتمة كتابي» .. مشدود الريشة وللشاعر إلى نفس الحديث المشهور الذي شدتني إليه بداية الكتاب .. وفي أول فصل من فصوله .. بل في كلمة «الإهداء» أيضاً .. حديث الرسالة والرسول .. حديث الذين ضلوا طريقهم إلى «النصرية» كرسالة .. وكانوا صادقين في الضلالة ..

بل أكاد أقرر أنني مشدود إلى الحديث عن «الرسالة والرسول» .. أي رسالة وأبي رسول ..

يا أئني العربي الصادق

لا تصدق شيطانك إذا هو وسوس في صدرك بأن حديثي عن كفرى وإيماني بالنصرية أو بنصره ، وغير كتاب كبير ومثير ، تطول إلى أربعمائة من الصفحات ، إنما يعني في ميزاني ، أن «كفرى» — كواطن من المواطنين — تنقل في الميزان السياسي ، أو أن «إيماني» — ككتاب من الكتب — أمر يشغل ناصر ، وأنت تعرف مكانه اليوم بين الأقطاب ..

ولو أن الأمر كان أمر نفع شخصي ، لما بددت عشر سنوات من عمرى ، هي بين الشررات أغلاها وأحلاها كما قلت قبلاً ، ولأشهرت إيماني من البداية ، ولشيت في الصف رافع الرأس ، وافع الراية ، وما كان أشد حاجة الدعوة يومها إلى الدعاء ..

وأنا إذن ، حين أحدث عن شخصي ، إنما أمثل فريقاً من الشعب — كثره كان

أوتق ، ضل الطريق إلى الأهداف ، صندق الضقة ، ولم يجد من بين الأعلام التي
اصرفت إلى مناصرة الثوار ، من رفع لفظه عن هذا الطريق ..

وفي البلد غير هذا الطريق فريقان آخران « مسافران » أو في القليل « مفهومان »
— ولا يطلبان مني أفلاماً أو أوراها ، وأخى بهما فريق « الأنصار » وفريق « المنصوم » .

أما فريق الأنصار ، فهم الذين أيدوا الثورة من أول يوم لها ، وعرف عنهم عبر
السنين المشراهم من خلص أوصارها ، ومن بينهم فعلا محصلون لا ترقى الشكوك
إليهم ولا تنقى الشبهة عليهم ، ومن بينهم آخرون مردوا على التفاني ، وارتدوا أزهي
أنتواب الولاء ، فلا نستطيع الكشف عن نواياهم ، إلا إذا كشفت الأحداث عنهم ،
لأننا كما قال بحق كمال الدين حسين : « لا تحلت ترمومتراً تقيس به صدق النوايا أو حرارة
القلوب » وحسبك تحلت الضابط الشاب الذي أغرته الرغبة السورية بالانضمام إليها ، وعبير
الحدود بين لبنان وسوريا خفية ، وأغلقت سوريا الحدود بينها وبين لبنان ليلتها تنطلي
رحلته ، أو لأغراض أخرى ليس من مهمة الكتب أن تمرض لها ، حسبك ذلك
الضابط الشاب الذي عاش السر ناصرياً على مستوى القيد أو هكذا قال كل حارفيه ،
واعتزت « القيم » أخيراً بين يديه — ولا أدري كيف تهتز القيم !! — فتخل من واجبه
ومن شرفه العسكري ، وخلن بلاده ، ورحميه ، وعقيدته ، وماضييه ، وأفكاره ،
وكفاحه ، ومضى ليليل — مع الخفافيش — عبر الحدود ، ليقف في مؤتمر صحن في دمشق
وليهاجم نظام الحكم في القلعة ، وكان كلما سئل سؤالاً مرشحاً عن شخص « ناصر »
أنغص حياء وأقلت من الإجابة .

أي (ترمومتر) كان من الممكن أن تقيس به نية هذا الشاب ، أو حرارة إيمانه ،
أو مستوى (القيمة) في (تفكيره) ، أو معنى (القيمة) في (ضميره) ؟

وهذا الأصار — إذن — أنصار .. والحديث عن نواياهم ، لا طائل منه ..

و (المحسوم) — إذن — خصوم ، ووصفهم واضح ، ووضعهم مفهوم ، جردتهم -
 (الثورة) من أسلحتهم ، وزعت عنهم كل مافي حوزتهم ، من أدوات النفوذ والسلطان ،
 ومن قوة القطار والمال ، ونزلت بهم من (سماتهم) إلى (أرضنا) ، فمن حقهم كيشر ،
 أن يحاسبوا الثورة ، وأن يأثمروا بها إذا استطاعوا ، وما منا قد جردناهم من كل وسائل
 الاستطاعة ، فلا أقل من أن ينفذوا بقوة سوء يجهلون بها ، أو بنية سوء يضررونها ،
 أو مقصومة خرساء يطرون عليها الصدور ..

ولاني لحريص على ضمة القلم وأنا أذكركم ، وحريص على تجنب المحسوم كلما
 ذكرت الأحزاب ، أو ذكر الإقطاع ، أو ذكر رأس المال ، أو ذكر النفوذ والسلطان ،
 لأن التهجيم على أبناء هذه الجبهات لا يتصل أصلا بأهداف ذلك الكتاب ، ولأنى
 أوؤمن — وهذا هو الأهم — بأن الأمر بالنسبة إليهم قد انتهى أو كاد ، وشب (جيل
 حديد) ندر أن يعرف شيئاً عنهم : « تلك أمة قد خلت ، لها ما كبت ، ولكم
 ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

الفرق الضال

أما الفرق الذى أمثله — وهو الذى ضل طريقه وكان ينبغي أن يكون (مهدياً)
 لو أن (الهداية) فرعاً من فروع (سلام) — فذلك هو الفرق الذى يستأهل شيئاً
 من (التقدير) ولعل من بينهم كثيرين لم أخطم في الموازين .. وأخى بهم أولئك
 الذين ضلوا صافقين .. ضلوا وهم يحسبون أنهم يحسنون بهذه الضلة إلى الحق أو إلى
 الخير أو إلى الخلق .

بل لعل من بينهم من طورت فيهم « أفكار لما قبلتها » أو « أفراد لم يوزم » ..
ولعل من بينهم من حاتم « محرر الأهرام » في فصل له مجمع .. وهو يطالب بإعادة التفكير
« في أحكام كثيرة أصدرناها قبل مرحلة الوضوح التكري التي يلوذها الليثاق ،
كان يتنا من يسى أى داعية إلى تغيير الأوضاع شيوعياً .. وكان يتنا من يسى أى
مالك قطعة أرض أو مصنع أو لمتار .. إقطاعياً » ثم قال — وقال بحرارة وقال بحق —
إن هذه الأحكام للطلقة « مسألة تحتاج إلى مراجعة » .

وفي وهج هذه الدعوة أعلن أن الذين أمثلهم — ولا أعرف بالطبع أحداً منهم —
وإنما أعرف أن لم وجوداً هنا .. ووجوداً في كل بلد عربي .. يحتاج كل أمرم إلى
« مراجعة » و « مراجعة تامة وعادة وسريية » .

وبكل ما يحسد « قلبي » من « صدق » .. وبكل ما يحسد « قلبي » من
« حرارة الرغبة في التغيير عن هذا الصدق » أقول مع الكاتب « نحن في حاجة إلى
أفكار كثيرة .. وإلى ناس ينير هد » .

وقد لا تكون للساعة بعيدة بين الدين أعنيهم .. وبين الذين عنام « الليثاق »
وهو يتحدث عن « انتقد البناء » .. ويذهب إلى ممارسة الحرية .. ويرى فيها « الطريق
للتصال لتجديد عناصر كثيرة قد تتردد قبل للشاركة في العمل الوطني ، والحرية هي الوسيلة
لوسيلة القضاء على سلايتها وتجنيداً اختيلياً لأهداف الفضال » .

وقد لا تكون للساعة بعيدة بين الدين أعنيهم « على مستوى الثورة » .. وبين
الذين عنام كال الدين حسين « على مستوى الضف » .. وهو يقدم لـ « فلسفة الثورة »
ويحدث من بعض « الصلاف » الذين يحسون بالقلق حين يرون اختلاف القيم وتغير
للوازين في الحياة الملة التي يميونها ويشعرون في حيرة من أنفسهم ويرى أن « من حقهم
أن تنقش لم البذر وأن تصقح عن بعض ما يشعرون فيه من زلات ينير قصد » .

ثم يقول : « وقد يكون من واجبنا ... أن نحاول توجيه هؤلاء الممارين القديين وشيوخهم بلغف إلى حيث يستطيعون أن يروا بوضوح وأن يحكموا بدقة وأن يوازنوا بأمانة وتجرد ... »

أقول قد لا تكون المسألة بهذه البساطة بين الذين أعينهم والذين هداهم ... وإن كان اختلاف رينفيا في (الصف) لأن إيماننا حيث رجلا أشداء لا ضللاً ... وأفكاراً لها قيمتها ... وأمرنا لم دورم ... ضلوا صديقين في العلة ... وعرفوا وجه الحق ضلاً ... ويبدون لو أنهم ... ولكنهم يترددون .

وعند هذا الرصف ... ينتهي حديثي إلى مكانه من موضوع « الرسالة والرسول » لبدأ هذا الحديث من « الرسالة » ومن « الرسول » .

وأيما كانت (الرسالة) نازلة من السماء أو نابعة من الأرض ... وأيما كانت (الرسول) موحى إليه من الله ... أو مسوقاً إلى انبعاثه بالإلهام ... لا بد أن يوجد خلق كثير من يخالفون من (أهداف الرسالة) ... ويخالفون من (أساليب الرسول) .

وإذا كنا نعلم من هذا الحديث موضوع (الإيمان بالله) بعد أن ثبت من كتب الله أن (أكثر الناس) هم الذين لا يؤمنون — لأن (الإيمان بالله) يتطلب (الإيمان بالباب) — فما الذي نقوله في سيد المطلق ورسول الله — محمد بن عبد الله — ولم يكن الأمر منه يتطلب (إيماناً غيبياً) — كما يقولون — أو (إيماناً غيبياً) — كما نقول ... لأن محمداً — صلوات الله عليه — كان سيداً وابن سيد ... ومن خذابة قريش ... وعرفوه ممتازاً من طقوسه بالصدق والأمانة ... فأجسوا على أنه (الصادق الأمين) ... في كل أطواره — من القبول إلى الرجوع — وحكموه في أنظر أمورهم وكان يومها شامياً ... وتزوج من (خديجة) قبل (الرسالة) فأصبح من ذوي اليسار فيهم ... وعلى مستوهم ... ما بال هذا الإنسان السوي ... ما بال هذا الرجل النموذجي ... ما يكاد يطلق (الرسالة) ويشعر إليها .. حتى يكاد به فيها من كانوا يدعونه (الصادق الأمين) قبلها ؟ ثم ما بالهم وقد عرفوه (حقاً) و (أمانة) و (رضياً) (زهداً) ... ما بالهم

يقفون به القشور ... ويمسبون أنه من طلاب الأجداد والملك واللال ... وينهبون إليه
ليعرضوا عليه ما يشاء منها... على أن يدع «قصة الرسالة» وينسى «موسوع الرسول» ؟
أوما يدل هذا على أن البشر مضطرون على حب التلذذ ... وعلى الاستسكان
بكل ما ورثوه من مال وحسنة وتقاليد ... وعلى أن أى رسالة جديدة لا بد أن تهاد
بها القشور ؟

أيمكن كثيراً -- إذن -- لوحيها (الدين) للزبد بالقوة الخفية جانبا ...
وحططنا النمل على (الدنيا) التي تنشب فيها مذاهب التفكير... أن تحول إلى الخسومة
للنور كانت (أمراً يديها) من فريق (الخسوم) الذين أضرت بهم مبادئها ...
وكانت (أمراً منطقياً) من فريق الشرقاء الذين أضلهم الخسوم فساء ظنهم بالنور
ولم يجدوا من القشور من ينقذهم

وإذا عدنا إلى (الدين) ... لنستبين من أحكام الشريعة السمحاء بما سميه
(القياس) ... أنظر يكن حزين الخطل ... يتجسّد في شطب مكة ... شاهراً سيفه يهدد
به محمداً ... وكل من يؤمن بمحمد ... ولم يكن حر يصدر فيما يفضل إلا عن (إيمان)
بأن محمداً إنما يريد بأنم القري والأشراف وباللوات والعري ... وبقية الأكلة ... شرأ
وشرأ أكيدا ؟

وحين انتهى إليه أن أخته هي الأخرى قد (ضلت) (١١٩) و (أسلفت) (١٢٠) هي
وزوجها ، وسل حر سيفه ومضى إليها في دارها لينزل تأديبه بهما ، وكانت ساعة المدي
قد حانت ، وأصنى إلى شيء من كتب الله على ، ألم يدفع بكل طقاته ليلن أن لا
إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والرسول يكبر ، ترحياً بابن الخطل سيقاً من
سيوف الله ؟

حر ، الذي وقع في الضلالة سنين ، إلى أين انتهى مكانه بعد أن آمن ؟

انتهى مكانه - يد الرسول والرسالة - إلى مقام الخلافة ، إلى (سورمان) من (صنع الله) لا من صنع (نبتة) ، (سورمان) لا تعرف البشرية له نداء ، عبر عمرها الطويل وجميع الفاضلين في كل علم ودين ... ولم يؤخذ على (عمر) أنه كان يخاف عمداً ويهاجم أصحاب عمد ... بل اتسوا له عنفاً .. فقد كان يبش بين خصوم الرسول من أنقلب قريش وعيونها ، ومن شلب قريش وشيوخها ، وكان يعنى إليهم وهم ينشرون الأكاذيب عن الرسول فصدقهم ، وخافهم الرسول صادق الخصومة ، حتى واجه الحق يوماً وآمن .

ولم يقل أحدان (عمر) كان أقل شأناً من (علي) بحجة أن (علياً) كان أول من أسلم من الغنجان ، وأن عمر ظل وقتاً غير قصير يحارب الرسالة ويخاف الرسول ، وإنما قيل أن عمر كان يبش في معسكرات الخصوم فهو معذور ، وأما (علي) فابن عم رسول الله وصفيه وحبيه وأعرف الناس به فلا يجب أن يكون أول من يؤمن برسالة .

بل إلى (عمر بن العاص) و(علاء بن الوليد) وسكانهما في الإسلام هو مكانهما .. لم يسأ إلا بعد الهجرة بتأني سنين .

هذا الطريق الضال ، والذي أسميه (صادق الضلّة) ، هو الذي فكر مثل تفكيري ، فضل كما ضلّت ، عن إعلان منه بأنه على الجادة ، والفارق بيني وبينهم أي ظهرت على (الاشاعة) لأني (تأثرت) ، ولم يظهرها لأنهم (لم يتأثروا) ، والفارق أيضاً أن المراسمة أتيت لي ، وقد لا تكون متاحة لكل فرد منهم ، ومن واجبي إذن أن أقام فرحاً فرحاً ، وأن أضع ألسنهم الطريق إلى الرؤية الواضحة .

ولكن أين هم ، وما هي أسماؤهم ، وكيف السبيل إلى لقاءهم ؟

لا سبيل غير « الجريدة » أو « الكتاب » ، وصح عزى على التفكيك ..

وبقى فكرة تخليقي ، وتقولوى ، حتى أعلن « الليتقى » .

وتتبر للوقف كله .

لم يبد الأمر إذن أمر ذلك الطريق ، أبصره بالطريق ، وإنما أمسى الأمر ، أمر موثق كله لواء العرب والعروبة ، ولواء للتدوين فى كل بلد عربى ، ولواء (للتأمرين) الذين يمدون فى بعض (للتدوين) صيداً غير متصور .

ومرة أخرى صبح عزى ، على التصجيل بوضع الكتاب .

وبدا القلم يجرى على الورق ، وسعالم الزينة احتضالا بالميد الماتر تمام .

وها هو ذا كتابى .

يا أخى العربى الصاعد .

يا مشهود المألوفة وللتأمر إلى حلتك الكبير الذى تحول فى حزة وشيوخ إلى حقائق تدبر الرموس .

أترانى - بكل ما قصته عليك من الأحداث والوقائع ، وبكل ما قلته إليك من وساوس ، وهواجس ، ونهضات وضربات ، وأوهام وخاف ، من النفس والضمير وعن العقل والقلب والوجدان ، أترانى بعد هذا كله قد بلغت الناية عندك أو غدت مفهوماً منك ؟ أم ترانى اعتديت إلى نفسى وضلت الطريق إليك ؟

وإن أنت كنت من (القلة) ، إن كنت قد ضلت الطريق صادق الضعة .. أترانى قد استطعت أن أتبع الطريق أمامك ، وأن أفسح لك فى « المكان الشافر » للشوق إليك ، وأن ألقى النور على الطريق سلفاً يمشى بين يديك ؟ وغداً أراك على الطريق

رائع الرأس موصول الضيق بالبناء الكبير الذي تراه اليوم رأى العين وهو يتوهم ؟
أم تراه قد خرجت من « الضقة » وحدي ، كاهن الجبال أسفا ؟

وأنت يا أنسى جمال .. يا ابن شمس المريق .

أنا لا أرفع كتابي إلى « مقام السيد الرئيس .. صاحب القفلة .. جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة » لأتلقى من السيد « رئيس ديوانك » أو السيد « كبير
القشريات في مكتبك » خطاباً يرف إلى فيه أن الكتاب عرض على « للسلم
الكرمية » و « نال حسن القبول » ؟ !

أبدأ .. يا أنسى في الكفاح وإن كنت رائداً .

وأبدأ .. يا أنسى في السلاح وإن كنت قائداً .

وأبدأ .. يا أنسى في العروبة وإن كنت زعيماً .

أبدأ .. لم يحدث أن وزنك عيزان الريسة .. والهدايا مليئة بالرياسات وما أعونها
على الحقائق وما أخفها في اللوازين .

ولم يحدث أبداً .. أن نظرتنا إليك .. نظرة الشعوب إلى أجهة الملوك .. أو غفلة
الحاكين .. وأنت أحرف الناس بالعالمية والأقرام من الملوك والحكام .. وبالرموس
التي تحمل التيجان وتزدان بالذهب والماس .. وبين أيديهم تحتل الخلفاء .. بنسبهم
يمزجون سجداً .. ويمزقون ركناً .. ويلتصقون أطراف الثوب وأغلال اليد .. وفي تقويم
ما فيها .. من قنار التي تتأجج .. ومن الحقد الذي لا يهدأ .

لم يحدث أبداً أن وزنك يمثل هذه اللوازين ..

ولم يحدث أن تحدثت مع مواطن ، ولم يقل : (جمال) ولا أكثر ، كما كانوا

يقولون في صدر الإسلام (حمر) على جلاله الذي لا يظاول .

ولو أني أردت أن أضع (كتاباً) أترضى به (رئيس دولة) — ولا أقول :
(أناثق) — لو فرغت على نفسي الغنى والأسى والنعاب ، ولما خلت إليك من البداية
ومن (الباب السلطاني) الذي دخل منه أناس كثيرون ، غير عشر سنين .

وأخي .. وإبن شامي

أنا لم أضع هذا الكتاب لأستغفرك وأتوب إليك — فانت لست ربي وأنا
لست جداً .

وإنما أنت شاب من (بنى مر) ، وحلت (رسالة) تطهير وتحرير ، وحلت رسالة
عروبة ووحدة ، وحلت رسالة الثورة نقارة مظلة ، وحلت رسالة (القدوة) لكل أمة
مكافحة ، وحلت رسالة للمساواة والإخاء ، وحلت رسالة المدم والبناء ، وحلت أخيراً
رسالة السلام والحب ، لكل فقير ومظلوم ، ومتعب ..

وإنما أنا كاتب من الكتاب ، أضلوني على علم ، وكان ينبغي أن أعلم ، تفاسيحك
بغير حق وما كان ينبغي لي أن أخافهم ، وهاتني أن أراك تمشي إلى أهداف العروبة
مرفوع الرأس ثابت الخطى ، وأن يمشوا أمامي امرأة أراك فيها تمشي على يديك مقلوب
الوضع ، وعلى صورة لا تكاد تصدق ..

ودرسك ، وعرضك ، وأحييتك ، وآمنت بك ، وانتظرتك ..

انتظرتك على الطريق طويلاً .. حتى تحيى ..

وقد جئت ..

نجنتى وجئت مواليك ، وجئت العروبة كلها ، بالإطار كاملاً ، والبناء
مكاملاً ، والخطوط واضحة ، والخصائص مرسومة ، واللامع مستكشف ، و (التيقن

في يدك) والأمانة تردعا إلى شعبك ... يومها لم يكن مفر من إعلان (إيمانى) ...
ولكن كان يوزنى أنا الآخر أن أحىء ...

وجنت ، جنتك ولا أمك غير قلى ، وقلى ..

قلى المقم إيماناً بك ، ورسالتك ، ويريد أن يشهر هذا الإيمان على رموس الملأ .

و (قلى) الذى تخيله قادراً على التقاط صورة لهذا القلب بكل ما فيه ، ضمدت
إليه بالأمانة ..

وقد أداها ، والتقطها ، وعلى ورق ، وكأ تلتقط الصور .

وقد لا تكون الصورة جميلة .. لتقص في فن الصور .

ولكن اللهم فيها .. أنها أمانة .. لا تكذب .

هذه الصورة ، هى هذا الكتاب يا أنى ..

هذه الصورة هدية منى إليك ، فقبلها يا أخا كل حرى ..

وعليها بخطى وتوقيى كلمة الإهداء الشواضع : « آمنت بك » .

محمد المورى





١٦ و ١٧ شارع صبرح سمد بالقاهرة
تليفون ٢٩٣١٧

Habib Books Alexandria



0685341